موسوعة

الإسلام وقضايا العصر

(الجزء الثالث)

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
موسوعة الإسلام وقضايا العصر / تأليف: محمد عمارة. - القاهرة: شركة روابط للنشر وتقنية المعلومات/ ط1/ القاهرة: 2019م.
1134ص؛ 17×24سم
تدمـــــك: 978-977-654-379-9
رقم الإيداع: 2018/21017
1- الإسلام والحضارة 2- الإسلام والسياسة 3- الإسلام والمجتمع
أ- العنوان 214.3012

دار النشـــــر: شركة روابط للنشر وتقنية المعلومات
عنـــوان الكتـاب: موسوعة الإسلام وقضايا العصر
الـــكـــاتـــب: أ.د. محمد عمارة

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

روابط rawabt
للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology

١٩ حسن أفلاطون - بجوار مستشفى عبد القادر فهمي - أرض الجولف - مصر الجديدة.
+{202} 24178673
info@rawabtonline.com
www. rawabtonline.com

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

موسوعة

الإسلام وقضايا العصر

(الجزء الثالث)

أ.د. محمد عمارة

روابط rawabt
للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology
2019


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الجزء الثالث

الموضوع **صفحة**

الربا: خراب الديار.. وسبب الاستعمار 741

❐ تقديم 743

❐ نصوص كاشـفة عن مفهوم الربا 763

1- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي 764

2- أبو الوليد ابن رشد 766

3- الإمام ابن القيم 767

4- الإمام محمد عبده 769

5- الإمام محمد رشـيد رضا 774

6- الشـيخ عبد العزيز جاويش 779

7- الشيخ محمد الخضري 782

8- الشيخ عبد الوهاب النجار 785

9- الشيخ إسماعيل خليل 788

10- الشيخ محمد سـلامة 792

11- الشيخ دسوقي جوهري 794

12- الدكتـور توفيق صدقي 795

13- العلامة الشـيخ الدكتور/ محمد عبد الله دراز 799

14- الدكتور معروف الدواليبي 801

15- سيد قطب 805

16 - الإمام الشيخ محمود شلتوت 810

17- الإمام الشيخ محمد أبو زهرة 817

18- الدكتور عبد الرزاق السنهوري 824
19- الدكتور حسين مؤنس 826
السيرة النبوية 837
الصحوة الإسلامية 845
صراع الحضارات 853
العقلانية 899
العلمانية 911
فصل المقال في كتب الضلال 919
❐ تقديم 921
❐ تقرير عن فحص كتاب فصل الكلام في مواجهة أهل الظلام 925
❐ تقرير عن فحص كتاب فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب 932
❐ تقرير عن فحص كتاب البوذية والمسيحية والإسلام 949
❐ تقرير عن فحص كتاب فرعون الخروج - الملف الشائك وحديث الآثار . 952
❐ تقرير عن فحص كتاب الأسرار الإلهية في الكتب المقدسة 962
❐ تقرير عن فحص كتاب المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء .. 976
❐ تقرير عن فحص كتاب الصراطات المستقيمة 979
❐ تقرير عن فحص كتاب الأصول المصرية لليهودية 988
❐ تقرير عن فحص كتاب أهل الدين والديمقراطية 1009
❐ تقرير عن فحص كتاب أقلية معزولة: القصة الحديثة لأقباط مصر 1013
❐ تقرير عن فحص كتاب (مخطوط) مفهوم الإسلام بين الآبائية والقرآن ... 1018
القدس الشريف 1025
❐ القُدس والوعي بالتاريخ 1044
المنهجية 1063
المواطنة 1071

ميثاق العيش المشترك 1079
الهوية الحضارية الإسلامية: الأصالة.. والمعاصرة.. والتحديات 1085
- ❐ تحرير مضامين المصطلحات 1087
- ❐ إسلامية الهوية الثقافية..... 1089
- ❐ عروبة الهوية الثقافية 1092
- ❐ شهادات مؤيدة وداعمة 1093
- ❐ ومواقف رافضة 1098
- ❐ الهوية والقانون 1103
- ❐ الهوية الإسلامية والوطن والوطنية 1107
- ❐ الهوية والدستور 1112

وحدة الأمة الإسلامية 1115
الوسطية الإسلامية 1131
الوطن والوطنية 1141
السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة 1153

الربـا
خراب الديار .. وسبب الاستعمار

الربـا
خراب الديار .. وسبب الاستعمار

تقديم

إن نظـرة فاحصـة على واقع العالم الإسـلامي، تفصح - بكل ألسـنة الحال والمقـال - عـن أننا بـإزاء حالة من السـفه الصارخ، تسـتوجب «الحجر» بموجب القوانين الشرعية والمدنية جميعًا..

❐ فمسـاحة هذا العالم الإسـلامي 35.000.000 خمسـة وثلاثون مليون كيلو مترًا مربعًا بينما مساحة الصين 9.000.000 ك.م - أي ربع مساحة العالم الإسلامي -.

❐ وسـكان هذا العالم الإسـلامي 1.700.000.000 [مليار وسبعمائة ألف مليون نسمة] - أي قرابة ربع البشرية..

❐ والثروات الطبيعية - في العالم الإسـلامي - تجعلـه - عالميًا -: الأول في البترول، والغاز، والطاقة الشمسـية، والمنجنيز، والكروم، واليورانيوم والقصدير، والبوكسيت.. وتجعله الثاني في النحاس، والفوسفات والثالث في الحديد.. والخامس في الرصاص. والسابع في الفحم.

❐ وفي هذا العالم الإسـلامي أطـول أنهارالدينا.. وأقـدم فلاح علم الدنيا فـن الزراعة.. ومساحات الأرض الصالحة للزراعة يمكن أن تمثل سلةغذاء لعالم الجنوب.. وشواطئ المحطيات والبحار والأنهار فيها ثروة سمكية تفيض عن الحاجات..

❐ وهذا العالم الإسلامي ينتج من النفط وحده 6.278.922.524 - أي أكثر من ستة بلايين متر مكعب يوميًا.. ومن الغاز الطبيعي 616.810.568.100 بليون من الأمتار المكعبة يوميًا..

❐ ولـدى هـذا العالم الإسـلامي - الذي ينهب الغـرب ثرواته الطبيعيـة - أكبر الفوائض النقدية.. لكنه يودعها - وبالأحرى يردها - إلى البنوك الغربية.. ليعود الغرب فيقرض بعضًا من هذه الفوائض النقدية لبلاد العالم الإسـلامي، مستعمرًا إياها بهذه القروض الربوية المركبة.. حتى إن الكثير من بلاد هذا العالم الإسـلامي إنما تكد وتكدح وتشـقى لسداد فوائد الديون - وليـس ذات الديـون -!!.. أي أن هذا العالم الإسـلامي قد بلغ - في السـفه - الحد الذي باع فيه حريتـه بفوائضـه النقدية.. فدخل في لون من الرق تحدث عنه الشـيخ محمود شـلتوت [1340 - 1383م - 1893 - 1963م] عندمـا قـال: «لقد حل مكان الرق القديم رق هو أشـد خطرًا على الإنسانية، ذلكم هو استرقاق الشعوب في أفكارها وأموالها وسلطانها وحريتها في بلادها. كان ذلك رق أفراد يموت بموتهم وتبقي دولهم حرة رشـيدة لها من الأمر والأهلية ما لسـائر الأحرار الراشدين. ولكن هنا رق شعوب. وأمم تلد شعوبًا وأممًا هي في الرق كآبائهم، فهو رق عام وإثم يفرض على الأمة بقوة غاشـمة، وإذن، فـما أجدر هذا الرق بالمكافحـة، والعمل على التخلص منه، ورفع ذله عن الشعوب، لا بمال الصدقات فقط، بل بكل الأموال والأرواح».

❐ ومع هذه الثروات المادية التي يملكها العالم الإسـلامي - والتي غدت قيودًا لاسترقاقه، بـدلاً من أن تكون سـبلا لحرية ورفاهية شـعوبه - فرط هذا العالم الإسـلامي - مع الفوائض النقديـة - بالعقـول المهاجـرة - التي بلغت خسـائرها العربيـة وحدها - في تسـعينيات القرن الماضي - 11.000.000.000 [أحد عشر بليونًا من الدولار]!!.. وهو نزيف مسـتمر ومتصاعد.. فـ 54 % من الطلاب العرب الذين يدرسـون بالخـارج لا يعودون إلى بلادهـم!.. وفي إنجلترا وحدهـا 34 % من الأطباء الأكفاء عـرب! وفي الغرب 450.000 عالم وطبيب ومهندس عربي. وأضعاف هذه الأرقام من عالم الإسلام.

❐ وغير هـذه الثروات المادية والبشرية التي يمتلكها العالم الإسـلامي.. فهو يمتلك تراثًا حضاريًّا جعل من أمته العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.. بينما عمر الغرب كعالم أول لم يتعد قرنين من الزمان!.

❐ وفي العالم الإسـلامي ستة وخمسون جيشًا تسـتورد أكبر كم من السلاح الذي تصدره الدول صانعة السلاح.. على ألا توجه قطعة واحدة من هذا السلاح إلى الأعداء الحقيقيين الذين

يغتصبون الأرض و يلوثون العرض و يدنسون المقدسات!.. فهذه الجيوش قد قتلت وتقتل من شعوبها أضعاف أضعاف ما قتلت من الأعداء الحقيقيين!.

❐ وغير الضحايا الذين يسقطون مضرجين بدمائهم والمساجين والمعتقلين الذين يئنون في القبضة الوحشية لهذه الجيوش.. هناك الفقر والعوز، الذي جعل العالم الذي يمتلك أضخم الثروات المادية تتراوح نسبة البطالة بين أبنائه ما بين 35 % و50 %!.. ونسبة السكان تحت خط الفقر ما بين 50 % و70 %!..

فثروات العالم الإسلامي تدير عجلات الصناعات الغربية.. بينما البطالة تقتل الملكات والطاقات لدى الملايين في كل بلاد عالم الإسلام - التي تغلق فيها المصانع.. وتبني فيها السجون!..

❐ إن الإله الواحد الأحد الذي نعبده قد كفل للإنسان - مطلق الإنسان - منذ بدء الخليقة حقوق الغذاء والشراب والملبس والمسكن: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: 118 - 119] -.. وفلسفة الدين الذي نتدين به تؤكد على أن الأمن علي هذه الحقوق المادية هو الشرط لقيام الدين.. فصلاح الدنيا بالأمن على هذه الحقوق المادية هو الشرط لتمكن الإنسان من صلاح الدين بالمعرفة والعبادة.. وبعبارة حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [450 - 505هـ - 1085 - 1111م]: «فإن صلاح الدين لا يحصل إلا بانتظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا:

- بصحة البدن.

- وبقاء الحياة.

- وسلامة قدر الحاجات من: أ - الكسوة ب - والمسكن جـ - والأقوات د - والأمن».

ثم يستطرد حجة الإسلام فيقول: «فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية. و إلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟!».

❐ و إذا كان الله قد جعل عزة الإنسان من عزته وعزة رسوله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] -.. و إذا كان سبحانه - قد جعل الأرض - كل الأرض - للأنام.

وأنعم على أمة الإسلام بالثروات المادية والمعنوية التي تحقق لها سعادة الدنيا والآخرة.. و إذا كان - سبحانه - لا يرضى لعباده الكفر.. فإنه لا يرضي لهم الفقر الذي هو قرين الكفر.. فإن تراث الإسلام قد جعل للمواطنة مضمونًا اجتماعيًا: «إن الغني في الغربة وطن.. و إن الفقر في الوطن غربة.. وما جاع فقير إلا بما متع به غني.. و إن الله سائلهم عن ذلك»..

ولتحقيق المضمون الاجتماعي، قال الإمام ابن حزم الأندلسي [384 - 456هـ - 994 - 1064م]: «وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تعتم الزكوات بهم.. فيقام بهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميته. أو لحم خنزير وهو يجد طعامًا ما فيه فضل عن صاحبه.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلي قاتله [الدية]، و إن قتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه مانع حقًا، وهو طائفة باغية.. ومانع الحق على أخيه الذي له الحق».

❐❐❐

إن معظم ثروات العالم الإسلامي مركزه في باطن أرض هذا العالم.. والإسلام يفرض فيما يستخرج من هذه «الركاز» الخمس - 20 % -.. ورسول الله ﷺ يقول: «فيما خرج من الأرض الخمس» - رواه الإمام أحمد -.

وتستطيع الأمة المسلمة - إذا امتلكت الإرادة والإدارة والاستقلال السياسي والحضاري - أن ترصد زكاة الركاز - أي خمس قيمة المستخرج من البترول والغاز واليورانيوم والفوسفات والحديد والفحم والبوكسيت والمنجنيز والقصدير والنحاس والرصاص والذهب والفضة.. إلخ.. إلخ.. - في صندوق للتنمية الاقتصادية الشاملة لأوطان الأمة.. على أن يراعي في أولويات التنمية، بمختلف الأقطار، البدء بتحقيق الكفاية في الضرورات.. فالحاجات.. فالتحسينات والكماليات.

وبصندوق التنمية هذا، تتحقق العدالة في الإسهام بين كل أقطار الأمة، وفق ما يستخرج من أرضها.. والعدالة في التنمية، وفق سلم الضرورات فالحاجيات فالتحسينات والكماليات..

وبـه - كذلـك - تتحرر الأمة مـن رق الديون الخارجية، ورق الفوائـد الربوية المركبة - وهي استعمار جديد - يرهن موارد الأمة و إرادتها وحرية قرارها وكرامتها لدى الدائنين!..

وبهذا المصدر للتنمية الاجتماعية والاقتصادية الشـاملة يزدهر عمراننا الدنيوي، ونرجو ثواب الله ورضوانه - بإقامة شريعته - يوم الدين!.

بل إن هذا «الحل الإسـلامي» الذي يحقق تكافل الأمة وعزتها والذي يحقق انتماء المسـلم حقًـا لوطنه، هو الذي يحقق - كذلك - انتماء هذا المسـلم لخالق الأموال والثروات، الذي أنعم بها على الإنسـان وسـخرها لسـعادة الناس أجمعين.. ففي الحديث النبـوي الشريف: **«أيما أهل عرصة - [مكان] - بات فيهم امرؤ جائع وهم يعلمون فقد برئت منهم ذمة الله»** - رواه الإمام أحمـد - وحتى نكون في ذمة الله وعهده ومحبته ورضاه لا بد من إنقاذ الأمة من العوز والحاجة والفقر الذي يحول بينها وبين إقامة الدين!.

❐ إن توظيـف الثروات الإسـلامية - بالـزكاة - لتنمية عالم الإسـلام، هو الذي يعتق رقاب المسلمين من رق الديون ذات الفوائد الربوية المركبة والفاحشة.. ولقد أدرك عقلاء الغرب أن المصرفية الإسـلامية اللاربوية هي الحل لأزمة الرأسـمالية الغربية المتوحشة.. فكتبت المجلة الفرنسـية الأسـبوعية [التحديـات] Challenges تقـول: «إنه في حين يمر العـالم بأزمـة مالية تجتـاح جميع معالم النمـو في طريقها، يجـب علينا قـراءة القرآن بدل نصـوص البابويـة. ولو طبق رجال البنـوك الطامعون بالمردود على الأمـوال الخاصة - ولو قليلًا - الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال»، فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه».

وعلى ذات الدرب. كتبت صحيفة الفاتيكان الرسـمية - [أو سـيرفاتور رومانو] - تقريرًا قالـت فيـه: «إن التعليمات الأخلاقيـة التي ترتكز عليها المالية الإسـلامية قـد تقوم بتقريب البنـوك إلى عملائها بشـكل أكثر من ذي قبل، فضلًا عن أن هـذه المبادئ قد تجعل هذه البنوك تتحلى بالروح الحقيقية المفترض وجودها بين كل مؤسسة تقدم خدمات مالية.. إن موافقة البابا على تطبيق مصارفنا بعض مبادئ المالية الإسـلامية قد يخفف حدة الأصوات اليمينية المتشددة، ولا سيما في الولايات المتحدة، التي تطالب بإطفاء بريق الصيرفة الإسلامية عبر ربطها بتمويل

ما يسمى «الإرهاب».. وإن قرار البابا هذا سيزيد من توعية اتباع الديانة الكاثوليكية بالمالية الإسلامية بشكل خاص، وبالدين الإسلامي بشكل عام»..

❐ إن لدينا الكنوز المادية الكفيلة بتحقيق رخاء عالم الإسلام.. ولدينا الحلول الإسلامية لتنمية هذا العالم الإسلامي بالحلال.. ولتقديم هذه الحلول الإسلامية لهداية العالمين.

❐❐❐

❐ إن أكبر ثلاث تجارات في عالم الرأسمالية الربوية الغربية المتوحشة هي:

1- تجارة السلاح.. الذي تباد به ملايين البشر - في الحروب العالمية والمحلية -..

2- وتجارة المخدرات.. التي تدمر العقول.. وتخدر الشعوب..

3- وتجارة الدعارة - في النساء والأطفال - والتي يبلغ عائدها - في الأطفال وحدهم - وفي أمريكا وحدها ملياري دولار سنويًا!..

❐ وإن 90 % من العقول والأبحاث العلمية - عل نطاق العالم الغربي - موظفة - بشكل مباشر أو غير مباشر. في خدمة الصناعات الحربية!.

❐ وأكثر من 95 % من رأس المال العالمي - في النظام الرأسمالي الربوي - موظف في المضاربات والسمسرة، بحثًا عن الربح السريع والأعلي - وليس في الإنتاج والخدمات - وذلك لانخفاض القوة الشرائية لأغلبية سكان العالم!.

❐ وإن الشركات متعددة الجنسيات والعابرة للقارات.. والمجتاحة للسيادة في الدول الوطنية والقومية، تقترض الدولارات بفائدة 6 % لتقرضها لدول الجنوب بالفائدة المركبة التي تتراوح بين 20 % و50 %.. الأمر الذي جعل الكثير من الدول المدينة - في عالم الجنوب - عاجزة عن سداد فوائد الديون - مجرد الفوائد تزيد التي قيمتها أحيانًا عن قيمة صادرات تلك الدول!..

الأمر الذي يستوجب علي عالم الإسلام - كي يكون إسلاميًا حقًا - الخروج من عموم هذه البلوى، وذلك بإقامة سوقه الاقتصادية المشتركة، وكتلته الاقتصادية، التي تطبق فلسفة الإسلام في الثروات والأموال.. وتسلك الطريق اللاربوي في تنمية هذه الثروات والأموال..

❐ لقد استعمرت أوروبا القارة السمراء - إفريقيا - خمسة قرون.. اعتصرت فيه ثروات القارة وخيراتها كما تعصر الليمونة.. ثم ألقت بها إلى النخبة السياسية والثقافية التي صنعها الاستعمار على عينه.. فلما حكمت هذه النخبة واصلت طريق التبعية للمركز الحضاري الغربي.. وغدت القروض الربوية هي الغواية الجديدة التي ترهن ثروات إفريقيا وخيراتها.. كما كان «الخرز» هو الغواية التي بدأ بها الاستعمار نهب هذه الثروات والخيرات في الزمن القديم!!..

وهذه الحالة البائسة التي قامت في إفريقيا هي ذاتها القائمة في كل عالم الجنوب - وفي المقدمة منه وطن العروبة وعالم الإسلام -..

❐ وإذا نحن نظرنا إلى تجارب التاريخ.. وعبرة هذا التاريخ.. فإننا واجدون أن السبيل إلى التحرر والتقدم والنهوض لا بد أن يبدأ أولًا بتحقيق «الاستقلال الفكري»، الذي يعتق الأمم والشعوب من التبعية لمراكز الهيمنة والاستلاب - ثم يأتي - بعد «الاستقلال الفكري» - «الاستقلال الاقتصادي» - الذي يحرر ثروات الأمة من النهب الإمبريالي، ويحرر مؤسساتنا الاقتصادية من قيود مؤسسات الهيمنة التي تسترق بلادنا بالتبعية الاقتصادية للغرب الإمبريالي.

لقد كان «التوحيد» - عند ظهور الإسلام - هو المحقق للاستقلال الفكري، الذي حرر المسلمين الأوائل من عبادة الطواغيت.. فكانت العبودية لله وحده قمة الحرية والتحرير للإنسان - التي فجرت فيه الملكات والطاقات..

فلما أقام هؤلاء الأحرار الدولة، أنشأوا السوق التي حررت اقتصاد المدنية المنورة من سيطرة اليهود.. ثم جاء إحياء الأرض الموات - فتحقق الاستقلال الاقتصادي - الذي جسد الاستقلال الفكري في واقع الممارسة والتطبيق.

❐❐❐

❐ إن بلدا كمصر - التي كانت دائنة لإنجلترا قبل سنة 1952م. والتي كانت قيمة عملتها - الجنيه المصري - أعلى من قيمة الجنيه الإسترليني والجنيه الذهب - قد أصبح دينها الخارجي

- بسبب القروض الربوية - نهاية سنة 2016م - 37.3 ملياراً من الدولارات - بزيادة 40.8 % عن العام الماضي - أي 37.6 % من الناتج المحلي فيها!.. وأصبح دينها الداخلي 3.052 تريليون جنيه!.. بزيادة 28.9 % عن العام الماضي.. أي أن كل مواطن مصري - بمن فيهم نصف سكانها الذين يعيشون تحت خط الفقر - عليه 691.9 دولاراً للدين الخارجي - أي 13.000 جنيه!!..

وعلى مصر أن تسدد - للخارج - 12.9 مليار دولار سنة 2018م وحدها..

وليس هناك سقف لهذا الخراب وهذه الكارثة، ولاقاع لهذه الهاوية.. فصندوق النقد الدولي يتوقع ارتفاع الدين الخارجي لمصر سنة 2020 - 2021م إلى 102.4 مليار دولار.. فالمديونية تتزايد بنسبة 13 % كل عام. مع تزايد فوائد هذه الديون!.[1].. الأمر الذي يوجب على العقلاء استحضار عبر التاريخ الحديث، الذي رزحنا فيه تحت أغلال الاستعمار لعشرات السنين بسبب القروض الربوية. وأن نستحضر - مع عبر هذا التاريخ - الموقف الإسلامي الذي جعل التحرر من الربا طريقًا إلى تحرير الإنسان والأوطان من رق العبودية لغير الله.

❐ إن عموم الربا - الذي يسترق به الغرب الإمبريالي الأمم والشعوب - يدعونا إلى إخراج هذا المبحث من النطاق الفردي الذي كان يدور حوله الخلاف في دوائر فقهية سبق وتجادلت حوله، إلى ما أصبحت عليه هذه القضية: **استعمار الشمال للجنوب، واسترقاق الأمة الإسلامية لدى مؤسسات الربا المركب والفاحش للرأسمالية الغربية المتوحشة.. مؤسسات نخاسة الرق الجديد!..**

❐ إن الاقتصاد الربوي هو الاقتصاد الطفيلي الذي يسترق الناس عن طريق التجارة في النقود. عوضًا عن جعل النقود بدلًا من المنافع وسبلا للإنتاج.. وهذا ما أعلن تحريمه الإسلام.. وأجمع على تحريمه كل علماء الإسلام..

❐❐❐

لقد قال كبار علماء الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية - عبر تاريخنا الحضاري - القول الفصل في الربا.. وهو ما يجب استحضاره و إعلانه و إذاعته في هذا الواقع الذي يهدد فيه الربا وجود المسلمين.. وعلي سبيل المثال:

(1) صحيفة [الشروق] في 3 - 4 - 2013م. وصحيفة [المصري اليوم] في 7 - 4 - 2017م.

❐ قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده:

«إن الربا حرم لأنه ظلم - وحرم لأنه استغلال الضرورة.. ولأنه استغلال الغني حاجة المعوز في أكل ماله بلا مقابل.. ولقد أحل البيع لأن فيه عوضا يقابل عوضًا، وحرم الربا لأنه زيادة لا مقابل لها..

ولقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها، فكانت خير مدنية في زمنها، فما شرعه الإسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة، وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا..

ولو وجد للإسلام دولة قوية وأمم عزيزة تقيم الشرع وتهتدي بهدي القرآن لأمكنها الاستغناء عن الربا..

إن مسألة الربا ليست مدنية محضة، بل هي دينية أيضًا..

إن أوروبا نجحت في تحرير الناس من الرق، لكنها غفلت عن رفع نير الدينار عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يومًا ما».

❐ وقال الشيخ محمد الخضري:

«إن ما يفعل الآن من المعاملات في البنوك من إعطاء المائة بمائة وعشرة مثلًا إلى أجل هو ربا النسيئة، محرم شرعًا بالكتاب والسنة والإجماع، لأن هناك زيادة قابلت أجلا في أحد النقدين.

وأما حديث الأضعاف المضاعفة - في آية آل عمران - فإنما يراد به أن الدين قد يصير أضعافًا مضاعفة إذا توالت عليه الآجال.

ومما يقطع قول كل خطيب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]، فجعل لهم إن هم تابوا رؤوس الأموال فحسب، ولم يزدهم عليها لا قليلًا ولا كثيرًا..

ولا يغيب عنا، ما كنا مبتلين به منذ زمن ليس بطويل من مداينات الأروام واليهود للفلاحين في القرى، فإن الربا كان يضاعف الدين مع توالي الآجال حتى لا يبقي للمدين شيئًا.

والشارع يريد أن تكون الثروة متبادلة بين الأمة كافة، غنيها وفقيرها، لهذا أقفل باب الربا وحرمه بتاتًا، قليله وكثيره».

□ وقال الشيخ عبد الوهاب النجار:

«لقد أقام هذا الدين تلكم المدنية الضخمة والارتقاء العريض والدين غض والربا ممنوع.

إن الأزمة الحالية إنما هي نتيجة من نتائج الربا. **إن إباحة السرقة وقطع الطريق أخف على عباد الله من المعاملة بالربا.. لأن السلبة وقطاع الطريق واللصوص والمجتاحين لا يسلبون من عباد الله في القطر المصري ربع ما يسلبه المرابون.. وإن أربعة من هؤلاء المرابين لأشد على الأمة من جيش محارب يغلبها على أمرها.**

إن العمل على طريقة المضاربة وتأليف الشركات أرفق بمصالح الناس ويبعد بهم عن أخلاق الشر التي تكون نابتة في نفوس من يتعاملون بالربا.

وإني أنصح للذين يتسقطون الكلمات من أفواه العلماء لإحلال الربا أن يتربصوا حتى يرسل إليهم نبي ضلالة، وينزل عليه قرآن جهاله.. أما القرآن الذي جاء به محمد بن عبد الله فقد حال بينهم وبين ما يشتهون».

□ وقال الشيخ إسماعيل خليل:

«إذا كان بعض الناس قد يرى في الربا شيئًا من المنافع، كتفريج الكرب عن المحتاجين وقت الحاجة، وكالمساعدة على انتشار التجارة بين طبقات الأمم.. فلا يخفى على أحد أنه مقتلة الفقير، ومستنزف ثروة الكثير، ومولد الأحقاد، والمسهل لانتشار أنواع الفساد، **وهو الداعية لحصر الثروة في طبقة من الطبقات ترى نفسها القابضة على زمام العالم، المحركة للفلك الأعظم..**

لقد أصبح المرابون هم القابضين على أزمة الحكومات، المالكين لها في الحقيقة، لهم عليها اليد العالية، والكلمة النافذة، والحقوق الثابتة، والأوامر المطاعة..

إن الفرق بين البيع والربا في الحقيقة هو أن البيع مظنة التراضي، بخلاف الربا فإنه لا يقدم عليه الإنسان في الغالب إلا عند الحاجة، ففيه شبهة الإكراه والإلجاء..

وليست جميع معاملات البنوك من أنواع الربا، وإنما المعاملة المحرمة عندهم بلا شك هي القروض بالربا».

□ وقال الشيخ محمد سلامة:

«إن عدوى الربا هي عدوي زهرية آتية من الغرب، سرت في شرايين أغلب المصريين حتى ذهبت بأغلب ثروتهم.. ومع أن الغربيين ليسوا على وفاق في حل الربا، بل قال بعضهم بعدم جوازه، كما هو منصوص عليه في كتاب [تاريخ الاقتصاد الاجتماعي] تأليف العلامة «جيرار» الأستاذ بكلية جنيف. فقد بين فيه **إن مذهب تحريم الربا يحتج بأن النقود ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة مبادلة للحصول على ما تسد به الحاجة.**

وقد ألف في تحريم الربا كثير من علماء الغرب.

وسنسمع لأنين الربا ضجة كما سمعنا في استعمال الخمر وأكل لحم الخنزير..

ويا حبذا لو اجتمع سراتنا وعقدوا الخناصر علي إيجاد مصرف عظيم كافل بحاجات الأمة، تجري فيه الأعمال على وفق النصوص الشرعية، مثل المضاربة والحوالة، بأجر، وغير ذلك».

□ وقال الشيخ دسوقي جوهري:

«ما هي تلك المدنية التي يريدون أن نُرجع ديننا إليها، وقد عرفنا منها ما عرفنا؟!.

أليس في إرجاع المدنية الحاضرة إلى الدين الإسلامي مدنية أخرى لا تدانيها تلك المدنية، بل الوحشية؟!.

أظن أن تاريخ الإسلام والمسلمين في العصور الأولى يشهد بهذا».

□ وقال الدكتور توفيق صدقي:

«إن الربا هو استغلال الغني حاجة الفقير..

ومن أخذ مالًا لاستغلاله، على أن يعطي صاحبه جزءًا من ربحه منه فلا يسمي ذلك عند العرب (ربا) وإنما هو مضاربة.

وقـول الفقهـاء بوجوب عدم تعيين قدر الربح فيها لا دليل لهـم عليه، و إلا فليأتوا ببرهان إن كانوا صادقين.

وأي فرق بين تعيين قدر الربح في المضاربة وبين تعيينه في حالة من أعطيته أرضًا لزراعتها على أن يعطيك سـنويً قدرًا مـن النقود اتفقتما عليه ففي كلا الحالتـين، لا يمكن لمن تعامله أن يضمن ربحه ولا أن يعرف قدره باليقين.

يقولـون بحل تعيين قدر الريح في حالة الزراعة، وبتحريمـه في حالة المضاربة، مع أنه لا فرق في الحقيقة بين الحالتين. أما الفرق الذي يذكرونه في أن المال في المضاربة يجب اسـتهلاكه قبل اسـتغلاله، بخلاف الأرض التي تؤجر للزراعة فلا يمكن استهلاكها، فهو فرق لا يفسر لنا صريحًا الحكمة في إباحة قدر الريح في الزراعة دون المضاربة مع استواء الاثنين في عدم قدرة أحد على الجزم بالربح في أيهما، ولا بقدره فيهما.

وكـون المـال قابلًا للضيـاع دون الأرض لا دخل لـه أيضًا في معرفة الربـح وقدره إذا لم يضـع المـال.. فالمضارب بما لـه إذًا مخاطر به، بخلاف الذي يؤجر أرضـه لزراعتها فإنه آمـن مطمئن عليها، فإذا أبيح لمن يؤجر أرضه لغـيره أن يأخذ منه مالًا معينًا عليها كان من يضـارب بماله أولى بأن يعـين قدر الربح على من يضاربه، لأن ماله على شـفا الخطر، و إذا صح أن يكون جواز ضياع المال علة لتحريم تأجيره فلم لا يحرم تأجير الدواب وهي أكثر تعرضًـا للضياع والفقر من المال؟ واسـتهلاك عين المال لا يطعـن في كون قيمته باقية عند مـن تضاربه، وهي التي يسـتغلها و يربح منها، فأي ضرر في مشـاركتك له في الربح الذي يربحه من مالك؟».

❐ **وقال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز:**

«لقد دخل الإذن بالربا في التشريع - بالبلاد الإسلامية - تحت ضغط السلطات الأوروبية - المحتلة للأقطار الإسلامية -..

وليـس هنـاك دليل على أن كلمـة الأضعاف المضاعفة شرط لا بد منـه في التحريم، إذ من الجائـز أن يكـون ذلك عنايـة بذم نوع من الربا الفاحـش الذي بلغ مبلغًا فاضحًا من الشـذوذ

في المعاملات الإنسانية، من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التي تقل عنه في الشذوذ.

إن المفهوم من كلمة الربا: كل زيادة على رأس المال.. أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوروبي حديث..

إن مجرد تقدير ربح مضمون لرب المال، دون أن يكون في مقابل ذلك ضمان ربح للمقترض، فيه ما فيه من محاباة للمال، و إيثار له على العمل.. وفي ذلك توسيع الهوة بين طبقات الشعب، بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة، بدلًا من أن نشجع المساواة في الفرص بين الجميع، وأن نقارب بين مستوى الأمة، حتى يكون أميل إلى التجانس، وأقرب إلى الوحدة..

إن اللمحة البارزة في التشريع القرآني هو الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح.. إنها لكلمات قصيرة، ولكنها ذات مدى بعيد، تلك التي يرسم فيها القرآن الكريم دستور هذه السياسة، حيث يقول: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7]..

إن مسألة الربا هي من الشئون التي ينبغي أن يتداعي لها طوائف من الخبراء في التشريع والسياسة والاقتصاد من كل جانب، وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلة».

❐ وقال الدكتور معروف الدواليبي:

«إن الربا المجمع على تحريمه بلا شك هو ربا النسيئة الذي كان معمولًا به في الجاهلية.. أما ربا الفضل فقد حرم سدًا للذريعة، وما كان كذلك فيجوز (للمصلحة)، كما قال به العلامة ابن القيم، والسيد رشيد رضا في فتاواه.

و إن الحكمة في تحريم الربا هي (إزالة الظلم) عملا بنص القرآن الكريم، والمحافظة على فضيلة التراحم والتعاون بين الأفراد والجماعات، وأن لا يستغل الغني حاجة أخيه الفقير.

و إن خصائص المعاملات المصرفية - شيء جديد لا يخضع حكمه للنصوص القطعية في (الربا القرآني) المحرم. وأرى تكييف معاملات المصارف في حالتي الإيداع والإسلاف على

أساس أحكام الشريعة في المضاربة والقراض، وذلك بإصدار مادة نظامية قانونية واحدة ذات ثلاث فقرات، كما يلي:

أولًا: لا يسمح للمصارف بقبول الودائع وإعطاء السلف للشركات ورجال الأعمال إلا على أساس أحكام المضاربة الشرعية.

ثانيًا: تتعهد المصارف في هذه الأحوال، وكذلك المستلفون بكفالة حد معين من الأرباح من قبل المصارف أولًا للمودعين، وكذلك من قبل المستلفين ثانيًا للمصارف.

ثالثًا: يخضع هذا الحد من الأرباح في كلا الحالتين إلى الزيادة والنقص من وقت لآخر تبعًا لظروف الأوضاع الاقتصادية وللأرباح المنتظرة فيها».

❐ **وقال الأستاذ سيد قطب:**

«إن الكارثة التي تمت في العصر الحديث والتي فاقت بشاعتها صورتها الجاهلية، قد جعلت لمؤسسي المصارف العصرية سلطة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها فوجهوا الإعلام لإنشاء عقلية عامة بين الجماهير المساكين الذين يأكل هؤلاء المرابون عظامهم ولحومهم ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي، توحي الإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول..

إن النظام الربوي يصطدم مع قواعد التصور الإيماني القائم على الأخلاق.. وهو نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة.. ولقد تنبه إلى ذلك عدد من أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم.. فقال دكتور «شاخت» [1877 - 1970م] مدير بنك الرايخ الألماني سابقًا - في محاضرة له بدمشق سنة 1953م: **«إنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جدًا من المرابين. ذلك أن الدائن المرابي يربح دائمًا في كل عملية، بينما المدين معرض للربح والخسارة. ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد - بالحساب الرياضي - أن يصير إلى الذي يربح دائمًا! وإن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل، فإن معظم مال الأرض الآن يملكه - ملكًا حقيقيًا - بضعة ألوف!.. أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك والعمال، وغيرهم، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف»!.**

إن لتنمية المال وسائل نظيفة.. منها الجهد الفردي، والمشاركة على طريقة المضاربة، والشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق، بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح، وإيداع الأموال في المصارف بدون فائدة لتسهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مع مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت.. وللمصارف أن تتناول قدرًا معينًا من الأجر نظير إدراتها لهذه الأموال».

❐ **وقال الشيخ محمود شلتوت:**

«إن الربا هو استغلال حاجة المحتاج لزيادة المال والثراء.. وللإسلام في تحريم الربا نظرة ترجع إلى الجانب الخلقي - قيام المجتمع على التراحم والتعاون، ونظرة ترجع إلى الجانب الاقتصادي العملي - منع الكسالي من العيش عالة على غيرهم، والكسب دون عمل -.

وإن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة، وتخريجها على أساس فقهي إسلامي ليعرفوا بالتجديد وعمق التفكير، يحاولون أن يجدوا تخريجًا للمعاملات الربوية التي يقع التعامل بها في المصارف أو صناديق التوفير أو السندات الحكومية أو نحوها. ويلتمسون السبيل إلى ذلك، فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَٰعَفَةً﴾.. وهذا قول باطل، لأن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله: [أضعافا مضاعفة» توبيخا لهم على ما كانوا يفعلون، وإبرازًا لفعلهم السيئ، وتشهيرًا به.. وقد جاء النهي في غير هذا الموضع مطلقًا صريحًا، ووعد الله بمحق الربا قل أو كثر، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهده، كما جاء في الآثار، وآذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله، واعتبره من الظلم الممقوت، وكل ذلك ذكر فيه الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير.

ومنهم من يعتبره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة، ويقول: مادام إصلاح الأمة في الناحية الاقتصادية متوقفًا على أن نتعامل بالربا، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم، فقد دخلت بذلك في قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات».

وهذا أيضا مغالطة، فصلاح الأمة لا يوقف على هذا التعامل، وإن الأمر فيه إنما هو وهم من الأوهام، وضعف أمام النظم التي يسير عليها الغالبون الأقوياء.

إن للكسب موارد طبيعية هي الأساس والفطرة. كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات المساهمة والتعاونية.

وإن النظم الرأسمالية التي يتشدقون بها ويأخذون على الإسلام عدم مجاراته لها، قد صارت الآن موضع الشك والتزلزل عند أهلها والمتعاملين بها.. أفلا يجدر بنا - معشر المسلمين - أن نحفف من حماستنا لها، ومن ثقتنا بها؟!..

ولو كان للإسلام اليوم دولة قوية لكان تشريعه هو المتبع، ولكان للأمم والشعوب من الوسائل الاقتصادية العملية ما يغنيهم عن الربا وغير الربا بما حرمه الإسلام..».

❐ وقال الشيخ محمد أبو زهرة:

«إن الربا حرام لأنه ظلم.. ولقد نهي «سولون» [640 - 558ق.م] - الذي وضع قانون أثينا - عن الربا.. ونهي «أفلاطون» [427 - 347ق.م] - في كتاب [القانون] - عن الربا.. واعتبر «أرسطو» [384 - 322 ق.م] - في كتاب [السياسة] - الفائدة أيًّا كان مقدارها كسبًا غير طبيعي، لأن مؤداها أن يكون النقد وحده منتجًا غلة من غير أن يشترك صاحبه في أي عمل، أو يتحمل تبعة.. «فالنقد لا يلد نقدًا.. لأنه مقياس لقيم الأشياء، والمقياس لا يكون سلعة يتجر فيها، إذ يجب أن يكون مضبوطًا غير قابل للتغيير»..

ولقد حرمت النصرانية الربا تحريمًا قاطعًا مانعًا.. ولم يكتف «لوثر» [1483 - 1546م] - في رسالته عن [التجارة والربا] - بتحريم الفائدة قلت أو كثرت، بل حرم كل العقود التجارية التي تؤدي إلى الربا..

وحتى «آدم سميث» [1723 - 1790م] فإنه استحسن الإقلال من فوائد الديون..

أما اليهود - الذين استولوا على عرش الاقتصاد وسيطروا عليه - فلقد حولوا العالم إلى عالم ربوي قد طغى فيه رأس المال طغيانًا شديدًا..

والإسلام نظام اقتصادي قوامه تحريم الفائدة في الديون ما لم تكن ثم شركة منظمة في المغنم والمغرم..

والربا الذي اشتمل القرآن على تحريمه كان معروفًا عند العرب.. أما الربا الذي بينته السنة - وهو ربا البيوع - فهو اصطلاح إسلامي، ولم يكن معروفًا عند العرب، فتحريمه من النظم الاقتصادية الإسلامية. وتسميته ربا اصطلاح إسلامي خالص..

وقد وجد من علماء الصحابة من لم يعتبر من الربا إلا ربا القرآن الكريم، وهو ربا النسيئة.. إن ربا البيوع الذي جاء تحريمه بالنسبة كان موضع خلاف، أما ربا النسيئة الذي كان تحريمه بالقرآن فلا خلاف فيه قط..

وإن أناسًا في عصرنا قد تأثروا بتلك الحضارة الربوية التي قبست نظمها المالية من اليهود وكان تأثر هؤلاء الناس بتلك الحضارة سببًا في أن حاولوا تأويل القرآن ليخضع لهم، ومنهم علماء يتسمون بسمة الدين، ومنهم رجال مال واقتصاد فهموا أن النظام الربوي ضرورة اقتصادية لا مناص منها، فاندفع هؤلاء وهؤلاء إلى نصوص القرآن الكريم يغيرون عليها بضرب من التأويل، وإن شئت أن تسميها عبثًا بمعاني القرآن الكريم فسمها، وإن شئت أن تسميها إفسادًا في اللغة فسمها غير متحرج ولا متأثم..

لقد ادعوا على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أنه أباح ربا المصارف أو ما يشبهه.. ولكنا قد بحثنا عن قول معين في ذلك فلم نجد فيه قولًا..

ومال تلميذه السيد رشيد رضا إلى إقرار بعض ربا المصارف، ولكنه حاول وداور، ولم يغنه ذلك فتيلا..

إن الإسلام في تحريمه الربا يقصد إلى بناء اقتصادي فاضل يقرر أن رأس المال لا يعمل وحده.

والربا الذي حرمه القرآن الكريم هو زيادة في نظير الأجل سواء أكان القرض للاستهلاك أم كان القرض للاستغلال. وربا الجاهلية، كما تثبته الوقائع التاريخية وحال العرب، كان كله أوجله في القروض الاستغلالية.

وإن الشريعة الإسلامية قد احترمت رأس المال، واحترمت العمل، وجعلت على الكسب تبعات وتكليفات، ولم تجعله غنمًا لا مغرم فيه، ولذلك حرمت الربا لأنه يجعل للشخص كسبًا من غير تعرض للخسارة قط، ومن غير عمل قط..

وإن الداهية الكارثة أن بعض الذين يتسمون بسمة العلماء في الإسلام، ولهم قول مسموع فيه، ومن الناس من يتبعهم، يحلون فوائد المصارف على أنها لا يحرمها الدين، ولا تدخل في عموم كلمة الربا الواردة في القرآن الكريم. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير.

وليس تحريم الربا للمروءة والأخلاق.. وإنما تحريمه للمصلحة، أو بعبارة أدق، للتخفيف من طغيان رأس المال طغيانًا مطلقًا.

ولو أن صاحب رأس المال أسهم في شركات صناعية وزراعية أو نحوها ابتداءً، لكان في ذلك تقوية للإنتاج مباشرة بالاشتراك فيه، بدل أن يقرضه بفائدة يسيرة ثم يقرضه الآخر بفائدة أكبر وهكذا.

وإذا كانت الحكومات في العصر الحاضر تحارب الإقطاع بكل أنواعه فإن العدول عن زيادة الأسهم إلى إصدار سندات ليس إلا من قبيل الإقطاع لرأس المال في الشركة.. ومنع الغير من الاشتراك تجب محاربته.. ».

❐ **وقال الدكتور عبد الرزاق السنهوري:**

«إن الحاجة إلى الفائدة لا تقوم إلا في نظام رأسمالي، كالنظام القائم، فإذا تغير هذا النظام - ويبدو أنه في سبيله إلى التغير وأصبح نظامًا اشتراكيًا، رؤوس الأموال فيه بيد الدولة لا بيد الأفراد، عند ذلك يعاد النظر في تقدير الحاجة، فقد لا تقوم الحاجة في ظل النظام الاشتراكي، فيعود الربا إلى أصل التحريم.. **فتحريم الربا أصل من أصول الشرائع، تحجبه الحاجة، فإذا ما ارتفعت عاد إلى الظهور**..».

❐ **وقال الدكتورحسين مؤنس:**

«إن المفاسد كلها ناتجة من سيطرة المال على المجتمع الغربي، والمال في الغرب قائم كله على الربا، الذي حرمه القرآن الكريم تحريمًا تامًا. والاقتصاد الغربي أساسه كله الربا والمتاجرة العنيفة بالمال، أي اعتباره سلعة تباع وتشترى، ولا جناح في الكسب منها وهذا محرم في الإسلام.

إن الله سبحانه حرم الربا لأنه استغلال لحاجات الناس ساعة الضيق أولاً، ثم لأنه كسب دون عمل، فإن المرابي يحل لنفسه أن يدع أمواله تربو في أموال الناس وهو قاعد مرتاح.

إن المال كله لله، والإنسان مرتفق أي منتفع.. وسياسة المال في الإسلام جانب من النظرية الأخلاقية الإسلامية العامة..

و إن الربـا والقروض والاسـتعمار كلها شيء واحد.. و إنجلـترا بعد أن قضت على التمرد الإسـلامي في الهند سـنة 1858م أعلنت الحرب على الإسـلام الهندي، لأن الإسلام يحـرم الربـا و يدينـه.. **ولقـد كان صناع السـلاح وتجـاره ومازالـوا - أحـلاف المرابين والاستعماريين..**

والديون اليوم جزء من الصراع السـياسي الدولي، وهي سـلاح من أسـلحة الاسـتعمار.. إن من العار أن يطعمنا غيرنا ونحن رجال لنا أجسـام وسـواعد، وبشر لهم عقول. **أتدري لماذا يطعم الإنسـان دابتـه؟ لكي يأكلها أو يركبها أو يعيش على خيراتهـا، ولمثل هذا تطعم أمة أمة، أو تقـرض أمة أمـة.. ولقد دلتنا التجـارب التاريخية على أن الدين طريق مؤكـد للذل والتبعية والاستعمار..**

وعندما أري في التليفزيون كبار رجالنا يوقعون اتفاقات القروض كل يوم، أشعر أننا نزداد غرقًـا في بحر الربا.. وأننا متجهون بالفعل نحو كارثة مالية تشـبه تلك التي وضعت في أعناقنا نير الاسـتعمار في أواخر أيام الخديو إسماعيل [1245 - 1312هـ - 1830 - 1895م] وأوائل أيام توفيق [1269 - 1309هـ - 1852 - 1892م] **لأن القروض لا بد أن تسـدد، وما لا نسدده بالعملة نسدده بالتنازل عن جانب من الكرامة أو القيمة المعنوية..**

والدول الكبرى تأخذ دائمًا أمام الصغرى صورة «شـايلوك» الجبار القاسي من «أنطونيو» السـاذج الحسـن الظن. الذي كاد يفقد حياته لولا دفاع حبيبته الذكية «يورشيا» عنه وذلك في مسرحية [تاجر البندقية] لوليم شكسـبير [1564 - 1616م] - وهي مسرحية حكم عليها اليهود بالموت لأسباب معروفة -.

إن المرابي يدخل دائمًا في أعقاب المستعمر، لن الاستعمار في ذاته ربا فاحش..

و إن الاستدانة في صميمها تسول مشروط بالالتزام بالسداد بعد أجل مضروب.

يجب أن نعمل على أسـاس أن العالم الإسلامي وطن واحد متكامل اقتصاديًّا، وما لا يوجد

في مصر يوجد في السودان، وما لا يوجد في السودان يوجد في سوريا. وإذا كانت السياسة تعرف الحدود بين بلاد الوطن الإسلامي، فإن الإسلام لا يعترف بهذه الحدود، فالمسلمون أمة واحدة، ومال المسلمين مال واحد.

إنه ينبغي ألا تخلو مدينة عربية أو إسلامية كبيرة أو صغيرة من مؤسسة مالية حتى يتجمع المال في أوعية عامة تغطي العالم الإسلامي كله، ونستطيع بعد ذلك الانطلاق للعمل الكبير من قاعدة إسلامية شاملة.. وإن شبكات المؤسسات الإسلامية العامة ستكون رابطة إنسانية إسلامية تخفف الكثير من الحساسيات القومية والمحلية التي ابتلي بها العالم الإسلامي نتيجة لدسائس الغرب وتدبيراته الخافية والمعلنة..

إنك لا تستطيع أن تنشئ اقتصادًا إسلاميًّا صحيحًا في عالم كله ربا، وإن الطريق السليم للمسلمين هو أن ينشئوا نظامًا اقتصاديًّا كاملًا جديدًا، مستقلًا بنفسه، لا يقوم على الربا، وهذا ممكن لو فكرنا جادين وكنا راغبين، وعازمين على إقامة نظام اقتصادي إسلامي خالص، ولو أردنا لفعلنا، فإن اليابان اقتدرت على ذلك، فهي لم تقترض من الغرب، ولا هي انخدعت بحيلة المصارف الغربية، وإنما أخذت العلم الغربي وملكته وسيطرت عليه، وأنشأت عليه صناعة يابانية، وعلى أساس الصناعة اليابانية المتقنة أنشأوا اقتصادًا يابانيًّا غير ربوي ومصارف يابانية لا تستعبد الناس بالمال -».

❐❐❐

❐ بهذه الحقائق.. وبهذه الإشارات إلى مواقف علماء الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية وخبراء الاقتصاد. نقدم بين يدي النصوص التي توجز آراء كبار فقهاء الإسلام في الربا والمعاملات المالية في تراثنا. القديم والحديث والمعاصر.

سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن يكون في ذلك صيحة نذير لإنقاذ الأمة من الهاوية السحيقة التي توشك أن تسقط فيها..؟

دكتور

محمد عمارة

نصوص كاشفة عن مفهوم الربا

لأعلام الفقهاء

1- أبو حامد الغزالي
2- ابن رشد
3- ابن القيم
4- محمد عبده
5- رشيد رضا
6- عبد العزيز جاويش
7- محمد الخضري
8- عبد الوهاب النجار
9- إسماعيل خليل
10- محمد سلامة
11- دسوقي جوهري
12- توفيق صدقي
13- محمد عبد الله دراز
14- معروف الدواليبي
15- سيد قطب
16- محمود شلتوت
17- محمد أبو زهرة
18- عبد الرزاق السنهوري
19- حسين مؤنس

- 1 -

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي

[450 - 505هـ - 1058 - 1111م]

[النقد: وسيلة لتقويم السلع والأموال - فالاتجار فيه - مثل كنزه - يخرجه من الحكمة منه، ويؤدي إلى تركزه في يد المتاجرين به.. وهو ظلم.. وكفر للنعمة.. وخروج عن الحكمة...]

«خلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر الأموال بهما.. وإنما أمكن التعديل بالنقدين، إذ لا غرض في أعيانهما.. فإذًا خلقها الله تعالى لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى، وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء، لأنهما عزيزان في أنفسما، ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة.. فالنقد لا غرض فيه، وهو وسيلة إلى كل غرض..

فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم، فقد كفر نعمة الله فيهما.

فإذًا من كنزهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما.. لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم، ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة، إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما، فإنهما حجران، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي، فيكونا حاكمين بين الناس، وعلامة معرفة للمقادير، مقومه للمراتب.. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة، فقد كفر النعمة، وكان أسوأ حالاً ممن كنز.. «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم» - متفق عليه -.

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم، لأنهما خلقا

لغيرهما لا لنفسهما، إذ لا غرض في عينهما. فإذا أتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودًا على خلاف وضع الحكمة، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم.. فلو جاز لمن عنده نقد أن يبيعه بالنقد، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله، بقي النقد مقيدًا عنده، فينزل منزلة المكنوز.. فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار، وهو ظلم.. فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها...»[1].

❐❐❐

(1) [إحياء علوم الدين] - كتاب الصبر والشكر - طبعة دار الشعب - القاهرة ج 12 ص 2219 - 2223.

- 2 -

أبو الوليد ابن رشد

[520 - 595هـ - 1126 - 1198م]

[تحريم الربا سببه الغبن.. ووظيفة النقود: تقويم الأشياء، وليس الربح بها..]

«إنه يظهر من الشرع أن المقصود بتحريم الربا إنما هو لمكان الغبن[1] الكثير الذي فيه، وأن العدل في المعاملات إنما هو مقاربة التساوي، ولذلك لما عسر إدراك التساوي في الأشياء المختلفة الذوات جعل الدينار والدرهم لتقويمها، أعني تقديرها.. إذ كانت هذه ليس المقصود منها الربح وإنما المقصود بها تقدير الأشياء التي لها منافع ضرورية..

وهذا الباب كله - الربا - إنما حرم في الشرع لمكان الغبن الذي يكون طوعًا وعن علم»[2]..

□□□

(1) الغبن - بفتح الغين وسكون الباء -: هو الخداع، من الزيادة والنقصان، وأخذ الشيء بدون قيمته، والاهتضام في المعاملة، والبخس والوكس في البياعات.، [قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية] - للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار السلام - سنة 1430هـ - 2009م.

(2) ابن رشد [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] طبعة القاهرة سنة 1394هـ - 1974م.

- 3 -

الإمام ابن القيم

[691 - 751هـ - 1292 - 1350]

[الربا نوعان: جلي.. وخفي.. والجلي هو ربا الجاهلية.. ربا النسيئة... والخفي هو ربا الفضل.. والقصد بالسكة أن تكون معياراً للناس، لا يتجرون فيها]

❐ «الربا نوعان: جلي وخفي، فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي، فتحريم الأول قصدًا وتحريم الثاني وسيلة.

فأما الجلي: فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية.. الأضعاف المضاعفة، ولا يفعل ذلك في الغالب إلا معدم محتاج.. ولقد كان يستوعب ما يملكه المدين المعدم..

وأما ربا الفضل، فتحريمه من باب سد الذرائع.. فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة.. وما حرم سدًا للذريعة، أخف مما حرم تحريم المقاصد.. وما حرم سدًا للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، كما أبيحت العرايا[1] من ربا الفضل، وكما أبيح النظر للخاطب والشاهد والطبيب والمعامل من جملة النظر المحرم، وكذلك تحريم الذهب والحرير على الرجال حرم لسد ذريعة التشبيه بالنساء الملعون فاعله، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة..

والربا الجلي - النسيئة - ربا الجاهلية.. المحرم لذاته - لا يباح إلا «للضرورة» - كالحال مع كل الميتة، وشرب الخمر، وأمثالهما من الكبائر ..أما ربا الفضل المحرم للذريعة - فإنه يباح عند «الحاجة»..

وعلة تحريم ربا الفضل في الدراهم والدنانير الثمنية، لا الوزن، لأنها هي التي تقوم بها

(1) العرايا - مفردها عرية - بفتح العين وكسر الراء - هي بيع الرطب على النخل بتمر في الأرض، والعنب في الشجر بالزبيب. وهو جائز فيما دون خمسة أوسق.

الأشياء، فيجب - لصلاح المعاملات - أن يكون سعرها - ثمنها - موحدًا، لا أن تكون سلعة معدة للربح..

وما حرم سدًا للذريعة أخف مما حرم تحريم المقاصد..

❐ وإن القصد من السكة[1] أن تكون معيارًا للناس لا يتجرون فيها..

ويشتد الضرر من فساد معاملاتهم، والضرر اللاحق بهم حين اتخذت الفلوس سلعة تعد للربح، فعم االضرر وحصل الظلم، ولو جعلت ثمنًا واحدًا لا يزداد ولا ينقص، بل تقوم به الأشياء ولا تقوم هي بغيرها لصلح أمر الناس.. فالأثمان لا تقصد لأعيانها، بل يقصد التوصل بها إلى السلع، فإذا صارت في أنفسها سلعًا تقصد لأعيانها فسد أمر الناس، وهذا معني معقول يختص بالنقود لا يتعدى إلى سائر الموزونات..

وسر المسألة أنهم منعوا من التجارة في الأثمان بجنسها لأن ذلك يفسد عليهم مقصود الأثمان، ومنعوا من التجارة في الأقوات بجنسها لأن ذلك يفسد عليهم مقصود الأقوات..

❐ وإن التحريم إنما يثبت بنص أو إجماع، أو تكون الصورة المحرمة بالقياس مساوية من كل وجه للمنصوص على تحريمها..»[2].

❐❐❐

(1) السكة - بفتح السين والكاف مشددتين - هي العملة المسكوكة - أي المضروبة..

(2) ابن القيم [إعلام الموقعين عن رب العالمين] ج2 ص 154 - 165. طبعة بيروت سنة 1973م.

- 4 -

الإمام محمد عبده

[1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م]

[المحرم في القرآن هو ربا الجاهلية.. ربا النسئية.. وربا الفضل تحريمه ثابت بالسنة.. والظلم هو علة تحريم الربا.. الذي هو مال جر مالا بلا عمل.. وتحديد الربح ليس علة للتحريم.. وشرط النهضة الاقتصاد اللاربوي - والكسب إنما يكون بالإنتاج، لا بالتجارة في النقد.. والأولى في قضية الربا الإفتاء الجماعي»]

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ...﴾ [البقرة: 275].

التعريف للعهد، أي لا تكلوا الربا الذي عهدتم في الجاهلية.

وفي الآية أن الربا حرم لأنه ظلم. ولكن بعض ما يعده الفقهاء منه لا ظلم فيه، بل ربما كان فيه فائدة للآخذ والمعطي.. فما حرم الله تعالى شيئًا إلا لأنه ضار في نفسه، ولا أحل شيئًا إلا وهو نافع في نفسه.

وإن زعمهم مساواة الربا للبيع في مصلحة التعامل بين الناس إنما يصح إذا أبيح للناس أن يكونوا في تعاملهم كالذئاب، كل واحد ينتظر الفرصة التي تمكنه من افتراس الآخر وأكله، ولكن ههنا إله رحيم يضع لعباده من الأحكام ما يربيهم على التراحم والتعاطف، وأن يكون كل منهم عونًا للآخر، لا سيما عند شدة الحاجة إليه، ولذلك حرم عليهم الربا، الذي هو استغلال ضرورة إخوانهم، وأحل البيع الذي لا يختص الربح فيه بأكل الغني الواجد مال الفقير الفاقد..

إن الله تعالى جعل طريق تعامل الناس في معايشهم، أن يكون استفادة كل واحد من الآخر بعمل، ولم يجعل لأحد منهم حقًا على الآخر بغير عمل، لأنه باطل لا مقابل له. وبهذه السنة أحل البيع لأن فيه عوضًا يقابل عوضا، وحرم الربا لأنه زيادة لا مقابل لها..

❐ و إن التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام وما ثبت بروايات الآحاد وأقيسة الفقهاء ضرورية، فإن من يجحد ماجاء في القرآن يحكم بكفره ومن يجحد غيره ينظر في عذره، فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالاً مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة، لأسباب يعذر بها، وتبعه الناس على ذلك، ولا يعد أحد ذلك عليهم خروجًا من الدين، حتى من لا عذر له في التقليد، فما بالك بمخالفة بعضهم بعضا في الأقوال الاجتهادية التي تختلف فيها أقيستهم.

❐ وقد فشا في المسلمين أكل الربا مع ذلك الوعيد الذي نطق به القرآن، وأكثرهم يعتقدون أن لفظ الربا فيه يتناول جميع ما قال فقهاء مذاهبهم أنه منه.. و إنا نعلم أنه لا يكاد يوجد في عشرات الألوف من المسلمين رجل واحد يتحامي كل ما عده الفقهاء من الربا، ولعله يندر في الفقهاء أنفسهم من يطبق شراء الحلي للنساء على قواعد الفقه، كأن يشتري ما كان من ذهب بفضة، وما كان من فضة يذهب يدًا بيد فيهما، أو يتخذ لذلك حيلة فقهية، فالناس في أشد الحاجة إلى التمييز بين الربا القطعي المتوعد عليه في القرآن بالخلود في النار و بين غيره مما اختلف فيه أو كان وعيده دون وعيده لأن ضرره دون ضرره.

لقد نزلت آيات الربا في وقائع كانت للمرابين بين المسلمين قبل التحريم، فالمراد بالربا فيها ما كان معروفًا في الجاهلية من ربا النسيئة، أي ما يؤخذ من المال لأجل الإنساء، أي التأخير في أجل الدين، فكان يكون للرجل على آخر دين مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمن شيء اشتراه منه أو قرضًا اقترضه، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مال يفي به طلب من صاحب المال أن ينسئ له في الأجل و يزيد في المال، وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافًا مضاعفة، فهذا ما ورد القرآن بتحريمه لم يحرم فيه سواه، وقد وصفه في آية آل عمران، التي جاءت دون غيرها - بصيغة النهي، وهي قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ [آل عمران: 130] وهي أول أية نزلت في تحريم الربا، فهو تحريم لربا مخصوص بهذا القيد، وهو المشهور عندهم.

فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ - الآيات - يحمل الربا فيها على ما سبق ذكره في النهي الأول، عملًا بقاعدة إعادة المعرفة ووفاقًا لقاعدة حمل المطلق على المقيد، و يدعم ذلك مقابلته بالصدقة، حيث ذكر، وتسميته ظلمًا، وقد أورد ابن جرير - وهو إمام المفسرين -

وأعلمهم بالرواية - روايات كثيرة في ذلك - وهذا النوع من الربا هو أشدها ضررًا، وهو مذموم عند كل عاقل، بل هو ممنوع في قوانين الأمم التي تبيح غيره من أنواع الربا.

❐ ولا يدخل في الربا المحرم من يعطي آخر مالًا يستغله ويجعل له من كسبه حظًا معينًا، لأن مخالفة قواعد الفقهاء في جعل الحظ معينًا - قل الربح أو كثر - لا يدخل ذلك في الربا الجلي المركب المخرب للبيوت - لأن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب المال معًا، وذلك الربا ضار بواحد بلا ذنب غير الاضطرار، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع، فلا يمكن أن يكون حكمهما في عدل الله واحدًا، بل لا يقول عادل ولا عاقل من البشر: إن النافع يقاس على الضار ويكون حكمهما واحدا.

إن كان هذا التعامل من الربا الخفي الذي يمكن إدخاله في عموم روايات الآحاد في بيع أحد النقدين بالآخر ونحو ذلك فهو محرم لسد الذرائع، كما قال ابن القيم، لا لذاته، وهو الربا المشكوك فيه لا من المنصوص عليه في القرآن والذي لا شك فيه، فليس لنا أن نكفر منكر حرمته.

ولو كان مثل ذلك من المنصوص الذي لا شك فيه لما وقع فيه خلاف، وقد اختلف الصحابة، والأئمة ومن بعدهم من الفقهاء في كثير من مسائل الربا.. وممن جوزوا من الصحابة والتابعين ربا الفضل مطلقًا: عبد الله بن عمر، ولكن رووا عنه أنه رجع عن ذلك، وابن عباس، واختلف في رجوعه، وأسامة بن زيد، وابن الزبير، وزيد بن أرقم، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، واستدلوا بحديث الصحيحين: «إنما الربا في النسيئة»، فلو كان ربا الفضل كربا النسيئة لم يقع هذا الخلاف بين الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

❐ ومن الناس من يظن اليوم أن إباحة الربا ركن من أركان المدنية لا تقوم بدونه، فالأمة التي لا تتعامل بالربا لا ترتقي مدنيتها ولا يحفظ كيانها، وهذا باطل في نفسه، إذ لو فرضنا، أن تركت جميع الأمم أكل الربا فصار الواجدون فيها يقرضون العادمين قرضًا حسنًا، ويتصدقون على البائسين والمعوزين، ويكتفون بالكسب من موارده الطبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات، ومنها المضاربة، لما زادت مدنيتهم إلا ارتقاء ببنائها على أساس الفضيلة والرحمة والتعاون الذي يحبب الغني إلى الفقير، ولما وجد فيها الاشتراكيون الغالون،

والفوضويون المتغالون. وقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها فكانت خير مدنية في زمنها. فما شرعه الإسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة. وهو أفضل هداية - للبشر في حياتهم الدنيا..

ولو وجد للإسلام دولة قوية وأمم عزيزة تقيم الشرع وتهتدي بهدي القرآن لأمكنها الاستغناء عن الربا، لأن شرعه لا يمكن أن يبيح الربا، وهو دين غرضه تهذيب النفوس وإصلاح حال المجتمع، لا توفير ثروة لبعض الأفراد من أهل الأثرة.

❐ إن مسألة الربا ليست مدنية محضة، بل هي دينية أيضًا..

وإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل..

وإذا كان الله تعالى قد جعل الإنفاق في سبيله علامة على التقوى أو أثرًا من آثارها حتى في حالة الضراء، وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التي هي سبب دخول الجنة، فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم؟ وهل يغني عن هؤلاء من شيء أداء الرسوم الدينية الظاهرة التي يتمرنون عليها عادة مع الناس؟

❐ وعندي أنه ليس لفرد من الأفراد أن يستقل بالإفتاء في أمر الربا، وإنما مثل هذا الأمر إلى أولي الأمر من الأمة، أي أصحاب الرأي والشأن فيها والعلم بمصالحها، عملًا بقوله تعالى في مثله من الأمور العامة: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] - فالرأي عندي أن يجتمع أولو الأمر من مسلمي هذه البلاد - وهم كبار العلماء المدرسين والقضاة ورجال الشوري والمهندسون والأطباء وكبار المزارعين والتجار ويتشاورون بينهم في المسألة، ثم يكون العمل بما يقررون أنه قد مست إليه الضرورة أو ألجأت إليه حاجة الأمة.

❐ وإن النقديين إنما وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التي ينتفع بها الناس في معايشهم. فإذا تحول هذا وصار النقد مقصودا بالاستغلال فإن هذا يؤدي إلى انتزاع الثروة من أيدي أكثر الناس وحصرها في أيدي الذين يجعلون أعمالهم قاصرة على استغلال المال بالمال، فينموا المال ويربو عندهم ويحزن في الصناديق والبيوت المالية، - المعروفة بالبنوك،

ويبخس العاملون قيمة أعمالهم، لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه، وبذلك يهلك الفقراء.

ولو وقف الناس في استغلال المال عند حد الضرورة لما كان فيه مثل هذه المضرات، ولكن أهواء الناس ليس لها حد تقف عنده بنفسها، لذلك حرم الله الربا.

❐ إن أوروبا نجحت في تحرير الناس من الرق، ولكنها غفلت عن رفع نير الدينار عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يومًا ما»[1].

❐❐❐

(1) [تفسير المنار] جـ 3 ص 78 - 98 وجـ 4 ص 100 - 113 طبعة القاهرة سنة 1973م.

- 5 -

الإمام محمد رشيد رضا

[1282 - 1354هـ - 1865 - 1935]

«إن الحـق في الربـا الذي نهي الله تعالى عنه في كتابـه، وتوعد فاعله بما لم يتوعد بمثله على ذنب آخر، أنه ربا النسيئة الذي كان معروفًا في الجاهلية..

إنه هو ما يؤخذ من المال لأجل تأخير الدين المستحق في الذمة إلى أجل آخر، مهما يكن أصل ذلك الدين من بيع أو قرض أو غيرهما. وهذا النوع هو الذي يتضاعف بعجز المدين عن القضاء مرة بعد أخرى حتى يصير أضعافًا مضاعفة، ويستهلك جميع ما يملكه المدين في كثير من الأحيان.

وبهـذا تظهـر حكمـة العليـم الحكيـم في ذلـك الوعيـد الشـديد عليـه وفي تسـميته ظلـمًا، ولا يظهر هذا في كل قرض جر نفعًا، ولا في بيع أحد الأجناس السـتة بمثله متفاضلًا نقدًا أو نسـيئة، فضلاً عن تثمير الأموال بالشركات التجارية التي لا تلتزم شروط الفقهاء فيه.. وإنما يظهر من سبب النهي عند هذه البيوع، أنه سد لذريعة الربا المحرم القطعي، وهذه الذريعة مظنونة لا قطعية..

ومن المنهيات في الأحاديث ما هو محرم وما هو مكروه، أو خلاف الأولى، وما هو لمحض الإرشـاد لا للتشريع الديني، وإنما يكون التمييز بين هذه الأنـواع بالأدلة الخاصة، أو القواعد العامـة، أو التعـارض بـين النصوص وترجيـح الأقوى، كالنهـي عن أكل لحوم سـباع الوحش والطـير، مع حصر نصوص القرآن لمحرمات الطعام في الميتة، والدم المسـفوح، ولحم الخنزير، ومـا أهـل لغير الله به. وقـد حققنا أن النهي فيـه للكراهة وفاقًا لمذهب مالـك جمعًا بينه وبين نصوص القرآن قطعية الرواية والدلالة بصيغتي الحصر. وبينا فيه أن التعبير في بعض الروايات بالتحريم، قد يكون رواية بالمعنى لفهم الراوي إن المراد من النهي التحريم.

وكذلك يقال في النهي عن بيع النقدين، وأصول الأغذية المذكورة في حديث عبادة إلا يدًا بيد مثلًا بمثل إذا اتحد الجنس، والاكتفاء بالتقابض إذا اختلف.

ومما يدل على أن هذا النهي غير مقصود بالذات ما صح في إباحة بيع العرايا والحيلة في بيع الكثير من التمر الرديء بالقليل من التمر الجيد، بأن يجعل العقد على بيع كل منها بالثمن..

إن الربا المنصوص في القرآن، ليس فيه معاوضة بين متعاقدين في شيئين، و إنما هو عين يأخذه أحد الطرفين من الآخر، بغير مقابل له من عين ولا منفعة، بل لأجل تأخير قضاء دين مستحق عليه إلى أجل جديد، لعجزه عن قضائه حالًا.

إن الوعيد الشديد الوارد - بالقرآن - على الربا لا يمكن أن يكن على ربا الفضل الوارد في حديث عبادة وأبي سعيد وغيرهما، لأنه لا ضرر فيه. فبيع الأجناس الستة بعضها ببعض مع التفاضل المعتاد بالتراضي أو بيع جنس بآخر مع تأخير القبض، ليس فيه من الضرر والفساد ما يستحق فاعله شيئًا من أنواع ذلك الوعيد، فلا يفهم له علة إلا سد ذريعة ربا النسيئة الذي نهي الله عنه وتوعد فاعله.. فهو كنهيه ﷺ عن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية، وعن سفرها إلا مع ذي رحم محرم، وعن الانتباذ في الأواني التي يسرع فيها اختمار النقيع المنبوذ فيها من تمر أو زبيب، وعن الجلوس على مائدة يشرب عليها الخمر، لأن هذا وذاك مما يسهل وجود الخمر، ويجرئ على شربها بتأثير الألفة والقدوة، ومثله أو أشد شرب القليل من الشراب الذي لا يسكر إلا الكثير منه. وأبلغ من هذا في النهي لسد الذريعة، نهي الله عز وجل للمؤمنين عن سب آلهة المشركين وأصنامهم، مع تعليله الدال على ذلك وهو قوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 108].

وأما تسمية ذلك ربا في بعض الروايات، فمن باب المجاز المرسل، كقوله تعالى حكاية عن أحد صاحبي يوسف في السجن: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ﴾ [يوسف: 36]..

وقد ورد في روايات متعددة إطلاق لفظ الربا أو أشد الربا على استطالة الرجل في عرض أخيه، يعني بالغيبة. و إطلاق لفظ الزنا على مقدماته في حديث مرفوع معروف»[1].

(1) [الفتاوي] جـ 6 ص 2224 - 2265، طبعة بيروت سنة 139.هـ - 1970م.

الشيخ محمد رشيد رضا

❐ «[1]إن كل ما جاء به الإسلام من الأحكام الثابتة - المحكمة - فهو خير و إصلاح للبشر وموافق لمصالحهم ما تمسكوا به.

ولكن من الناس من يظن اليوم أن إباحة الربا ركن من أركان المدنية لا تقوم بدونه، فالأمة التي لا تتعامل بالربا لا ترتقي مدنيتها ولا يحفظ كيانها، وهذا باطل في نفسه، إذ لو فرضنا أن تركت جميع الأمم أكل الربا، فصار الواجدون فيها يقرضون العادمين قرضًا حسنًا، و يتصدقون علي البائسين المعوزين و يكتفون بالكسب من موارده الطبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات، ومنها المضاربة، لما زادت مدنيتهم إلا ارتقاءً ببنائها على أساس الفضيلة والرحمة والتعاون الذي يحبب الغني إلى الفقير، ولما وجد فيها الاشتراكيون الغالون، والفوضويون المغتالون، وقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها، فكانت خير مدنية في زمنها، فما شرعه الإسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة. وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا.

❐ إننا نرى كثيرين يوافقوننا على أنه لو وجد للإسلام دول قوية وأمم عزيزة تقيم الشرع وتهتدي بهدي القرآن لأمكنها الاستغناء عن الربا، ولكانت مدنيتها بذلك أفضل، فلا اعتراض على الإسلام في تحريم الربا، لأن شرعه لا يمكن أن يبيح الربا وهو دين غرضه تهذيب النفوس، و إصلاح حال المجتمع، لا توفير ثروة بعض الأفراد من أهل الأثرة.

ولكنهم يقولون إننا نعيش في زمن ليس فيه أمم إسلامية ذات دول قوية تقيم الإسلام وتستغني عمن يخالفها في أحكامها و إنما زمام العالم في أيدي أمم مادية، قد قبضت على أزمة الثروة في العالم حتى صارت سائر الأمم والشعوب عيالا عليها، فمن جارها منهم في طرق كسبها، والربا من أركانه، فهو الذي يمكن أن يحفظ وجوده معها. ومن لم يجارها في ذلك انتهي أمره بأن يكون مستعبدًا لها، فهل يبيح الإسلام لشعب مسلم هذه حاله مع الأوروبيين،

(1) من محاضرته التي ألقاها بقاعة مدرسة عبد العزيز - بالقاهرة - ضمن المحاضرات التي نظمها حول الربا نادي دار العلوم - في 29 ربيع الأول سنة 1326هـ - مايو 1908م.

كالشعب المصري، أن يتعامل بالربا ليحفظ ثروته وينميها فيكون أهلًا للاستقلال، أم يحرم عليه ذلك - والحالة حال ضرورة - ويوجب عليه أن يرضى باستنزاف الأجنبي لثروته، وهي مادة حياته؟

هذا ما يقوله كثير من مسلمي مصر الآن. والجواب عنه - بعد تقرير قاعدة أن الإسلام يوافق مصالح الآخذين به في كل زمان ومكان - من وجهين يوجه كل واحد منهما إلى فريق من المسلمين:

أما الأول: فيوجه إلى فريق المقلدين، وهم أكثر المسلمين في هذا العصر، فيقال لهم: إن في مذاهبكم التي تتقلدونها مخرجًا من ذلك.. وذلك بالحيلة، التي أجازها الإمام الشافعي، الذي ينتمي إلى مذهبه أكثر أهل القطر، والإمام أبو حنيفة، الذي يتحاكمون على مذهبه كافة، ومثلهم في ذلك أهل المملكة العثمانية التي أنشئت فيها مصارف (بنوك) الزراعة بأمر السلطان، وهي تقرض بالربا المعتدل، مع إجراء حيلة المبايعة التي يسمونها المبايعة الشرعية.

أما الثاني: فيوجه إلى أهل البصيرة في الدين، الذين يتبعون الدليل ويتحرون مقاصد الشرع، فلا يبيحون لأنفسهم الخروج عنها بحيلة ولا تأويل، فيقال لهم: إن الإسلام كله مبني على قاعدة اليسر ورفع الحرج والعسر، الثابتة، بنص قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] - وأن المحرمات في الإسلام قسمان:

الأول: ما هو محرم لذاته لما فيه من الضرر، وهو لا يباح إلا لضرورة، ومنه ربا النسيئة المتفق على تحريمه، وهو مما لا تظهر الضرورة إلى أكله، أي إلى أن يقرض الإنسان غيره فيأكل ماله أضعافًا مضاعفة، كما تظهر في أكل الميتة وشرب الخمر أحيانًا.

والثاني: هو ما حرم لغيره، كربا الفضل المحرم لئلا يكون ذريعة وسببًا لربا النسيئة، وهو يباح للضرورة، بل وللحاجة، كما قال الإمام ابن القيم - وأورد له الأمثلة من الشرع - فقسم الربا إلى جلي وخفي، وعده من الخفي (وقد ذكرنا عبارته آنفًا).

❐ والمشكل هو في تحديد ضرورة الأمة أو حاجتها، فهو الذي فيه التنازع.

وعنـدي، أنه ليـس لفرد من الأفراد أن يسـتقل بذلـك، و إنما يرد مثل هـذا الأمر إلى أولي الأمر من أهل الرأي والشـأن فيه والعلم بمصالحها، عملا بقوله تعالى في مثله من الأمور العامة: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] - فالرأي عنـدي أن يجتمع أولوا الأمر من مسـلمي هذه البـلاد، وهم كبار العلماء والمدرسـين والقضاة، ورجال الشـوري والمهندسون والأطباء وكبار المزارعين والتجار و يتشاوروا بينهم في المسألة، ثم يكون العمل بما يقررون أنه قد مست إليه الضرورة أو ألجأت إليه حاجة الأمة»[1].

❐❐❐

(1) كان الشيخ رشيد - هنا - ينقل عن أستاذه الشيخ محمد عبده.

- 6 -

الشيخ عبد العزيز جاويش

[1296 - 1347هـ - 1876 - 1929م]

❐ «[1]إن الربا الذي كان معروفًا في الجاهلية إنما هو ربا النسيئة المضاعف - أما الربا الذي ليس فيه مضاعفة، كأن يحصل القرض بفائدة قليلة، لم يؤخذ تحريمه من الكتاب الكريم، و إنما أخذ من القاعدة الأصولية القاضية بإعطاء القليل حكم الكثير سدًا للذرائع و إغلاقًا للباب بالمرة، وكذلك من الحديث: **« كل قرض جر نفعًا فهو ربا»**.. ولقد علم من كلام عمر بن زيد.. أنه لم يصح في هذا الباب حديث..

و إن قاعدة إعطاء القليل حكم الكثير سدًا للباب ليست بالقاعدة الاجماعية..

❐ و إن الدولة العثمانية قد أباحت للقضاة أن يحكموا بالفائدة بشرط أن لا تبلغ مثل الدين الأصلي (راجع قاموس القوانين صفحة 463 طبعة محمود بك). و يظهر أنها ترى أن الربا الذي كفر مستحلة ولا يجوز الحكم به هو ذلك الذي يكون أضعافًا مضاعفة، و إلا فكيف ساغ لها وهي حكومة إسلامية يرأسها الخليفة الأعظم أن تأذن بحرب من الله ورسوله..

❐ إن معظم المقترضين للأموال من المصارف (البنوك) لم تدمر بيوتهم، ولم يجردوا مما ملكت أيديهم لمجرد أنهم خالفوا الله فتعاملوا بالربا، بل إن مرجع تقويض أركانهم وسوء منقلبهم أنهم يأخذون ما يقترضون بالغًا ما بلغ ثم يتصرفون فيه تصرف السفهاء الفاسدين.. ولذلك نجد بعض من يأكلون الربا أو يؤكلون لا يكادون يصيبهم أذى، أولئك الذين يعرفون كيف ينتفعون بما في أيديهم وما خلفهم من المال والأسباب.

(1) من المحاضرة - «الخطبة» - الافتتاحية لمجموعة المحاضرات التي دعا إليها نادي دار العلوم. والتي ألقيت بقاعة مدرسة عبد العزيز - بالقاهرة - 12 ربيع أول سنة 1326هـ - إبريل سنة 1908م والتي شارك فيها تسعة من وجوه العلماء.

وزبدة القول بتمامه أن أمامنا أمرين:

(1) أن نتابع جماعة المسلمين الكثيرين لتحريم الربا القليل احتياطًا وتحرزا، كما حرمنا الكثير المضاعف بعبارة القرآن الكريم، والمخرج إذا من هذه الشدة التي كادت تزهق النفوس أن نلجأ إلى المضاربة الشرعية التي يكون فيها المال من جانب والعمل من جانب والربح بينهما على ما اتفقنا.

(2) أن نقصر على تحريم ما حرم الله في كتابه وهو ربا النسيئة المضاعف الذي نزل في القرآن، وليس في العرب إذ ذاك سواه، وهنا نخالف الجمهور بحكم العقل وبحكم الضرورة فنتجاوز عما قل من الفائدة التي لا تماثل الدين قدرًا ولا تؤدي إلى غبن المدين غبنًا فاحشًا، كما فعلت الحكومتان الإسلاميتان العثمانية والفارسية..

إن القول بتكفير مستحل هذا النوع القليل ينبني عليه تكفير خلفاء المسلمين وقضاتهم وعلمائهم..

❐ لقد قال ابن القيم وغيره: إن السلف اختلفوا في ربا الفضل، فأجازه ابن عمر وأسامة بن زيد وابن الزبير وزيد بن أرقم وسعيد بن المسيب وعرفة بن الزبير، وثبت أن عبد الله بن عمر وابن عباس قالا بحله ثم تراجعا عنه.

ومن هنا نعلم أن لا إجماع على تحريم ربا الفضل بعد أن قال بإباحته جلة الصحابة الذين أتينا على أسمائهم آنفًا، نعم، إن الأكثرين على القول بتحريمه..

❐ والأمر في الذهب والفضة على أحوال:

1- أن يكونا على حالتهما الفطرية.

2- أن يكونا مسكوكين ليتخذوا وسائل للمعاملة وتيسير تبادل المنافع والحاجات الحيوية بين بني الإنسان.

3- أن يكونا آنية، أو حليًا يتزين به وبما فيه من نقش وحسن شكل.

أما القول بأن الذهب والفضة لم يخلقا إلا ليكونا أثمانًا فهو قول من ضاقت دائرة اطلاعه وقضي حياته بين جدران بيته...

ولقد اختلف الفقهاء في علة الربا في الذهب والفضة، فقائلون إنها الثمينة، وهؤلاء لم يدركوا معني الثمينة، وأنها وضعية اصطلاحية تختلف باختلاف الأمم، إذ هي مقدرة بمقدار ما تجلبه من المصالح التي يرمي إليها البشر عادة.. إذ ساووا بين المسكوكات خفافًا وثقالا، مكسرة وصحاحًا، تساوت في العيار أم تخالفت، ولا يخفي أن هذا لا يمكن لعاقل أن يقول به إلا إذا جاء فيه عن المصطفى عليه السلام نص صريح.

وهناك من قال من الأئمة بأن علة الربا في العين الوزن، وسووا بين النقدين والتبر والسبائك والحلي والآنية، فحكموا بتحريم أن يباع بعضها ببعض إلا مثل بمثل وزنًا بوزن سواء بسواء ولا عبرة لديهم بما أكسبتها الصناعات من القيمة، ولا بما قدره الحاكم لها في بعض الممالك، كما أنهم لم يبالوا أتساوى عيارها أم اختلف، يعلم جميع ذلك من قرأ أي كتاب من كتب الفقه.

❐ وإنني، مع إجلالي لأولئك الأئمة المتقدمين، وإكباري لمقامهم، واعترافي بما جاهدوا في سبيل تدوين أحكام الدين الشريف، لا أرى من حرج عليّ أن أقول: إن العصمة لله وحده ولأنبيائه المصطفين، وأن سواهم لم يعصم من الزلل والعثار ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ [البقرة: 80] -، لذلك أردت أن أمحص هذا الباب تمحيصًا، وأذكر ما عسى أن يكون أقرب إلى اليسر الذي أراده الله لشريعته السمحة مما قاله المتقدمون».

❐❐❐

- 7 -

الشيخ محمد الخضري

[1286 - 1345هـ - 1872 - 1927]

❐ [1] لقد جاء الربا - في آية آل عمران وآية البقرة - معرفًا بأل. وهي لا تعد ثلاثة معانٍ: الاستغراق، والجنس، والعهد.

وليس بممكن أن يجعلوها للاستغراق المجرد عن العهد، لأن المعني حينئذ، أن كل ربا أي كل زيادة حرام منهي عن أكله. وهذا باطل لأن الزيادة قد تكون في البيع، وقد أخبر الله صريحًا أنه أحله، فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾. فمن الضروري أن تكون هناك زيادة أخرى لاحظها المشرع ونهي عنها، ولا بد أن يكون للسامع بها عهد حتى يصح أن يكون مكلفًا.

ولا جائز أن تكون أل للجنس، لأنهم يريدون به الماهية، أي الحقيقة بقطع النظر عن تشخصها في فرد من الأفراد، ولا معنى للنهي عن كل الحقائق الذهنية، فإنها لا توجد في الخارج إلا مشخصة بصفات تميزها، و إذا بحث الباحث فإنما يبحث عن تلك الصفات.

لذلك قال المفسرون: إن أل في الآيتين للعهد الذهني أو الذكرى.. ولا بد إذن لفهم الآية من الرجوع إلى تعرف ما كان العرب يفعلونه إذا أربوا.. والمعنى المفهوم من ذلك أن هنا زيادة تقابل أجلًا، ولا مقابل لها إلا ذلك.. فحقيقة الربا هي الزيادة في مقالة الأجل..

❐ و إن ما يفعل الآن من المعاملات في البنوك من إعطاء المائة بمائة وعشرة مثلًا إلى أجل هو ربا النسيئة محرم شرعًا بالكتاب والسنة والإجماع، لأن هنا زيادة قابلت أجلا في أحد النقدين.

(1) من محاضرته بقاعة مدرسة عبد العزيز، في اللقاء الذي نظمه نادي دار العلوم - القاهرة - في 22 ربيع أول سنة 1326هـ - إبريل 1908م.

وأما حديث الأضعاف المضاعفة في آية آل عمران، فإنما يراد به أن الدين قد يصبر أضعافًا مضاعفة إذا توالت عليه الآجال.

ومما يقطع قول كل خطيب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فجعل لهم إن هم تابوا رؤوس الأموال فحسب، ولم يزدهم عليها لا قليلاً ولا كثيرًا..

❐ ولا يغيب عنا ما كنا مبتلين به منذ زمن ليس بطويل من مداينات الأروام واليهود للفلاحين في القرى، فإن الربا كان يضاعف الدين مرارًا مع توالي الآجال حتى لا يبقي للمدين شيئًا..

❐ ونحن لا نزعم، في هذا المقام، أن الربا مسلوب المنفعة في كل جزئياته، فإن هذا مصادرة للبداءة، فإنا نرى صورًا كثيرة وفيها للربا فوائد تكاد تخرج الإنسان من ضرورة لحقته أو كارثة ألمت به، ولكن الشارع دائمًا يراعي في تشريعه الجهة الغالبة في الأمر، فإن غلب عليه الشر في الجملة حرمه، وإن غلب عليه الخير في الجملة أحله، لكنه لا يهمل الجزئيات التي تظهر فيها الضرورات بمظهرها المؤلم، وحينئذ يبيح الشارع للفرد أن يمس مما حرم بقدر ما يخرجه من الضرورة..

لقد رأي الشارع أن مضار الربا في جملة الأمة أكثر من نفعه، وأنه يؤول بالأموال أن تكون دولة بين الأغنياء من الأمة، وهو الأمر الذي أحس بثقل وطأته العلماء من غير المسلمين، والشارع يريد أن تكون الثروة متبادلة بين الأمة كافة، غنيها وفقيرها، لهذا أقفل باب الربا وحرمه بتاتا، قليله وكثيره.

❐ لقد كان الناس لعهد غير بعيد، قبل أن تكثر بيننا البنوك يكتفي الواحد منهم بما بيده من الأرض التي يزرعها ويستغلها إن كان من الملاك، ويكتفي بما يكسبه من العمل بما له القليل أو الكثير إن كان من التجار، ويرضيه الكفاف من العيش إن كان من العمال، فكان الشيء القليل الذي في البلاد يقوم بحاجتهم، فلم تثقل عليهم وطأة الدين، ولم يتصرف فيهم صاحب الدين بماله من الحق والقوة تصرف السيد بعبده أو المخدوم بخادمه.

فاضت أموال أوروبا، ودخلت مصر على أيدي المهرة من أصحابها، وفتحت للناس أبواب الاستدانة مقابل ربح قليل أو كثير يؤدي في أجل معين.. وكان من وراء ذلك أن كثرت بأيدي الناس أموال معظمها ليس لهم، وتبع ذلك بحكم الطبيعة ارتفاع عام في أثمان الأراضي وأثمان السلع وأثمان المأكولات، وحسب هذا كله من الثروة التي فاضت على البلاد.

والحاسب يري أنه أثقل الكاهل بديون أجنبية تقدر بنحو مليون من الجنيهات نصفها على الحكومة والنصف الآخر على الأمة.

ويعرّف رجال العمران الثروة بأنها فاضل ما بين الإيراد والمنصرف، فالذي إيراده عشرة ومصرفه ثمانية ذو ثروة، والذي إيراده ألف ومصروفه ألف ومائة لا ثروة له..

ومما يدلنا علي أنه لا ثروة لنا في الحقيقة أن البنوك لما قبضت أيديها عن التسليف ذهل الناس أشد ذهول. ووقفت حركات العمل، لأن العمال كانوا يشتغلون بغير ما لهم لتنمو ثروتهم. فما أقسي حكم الوهم الذي يخيل إلى الناس أنهم مثرون وهم في الحقيقة إلى الخراب سائرون.

لو كانت الأموال المعدة للدوران بين الناس من مال الأمة لكانت المصيبة أقل، إذ كنا نقول إن مال الأمة بين أفرادها بقدر ما يذهب من جيب أحدهم يدخل جيب الآخر، ولكنها أموال الغير لا تلبث بأيدينا إلا بقدر ما تأخذ مثلها وتعود إلى صاحبها، وإن لم تجد لها مثلا اكتسبت حقًا على العقارات حتى يأتي يوم نرى فيه أن ما بأيدينا هو عارية مستردة، أو نرى أنفسنا فيه عمالًا بالأجر..

❐ إن ربا النساء محرم بإجماع المسلمين، قليله وكثيره، وإن مضاره في الهيئة الاجتماعية عظيمة، وإنه يعد الأمة للوقوف محاربة أمام الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: 279]. وسيعلم هؤلاء الذين يبنون الحقائق على الأوهام أي منقلب ينقلبون..».

❐❐❐

- 8 -

الشيخ عبد الوهاب النجار

[1278 - 1360هـ - 1862 - 1941م]

❐ «[1]يقولـون إن التمدن الأوروبي قد ألقى بجرانه في هـذه الربوع، وأصبحنا في حاجة ماسـة إلى تقليب الأموال بالربا. وأننا إذا لم نمط الكاوشـتوك الديني حتى يتسع للربا ويكون حـلالا بمقتضى نصوصه التـي نعطيها من المرونة، ما به تتسـع لهذه المعاملـة المدنية، كان دينًا جامدًا يقضي بالتأخر والانحطاط على الدائنين به الناهجين على سننه!.

لقـد أقام هـذا الدين تلكـم المدنيـة الضخمـة والارتقاء العريـض والدين غـض والربا ممنوع..

❐ **إن الربا هو زيادة أحد البدلين المتجانسين على الآخر.. وربا النسيئة لا يعدو وجهين:**

أولهما: أن يقرض المال إلى أجل مع اشـتراط قدر معلوم يؤخذ عند نهاية الأجل، فإذا قضي الدين ورباه لأجلهما فذاك، وإلا كان ما بقي عليه من الربا ورأس المال بالربا على النسبة التي أخذ بها أولًا.

ثانيهـما: أن يكـون على شـخص لآخر دين فإذا جـاء الأجل ولم يقـض كان عليه ضعف ذلـك الدين ومد لـه في الأجل لقاء ذلك، فإذا حل الأجل ولم يقض أضـاف إليه مثل ما تم عليه وهكذا.

❐ أمـا الربـا الذي يتعامـل به في المصارف الآن فهـو من الصنـف الأول - والصنفان كانا معروفين للعرب قبل الإسـلام معهودين في معاملاتهم، فإن اليهود كانوا بين العرب ويتعاملون

(1) من محاضراته التي ألقاها بقاعة مدرسة عبد العزيز - بالقاهرة - ضمن المحاضرات التي نظمها نادي دار العلوم - بتاريخ 21 ربيع الأول سنة 1326هـ - إبريل 1908م.

بالربا على الوجه الأول، وهو الذي نهوا عنه، المبين بقوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء: 160 - 161].

وسواء كانت «أل» في الربا للاستغراق أو للجنس أو للعهد، أو كيفما كانت فإن الربا بقسميه السابقين محرم بنص الآية الكريمة لأنه من أكل الربا أضعافًا مضاعفة على كل حال...

أيليق بالبر المنتقم أن يحرم على آكل كل الربا أكله أضعافًا ويحله إذا لم يبلغ الضعف؟ أإذا كان لي على شخص دين وطالبته عند أجله بالوفاء ولم يجد، وكان الدين مائة، ويحرم عليّ أن أؤجله في نظير جعل الدين مائتين ويحل لي أن أجعل مائة وتسعة وتسعين؟!.

❐ إن التعامل بالربا نتيجة أخلاق رديئة في الشخص تأباها الإنسانية وينبذها الدين..

❐ إن من الآثار الميمونة للربا وبركاته التي نتقلب فيها أن صارت الأطيان التي تحت أيدي الأوروبيين في القطر المصري في سنة 1904م 624000 فدان.

إذا ضممنا إليها ما تحت يد مصلحة الدومين وشركة الدائرة السنية ومقداره 324 ألف فدان كان الناتج 948 ألف فدان - فإذا قدرنا صافي ريع الفدان الواحد ستة جنيهات كان الناتج 5688000 جنيه، وبإضافته إلى ما تدفعه الحكومة ربا دينها يبلغ ذلك 9357000 جنيه، يضاف إلى ذلك، ربح الديون المسجلة على رهن بالمحاكم المختلطة، وهي تزيد على ثلاثين مليونًا، ربحها على أقل تقدير ثلاثة ملايين، فيكون الحاصل 12357000 جنيه، أو 2471.40 قنطارًا من اذهب، وإن شئتم فهو 11213 كيلوجرامًا من الذهب، وبعبارة أخرى 88970.4 أقة من الأصفر الرنان تبزل بمبزل الربا من دم الزارع والصانع الحقير والتاجر المقل، وتسمن بها أكياس المرابين.

إذا كان 134207 من المصريين قد اقترضوا من البنك الزراعي في سنة 1903م مبلغ 4346500 من الجنيهات، يبلغ ربحها في السنة الواحدة 521480 جنيهًا رزئ فيها هؤلاء الفلاحون المساكين، فكم جنيها أخذتها البنوك الأخرى، وكم جنيها أخذها المرابون الآخرون من اليونان واليهود والأرمن والمسلمين وسائر ا لمتمدنين؟

و إني أعتقـد اعتقادًا جازمًا أن الأزمة الحالية، إنما هي نتيجة من نتائج الربا. فإن البنوك لو لم تفتح أبوابها في السـابق للمتهورين من المضاربين لما ذاقوا مرارة الفطام حين أغلقت أبوابها في وجوههم..

❐ إن إباحـة السرقة وقطع الطريـق أخف على عباد الله من إباحة هـذه المعاملة. فإني لا أشـك في أن السلبة وقطاع الطريق واللصوص والنصابين والمحتالين لا يسلبون من عباد الله في القطر المصري ربع هذا المبلغ في أربع سنين، وأن أربعة من أمثال هؤلاء المرابين لأشد على الأمة من جيش محارب يغلبها على أمرها..

❐ إن اسـتئجار النقود بربح كما تسـتأجر المنقولات غير ملائم، إذ المنقولات تسـتعمل في المنافع والمرافق مع بقاء أعيانها على ملك مالكيها، ترد إليهم عند انتهاء الإجارة بخلاف النقود، فإنها لا تستعمل إلا بهلك أعيانها فهي مملوكة لقابضها حين قبضها - على أن المنقولات إذا هلكت بسـبب اسـتعمالها فيما اسـتؤجرت لأجله بدون تعد من المسـتأجر هلكت عـلى ملك المؤجر ولا ضمان على مسـتأجرها - بهذا قضت جميع الشرائـع. ولا أظن أن أحدًا من أصحاب الأموال المعدة للربا يرضى بأن تهلك أمواله على ملكه إذا هلكت بغير تقصير من المقترض، و إن شـئتم فقولوا المستأجر.

❐ إن العمـل على طريقة المضاربة وتأليـف الشركات أرفق بمصالح الناس، و يبعد بهم عن أخلاق الشر التي تكون نابتة في نفوس من يتعاملون بالربا...

❐ و إن الشركات نسب ثان بين الغني والفقير لا تقوم مقامه لحمة القرابة..

❐ و إني أنصح للذين يتسقطون الكلمات من أفواه العلماء لإحلال الربا أن يتربصوا حتى يرسـل إليهـم نبي ضلالة. و ينزل عليه قـرآن جهالة، فهناك ما تتحلب له أشـداقهم من إحلال الربا - أما القرآن الذي جاء به محمد بن عبد الله فقد حال بينهم و بين ما يشتهون».

❐❐❐

- 9 -

الشيخ إسماعيل خليل

[1283 - 1345هـ - 1867 - 1927م]

❐ «[1]موضوع الربا يشبه أن يكون موضوع العالم بأسره، والباحث فيه لا بد باحث في الشرائع الإلهية والوضعية، باحث في الاجتماع، باحث في الاقتصاد، باحث في التجارة، متعرض في بحثه للأموال وأرباب رؤوس الأموال، له في كلامه مساس بالعلم والعلماء والفقه والفقهاء، له مساس بأفكار العامة وآراء الخاصة، له مساس بالمدنية الحاضرة والغابرة. سبحانك اللهم ما أشد مساسه بالسياسة والسياسيين والحاكمين والمحكومين..

إنه موضوع يحتاج إلى متكلم يقنع العالم المتمدن بضرر هذا النوع من المعاملات وما ينشأ عنه من الأخطار التي تهدد المدنية الحاضرة بالخراب العاجل.. وينزل أرباب الأموال من عرش جبروتهم، ويهبط بهم إلى حيث يصيرون مع باقي النوع الإنساني..

لذلك كنت ممن يرون أنه لم يكن من الحكمة وضع هذا الموضوع على بساط البحث بيننا الآن...

❐ إن كلمة الربا لا تكاد تخرج في استعمال العرب عن معنى الزيادة.

ولقد كانوا يطلقونها في معاملاتهم على نوع خاص، ألا وهو أن يؤجل الدين أو ما يبقى منه إلى أجل مسمى على شريطة أن يرده المدين عند الأجل مع فضل معين (وكأن الفضل في مقابلة الأجل).

❐ وإذا كان بعض الناس قد يرون في الربا شيئًا من المنافع، كتفريج الكرب عن

(1) من محاضرته بقاعة مدرسة عبد العزيز - في المنتدي الفكري الذي نظمته دار العلوم - القاهرة - في 22 ربيع أول سنة 1326هـ - إبريل 1908م.

المحتاجين وقت الحاجة وكالمساعدة على انتشار التجارة بين طبقات الأمم. فلا يخفى على أحد أنه مقتلة الفقير، ومستنزف ثروة الكثير، ومولد الأحفاد، والمسهل لانتشار أنواع الفساد، وهو الداعية لحصر الثروة في طبقة من الطبقات ترى نفسها القابضة على زمام العالم المحركة لفلكه الأعظم.. وقد يفضي الزهو بهذه الطبقة (بفضل الربا) إلى أن تتخلى عن الزراعة والصناعة وأنواع التجارة اتكالاً على ما تضمنه لنفسها من فائدة الأموال..

❐ أليس في ذلك ما يوغر الصدور و يولد الأحقاد و يقذف بالفقير إلى مهاوي الاشتراكية.. و ينزع إلى منازع الفوضى التي تزعزع أركان العالم، وبذا نوشك أن نرى المدينة ساقطة من أعلى عروشها، و إذ ذاك يؤذن مؤذن الفساد أن حاق البلاء بالعباد..

❐ ولعلي لا أخطئ إذا قلت إن هذه الأزمة المالية الحاضرة المنتشرة في أنحاء العالم.. إنما هي أثر من آثار استعمال الربا، فإن أرباب الأموال المرابين بسطوا كفهم للعالم.. فأخذت الثروة الموهومة تعظم.. حتى إذا ما مني العالم بحادث خسرت تجارة الكثيرين.. ففزعت قلوب أرباب الأموال.. فاستردوا الكثير منها مع أرباحها، فأدى ذلك إلى إفلاس كثير من البيوت المالية فوقفت الحركة من أساسها، وضاعت أعمال العاملين، وهضمت الحقوق في جوف خزائن الماليين.

❐ إن ربا النسيئة محرم بنص الكتاب العزيز، و إن جاحد تحريمه جاحد للنص الصريح، محكوم عليه عند العلماء الكثيرين بالكفر والعياذ بالله.

و إن قليل الربا وكثيره سواء في التحريم، فهو حرام بالإجماع، حرام بالنص ا لصريح، حرام بالعقل، حرام عند اليهود، حرام عند النصارى، حرام فيما نعلم من الشرائع الإلهية.

❐ يقول بعض ذوي الغايات السياسية! إن الإسلام هو السبب في عدم نمو المدنية الحاضرة بين معتنقيه، لأنه لا يقبل استعمال الربا بحال، مع أن هذه المدنية مبنية في جميع أحوالها ومعاملاتها عليه. وهي تهمة تبعد عن الحق بعد المشرقين. لو شاءوا لقالوا إن السبب في وقوف المسلمين عن المدنية هو عدم اتباعهم لأوامر دينهم القويم الذي بني على أساس متين، ولوحظ في كل قاعدة وضعت له باقي القواعد حتى إنك لتراه كالآلة الميكانيكية حتى اختل جزء منها تعطلت جميع الأجزاء..

لم يكن الدين الإسلامي وحده هو الذي لا ينضغط أمام المدنية الحالية بالنسبة للربا، كما يزعم الزاعمون، فإنه قد حرم في جميع الأديان الإلهية.. إن اليهودية والنصرانية لم يمرنا (كما يزعمون) أمام المدنية في الربا، و إنما مرن الناس أنفسهم، ونفضوا أيديهم من الأديان، وقد يعزر ذلك على المسلمين..

❐ لقد أصبح المرابون هم القابضين على أزمة الحكومات، المالكين لها في الحقيقة، لهم عليها اليد العالية والكلمة النافذة والحقوق الثابتة والأوامر المطاعة.

❐ إن الفرق بين البيع وبين الربا في الحقيقة هو أن البيع مظنة التراضي بخلاف الربا فإنه لا يقدم عليه الإنسان في الغالب إلا عند الحاجة، ففيه شبهة الإكراه والإلجاء..

❐ يقولون إن الزمن قد تغير وأصبح الحال منعكسًا، لأن الربا في الأزمنة السابقة - لم يكن يوجد إلا حيث تشتد الحاجة عند المدين و يعضه الإعسار بنابه فلا يستطيع بعد ذلك صبرًا فتلجئه ضرورة الحياة (لإكمال البذخ) إلى الاستدانة بأي طريقة كانت. أما الآن فقد أصبح الفقير هو الذي يداين الشركات الكبرى والمصارف (البنوك) وقد صار الذي يستدين إنما يطلب ذلك لينتفع بما يقترضه فيستغله و يربح من ورائه الأرباح الطائلة بواسطة الزراعة والتجارة والصناعة..

و إن العدل يقضي بتكاتف المال مع العمل واشتركهما في الربح والأمل.. وما أحق المضاربة الشرعية المسماة بالقراض ا(وهي الشركة بالمال من جهة والعمل من جهة أخرى بدون أن يعين ربح المال) بأن تحمل تحل الربا، فلا يحسد رب المال عاملًا بفكره ربح الكثير ولا ينفر إلى العامل من رب المال إذا ما خسر الخسران المبين.. إن الأعمال التي تعمل بالربا يمكن أن تعمل بطريقة من الطرق المشروعة إذا حصل تسامح من الطرفين حتى يعامل كل واحد صاحبه كشريك له ماله وعليه ما عليه..

والخلاصة: أن الربا المحرم بنص القرآن هو ربا النسيئة في الديون من قروض وغيرها متى كان الفضل مشروطًا في العقد. وهذا النوع هو المعروف في القرض بربا في هذه الأيام، سواء كان الربا فاحشًا أو غير فاحش، وسواء تعددت الآجال فيه حتى صار أضعافًا مضاعفة أولا، وسواء كان المستعمل له صغار المرابين في القرى والعزب والبلدان أو كبار الماليين فيما بينهم

أو في المصـارف «البنوك» الكبرى، كل هذا داخل تحت قوله تعالى: (وحرم الربا) ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]..

وإن ربا الفضل إنما حرم سـدًا للذرائع، وإنما سـمي ربا من باب الحمل على الربا الحقيقي (ربا النساء في الدين) وإلا فهو من باب البيوع المنهي عنها..

❐ وليسـت جميع معاملات البنوك من أنواع الربا، وإنما المعاملة المحرمة عندهم بلا شك هي القروض بالربا.

❐❐❐

- 10 -

الشيخ محمد سلامة

[1276 - 1347هـ - 1859 - 1928م]

❐ «[1]الربا لغة الزيادة، قال تعالى (اهتزت وربت)، أي زادت، فمعنى الربا في اللغة الزيادة مطلقا..

❐ ولا يتوهم التالي لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ [آل عمران: 130] أن المنهي عنه في هذه الآية الكريمة إنما هو الزيادة أضعافًا، فإنه لا يعقل أن المنهي عنه هو الأضعاف التي أقلها ثلاثة دون الضعفين أو الضعف. وكون العرب كانت تأخذ الضعف لا يصلح دليلاً بحال من الأحوال، لأن الذي في الآية (أضعاف) لا ضعف واحد.. والمراد من القيد، والله أعلم، لا تأكلوا أضعاف الزيادة بتوالي الأزمان، فإن الشأن في المرابي إذا عجز.. مدينه أنه لا يرضى إمهاله بدون عوض بل يضم زيادة العام الماضي إلى الأصل ويجعل للكل زيادة ثانية وهكذا فيأكل الربا الذي هو الزيادة أضعافًا مضاعفة، وهذا لا يقتضي حل الزيادة الأولى..

❐ ومن أمعن النظر بفكره، ونبذ غيه وراء ظهره، يعلم جليًا أن الله حرم كل ما يسمى ربا، ونفى الإيمان عن الذي لم يترك الربا، كما هو مفهوم قوله: ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: 278].

❐ ولقد بين سبحانه أن اجتناب ما نهي عنه يكون بأخذ رأس المال ليس غير، ولذلك قال جل وعلا: ﴿ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 279]. ولا يقول عاقل بأن جزءًا من الربا قليلاً كان أو كثيرًا يكون من رأس المال.

(1) من محاضرته بقاعة مدرسة عبد العزيز - ضمن محاضرات التي تظمها نادي دار العلوم - القاهرة - في 12 ربيع أول سنة 1326هـ. إبريل 1908م.

❐ وعـدوى الربا عدوى زهرية آتية من الغرب، وسرت في شرايين أغلب المصريين حتى ذهبت بأغلب ثروتهم، كما هو مشـاهد. ونرى أكثر المصريين يرابي بلا فرق بينهم في النحلة، حتـى عظـم الداء وعز الـدواء. ومع ذلك فإن الغربيين ليسـوا على وفاق في حـل الربا، بل قال بعضهـم بعدم جـوازه، كما هو منصـوص عليه في كتـاب تاريخ الاقتصـاد الاجتماعي تأليف العلامـة دوجيرار الأسـتاذ بكلية جنيف. فقد بين فيه أن مذهـب تحريم الربا يحتج بأن النقود ليسـت مقصودة لذاتها، وإنما هي وسـيلة مبادلة للحصول على ما تُسـد به الحاجة. وقد ألف في تحريم الربا كثير من علماء الغرب. وسنسـمع لأنين الربا ضجة كما سـمعنا في استعمال الخمر وأكل لحم الخنزير..

❐ لقـد توهم قـوم أن تحريم الربا حجر عثرة أمام التقدم، وما دروا أنه حاجز حصين من المخاطرة بالأموال، لو جعلوا برهان تحريمه نصب أعينهم عاملين به.

❐ ومـع ذلك، فهل أعمال المصارف قاصرة على السـلفة؟ كلا، بـل أنواعها كثيرة، وبعض المصـارف قد منع القرض بتاتًا، وإنما يشـتغل بأشـياء أخرى مثل الحوالـة وغيرها مما هو معلوم للخبير بأعمال التجارة.

❐ ويـا حبذا لو اجتمع سراتنا وعقدوا الخنـاصر على إيجاد مصرف عظيم كافل بحاجات الأمة، مبني على قواعد متينة ودعائم عظيمة، ثم تجري فيه الأعمال على وفق النصوص الشرعية، مثل المضاربة والحوالة بأجر، وغير ذلك.

❐❐❐

- 11 -

الشيخ دسوقي جوهري

❐ «[1]مـا هي تلك المدنية التي يريـدون أن نرجع ديننا إليها، وقد عرفنـا منها ما عرفنا؟. أليـس في إرجاع المدنية الحاضرة إلى الدين الإسـلامي مدنية أخـرى لا تدانيها تلك المدنية، بل الوحشـية؟ أظن أن تاريخ الإسـلام والمسـلمين في العصور الأولى، والمسـلم في بداوته، يشهد بهذا..

❐ إن تحريم الربا بجميع أنواعه كما هو إجماع المسلمين ليس هو العلة في تأخرنا، بل ولا هو إحدى العلل في ذلك كما يزعمون، كيف هذا هو من أهم الأسـباب في تقدم المسـلمين في الصدر الأول من الإسلام.

إن ديننـا على جموده، كـما يزعمون، خير لنا من مدنية أوروبا على سـيولتها وميوعتها. إن العلة في تأخرنا السـكون والموت، وفي تقدمهم الحركة والحياة.. وإن أنفع شيء في تقدمنا ومحو العـار عنـا وعن ديننـا هو العمل، فإن أهل الغرب سـبقونا مـن عهد بعيد في الفلسـفة العملية، وتركـوا لنـا الفلسـفة القولية، على أنهم أعرف منا بهـا أيضًا، والقوة هي أكبر سر عند فلاسـفة اليوم، فالعمل هو قوتنا..

❐❐❐

(1) من محاضرته التي ألقاها بقاعة مدرسة عبد العزيز - بالقاهرة - ضمن المحاضرات التي نظمها نادي دار العلوم - في 29 ربيع الأول سنة 1326هـ - مايو 1908م

- 12 -

الدكتور توفيق صدقي

[1298 - 1338هـ - 1881 - 1920م]

❐ «[1]إن تقسيم الربا إلى قسمين: (ربا الفضل) و(ربا النسيئة) هو اصطلاح حادث صنعه الفقهاء في الإسلام بعد زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه، ولذلك لم يرد هذا التقسيم ولم نسمع بهذه الأسماء في كلام العرب قبل الإسلام. ولا في كلام النبي ﷺ ولا في كلام أصحابه رضوان الله عليهم. ولا ينافي ذلك حديث: **«إنما الربا في النسيئة»** أي في التأخير، فإن ذلك جملة خبرية ليس فيها تسمية الربا (بربا النسيئة) أي بإضافة لفظ (ربا) إلى كلمة (نسيئة)، فإن مثل هذا التعبير ما كان مستعملًا بينهم..

والربا المعهود عند العرب هو هذا الذي سماه الفقهاء فيما بعد بربا النسيئة، وما كانت العرب تسمي غيره (بالربا)، فإذا سمعوا هذا اللفظ لم ينصرف عندهم إلا إليه، وهو الذي ورد في القرآن الشريف تحريمه، ولم يرد فيه تحريم سواه كما أجمع على ذلك أئمة المسلمين ومفسروهم. وأما تحريم ما يسمونه (ربا الفضل) فإنما استفيد من الأحاديث.. وليس في القرآن أي دليل على تحريم ربا الفضل، أو أي إشارة إليه، بل إن قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ يشعر بحله، وهو لا يدخل في قوله: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾...

❐ وإن الربا هو استغلال الغني حاجة الفقير، كما قال الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية سابقًا، رحمه الله. وإن السبب في تأجيل الدفع عند حلول الأجل هو عدم وجدان المدينين ما يدفعونه لدائنيهم..

❐ أما من أخذ مالًا لاستغلاله، على أن يعطي صاحبه جزءًا من ربحه منه فلا يسمى ذلك

(1) من محاضرته التي ألقاها بقاعة مدرسة عبد العزيز - بالقاهرة - ضمن المحاضرات التي نظمها نادي دار العلوم - في 29 ربيع الأول سنة 1326هـ - مايو 1908م.

عنـد العرب (ربا) و إنما هو مضاربة. وقول الفقهاء بوجوب عدم تعيين قدر الربح فيها لا دليل لهـم عليـه ، إلا فليأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين! وأي فـرق بين تعيين قدر الربح في المضاربة وبين تعيينه في حالة من أعطيته أرضًا لزراعتها على أن يعطيك سنويًا قدرًا من النقود واتفقتما عليه. ففي كلا الحالتين لا يمكن لمن تعامله أن يضمن ربحه ولا أن يعرف قدره باليقين. يقولـون بحل تعيين قدر الربح في حالـة الزراعة وبتحريمه في حالة المضاربة مع أنه لا فرق في الحقيقـة بين الحالتين. أمـا الفرق الذي يذكرونـه في أن المال في المضاربة يجب اسـتهلاكه قبل استغلاله بخلاف الأرض التي تؤجر للزراعة فلا يمكن استهلاكها فهو فرق لا يفسر لنا صريحًا الحكمـة في إباحة تعيين قدر الربح في الزراعة دون المضاربة مع اسـتواء الاثنين في عدم قدرة أحـد عـلى الجزم بالربح في أيهما ولا بقدره فيهما. وكون المال قابلاً للضياع دون الأرض لا دخل لـه أيضًـا في معرفة الربح وقدره إذا لم يضع المال.. فالمضـارب بما له إذًا مخاطر به بخلاف الذي يؤجر أرضه لزراعتها فإنه آمن مطمئن عليها، فإذا أبيح لمن يؤجر أرضه لغيره أن يأخذ منه مالًا معينًا عليها كان من يضارب بما له أولى بأن يعين قدر الربح على من يضاربه، لأن ماله على شفا الخطـر، و إذا صـح أن يكون جواز ضياع المال علة لتحريم تأجيره فلم لا يحرم تأجير الدواب وهي أكثر تعرضًا للضياع والفقد من المال؛ واسـتهلاك عين المال لا يطعن في كون قيمته باقية عنـد من تضاربه وهي التي يسـتغلها و يربح منها، فأي ضرر في مشـاركتك لـه في الربح الذي يربحه من مالك؟؟..

❐ فإن قيل إن قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ينافي جـواز أخذ أي زيـادة عن رأس المال، قلـت: ذلك صحيح في موضوع الربـا فقط.. فليس المـراد من الآيـة أنه لا يجوز أخـذ زيادة على رأس المـال في أي معاملة كانـت، إذ لو صح ذلك لكان البيع نفسـه أيضًا حرامًا فإن فيـه أخذ زيادة عن رأس المال كما لا يخفي، فالآية بالإجمـاع قاصرة عـلى موضوعها الذي وردت فيـه وهو الربا، ولا يمكن أن يسـتفاد منها في تحريم سواه.

ومتـى قبل كل من صاحب المال والمسـتغل أن يكون الربح الـذي يأخذه الأول من الثاني معينًا فلا ضرر في ذلك ولا ظلم، لأنه كما يجوز أن يكون ما يأخذه من الربح في بعض الأحيان كبيرًا كذلك يجوز في أحيان أخرى أن يكون صغيرًا بالنسبة للربح الذي حصل عليه المستغل،

ومـا دام الاثنـان متفقين على ذلـك وراضيين به فيكـون عملهما كعمل من يؤجـر أرضه لغيره ليزرعها بأجر معين في السنة سواء ربح الزارع قليلاً أو كثيرًا.

والخلاصـة أن المضاربـة حلال مطلقًا، عين الربح فيهـا أو لم يعين ، ولا دليل عند ا لفقهاء على تحريمها عند التعيين، ولم يرد عن الشـارع نص على هـذا التحريم الذي جروا عليه تقليدًا لأفكار غيرهم فأوقعوا الأمة في الحرج العظيم، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]...

❐ إن ربـا الفضل حرم في الأحاديث سـدًّا للذريعة. لأنه قد يـؤدي إلى الربا الحقيقي (ربا النسـيئة)، وما حرم سـدًا للذريعـة يباح للمصلحة، كما قـال الإمام ابن القيـم في كتابه إعلام الموقعين. ويجوز أن يكون النهي عنه للكراهة لا للتحريم..

والخلاصـة: أن ما قاله الفقهاء في الربا متغال فيه، وربا الفضل ليس بحرام مطلقًا، ويجوز أن يكون نهي النبي ﷺ للكراهة فقط، فمن أتاه ليس عاصيًا لله ولا لرسـوله، ولذلك اختلف فيه المسلمون سلفًا وخلفًا، ولم يرد في القرآن ولا عن رسول الله نص قاطع بالتحريم...

❐ **وللمصارف (البنوك) إذا كانت إسلامية أن تتصرف هكذا:**

أولًا: أن تبيع مائة جنيه بمائة وخمسـة جنيهات مثلًا بيعًا مؤجلًا، أي يدفعها المشـتري بعد زمن معين.

ثانيًا: أن تأخذ ربحًا سنويًا ممن أخذ منها نقودًا لاستغلالها بتجارة أو زراعة أو نحوهما.

ثالثًا: لأصحاب الأموال المودعة في البنك أن يعاملوه بالطريقتين السابقتين أيضًا.

رابعًـا: لا يبـاح للبنك أن يأخذ ربحًا بسـيطًا متكـررًا ولا ربحًا مركبًـا (كما في اصطلاح الرياضيين) ممن أخذ منه نقودًا لاسـتهلاكها في حاجته ولم يقدر على ردها عند حلول الأجل، فـلا يجوز له أن يزيد عليه شـيئًا سـنويًا لحين دفعها، بل يجب الانتظـار عليه لحين تيسر حالته بـدون أخـذ ربا (فنظرة إلى ميـسرة)، أما إذا أخذ منه لمـدة واحدة مالاً على أن يـرده إليه زائدًا لأجل إمهاله زمنًا فهذا ضرب من ضروب البيع و إن كان مؤجلا، والفرق بين هذه الحالة وحالة الربـح البسـيط المتكرر أو الربح المركـب أن الزيادة في الحالة الثانيـة لا يعرف لها حد تقف

عنده، فيمكن أن تزيد زيادة فاحشة حتى تكون قاضية على المدين، ولكن الزيادة لأجل المدة الواحدة لا ينتج منها هذا الضرر الكبير، ولذا أبيح البيع وحرم الربا. وسواء كان الربح بسيطًا متكـررًا أو كان مركبًا فإنه يؤدي إلى الربا المضاعف، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

خامسًـا: أن يضع البنك من القوانين المطابقـة للشريعة ما يحفظ به أمواله من الضياع من أيدي الناس، ومثل هذه القوانين عملها ليس عسيرًا على الماليين والمفكرين..

❐❐❐

- 13 -

العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز

[1312 - 1377هـ - 894 - 1958م]

❐ «لقد دخل الإذن بالربا في التشريع - بالبلاد الإسلامية - تحت ضغط السلطات الأوروبية المحتلة للأقطار الإسلامية، وبقيت الشعوب الإسلامية نفسها مدة طويلة متمردة على فكرة تأسيس مصارف وطنية تكون مهمتها التصرف في جميع المعاملات المالية التي منها القرض بقائدة.

❐ وإن الفئة التي تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره - وهي فئة من المتعلمين ليس لهم رسوخ قدم في علوم القرآن - لم تكتف بأنها خالفت إجماع علماء المسلمين في كل العصور، ولا بأنها عكست الوضع المنطقي المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامي بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق في إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه، ويتدلي إلى وضع غير كريم، بل إنها قلبت الوضع التاريخي، إذ اعتبرت النص الثالث [آل عمران: 130] مرحلة نهائية، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية في التشريع: لم يختلف في ذلك محدث ولا مفسر ولا فقيه.

❐ وليس هناك دليل في الآية على أن كلمة الأضعان شرط لا بد منه في التحريم، إن من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش الذي بلغ مبلغًا فاضحًا من الشذوذ في المعاملات الإنسانية، من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التي تقل عنه في الشذوذ..

ومن جهة أخرى، فإن قواعد العربية تجعل كلمة [أضعافًا] في الآية وصفًا للربا لا لرأس المال، كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين.. ولو كان الأمر كما زعموا لكان «القرآن» لا يحرم من الربا إلا ما بلغ 600 % من رأس المال.. بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغييرًا تامًا، بحيث لو افترضنا ربحًا قدره واحد في الألف أو المليون لصار بذلك عملاً محظورًا غير مشروع بمقتضى النص الذي يتمسكون به..

إن المفهوم من كلمة الربا كل زيادة على رأس المال.. أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوروبي حديث، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع.

إن مجرد تقرير ربح مضمون لرب المال، دون أن يكون في مقابل ذلك ضمان ربح للمقترض، فيه ما فيه من محاباة للمال، و إيثار له على العمل! و إن الضرر الذي ينجم عن ذلك من أنواع الأضرار الأدبية، أو الأغلاط النظرية فحسب - وأعني بها قلب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية - موضعًا نازلًا، وتفضيل القيم المادية عليها، - بل إنه يمس بناء الجماعة مسًا عنيفًا عميقًا، ذلك أننا بهذه الوسيلة نزيد في توسيع المسافة، وتعميق الهوة بين طبقات الشعب، بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة، بدلًا من أن نشجع المساواة في الفرص بين الجميع، وأن نقارب بين مستوى الأمة، حتى يكون أميل إلى التجانس، وأقرب إلى الوحدة.

إن للمحة البارزة في التشريع القرآني، وكذلك في كل تشريع اجتماعي جدير بهذا الاسم، هو الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح، والسعي لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة. إنها لكلمات قصيرة، ولكنها ذات مدى بعيد، تلك التي يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة، حيث يقول: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7].

❐ أما الضرورات، فلأجل أن يكون تطبيق حكم الضرورة على مسألة ما تطبيقًا مشروعًا، فلا يكفي أن يكون المرء عالمًا بقواعد الشريعة، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ما يحجزه عن التوسع أو عن التسرع في تطبيق الرخصة في غير موضعها، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة في الإسلام، فإنه إن فعل ذلك عسى ألا يجد حاجة للرخص ولا للاستثناء، كما هي سنة الله في أهل العزائم من المؤمنين: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ [الطلاق: 2، 3].

❐ و إن هذه المسألة - مسألة الربا - هي من الشئون التي لا يقضي فيها فرد أو بضعة أفراد، بل ينبغي أن يتداعى لها طوائف من الخبراء في التشريع والسياسة والاقتصاد من كل جانب، وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة. من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلة»[1].

(1) [الربا في نظر التشريع الإسلامي].

- 14 -

دكتور معروف الدواليبي

[1327 - 1424هـ - 1909 - 2004م]

❐ «[1] يؤخذ من وقائع الربا في الجاهلية، ومن النصوص القرآنية، والسنة النبوية، وإيضاحات أئمة المذاهب والفقهاء أن (الربا) الذي تناوله الإنذار الإلهي - [في آيات البقرة: 278 - 281] - هو (الظلم). وبناء على ذلك، فإن هذا (الدين الربوي الظالم) هو كل عقد جديد في (الزيادة) على ذلك (الدين) الذي حل أجله عملًا بعقد تجاري مشروع، وكان المدين فيه (معسرًا) (وممن يستحقون الصدقة)، فقال المعسر للدائن: (زدني في الأجل وأزيدك في المال)..

أما (عقود المصارف) فهي في الأصل (عقود استثمار) تجارية بالتراضي مع كبار رجال الأعمال من أهل الثراء، ضمن شروط من تعيين نسبة من الأرباح جرى العرف العالمي على تعيينها مسبقًا[2]. ومن المعلوم في الأحكام الشرعية أن المسلمين على شروطهم في الأصل...

❐ إن الربا محرم تحريمًا قطعيًا لا شك فيه. وإن الربا المجمع على تحريمه بلا شك، هو (ربا النسيئة) الذي كان معمولًا به في الجاهلية.. أما (ربا الفضل) فقد حرم سدًا للذريعة، وما كان كذلك فيجوز (للمصلحة)، كما قال به العلامة، ابن القيم، والسيد رشيد رضا في فتاواه.

ومعنى ذلك أن النص عند عقد الدين على الزيادة على أصل الدين في مقابلة الأجل هو (ربا الفضل). أما إذا حل الأجل المحدد في العقد، وطلب المدين تأجيله في مقابلة زيادة جديدة فذلك هو (ربا النسيئة) المجمع على تحريمه..

(1) بحث «حول موقف الشريعة من المصارف: الأحكام والقواعد العامة الشرعية» وهو الذي قدمه إلى مؤتمر الفقه الإسلامي - بباريس - 1951م.. ولقد أضاف إليه - بعد ذلك - مقدمة - وتذييلات..

(2) في التذيل الذي أضافه الدكتور الدواليبي - بعد هجرته إلى السعودية - يشترط عدم تحديد الأرباح التي يأخذها صاحب المال.

❐ و إن الحكمة في تحريم الربا هي (إزالة الظلم) عملًا بنص القرآن ا لكريم، والمحافظة على فضيلة التراحم والتعاون بين الأفراد والجماعات، وأن لا يستغل الغني حاجة أخيه الفقير.

❐ والمصارف هي مؤسسات تجارية حديثة لم تكن معروفة في عهد نزول أحكام الربا في الشريعة الإسلامية ولذلك تخضع المصارف للأحكام الشرعية على طريق القياس.. ويجب النظر فيها على أساس مصالح الناس في معاشهم.

❐ **وخصائص الربا القرآني المحرم:**

1- أن (المدين محتاج للصدقة) عملًا بظروف الدين، ولذلك فهو (مظلوم) بأخذ الربا منه.

2- وأن (الدائن ينفرد وحده بالمنفعة من الربا، و يستغل أبشع استغلال ظروف المدين المحتاج للصدقة)، لذلك فهو (ظالم).

3- وتنمية مال الدائن في أموال المدينين، واستغلاله لحاجاتهم (من غير تجارة ينتفع بها الطرفان).

4- وأن هؤلاء المرابين قد استعجلوا الأرباح فأتوها من غير طريق التجارة، وهو طريق استغلال ظروف المحتاجين. للصدقة الذين قلما يستطيعون وفاء ديونهم، وما تراكم عليهم من ربا المرابين.

5- وفي الربا القرآني - (ربا النسيئة) - فإن الزيادة طارئة أضيفت إلى الدين ثم فرضت على المدين رغم أنه محتاج للصدقة، وتشرط عليه بعد حلول أجل الدين رغم عجزه عن الوفاء، وتلك زيادة بعقد جديد مستقل عن العقد الأول، ولا يقابلها في هذا العقد. غير تأجيل الاستيفاء من المدين، أي (الإنساء)..

❐ **[وليس كذلك خصائص المعاملات المصرفية].. ففيها:**

1- أن (الدائن) هو دائمًا من (صغار ا لمالكين لرأس المال)، غير أنه يملك (سيولة مالية صغيرة)، أي (وفرًا قليلًا لا يستطيع استثماره)، وأما (المدين) فهو دائمًا من (كبار المالكين لرأس المال)، غير أنه لا يملك أية (سيولة) لتسيير أعماله الكبرى، وذلك

بسـبب توظيفـه لكل وفر لديـه في أعمالـه ومشروعاته الكـبرى، وهكذا يتضح هنـا أن الذي يحتاج للآخريـن في المعاملات المصرفية هم دائمًـا (الأغنياء الكبار) الذين يمـدون أيديهم لوفر (المالكين الصغار) دون العكس، وبالنتيجة فإن هؤلاء الأغنيـاء الكبـار لا تحل لهم صدقـة (المالكين الصغـار) فيما لو طلبنـا إلى هؤلاء الصغار أن يتوبوا وأن يتصدقوا برؤوس أموالهم على المدينين الأغنياء، كفارة لهم عما سلف..

2- والدائن هنا، وهو (المالك الصغير)، لا يختص وحده بالمنفعة دون المدين كما هو الحال في الربـا القرآني، ولا يسـتغل مدينًا محتاجا للصدقة. بل يشـترك مـع الأغنياء الكبار في المنفعة بموجب عقد رضائي تجاري لاسـتغلال فيه.. (فالمدين) فيها وهو المالك الكبير، مشـترك مع (الدائن) وهو المالك الصغير، وذلك باستثماره رؤوس أموال الدائن الصغير بمـا فيه مصلحة الجميع، وذلك عن طريق الاتجار بما يسـمى في الشرع الإسـلامي بعقد المضاربة..

3- والمعاملـة المصرفية ليسـت مجرد تنمية لمـال الدائن وحده في أمـوال المدينين، كما هو الحـال في الربا القرآني، وإنما هـي تجارة من نوع جديد جرى التعـارف عليها، ودعت إليها حاجة النـاس أجمعين، حتى أصبحت مصالحهم لا تتم إلا بها، وينتفع بها الطرفان المعطـي والآخذ، ولولا هـذه المعاملة لفاتت المنفعة في آن واحـد على المعطي والآخذ، وتعطلت مصالح الطرفين.

4- وفي المعاملـة المصرفية، تقوم إدارة المصرف نيابة عـن الطرفين باتخاذ جميع الإجراءات والضمانات اللازمة لسـلامة المعاملة، على النحو الذي يجعل المعطي والآخذ مسـتريح البال.

5- والزيادة - في المعاملات المصرفية - إنما تشترط في أصل عقد الدين لأغراض تجارية مع مدينين أغنياء من رجا ل الأعمال. وليسـت طارئة عند حلـول الأجل مع المدين الفقير المحتاج للصدقة، وذلك ما يجعلها في الأصل ذات صفة تجارية في (المعاملات المصرفية)، أي في مقابل منافع متبادلة..

❐ [1] فخصائص المعاملات المصرفية لا تتفق في حالة ما مع خصائص الربا القرآني، ولذلك فهي شيء جديد لا يخضع حكمه للنصوص القطعية في (الربا القرآني) المحرم..

❐ [2] أرى تكييف معاملات المصارف في حالتي الإيداع والإسلاف على أساس أحكام الشريعة في المضاربة والقراض، وذلك بإصدار مادة نظامية قانونية واحدة ذات ثلاث فقرات، كما يلي:

أولًا: لا يسمح للمصارف بقبول الودائع و إعطاء السلف للشركات ورجال الأعمال إلا على أساس أحكام المضاربة الشرعية.

ثانيًا: تتعهد المصارف في هذه الأحوال، وكذلك المستلفون بكفالة حد معين من الأرباح من قبل المصارف أولًا للمودعين، وكذلك من قبل المستلفين ثانيًا للمصارف.

ثالثًا: يخضع هذا الحد من الأرباح في كلا الحالتين إلى الزيادة والنقص من وقت لآخر تبعًا لظروف الأوضاع الاقتصادية وللأرباح المنتظرة فيها».

❐❐❐

(1) الفقرات التالية جزء من إضافات الدكتور الدواليبي لبحثه، بعد أن انتقل إلى المملكة العربية السعودية سنة 1965م.. فلقد أضاف إلى بحثه فقرات تحت عنوان (الخلاصة) وتحت عنوان (الرأي) وتحت عنوان (موجز حول موقف الشريعة من المصارف).. وفي هذه الإضافات ذكر اسم المملكة العربية السعودية ونظمها صراحة.

(2) هذا الرأي الذي رآه الدكتور الدواليبي - وهذه المواد القانونية الذي ذكرها، هي من ثمرات تطور فكره - حول الموضوع - بعد استقراره بالمملكة السعودية، مستشارًا لخادم الحرمين الشريفين.. وهو في هذا الرأي قد عاد إلى رأي جمهرة العلماء: أن تقوم المصارف بتجميع المدخرات لتوظيفها في المضاربة الشرعية.. وليس في الاتجار بالنقود المدخرة فيها - إذ الاتجار بالنقود - في الشريعة - حرام.. وأن يكون العائد لأصحاب المدخرات غير ثابت، يتحمل فيه المدخر الغنم والغرم - المكسب والخسارة - كما هو الحال في المضاربة الشرعية.. وليس عائدًا ثابتًا كما هو الحال في المصارف، التي كتب الدكتور الدواليبي بحثه - سنة 1951م - دفاعًا عنها..

فالرجل - عليه رحمة الله - بهذا الرأي الذي ذيل به بحثه قد راجع موقفه القديم.. وتلك المراجعات هي من حسنات كبار العلماء..

- 15 -

سيد قطب

[1324 - 1386هـ - 1906 - 1966م]

❐ «[1] إن الوجه المقابل للصدقة هو الوجه الكالح الطالح، وجه الربا.

❐ ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الله إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا. ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا. ولله الحكمة البالغة - فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره، ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر..

❐ إنهما نظامان متقابلان: النظام الإسلامي، والنظام الربوي! وهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة..

❐ إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي.. على أساس أن الله - سبحانه - هو خالق هذا الكون.. وهو مالك كل موجود بما أنه موجده، قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض.. في إطار من الحدود الواضحة.. استخلفه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله، وحسب شريعته.. فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ.. وما وقع منه مخالفًا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف.. فالناس هم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد وليسوا ملاكًا خالقين لما في أيديهم من أرزاق.

❐ ومن بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله، فيكون بعضهم أولياء بعض، وأن ينتفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل - لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية - ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة - فمن وهبه الله سعة أفاض من

(1) [في ظلال القرآن] طبعة دار الشروق سنة 1401هـ `1981م ص. 917 - 273.

سعته على من قدر عليه رزقه، مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسره الله له..

❐ والمؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره.. ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾.

❐ والربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقًا، ونظام يقوم على تصور آخر. تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى، ومن ثم لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها..! إنه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر، فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء، وهو غير مقيد بعهد من الله، وغير ملزم باتباع أوامر الله!

ثم إن الفرد حر في وسائل حصوله على المال، وفي طرق تنميته. كما هو حر في التمتع به، غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين، ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذي الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته.

كذلك يقوم هذا النظام على أساس تصور خاطئ فاسد، هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال - بأية وسيلة - واستمتاعه به على النحو الذي يهوى! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به، ويدوس في الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين!

ثم ينشيء في النهاية نظامًا يسحق البشرية سحقًا ويشقيها في حياتها أفرادًا وجماعات ودولًا وشعوبًا لمصلحة حفنة من المرابين.. وينتهي - كما انتهي في العصر الحديث - إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شرًا، وشرذمة ممن لا يرعون في البشرية إلا ولا ذمة، ولا يراقبون فيها عهدا ولا حرمة، وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادًا، كما يداينون الحكومات والشعوب - في داخل بلادهم وخارجها - وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدًا..!

إنهم لا يملكون المال وحده.. وإنما يملكون النفوذ.. وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد

العالمي وفق مصالحهم المحدودة، مما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد، وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين، الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية!

❐ والكارثة التي تمت في العصر الحديث - ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية - هي أن هؤلاء المرابين - الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية، كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية - قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة، داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها - سواء في ذلك الصحف والكتب الجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال، ودور السينما وغيرها.. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي..هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي.. حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته..!

❐ إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة - وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم. وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة «دكتور شاخت» [1877 - 1970م] الألماني ومدير بنك الرايخ الألماني سابقًا. وقد كان مما قاله في محاضرة بدمشق سنة 1953م: إنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جدًا من المرابين. ذلك أن الدائن المرابي يربح دائمًا في كل عملية، بينما المدين معرض للربح والخسارة. ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد - بالحساب الرياضي - أن يصير إلى الذي يربح دائمًا!.. وإن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل. فإن معظم مال الأرض الآن يملكه - ملكًا حقيقيًا - بضعة ألوف! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك، والعمال، وغيرهم. فهم ليسوا سوى إجراء يعملون لحساب أصحاب المال، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف!..

❐ إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين. فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين.. أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياهم هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك. إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها. وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف. وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون.. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار!

❐ إن الربا الذي كان معروفًا في الجاهلية.. له صورتان رئيسيتان: ربا النسيئة.. وربا الفضل.. واليوم يري بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا - ربا النسيئة - يريدون أن يحلوا - دينيًا - وباسم الإسلام! الصور الأخرى المستحدثة التي تنطبق في حرفية منها على ربا الجاهلية!

ولكن هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية.. فالإسلام ليس نظام شكليات. وإنما هو نظام يقوم على تصور أصيل. فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة، وإنما كان يناهض تصورًا يخالف تصوره ويحارب عقلية لا تتمشى مع عقليته. وكان شديد الحساسية في هذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعادًا الشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جدًا!...

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده.. ولا مجال للمماحكة في هذا ولا للمداورة!

❐ أما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة. لها وسيلة الجهد الفردي. ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة، وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه، ومقاسمته الربح والخسارة. ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق - بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح - وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه. ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة - على أن تسهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة -

ولا تعطيهـا بالفائـدة الثابتة - ثم مقاسـمه المودعين الربح على نظام معين أو الخسـارة إذا فرض ووقعت.. وللمصارف أن تتناول قدرًا معينًا من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال.. ووسـائل أخـرى كثيرة.. ممكنة وميسرة لتنمية المال.. وذلك حين تؤمن القلوب.. وتصح النيات على ورد المورد النظيف الطاهر، وتجنب المورد العفن النتن الآسن».

❐❐❐

- 16 -

الإمام محمود شلتوت

[1310 - 1383هـ - 1893 - 1963م]

[* الربا المحرم هو ربا الجاهلية - الأضعاف المضاعفة والقرض بالأرباح جائز للضرورة..

*** والشركات التعاونية المساهمة - معاملة جديدة غير المضاربة..**

*** وتحديد عائد الربح على الأسهم حلال..**

*** والسندات مباحة للضرورة..**

*** وأرباح صندوق التوفير - المحدودة - حلال -..]**

❐ «الربا الذي نزل فيه القرآن.. حدد بالعرف الذي نزل فيه القرآن، بالدين يكون لرجل على آخر، فيطالبه به عند حلول أجله، فيقول له الآخر: أخر دينك، وأزيدك على مالك، فيفعلا ذلك، (وهو الربا أضعاف مضاعفة)، فنهاهم الله عنه في الإسلام.

وواضح أن هذا الصنيع لا يجري عادة إلا بين معدم غير واجد، وموسر يستغل حاجة الناس.. وهذا النوع من لا تقبل إنسانية فاضلة الحكم بإباحته، وقد قابل القرآن الكريم حرمته في جميع الآيات التي وجد فيها بالصدقة التي نبذلها في مساعدة الفقير المحتاج، وتشير هذه المقابلة إلى أن تلك الحالة كان جديرًا بها في أن تجري فيها الصدقة. وهي التبرع المحض. فإن لم تكن صدقة - فلا أكثر من الرد بالمثل ومن النظرة إلى الميسر ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: 276] - ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 279، 280].

❐ الضرورات والحاجات:

وإني أعتقد أن ضرورة المقترض وحاجته مما يرفع عنه إثم ذلك التعامل، لأنه مضطر أو في

حكم المضطر، والله يقول ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119] - وقد صرح بذلك بعض الفقهاء، فقالوا: يجوز للمحتاج الاستقراض بالربح.

و إذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة، وكان تقديرها مما يرجع إليهم وحدهم، وهم مؤمنون يصيرون بدينهم، فإن للأمة أيضًا ضرورة أو حاجة ، كثيرًا ما تدعو إلى الاقتراض بالربح. ولا ريب أن الإسلام الذي يبني أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرر، والعمل على العزة والتقدم وعلاج التعطل، يعطي للأمة في شخص هيئتها وأفرادها هذا الحق، و يبيح لها - ما دامت مواردها في قلة - أن تقترض بالربح لتلك المصالح التي بها قيام الأمة وحفظ كيانها.

❐ تقرير الحاجة والمصلحة لأولي الرأي:

غير أني أرى أن يكون تقدير الحاجة والمصلحة مما يؤخذ عن (أولي الرأي) من المؤمنين القانونيين والاقتصاديين والشرعيين، و يكون ذلك في ناحيتين: ناحية تقدير الحاجة، وناحية تقدير الأرباح، واختيار مصادر القروض، فلا يكون قرض إلا حيث تكون الحاجة الحقيقية، ولا يكون قرض إلا بالقدر المحتاج إليه، وتدفع إليه الضرورة والحاجة، ولا يكون قرض إلا من جهة لا تضمر استغلالنا واستعمارنا.

ولو أن الأمم الإسلامية تكاتفت على وضع أساس اقتصادي يحقق مصالحها، و يقيها شر التحكم الأجنبي، لوجدوا من مبادئ الإسلام الاقتصادية ما يجعلهم في مقدمة الأمم اقتصادًا وقوة وحضارة.

❐ وهذه الشركات التعاونية:

- التي يقوم عليها مديرون وعمال بمرتبات ثابتة.. ولا شأن لهم برأس المال ولا بالربح - قد فقدت عنصر المضاربة - التي تكلم عليها الفقهاء - وهو: أن يكون المال من جانب والعمل من جانب آخر، فلا تكون منها، و إنما هي فرع جديد من الشركة أحدثه أهل التفكير في طريق الاقتصاد والاستثمار، ولم يكن معروفًا للفقهاء من قبل.

و إذا كانت هذه الشركات إنما تنشأ للبقاء والاستثمار، ورأي مؤسسوها لذلك أن توزع أرباحها بنسب للأسهم ثابتة على مرتبات العمال وعلى دعم رأس المال وجهات الخير وأرباب

الأسـهم، كان كل ذلـك خـيرًا لا ظلـم فيه لأحد ولا اسـتغلال فيـه لحاجة أحد، بـل كله نفع وفائدة.

إن هذه الشركات ليسـت ربوية تسـتغل حاجة المحتاجين، وليسـت من مضاربة الفقهاء حتى تكون فاسدة بتحديد الربح، على فرض تسليم شروطهم في المضاربة.

❐ أما السندات:

وهي القروض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسـارة، فإن الإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت إليها الضرورة الواضحة، التي تفوق أضرار السندات التي يعرفها الناس ويقررها الاقتصاديون.

❐ أما صناديق التوفير:

فـإن المال المودع فيهـا لم يكن دينًا لصاحبه عـلى صندوق التوفـير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما متقدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعًا مختارًا ملتمسًا قبول المصلحـة إياه. وهو يعرف أن المصلحة تسـتغل الأموال المودعـة لديها في مواد تجارية، ويندر فيها - إن لم يعدم - الكساد أو الخسران.

فإذا ما عينت المصلحة لهذا التشـجيع - على الادخار - قدرًا من أرباحها منسـوبًا إلى المال المودع أي نسـبة تريد، وتقدمت به إلى صاحب المال. كان دون شـك معاملة ذات نفع تعاوني عام، يشمل خيرها صاحب المال والعمال والحكومة، وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلـم أحد، أو اسـتغلال لحاجة أحـد، ولا يتوقف حل هذه المعاملة عـلى أن تندمج في نوع من أنواع الشركات التي عرفها الفقهاء وتحدثوا عنها وعن أحكامها، إنها معاملة جديدة بكيفيتها، وبظروفها كلهـا، وبضمان أرباحها، ولم تكن معروفة لفقهائنا الأولين وقت أن بحثوا الشركة ونوعوها، واشترطوا ما اشترطوا.

وليس من ريب في أن التقدم البشري أحدث في الاقتصاديات أنواعًا من العقود والاتفاقات المركـزة على أسـس صحيحة لم تكن معروفة من قبل، وما دام الميـزان الشرعي في حل التعامل وحرمته قائمًا في كتاب الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220] - ﴿لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 379] - فما علينا أن نحكمه ونسير على مقتضاه.

ومن هنا يتبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حرامًا - على فرض صحة النهي عنه - و إنما هو - كما قلنا - تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع»[1].

[تفسير القرآن الكريم]

❐ الربا هو استغلال حاجة المحتاج لزيادة المال والثراء.

❐ وللإسلام في تحريم الربا نظرة ترجع إلى الجانب الخلفي، ونظرة ترجع إلى الجانب الاقتصادي العملي.

فأما نظرته إلى الجانب الخلقي، فإنه يريد أن يكون مجتمعًا متراحمًا متعاونًا لا تكون قاعدة التعامل فيه أن يستلب القوي ما في يد الضعيف، وأن تستغل حاجات المحتاجين استغلالًا دنيئًا لإرباء ثروة الأغنياء، وتحويل الأموال إلى خزائنهم.. إن المجتمع الذي يقوم على هذا مجتمع فاسد شبيه بمجتمعات الوحوش في الغاب..

❐ لقد بين الله للناس أن من أراد التضعيف والتنمية لما له حقا فعليه بالصدقة، فإن الله يضاعفها و يبارك لصاحبها في الدنيا والآخرة، وأما الربا، فإنه و إن كان تضعيفًا للمال وتنمية له في الظاهر، فإنه محق و إزالة في الحقيقة والحق كما يكون بإزالة المال و إضاعته بآفة تصيبه أو خسران يحل بصاحبه في تجاره أو كارثة أو نحو ذلك يكون أيضًا بضياع بركته، وذهاب فائدته وحرمان صاحبه من لذائذه والتمتع به.

وفي هذا المعني يقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: 39] -.

❐ أما نظرة الإسلام في تحريم الربا إلى الجانب الاقتصادي العملي، بعد هذا الجانب الخلقي، فمرجعها إلى أن المجتمع الصالح المبني على أسس قوية هو المجتمع الذي يكون كل فرد من أفراده عضوًا عاملاً فيه، أما إذا كان بعض أفراده عاملين، وبعضهم كسالى يعيشون عالة على

(1) [الفتاوي] ص 348 - 355 القاهرة سنة 1400هـ - 1980م.

غيرهـم، ويعتمـدون في بقائهم ومتاعهم على مـا يقدمه الآخرون لهم، فإن هـذا المجتمع يختل توازنـه، ويدركه الضعف والشـقاء والتخاذل بقدر ذلك. وفي هذا يقـول الإمام الرازي: «إنما حرم الربا من حيث إنه يمنع الناس عن الاشـتغال بالمكاسـب، وذلـك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسـطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد، نقدًا كان أو نسـيئة، خف عليه اكتساب وجه المعيشـة، فلا يكاد يتحمل مشـقة الكسـب والتجارة والصناعة الشـاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات».

❐ شبهات «العصريين» في استباحة الربا]:

يـرى بعض النـاس أن الربـا أصبح في عصرنـا الحاضر معاملة عامة، وأساسًـا من أسـس الاقتصاد، فإن المصارف المالية والشركات المختلفة التي لا غنى للأمة عنها تعتمد عليه في سائر معاملاتها، وليس من الرأي ولا من مصلحة الأمة أن نشـير عليها بهدم ذلك كله، وأن ننفرد من بين الأمم بمعاملة خالية من الربا، وأن نترك البيوت المالية الأجنبية تفيد من ثمرات هذا التعامل العالمي دوننا..

وهـذا موضوع قد أثير كثيرًا، وشـغل الأفكار منذ أن نشـبت المدنيـة الحديثة أظفارها في أعناق المسـلمين، وعمل أهل التشـكيك في صلاحية الإسـلام لكل زمان ومكان عملهم المثابر المتواصل في الفتنة وزلزلة القلوب عن دين الله، والقضية في الحقيقة ليست قضية الربا أو غيره من المعاملات المالية، وإنما هي قضية الشريعة الإسلامية كلها وقد انصرف عنها أهلها، وتعلقوا بأهـداب غيرها من قوانين الأمم الغالبة المسـيطرة عليهم، ومن شـأن المغلـوب، أن يولع بتقليد الغالب، ويرى أكثر ما يفعله خيرًا وصوابًا، ويزين له الشـيطان أن نجاحه إنما يرجع إلى عدم تمسكه بما يتمسك به هو من القواعد والأصول، والآداب والتقاليد.

ولو كان للإسـلام اليـوم دولة وقوة لـكان تشريعه هو المتبع ولكان للأمم والشـعوب من الوسائل الاقتصادية العملية ما يغنيهم عن الربا وغير الربا مما حرمه الإسلام، وإن للكسب لمواد طبيعية هي الأسـاس والفطرة كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات المسـاهمة والتعاونية، ولا يستطيع أحد أن يقول: إن الشعوب لا تستطيع أن تقيم مدنيتها على أساس التعاون والتراحم

ومساعدة الفقير والمحتاج بإقراضه قرضًا حسنًا على نظام يكفل لأصحاب الحقوق حقوقهم، ولا يؤدي إلى إثقال كواهل المدمنين، واستلاب أموالهم بالباطل.

[النظم الرأسمالية وفشلها]:

إن هذه النظم الاقتصادية التي يتشدقون بها، ويأخذون على الإسلام عدم مجاراته له، قد صارت الآن في موضع الشك والتزلزل عند أهليها والمتعاملين بها.

فإذا كان أهل هذه النظم قد بدءوا يفقدون إيمانهم بها، بل فقدوا هذا الإيمان فعلا، وأخذوا يلتمسون سبيلا آخر تستقيم به الحياة السعيدة للأمم، أفلا يجدر بنا - معشر المسلمين - أن نتخفف من حماستنا لها، ومن ثقتنا بها؟.

أترى لو كانت **جمهورية مصر العربية** مثلاً قادرة على أن تعمل بالتشريع الإسلامي فتلزم جميع ساكنيها بمنع الربا، وتضع لهم أسلوبًا من التعامل يتفق ودينها، أكان ذلك يضرها أو يعطل مرافق إصلاحها؟

إننا لا نتردد في الإجابة عن السؤال بالنفي، ولسنا في ذلك متجاهلين للحقائق، ولا جاهلين بسنن الاجتماع، فإن الأمم، تألف ما يوضع لها من النظم، وتطمئن إليه، وإذا عرف أفرادها أنه لا سبيل إلى نوع من التعامل لتحريمه، التمسوا غيره، ووطنوا أنفسهم على الاكتفاء بما أبيح لهم.

بهذا تبين أن ما يزعمه الزاعمون من عدم إمكان التخلص من الربا، ووجوب مجاراة الأمم في التعامل به، ليس صحيحًا: وأنه يمكن تدبير الأمر على نحو يتفق مع ما تبيحه الشريعة لو أراد الناس ذلك مخلصين.

❐ إن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة، وتخريجها على أساس فقهي إسلامي ليعرفوا بالتجديد وعمق التفكير، يحاولون أن يجدوا تخريجًا للمعاملات الربوية التي يقع التعامل بها **في المصارف أو صناديق التوفير أو السندات الحكومية أو نحوها، ويلتمسون السبيل إلى ذلك، فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله «أضعافًا مضاعفة» .. وهذا قول باطل، فإن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله: «أضعافًا مضاعفة» توبيخًا لهم على ما كانوا يفعلون، وإبرازًا لفعلهم السيئ، وتشهيرًا به.. وقد جاء النهي في غير هذه المواضع مطلقًا**

صريحًا، ووعد الله بمحق الربا قل أو كثر، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، كما جاء في الآثار، وآذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله، واعتبره من الظلم الممقوت، وكل ذلك ذكر فيه الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير.

ومنهم من يعتبره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة، ويقول ما دام صلاح الأمة في الناحية الاقتصادية متوقفًا على أن نتعامل بالربا، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم، فقد دخل بذلك في قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات».

وهذا أيضًا مغالطة، فقد بينا أن صلاح الأمة لا يتوقف على هذا التعامل، وأن الأمر فيه إنما هو وهم من الأوهام، وضعف أمام النظم التي يسير عليها الغالبون الأقوياء»[1].

□□□

(1) شلتوت [تفسير القرآن الكريم] ص 140. 142، 1432، 144، 145، 147، 148، 149، 150، 151. طبعة دار الشروق - القاهرة سنة 1399 هـ - 1979م.

وواضح من هذه النصوص أن الشيخ شلتوت قد غير فتواه - في هذا التفسير - عن فتواه في [الفتاوي].. فبعد أن كان يري أن الربا المحرم هو ربا الجاهلية - الأضعاف المضاعفة - أصبح يرى أن المحرم هو مطلق الربا، وانتقد رأي الذين يقصرون الحرمة على ربا الأضعاف المضاعفة.

وبعد أن كان يجيز القرض بالأرباح للضرورة، عدل عن ذلك.. وكذلك صنع مع العائد المحدد للأسهم والسندات وصناديق التوفير..

ولأن تفسيره للقرآن هو من آخر أعماله - الذي لم يسعفه الأجل لاستكماله - إذ وقف فيه عند تفسير الأجزاء العشر الأولى من القرآن الكريم - دل ذلك على أنه - رحمه الله - قد غير رأيه في هذه المعاملات..

ولقد أثبتنا في كتابنا هذا - نصوصه في [الفتاوى] ونصوصه في [التفسير].. وبذلك تم حسم الجدل الذي دار منذ سنوات حول الرأي الأخير للشيخ في هذه المعاملات.

- 17 -

الإمام الشيخ محمد أبو زهرة

[1316 - 1394هـ - 1898 - 1974م]

❐ إن الربا حرام.. لأنه ظلم.

❐ ولقد نهي «سولون» [640 - 558 ق.م] الذي وضع قانون أثينا في القديم، عن الربا. ونهى «أفلاطون» [427 - 347ق.م] في كتاب «القانون»، عن الربا، وقال: «لا يحل لشخص أن يقرض ربا». واعتبر «أرسطو» [384 - 322 ق.م] الفائدة أيًا كان مقدارها كسبًا غير طبيعي، لأن مؤداها أن يكون النقد وحده منتجًا غلة من غير أن يشترك صاحبه في أي عمل، أو يتحمل تبعة ، ويقول في ذلك: «إن النقد لا يلد نقدًا.. وإن النقد لا يصلح بذاته أن تتولد منه غلات.. لأنه مقياس لقيم الأشياء، والمقياس لا يكون سلعة يتجر فيها، إذ يجب أن يكون مضبوطًا غير قابل للتغيير».

وذكر - في كتاب «السياسة» ما نصه: «كان حقًا علينا أن نستنكر الربا، لأنه طريقة كسب تولدت عن النقد نفسه، وهي تمنعه مما وجد لأجله، لأن النقد لا ينبغي أن يكون إلا للمعاوضة والربح منها، والفائدة أو الربا هي نقد ولد عن نقد. وهذا النوع من الكسب هو من بين ضروب الكسب كلها الكسب المضاد للطبع».

❐ والنصرانية الحاضرة قد حرمت الربا تحريمًا قاطعًا مانعًا.. وقد حاول الربويون بتأثير الاقتصاد اليهودي استباحة بعض الفائدة، فلم تسغ ذلك الكنيسة لهم. ولقد ادعوا أن هذه الفائدة هي أجرة التنظيم والإدارة، فقيل: إن بعض رجال الدين من المسيحيين أباح الفائدة في هذه الدائرة دون سواها، أي: أنها أجرة إدارة لا فائدة دين. وقد اتخذ الكثير من هذه الفتوى مسوغًا، فانطلقوا.

ومن الغريب أن هذا الكلام يتردد الآن، ويقال لرجال الدين المسلمين ليفتوا بهذا القدر الضئيل، وليتخذوا من فتواهم ذريعة لتحليل ما حرم الله تعالى.

ولما جاءت حركة الإصلاح في المسيحية لم يكتف «لوثر» [1483 - 1456م] زعيمها بتحريم الفائدة قلت أو كثرت، بل حرم كل العقود التجارية التي تؤدي إلى الربا، حتى بثمن مؤجل إذا كان أكثر من الثمن العاجل.

وإنه من الواضح من التصرفات التي قرر لوثر بطلانها في رسالته عن التجارة والربا، كلها مما اشتملت عليه وصايا النبي ﷺ بالنهي عنها.

ولم نعلم أحدًا من المسيحيين توسع في تفسير معنى الربا بمقدار ما توسع به لوثر. وإذا كانت وصايا النبي ﷺ تسبق كتابة لوثر بنحو عشرة قرون أو تزيد، فإنه تبين أن كتابة لوثر متأثرة بمبادئ الإسلام. وخصوصًا أنه من الثابت اتصال الحركة الإصلاحية المسيحية باحتكاك النصارى بالمسلمين في الحروب الصليبية أولًا وفي التجارة المتصلة بينهم ثانيًا، وفي دخول الإسلام في أوروبا بجيوش الدولة العثمانية، ومبادئه ثالثًا، ثم ما كان من الاتصال المستمر بين البلاد الأوروبية والأندلس.

❐ أما اليهود، الذين استولوا على عرش الاقتصاد وسيطروا عليه.. فلقد حولوا العالم إلى عالم ربوي قد طغى فيه رأس المال طغيانًا شديدًا..

❐ وحتى «آدم سميث» [1723 - 1790م] الذي يسمى: أبا الاقتصاد، قد استحسن الإقلال من فوائد الديون، وزعم أن القليل منها يشجع المقترضين على الانتفاع بالأموال المدخرة، ولا يرهقهم بأعباء السداد، أو يحرمهم ثمرة العمل الذي يجتذبون الأموال المدخرة إلى أسواقه بدلاً من تعطيلها.

❐ ونحن نقول: إن الإسلام نظام اقتصادي قوامه تحريم الفائدة في الديون ما لم تكن ثمة شركة تنظمه في المغرم والمغنم..

إن الربا آفة اجتماعية، فإذا كان عرفًا شائعًا فهو عرف فاسد تجب مقاومته، ويجب تجريد كل القوى لمحاربته، وإذا كان البناء الاقتصادي في كثير من الدول يقوم عليه وجب العمل على وضع أسس جديدة ليوجد بناء صالح كامل فاضل، لا يقوم إلا على الكسب الذي فيه مبادلة بأي نوع من أنواع المبادلة الحرة يتحمل فيها المعطي تبعات الكسب والخسارة..

❐ لقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: **«يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا. قيل: الناس كلهم يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من لم يأكله ناله غباره»**.

وقد تحققت تلك النبوءة في عصرنا الحاضر. فالناس يأكلون الربا. ومن لم يأكله ناله غباره، حتى صار بلاء هذا العصر..

ولقد ثبت أن الأزمات الجائحة التي تعتري الاقتصاد العالمي تكون من الديون.. وإن تسهيل القرض بفائدة شجع الكثيرين على الإسراف وعدم الادخار، فإنه إذا كان يشجع على الادخار الآثم عند بعض الناس، فهو يشجع على الإسراف عند آخرين..

ولقد وجد الناس بعض المرابين يذهبون إلى نوادي القمار، ويجلسون بجانب المتقامرين، ليمدوهم بالمال اللازم للاستمرار في قمارهم.

❐ ولقد فهم بعض العلماء أن الأضعاف المضاعفة ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: 130] - في الدين من حيث إنهم في الجاهلية كانوا يضاعفون الديون، ومن حيث إن الزيادة المستمرة قد تؤدي إلى مضاعفة الذين، وفي الحق أن المضاعفة هي في الزيادة لا في أصل الدين، لأن الربا هو الزيادة لا أصل الدين، ولقد كان الربا الجاهلي هو الزيادة في الديون. وإن الآية الكريمة قد حددت الربا المحرم بأنه ما يزيد على رأس المال، فكل زيادة مهما قلت ربا وكسب خبيث، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279] -.

❐ وربا النسيئة هو الربا المنصوص على تحريمه في القرآن الكريم.. والسنة قد حرمت نوعًا آخر وسمته ربا، وهو الربا الذي يكون في المبيعات، وهي أشياء نص عليها النبي ﷺ وأوجب أن يكون المبيع فيها بالمقايضة وبالمماثلة عند الاتحاد في جنس العوضين..

إن الربا الذي اشتمل القرآن الكريم على تحريمه كان معروفًا عند العرب، وهو الذي كان يسمى عندهم الربا، أما الربا الذي بينته السنة وهو ربا البيوع، فهو اصطلاح إسلامي، ولم يكن معروفًا عند العرب، فتحريمه من النظم الاقتصادية الإسلامية وتسميته ربا اصطلاح إسلامي خالص، بخلاف ربا القرآن فهو معنى لغوي كان معروفًا عند العرب يتعاملون به،

فجاء القرآن الكريم وحرمه تحريمًا قاطعًا، ولذا عبر عنه النبي ﷺ عند تحريمه بأنه ربا الجاهلية..

ولقد وجد من علماء الصحابة من لم يعتبر من الربا إلا ربا القرآن الكريم وهو ربا النسيئة.. إن ربا البيوع الذي جاء تحريمه بالسنة كان موضع خلاف ، أما ربا النسيئة الذي كان تحريمه بالقرآن فلا خلاف فيه قط..

❐ إن أناسًا في عصرنا قد تأثروا بتلك الحضارة الربوية التي قبست نظمها المالية من اليهود.. وكان تأثر هؤلاء الناس بتلك الحضارة سببًا في إن حاولوا تأويل القرآن الكريم ليخضع لها، ومنهم علماء يتسمون بسمة الدين، ومنهم رجال مال واقتصاد فهموا أن النظام الربوي ضرورة اقتصادية لا مناص منها، فاندفع هؤلاء وهؤلاء، إلى نصوص القرآن الكريم يغيرون عليها بضروب من التأويل، و إن شئت أن تسميها عبثًا بمعاني القرآن الكريم فسمها. و إن شئت أن تسميها إفسادًا في اللغة فسمها غير متحرج ولا متأثم..

ولقد نسوا أن العلماء اختلفوا في ربا البيوع الذي جاء في السنة والذي هو اصطلاح إسلامي، ولم يختلفوا قط في الربا الذي حرمه القرآن الكريم.. وربا القرآن الكريم هو الربا الذي تسير عليه المصارف، و يتعامل به الناس، فهو حرام لا شك فيه.

ولقد ظهر في أول هذا القرن - [القرن العشرين] - ناس من المخلصين للإسلام يؤمنون بالمدنية الحاضرة وقد ظنوا أن مصلحة القرآن الكريم أن يوفق بين نصوصه و بين التعامل الحاضر، وقد أثر عنهم أقوال عابرة داعية إلى النظر البصير في العقود الربوية أو التي يقول الفقهاء فيها إنها ربوية. قد قالوا هذه الأقوال من غير أن يتقيدوا برأي معين، أو فكرة معينة، فجاء من بعدهم يحاولون أن يثبتوا عليهم أنهم أباحوا ربا المصارف، أو ما يشبهه، فادعوا - مثلًا - على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أنه قال ذلك القول، ولكنا قد بحثنا عن قول معين في ذلك فلم نجد فيه قولًا، ومال تلميذه السيد رشيد رضا ميلاً شديدًا إلى إقرار بعض ربا المصارف، ولكنه حاول وداور، ولم يغنه ذلك فتيلًا. ولو أننا سلمنا جدلًا أن الشيخ محمد عبده أو غيره من معاصريه، أو من جاءوا بعده، قالوا مبيحين ربا المصارف ما تبعنا هم وما أقمنا لقولهم وزنا، فلسنا نتبع الرجال على أسمائهم، ولا نأخذ قول أحد في

أمـر نص عليه القرآن الكريم، وأجمع عليه الصحابـة الذين تلقوا بيان القرآن الكريم عن نبيه محمد ﷺ.

❐ إن الإسـلام في تحريمه الربا يقصد إلى بناء اقتصادي فاضل يقرر أن رأس المال لا يعمل وحده.

والربـا الـذي حرمه القـرآن الكريم هو كل زيـادة في نظير الأجل، سـواء أكان القرض للاسـتهلاك أم كان القرض للاسـتغلال - وربا الجاهليـة، كما تثبته الوقائـع التاريخية. وحال العرب كان كله أوجله في القروض الاستغلالية..

❐ إن الشريعة الإسلامية قد احترمت رأس المال، واحترمت العمل، وجعلت على الكسب تبعات وتكليفات، لم تجعله غنما لا مغرم فيه، ولم تجعله سائغًا من غير عمل ينتجه، أو تعرض لخسـارة تسوغه، ولذلك حرمت الربا لأنه يجعل للشـخص كسبًا من غير تعرض للخسارة قط، ومن غير عمل قط..

❐ إن الربا هو السبب في خراب البيوت المالية والشركات المنتجة عند اضطراب الأحوال بأزمات كاسدة، أو بتضخم شديد.

❐ إن الربويـين في هذا العـصر آمنوا بالمدنية الغربية الإيمان كلـه، ولا أقول إنهم كفروا بالإسلام، فإني لست ممن يرمون الناس بالكفر ماداموا يقولون إنهم مسلمون، ولكني أقول إنهم مسلمون، ولكن أقول إنهم أرادوا الإسلام خاضعًا لما آمنوا به..

وإن قلـت لهم: إن القرآن الكريم حرم الربا. قالوا: وماذا نصنع في هذه المصارف، أتغلق أبوابها؟ سمعنا الشيخ فلانًا يحل فوائد المصارف. وقيل عن الشيخ محمد عبده أنه أحلها.

ولكـن الداهيـة الكارثـة أن بعض الذين يتسـمون بسـمة العلماء في الإسـلام، ولهم قول مسـموع فيه. ومن الناس من يتبعهـم، الكارثة الكبرى أن يقول هـؤلاء محلين فوائد المصارف عـلى أنها لا يحرمهـا الدين، ولا تدخل في عموم أكل الربا الـواردة في القرآن الكريم. فلا حول ولا قول إلا بالله العلي القدير.

❐ إن تحريـم الربـا تنظيم اقتصـادي لرأس المال المنتفـع به ليعمل النـاس جميعًا. ومن لم

يستطع العمل يقدم المال لمن يعمل على أن يكون الربح بينهما والخسارة عليهما، وهذا هو العدل فليس العدل أن يكون لأحدهما الغنم دائمًا من غير أن يتعرض للخسارة مطلقًا، فهو يأخذ فائدته ولو لم يربح الآخر، بل لحقته الخسارة.

□ إن كل زيادة على رأس المال، تعد ربا كما نص قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.. ولا دليل مطلقًا على أن ربا الجاهلية كان للاستهلاك. ولم يكن للاستغلال، بل الغرض الذي يجد الباحث مستندًا له من التاريخ هو أن القصد كان للاستغلال، فإن أحوال العرب ومكان مكة وتجار قريش كل ذلك يسند هذا الغرض، وهو أن القرض كان للاستغلال، ولم يكن للاستهلاك.

□ إن أكل الربا حرام لذاته، لا يحل إلا لضرورة .. أما الاقتراض بالربا فهو حرام لغيره. فهو حرام سدًا لذريعة الربا. وما يحرم سدًا للذريعة يباح للحاجة لا للضرورة، ويبوء بالإثمين من لا يقرض إلا بالربا ومؤكله وشاهده وكاتبه، ولكن اللعنة متفاوتة، فهي على الأول بالأصالة وعلى الآخرين بالتبع.

وإنه لا ضرورة تبيح الاقتراض بالربا مطلقا، بل لا ضرورة تبيح الاقتراض إلا في أحوال فردية، وليست جماعية حتى لا يكون ثمة ضرورة لنظام اقتصادي قائم على الربا..

□ وليس تحريم الربا للمروءة أو الأخلاق.. وإنما تحريمه للمصلحة، أو بعبارة أدق، للتخفيف من طغيان رأس المال طغيانًا مطلقًا..

□ ولو أن صاحب رأس المال أسهم في شركات صناعية أو زراعية أو نحوها ابتداء، لكان في ذلك تقوية للإنتاج مباشرة بالاشتراك فيه، بدل أن يقرضه بفائدة يسيرة ثم يقرضه الآخر بفائدة أكبر وهكذا.

□ إن الربح من غير تحمل للخسارة قد يؤدي إلى ألا يأتي المقترض بكسب يعادل الفائدة، فتكون الأزمات بينما لا يتصور هذا إذا أسهم صاحب رأس المال في الكسب والخسارة.

إنه لا توجد مصلحة عامة في الفائدة، وليس من شأنها أن تنمي الاقتصاد، بل إنها تضعفه، وإذا كانت هناك مصلحة فهي مصلحة المقرض في كل الأحوال، ومصلحة المقترض في بعض الأحوال.

ومـن المقررات الاجتماعية الشرعية أن المصلحة الخاصـة لا يلتفت إليها بجوار المصلحة العامة، وأن العبرة هي في أكبر قدر من المنفعة لأكبر عدد، كما أنه من المقررات الشرعية، أن الضرر القليل يحتمل بجوار دفع الضرر الأكبر.

❐ و إذا كانـت الحكومـات في العصر الحاضر تحارب الإقطاع بـكل أنواعه، فإن العدول عن زيادة الأسـهم إلى إصدار سـندات، ليس إلا من قبيل الإقطاع لرأس المال في الشركة. ومنع الغير من الاشتراك تجب محاربته»[1].

❐❐❐

(1) [بحوث في الربا].

- 18 -

الدكتور عبد الرزاق السنهوري

[1313 - 1391هـ - 1895 - 1971م]

[الأصل في الربا الحرمة.. ولا يجوز إلا لضرورة أو حاجة، أو مصلحة راجحة. والناظم الرأسمالي يمثل حاجة للفائدة المعتدلة].

«.. وفي نظام اقتصادي رأسمالي - كالنظام القائم في الوقت الحاضر في كثير من البلاد - ويتميز بأن رؤوس الأموال تكون مملوكة للأفراد والهيئات والمصارف، وليست مملوكة للدولة، تدعو الحاجة العامة الشاملة إلى حصول العامل على رأس المال حتى يستغله بعمله.

وقد أصبحت شركات المضاربة والقراض ونحوها غير كافية للحصول على رأس المال اللازم.

حقًا إن شركات المساهمة وشركات التوصية تسمح في كثير من الأحوال بأن يستثمر صاحب رأس المال ماله في شراء أسهم هذه الشركات فيشترك في الربح والخسارة، ولكن القروض هي الوسيلة الأولى في النظام الاقتصادي الرأسمالي القائم، للحصول على رؤوس الأموال.

وحتى في الشركات المتقدم ذكرها توجد إلى جانب الأسهم، وهي حصص الشركاء الذين يسهمون في الربح والخسارة، السندات، وهي القروض التي تقدم لهذه الشركات، والمقترض هنا هو الجانب القوي، والمقرض هو الجانب الضعيف الذي تجب له الحماية. فما دامت الحاجة قائمة للحصول على رؤوس الأموال من طريق القرض أو غيره، ومادام رأس المال ليس ملك الدولة، بل هو ملك لفرد ادخره بعمله وجده، فمن حقه أن لا يظلم ولا يظلم. ما دامت الحاجة قائمة إلى كل ذلك، فإن فائدة رأس المال في الحدود المذكورة تكون جائزة استثناء من أصل التحريم.

نقول: في الحدود المذكورة، ونقصد بذلك:

أولًا: ألا يجوز بحال، مهما كانت الحاجة قائمة، أن تتقاضى فوائد على متجمد الفوائد، فهذا هو ربا الجاهلية، الممقوت.

ثانيًا: وحتى بالنسبة إلى الفائدة البسيطة، يجب أن يرسم لها المشرع حدودًا لا تتعداها، من حيث سعرها ومن حيث طريقة تقاضيها ومن حيث مجمع ما يتقاضى منه ومن وجوه أخرى كثيرة ينبغي على المشرع أن يتحراها. وذلك حتى تقدر الحاجة بقدرها.

وحتى بعد كل هذا، فإن الحاجة إلى الفائدة لا تقوم، كما قدمنا، إلا في نظام رأسمالي، كالنظام القائم. فإذا تغير هذا النظام - ويبدو أنه في سبيله إلى التغير - وأصبح نظامًا اشتراكيًا، رؤوس الأموال فيه بيد الدولة لا بيد الأفراد. عند ذلك يعاد النظر في تقدير الحاجة، فقد لا تقوم الحاجة في ظل النظام الاشتراكي، فيعود الربا إلى أصله من التحريم.. فتحريم الربا أصل من أصول الشرائع، تحجبه الحاجة، فإذا ما ارتفعت عاد إلى الظهور»[1].

❐❐❐

(1) [مصادر الحق في الفقه الإسلامي] ج 3 ص 176 - 249 - طبعة القاهرة سنة 1967م.

- 19 -

الدكتور حسين مؤنس

[1329 - 1416هـ - 1911 - 1996م]

كثيرة هي الكتب والدراسات التي كتبت عن الربا، والموقف الفقهي منه - لكن هذا الكتاب - [الربا وخراب الدنيا] - قد تميز عن كثير من هذه الكتب - وربما عن معظمها - بأنه أخرج القضية من نطاق الوعي الفقهي الإسلامي المحدود إلى آفاق أرحب وأوسع مما بلغته تلك الكتابات.

إنه كتاب يعلم قارئه الوعي بالتاريخ.. وبالواقع.. وبالحياة.. فضلًا عن علم الاقتصاد.. كتاب يكشف الأسباب الحقيقية، التي فقدنا بسببها ثروتنا القومية، واستقلالنا الوطني، وكرامتنا الإنسانية.

وإذا كان الناس قد عرفوا الدكتور حسين مؤنس [1329 - 1416هـ - 1911 - 1996م] مؤرخًا وأديبًا، فإنه يتجلى - في هذا الكتاب - عالمًا كبيرًا من علماء الاجتماع، وخبيرًا بالحياة الشعبية لمختلف الطبقات.. كما يتبدى - في هذا الكتاب.. رجل نهضة شاملة لمصر وبلاد الشرق العربي والإسلامي - يتمتع بوعي كوني، وثقافة عالمية، إلى جانب ثقافته العربية الإسلامية. كما كشف هذا الكتاب - عن عبقرية فذة في الاقتصاد.

❐ ففي هذا الكتاب، لا يكتفي الدكتور مؤنس - مثل غيره - بتناول قضية ومشكلة الربا في الإطار الفقهي، أو الواقع الراهن، وإنما يلقي الأضواء على الأبعاد التاريخية لهذا المرض العضال.. ذلك «أن تجارة المال - أي شراء المال وبيعه - كانت معروفة في الدنيا كلها من قديم الزمان، وكانت لها تنظيمات وقوانين وأصول في الدولة الرومانية. وعلى تجار المال قامت أصلًا قوة دولة فينيقيا القديمة.. وظهرت قوة المال والمتاجرة فيه بصورة واضحة جدًا في قرطاجنة، وهي مؤسسة تجارية مالية أنشأها تجار الفينيقيين إلى الشمال الغربي من موضع مدينة تونس الحالية..

وإن كل دولنا بعد عصر الراشدين كانت تقيم ثروتها على الضرائب، أي على اغتصاب ثمرات عمل العاملين. والدولة الرومانية، التي يبالغ الأوروبيون في تعظيمها، أقامت اقتصادها على الغزو والاستعمار ونهب الشعوب، وعلى هذا الأساس أيضًا أقامت الدول الأوروبية اقتصادها في العصر الحديث.

ونحن، مع الأسف نقيم اقتصادنا اليوم على الديون والقروض والمنح».

❐ وعلى حين يرى البعض في النموذج الغربي الأسوة الحسنة التي يجب السعي لاستنساخها، واللحاق بها.. يعري الدكتور مؤنس هذا النموذج الربوي الغربي من هالاته.. ذلك «أن المفاسد كلها ناتجة عن سيطرة المال على المجتمع الغربي، والمال في الغرب قائم كله على الربا، الذي حرمه القرآن الكريم تحريمًا تامًا.. والاقتصاد الغربي أساسه كله الربا والمتاجرة العنيفة التي لا تعرف الرحمة أو الإنسانية، وكذلك المتاجرة بالمال، أي اعتباره سلعة تباع وتشترى، ولا جناح في الكسب منها. وهذا محرم في الإسلام.

والمجال المتروك للأخلاقيات في القوانين المدنية الغربية مجال ضيق جدًا. وأي محام ذكي تسن ماكر يلغي وجود الأخلاق تمامًا في القانون، ومن هنا فإن المعاملات على أساس القوانين الغربية لا يمكن أن تكون «إلا ربوية».

❐ ويذهب الدكتور مؤنس ليكشف عن الأبعاد الكثيرة والمعاني الحقيقية لمعنى الربا المحرم، المناقض لفلسفة الإسلام في الأموال.. «فالربا لا يقتصر على المتاجرة بالمال، بل يشمل كل متاجرة يتعدى فيها هامش الربح الحدود الإنسانية المعقولة..

وآيات الربا في القرآن الكريم قد درسها وفسرها أدق تفسير شيوخنا الأجلاء من أهل الفقه والفتوى، ولكنهم لم يدرسوها من حيث مغازيها ومراميها التاريخية، والغالبية العظمى من فقهائنا اختارت أن تقف بعلمها عند القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي على الأكثر - ولهذا فإن صوتهم دائمًا هو صوت الماضي.

إن الله سبحانه وتعالى حرم الربا لأنه استغلال لحاجات الناس ساعة الضيق أولًا، ثم لأنه كسب دون عمل، فإن المرابي يحل لنفسه، أن يدع أمواله تربو في أموال الناس وهو قاعد مرتاح..

إن المـال كله لله، والإنسـان مرتفـق أي منتفع.. ومهما ملك ابن آدم مـن مال فهو من الله وعائـد إلى الله، والله محاسـبه على مـا فعل به، وأموالكم أمانات ونعمـة في الدنيا، فلا تجعلوها نقمة عليكم في الآخرة.

إن الربا في كل صوره اسـتغلال لحاجات الناس. وهذا طبيعي، لأن الإقراض بالربا وتثمير المـال في أموال الناس واسـتذلال الناس بالديون والسـيطرة عليهم بتهديدهـم ببيع المرهونات لاسـتيفاء الدين وأرباحه، كل هذه أفكار يهودية.. أما من وجهة النظر الإسـلامية، فإن المال لا قيمة له في ذاته، والقناطر المقنطرة من الذهب بلاء يفسـد حياة الإنسـان.. فسياسة المال في الإسـلام جانب من النظرية الأخلاقية والإسـلامية العامة.. واعتبار الشعب رعية والحكومة راعية مفهوم غير أخلاقي، ومن ثم فهو ليس إسلاميًا.. إن رأسمالنا الحقيقي هو التدبير الأخلاقي للـمال.. والعملة النادرة أو الصعبة الحقيقية هـي الأخلاق.. والقرآن الكريم عندما حرم الربا حرمة لأنه غير أخلاقي.. والكسـب من وراء المال لا يتحقق إلا إذا تم التعامل فيه على أسـاس أخلاقي.».

❐ وإذا كان الكثيرون - في حمى السـعي للاقتراض والاسـتدانة - قد غابت عنهم فضيلة الوعي بالتاريخ.. تاريخنا مع الاقتراض والاسـتدانة.. فإن الدكتور حسين مؤنس ينعش ذاكرة القارئ كي تعي فضيلة - بل فريضة - الوعي بهذا التاريخ المأساوي، فيقول: «إن الربا والقروض والاستعمار كلها شيء واحد.. وانجلترا بعد أن قضت على التمرد الإسلامي في الهند سنة 1858م أعلنت الحرب على الإسـلام الهندي، لأن الإسلام يحرم الربا ويدينه.. ولقد كان صناع السلاح وتجاره - وما زالوا - أحلاف المرابين والاستعماريين..

إن الذين يقرضوننا - مهما تظاهروا بالإنسـانية - لا يريدون إلا السـيطرة علينا، والديون اليوم جزء من الصراع السـياسي الدولي، وهي سـلاح من أسلحة الاسـتعمار.. إن من العار إن يطعمنا غيرنا ونحن رجال لنا أجسـام وسـواعد، وبشر لهم عقول. أتدري لماذا يطعم الإنسـان دابته؟ لكي يأكلها أو يركبها أو يعيش على خيراتها، ولمثل هذا تطعم أمه أمة، أو تقرض أمة أمة، ولا يخالجنك في هذا شـك. وقد قال أسلافنا: إن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار.. ودلتنا التجارب التاريخية على أن الدين طريق مؤكد للذل والتبعية والاستعمار..

وعندمـا أرى في التليفزيـون كبار رجالنـا يوقعون اتفاقات القروض كل يوم، أشـعر أننا نـزداد غرقًـا في بحر الربا.. ولا يتبقى عندي شـك أننا متجهون بالفعل نحو كارثة مالية تشـبه تلك التي وضعت في أعناقنا نير الاسـتعمار في أواخر أيام الخديو إسـماعيل [1245 - 1312هـ - 1830 - 1895م] وأوائل أيام توفيق [1269 - 1309هـ - 1853 - 1892م]، لأن القروض لا بد أن تسدد ومالا تسدده بالعملة تسدده بالتنازل عن جانب من الكرامة أو القيمة المعنوية، والدول الكـبرى تأخذ دائمًـا أمام الصغرى صورة «شـايلوك» الجبار القاسي من أن انطونيو» السـاذج الحسـن الظن، الـذي كاد يفقد حياته لـولا دفاع حبيبـه الذكية «يورشـيا» وذلك في مسرحية [تاجر البندقية] «وليم شكسـبير» [1564 - 1616م]، وهي مسرحية حكم عليها اليهود بالموت لأسباب معروفة.

ولقـد عـرف مجتمعنا الإسـلامي الربا في كل عصـوره ولكنه كان دائمًـا في نطاق محدود لا يحسـب له حسـاب في الجملة.. ولكننا عرفنا الربا بوجهه البشـع. بعد اتصالنـا بالغرب ووفود الغربيين إلى بلادنا للكسـب فرادى وجماعات من أيام الحملة الفرنسية. ومن أغرب ما يلاحظه الإنسان أن المرابي يدخل دائمًا في أعقاب المستعمر، لأن الاستعمار في ذاته ربا فاحش.

إن الاستدانة في صميمها تسول مشروط بالالتزام بالسداد بعد أجل مضروب.

وما أكثر ما أسأل نفسي: هل اتعظنا من تجارب القرن التاسع عشر؟ هل فهمنا أن القروض الخارجيـة لا تأتينا بخير أبـدًا؟ وأي مشروع لا يتم إلا بقرض خارجي لسـنا في الحقيقة بحاجة إليـه، وهو لـن يعود علينا بخير في النهايـة، و إلا فلماذا حرم الله علينا التعامـل بالربا كل هذا التحريـم؟ ولـو كانت هناك مواقف يجـوز فيها التعامل بالربا ومواقف لا يجـوز لبينها الله في كتابه، لأن التشريع القرآني محكم».

❐ و إذا كانت الاسـتدانة والقروض الربوية قد أسـلمتنا للاسـتعمار العسكري، فإنها تسـلمنا اليوم للاسـتعمار الاقتصادي، وهـو أفدح بالنسـبة إلينا، لأنه يحقـق جوهر مقاصد الاسـتعمار العسكري - نهب الثروات.. والتبعية - وفقد الكرامة - وذلك دون كلفة الجيوش العسـكرية الغازية!.. و إذا كان الاستعمار الربوي هو أعلى مداخل الرأسمالية - المتوحشة المعـاصرة، فـإن الاقتصـاد الإسـلامي اللاربوي، هو السـياج الـذي يحمينا من هـذا البلاء..

«لقد انتهى عصر الاستعمار السياسي والعسكري، ودخلنا في عصر الاستعمار الاقتصادي والمالي، ونحن - أهل العالم الثالث - في نهاية التحليل - مستعمرة لأهل العالم الأول (عالم الرأسمالية).. ولن نفلت منه إلا إذا أقمنا اقتصادًا سليمًا غير رأسمالي وغير ربوي، ويقوم على إنتاج صناعي وزراعي جيد ومتين، يستطيع أن يثبت للمنافسة في السوق العالمية، فنربي بذلك رأسمال قومي، نتحرر به من الاستعمار الرأسمالي الغربي.. وإذا لم نفعل ذلك فلا خلاص لنا من الاستعمار قط.

ويجب أن نعمل على أساس أن العالم الإسلامي وطن واحد متكامل اقتصاديًا، وما لا يوجد في مصر يوجد في السودان، وما لا يوجد في السودان يوجد في سوريا. وإذا كانت السياسة تعرف الحدود بين بلاد الوطن الإسلامي فإن الإسلام لا يعترف بهذه الحدود، فالمسلمون أمة واحدة، ومال المسلمين مال واحد.

إنه ينبغي ألا تخلو مدينة عربية أو إسلامية كبيرة أو صغيرة من مؤسسة مالية حتى يتجمع المال في أوعية عامة تغطي العالم الإسلامي كله، ونستطيع بعد ذلك الانطلاق للعمل الكبير من قاعدة إسلامية شاملة.. وإن شبكات المؤسسات الإسلامية العامة ستكون رابطة إنسانية إسلامية تخفف الكثير من الحساسيات القومية والمحلية التي ابتلي بها العالم الإسلامي نتيجة لدسائس الغرب وتدبيراته الخافية والمعلنة.

ومن المستحيل أن يأمن أي شعب غذائيًّا، إذا كان يأكل بالقروض والحسنات الخارجية».

❐ وإذا كانت البنوك الربوية - التي جاءت إلى بلادنا في ركاب الاستعمار - قد غطت وتغطي كل مدن بلادنا الإسلامية، فإن هذه البنوك الربوية لم تقم اقتصادًا حقيقيًّا يضمن لبلادنا الانعتاق من هيمنة التبعية للمركزية الرأسمالية الاستعمارية الغربية.. «فإلى يومنا هذا، ورغم كثرة البنوك عندنا، فإن هذه المؤسسات منذ وفاة طلعت حرب [1393 - 1360هـ - 1876 - 1941م] لم تنشيء أو تسهم في إنشاء أي صناعة أساسية. وطلعت حرب هو الاقتصادي الحقيقي الوحيد الذي عرفته بلادنا، فقد أنشأ نحو عشرين شركة أساسية، من الغزل والنسيج إلى الطيران، وبعده لم تفعل البنوك أكثر من إقراض الأموال لأي شركة يمكن أن تربح، والشركات التي تسهم في إنشائها تستطيع أن تسميها شركات حلاوة طحينية أو حلاوة سمسمية، وهي لهذا

السبب ليست ركنا من أركان حياتنا، بل هي عبء علينا. وهذا هو الفراغ الهائل الذي ينبغي أن تسده المؤسسات المالية الإسلامية»..

❐ و إذا كانت الحركة الوطنية في بلادنا - منذ جمال الدين الأفغاني [1254 - 1314هـ - 1838 - 1897] ومصطفى كامل [1291 - 1326هـ - 1874 - 1908م] قد ضربت المثل باليابان. كمجتمع شرقي حقق النهضة، وأثبت أن التقدم ليس وقفًا على الغربيين، فإن الدكتور حسين مؤنس قد نبه على أن هذه النهضة اليابانية قد قامت على الاقتصاد اللاربوي، وليس على البنوك الربوية والتجارة في الأموال.. «فاليابان عندما دخلت ميدان التطور والتقدم - بعدنا بنحو نصف قرن - كان دخلها القومي لا يزيد على ثلاثة ملايين من الجنيهات في السنة، فحسبت حسابها على أن تنفق ثلثي هذا المبلغ على إدارتها الداخلية ورواتب موظفيها، ولا يزيد إنفاقها على المشروعات على فائض الإيراد دون اقتراض مليم، ولم يسمح لأي مصرف أوروبي أو أمريكي أن يفتح فرعا في اليابان، بل رفض «الميكادو» التعامل بالربا، أصلاً، وقال لمجلس «الشوجين» - أي مجلس الأشراف والقادة العسكريين -: إننا نفهم التعامل التجاري المستقيم، ونعترف بأرباح التجارة الشريفة المعقولة، ولكننا لا نستدين مائة ونردها مائة وعشرين، ولا نبيع من أرضنا قيراطًا لأجنبي، ولا نرهن من أرضنا شيئًا، ولا ننفق إلا على قدر إيرادنا، وما نستطيع الإنفاق عليه من مالنا فعلناه و إلا فلا داعي له إطلاقًا، لأن هذه الأرض وخيراتها ليست أرضنا ولا خيراتنا، بل هي ملك لشعب اليابان، ونحن أمناء عليه، فاعملوا حسابكم على هذا»..

وبينما كان سعيد باشا [1237 - 1279هـ - 1822 - 1863م] و إسماعيل يطلبان من لصوص التجار الأوروبيين تزويدهم بالملابس المطرزة بالقصب والزرابر المطلية بالذهب، وصناديق الخمور وأطقم الطعام الخزفية وملابس الحرير للنسوان، والمرايا العجيبة للقصور، كان اليابان لا ينفقون إلا على الماكينات والقطارات والسفن وعلى تعليم شبابهم في أوروبا كيف يفكون هذه الماكينات، فأنفقوا عشر ما أنفقنا وكسبوا ألف ضعف ما كسبنا، وهم ليسوا مسلمين، ولا نزل عليهم كتاب من الله يحذرهم من الربا والخمر والميسر والأزلام، ولكنهم ناس أهل عقل وذمة.

إنك لا تستطيع أن تنشيء اقتصادًا إسلاميًّا صحيحًا في عالم كله ربا، و إن الطريق السليم للمسلمين هو أن ينشئوا نظامًا اقتصاديًّا كاملاً جديدًا مستقلا بنفسه، لا يقوم على الربا، وهذا ممكن لو فكرنا جادين وكنا راغبين وعازمين على إقامة نظام اقتصادي إسلامي خالص، ولو أردنا لفعلنا، فإن اليابان اقتدرت على ذلك ، فهي لم تقرض من الغرب . ولا هي انخدعت بحيلة المصارف الغربية، و إنما أخذت العلم الغربي وملكته وسيطرت عليه، وأنشأت عليه صناعة يابانية، وعلى أساس الصناعة اليابانية المتقنة أنشئوا اقتصاديًّا يابانيًّا غير ربوي ومصارف يابانية لا تستعبد الناس بالمال».

❐ ورغم أن الربا - في الحضارة الغربية - قد أصبح مثل تلوث الهواء، لم ينج من آفاته بلد من البلاد.. ورغم أنه في هذه الحضارة المسيحية - قد اكتسح الموقف المسيحي الذي يحرم الربا، وسار خلف الموقف اليهودي الذي يمتص - بالربا - دماء الأغيار. فإن الدكتور حسين مؤنس قد لفت الأنظار إلى طائفة بروتستانتية - في أمريكا - التزمت موقف «مارتن لوثر» [1483 - 1546م] المحرم للربا، والقائل إن الأرباح المركبة سرقة، وأن المال كله لله.. فسارت هذه الطائفة على مذهب مارتن لوثر، لا يتعاملون مع البنوك الربوية. ولقد أقاموا بدونها بنوك «مال الصداقة» - «فرند شب فاند F.F.. - وهي شركة بين المودعين تستثمر مدخراتهم لحسابهم، وتقدم لهم الخدمات المختلفة..

❐ ولم يمنع الدكتور مؤنس رفضه الحاسم للشيوعية، من الإشادة بموقف « كارل ماركس» [1818 - 1883م] الرافض للربا، لأن الماركسية تعظم العمل، وليس رأس المال، ولذلك خلت الكتلة الاقتصادية للبلاد الشيوعية من الربا والتجارة في الأموال، بينما قام الاقتصاد الرأسمالي على الربا والتجارة في الأموال..

❐ ويلفت الدكتور مؤنس الأنظار إلى حقيقة أن الكسب الربوي الحرام إنما يشيع في المجتمعات التي ابتليت به كل ألوان الحرام.. «ذلك أن أبواب الشر أوان مستطرقة، وأبسط مظاهر ذلك أنك تجد جميع أولئك الذين جمعوا الأموال من غير وجهها، في أيامنا هذه، ينشئون في بيوتهم البارات، ويقيمون حفلات الرقص، ويطلقون الحبل على الغارب للزوجات والبنات».

❐ كما يدعو إلى التمييز بين الغني الحقيقي وبين الكنز والتكديس للثروات والأموال..

«فالمعني الحقيقي للغني ليس الثراء وملك الأموال الضخمة والعقار الكثير، وإنما معناه الحقيقي هو الاستغناء بكسبك عن الحاجة ومسألة الناس».

❐ وينتقد الدكتور مؤنس إضاعتنا فرصة الرخاء الذي أتت به الثروة النفطية، فبدًلا من استخدامها في تحقيق اقتصاد إسلامي مستقل، جعلناها قيودا وأغلالًا تشد رقابنا إلى مراكز الهيمنة الاستعمارية للرأسمالية الغربية - «فلقد أتي الله بعض دولنا العربية ثروة بترولية وغازية من وراء العقول، وكان في استطاعتنا أن نستخدم هذه الثروة استخدامًا عربيًا يقوم على استغلال مواردنا البترولية المالية، ومواردنا البشرية المتزايدة في بعض بلادنا - مثل مصر، ومواردنا الأرضية الشاسعة - في بلد مثل السودان - وإقامة صناعا وزراعات عربية قوية، تستطيع المنافسة في السوق العالمية، فتكون هذه الصناعات وما تفيئه علينا من ثروات صك تحريرنا - نحن العرب جميعًا - من الاستعمار الرأسمالي الغربي الربوي.. ولكننا نحن العرب أعداء أنفسنا.. فأودعنا حصائل بترولنا وغازنا في مصارف الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فجعلنا زمام أمورنا بيد غيرنا، والأمريكيون الذين استخدموا نفطنا، أخذوه معهم إلى بلادهم وأعطونا مكانه ورقا أخضر يسمى الدولار، ونحن اليوم لا نستطيع حتى سحب رصدتنا من مصارف الولايات المتحدة، التي يسيطر عليها اليهود أنصار إسرائيل».

❐ ومع تأكيد الدكتور حسين مؤنس على أنه ليس من الفقهاء الشرعيين ولا من المفسرين للقرآن الكريم. إلا أنه يقدم لنا - في كتابه هذا - لمحات ذكية وجديدة في تنزيل النصوص القرآنية على الواقع المعيش.. وعلى سبيل المثال: «فـ [المؤلفة قلوبهم]: كان القدماء يقصرونها على ذلك النفر من العرب الذين دخلوا الإسلام يوم فتح مكة، ويعتبرونه استئلافًا لقلوبهم، لأنهم كانوا يؤمنون بالمادة، وقلوبهم كانت جامدة لا يصل إليها الإيمان، فيكون العطاء المادي سبيلاً للنفاذ إلى القلوب المتحجرة.

❐ والمعنى أوسع من ذلك، فالمؤلفة قلوبهم في أيامنا هذه، يكونون الوثنيين الذين ندعو للإسلام بينهم وننشيء لهم المدارس والمستشفيات، ونقدم لهم العلاج، ليروا أن الإسلام خير، فإذا هم دخلوا فيه أحسوا بحلاوته وخيره، ويستقر الإيمان في نفوسهم.

ومن عجب أن النصارى قد أدركوا هذا المعنى بعقولهم، ونحن لم ندركه مع أنه وارد في

قرآننا!... ونحن اليوم إذا أخرجنا الصدقات أموالاً نستعين بها في الدعوة الإسلامية، فنحن في تقديري نفسر قوله تعالى: [المؤلفة قلوبهم] أحسن تفسير [وفي الرقاب]: أي تحرير العبيد الأرقاء، أيام كان هناك عبيد أرقاء، أما في أيامنا هذه، وحضارة الغرب تقول: إنه لا رق والاستعباد أو عبيد، فما أكثر العبيد! وما أحوج معظم البشرية اليوم إلى أن ننفق فيه مال الصدقات!

ونحن إذا ذهبنا اليوم إلى البلاد التي تسودها الوثنية، فنحن نجد أنفسنا في الحقيقة أمام جماعات من أرقاء الجهل والفقر والمرض، وما أحوجهم إلى أن ننفق فيهم أموال الصدقات.

وفي بلادنا من الجهال الذين يملكون المال ولكنهم جهال بالحياة وشئونها، فتكون الصدقة عليهم هي العلم وتنوير الأذهان. [الغارمين]: أي المثقلين بالدين. وكل بلاد الإسلام اليوم غارمة غارقة في الدين - إلا بعض الدول -

[وابن السبيل]: هو ضيف أمة الإسلام كلها. جعل الله له حقًا معلوما في أموالنا، فأيقظ في قلوبنا عاطفة الأخوة الإسلامية، وأشعرنا بأن المسلم المسافر الغريب له علينا حق الرعاية.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8]. وكنت أقول في نفسي. فأما المسكين فقد عرفناه، وأما اليتيم فلا يجهل أمره أحد، فمن يا تري هو الأسير؟. أهو أسير الحرب فحسب؟ فها نحن أولاء في أيامنا وليس هنالك أسري، فكيف يوصي الله بإنفاق المال على فئة انقطعت بتطور الزمان، وكل أحكام الله لها صفة الدوام، فلا بد أن يكون للأسير معنى أو معاني أخرى غير أسير الحرب، حتى أهديت إلى أننا جميعًا أسرى أصناف شتى من المتاعب، فهناك أسير المرض، وأسير الخوف، وأسير الظلم، وأسير الهموم، وأسير الجهل، وكلنا على هذا المعنى أسرى على صورة أو أخرى، ولكنا لهذا لنا نصيب في الصدقات، فإذا كنا نؤتي الصدقات فكلنا نستحقها، ويكون مال المسلمين ما لا واحدا، أو هو مال الله يعطي منه من يشاء، وليس لصاحبه في الحقيقة منه إلا حق الانتفاع وهذه هي فلسفة المال في الإسلام، وهي أيضًا فلسفة الصدقة والصدقات».

❐ ثم يصل الدكتور مؤنس إلى تحديد مقومات الاقتصاد الإسلامي اللاربوي، الذي يحقق للأمة الاستقلال والقوة ، فيقول: «إن بلدًا من البلاد لا يمكن أن يكون مستقلًا فعلاً وقويًا حقا إلا إذا توافرت له الأساسيات التالية على الأقل:

- أن يطعم نفسه بنفسه، أن ينتج غذاءه.

- أن يكن لديه المصانع الأساسية لقيام صناعة قومية:

- صناعة السلاح بكل أنواعه والذخيرة بكل مستوياته.

- صناعة القاطرات.

- صناعة السفن.

- صناعة نسيج كاملة.

- أن يكون في البلد جهاز تعليمي صحيح فعال.

- أن تكون في البلد صناعة ورق تسد كل حاجاته منه، لأن الورق أداة الثقافة والعلم الكبرى، وليس هناك بلد محترم في الدنيا لا يصنع كل ما يحتاج إليه من أصناف الورق.

- ولا بد أن تكون في البلد صناعة كيميائيات وأدوية وافية بكل حاجاته.

- ولا بد كذلك من صناعة بلاستيك متطورة.

ونحن نستطيع أن ننشيء في بلادنا العربية والإسلامية ذلك كله. ولكن السماسرة يحاربون إنشاء أي صناعة منها في بلادنا لأن ذلك يمنع مكاسبهم من الاستيراد.

ونحن لا نستطيع أن نقيم ثروة قومية إلا إذا كان لدي الشعب مال مدخر يمكن له من إنشاء المشروعات التي لا بد منها لشعب قوي مستقل ومالك لزمام مصائره».

❐ وبعد هذا العلم العزيز - الذي قدمه الدكتور مؤنس في هذا الكتاب - [الربا وخراب الدنيا].. وبعد هذا الذي قدم من الوعي بالتاريخ.. والواقع.. والحياة.. والذات.. والآخر.. يتحدث عن نفسه، في تواضع كبار العلماء، فيقول: «وما أنا من رجال الاقتصاد، ولا أنا من فقهاء الدين، وإنما أنا مؤمن أرجو أن يكون الله قد فتح عليّ بما يجعلني أهلًا للانتساب إلى جماعة المؤمنين الذين يشعرون شعورًا عميقًا بأننا إلى يومنا هذا بعيدون بعدًا شاسعًا عن فهم طبيعة الإسلام والعمل بها والتخلق بأخلاقها».

❐❐❐

هكذا تحدث الدكتور حسين مؤنس في كتابه هذا - [الربا وخراب الدنيا] - حديث من يعيش معنا هذه اللحظات التي نعيشها - مع أنه قد كتب هذا الذي كتب قبل ثلاثين عامًا! -.. فيكشف لنا معالم طريق الحل الإسلامي الذي يعتق رقاب أمتنا من أغلال الاستعمار الربوي، الذي يفسد علينا هناء المعاش والمعاد.. وينبهنا إلى أن ديننا الحنيف قد جاء ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

رحم الله الدكتور حسين مؤنس.. وجعل عطاءه العلمي هذا في ميزان حسناته، إن شاء الله.

❐❐❐

السيرة النبوية

السيرة النبوية

كلما رأيت كتابًا جديدًا في سيرة المصطفى، خاتم الأنبياء والمرسلين، صاحب الخلق العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، تواردت على خواطري العديد من الأفكار.. منها - على سبيل المثال -:

❐ أن سير العظماء وتواريخ القادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكرين والفلاسفة - عبر كل الحضارات.. وعلى مر التاريخ - تكتب - هذه السير - وتختم - ولا يعود فيها مجال للمزيد أو الجديد..

لكن سيرة رسول الله ﷺ، قد كانت ولا تزال وستظل ميدانًا مفتوحًا للتأليف والإبداع الذي يكتشف - في هذه السيرة العطرة - المزيد والجديد.. حتى لكأنها نبع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع ما لم يكتشفه الأسلاف... وذلك بقدر ما يتحلى هذا العقل بالوعي والإخلاص والحب والولاء..

حدث ذلك على مر تاريخ الإسلام، في الإطار الإسلامي، ومن قبل نفر من غير المسلمين. فرغم الكم الهائل من ملايين الكتب والمجلدات التي كتبت في هذه السيرة العطرة، كانت ولا تزال معطاءة للمزيد من الجديد.

إذن، فنحن أمام قراءة وتميز وامتياز، اختصت بها سيرة الرسول ﷺ، وهي قراءة تحتاج إلى تفسير وتحليل..

❐ كذلك، وجدنا ونجد في كل تواريخ العظماء والقادة والعباقرة والمصلحين تناقص أتباعهم ومريديهم وعشاقهم ومحبيهم مع توالي السنين والقرون، بمن في ذلك الرواد الذين تكونت من حول دعواتهم ومبادئهم وسيرهم ديانات وضعية.. فأتباع «ماني» [215 - 276م] وأتباع «زرادشت» [583ق.م] يقتربون الآن من الزوال.

وأتباع «بوذا» [566 - 486ق.م] هم الآن أقل بكثير جدًا مما كانوا عليه في سالف الأزمان..

بل إن هذا القانون قد سرى حتى على أتباع الرسل الذين سبقوا رسولنا ﷺ، على درب النبوات والرسالات.. فأتباع موسى، عليه السلام - من اليهود لا يتجاوزون خمسة عشر ميلونًا، أبعدت العلمانية أغلبهم عن الروح الديني الذي جاء به كليم الله. ولم يبق لهم من اليهودية إلا العصبية والعنصرية التي لا علاقة لها بما جاء به موسى، عليه السلام..

وكذلك الحال مع أتباع المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام.. فالشرق الذي ظل قلبًا للعالم المسيحي لعدة قرون، قد غدا - منذ قرون طويلة - قلب العالم الإسلامي.. وأوروبا التي غدت - لقرون عديدة - قلب العالم المسيحي، لا يؤمن فيها اليوم بوجود إله سوى 14 % من السكان!.. ولا يذهب إلى كنائسها - التي خانت كثير منها نصرانيتها - سوى 10 % من الأوروبيين!!».

أما الإسلام، وأحباب وأتباع رسول الله ﷺ، الذين يحبونه حتى يحبهم الله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31] -.. والذين يطيعون الرسول كي تتحقق طاعتهم لله سبحانه وتعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾ [النساء: 80] -.. فإنهم الاستثناء الوحيد - عبر التاريخ والديانات - من هذه الظاهرة، التي مثلت قانونًا لا يتخلف إلا في عالم نبينا ورسولنا، عليه الصلاة والسلام.. فأتباعه وعشاقه ومريدوه، الذين يتخذونه الأسوة الحسنى والمثال المتسامي، هم وحدهم الذين يتزايدون ويتكاثرون، وتباهى بهم الدنيا، كما سيباهي بهم رسولنا يوم القيامة، إن شاء الله!..

وتلك، هي الأخرى، ظاهرة فريدة، تحتاج إلى تفسير وتعليل.

❐ وعبر تاريخ دعوات الإصلاح، ومشروعات النهوض، وفلسفات التقدم، والمبادئ التي تركت بصماتها في مسيرة التحرير والتغيير للأمم والشعوب. كان وهج هذه الدعوات والفلسفات والمبادئ يقل شيئًا فشيئًا، كلما تغير الواقع المعيش، وتبدلت العادات والتقاليد والأعراف.. بل لقد أصاب هذا التراجع حتى الكتب السماوية التي جاءت بها النبوات السابقة، عندما استحفظ عليها الناس فلم يحفظوها.. فنسوا حظا مما ذكروا به.. وبدلوا الكلم من بعد مواضعه.. وكتبوا بأيديهم ما كذبوا فقالوا هو من عند الله!..

وهنا - أيضًا - نجد أن دعوة رسولنا، صلي الله عليه وسلم، بدءا من الوحي المعصوم والمحفوظ حفظا إلهيا.. إلى السنة المطهرة، التي مثلت البيان النبوي للبلاغ القرآني - نجد هذه الدعوة استثناء فريدًا من هذا القانون الذي سرى على سائر الدعوات والفلسفات والمبادئ والنظريات والكتب.. فهذه الدعوة - في وجهها الإلهي - كتاب مفتوح لا تنقضي عجائبه، فيه نبأ الأولين وخبر الآخرين.. والكليات والإشارات والجوامع التي تكشف وتتجلى - بمرور الأزمان وارتقاء العقول وتقدم العلوم - آيات ومعارف وسننا كونية واجتماعية مبثوثة في الأنفس والآفاق، حتى لكأنها المعجزات المتواليات تترى من هذا الإعجاز الإلهي والنبوي الذي جاء به المصطفى، عليه الصلاة والسلام.. تديم التحدي للجاحدين، وتضاعف الطمأنينة لقلوب المؤمنين..

وهذا التوهج المتزايد والمتعاظم - هو الآخر - ظاهرة فريدة تحتاج إلى تفسير وتعليل..

❐❐❐

فما هو تفسير هذه الظاهرة الفريدة التي تميزت وامتازت بها سيرة الرسول ﷺ، ودعوته على سائر السير والدعوات؟..

إن الإجابة المفصلة على هذا السؤال تحتاج - ولا شك - إلى مجال أوسع بكثير من هذا الحيز الحاكم الذي نحن فيه.. لكننا نستطيع - في هذا المقام - أن نوجز إشارات إلى عدد من المعالم التي تمثل رؤوس أقلام للإجابة على هذ السؤال.. وذلك من مثل:

❐ إن سير العظماء والقادة والمصلحين تكتب وتختم وتكمل فصولها وتتم وقائعها، لأنها سير بشر، يعيشون في نطاق عالم الشهادة لا يتعدونه، ذلك العالم الذي تدرك العقول الإنسانية كنه حقائقه، ومآلات دعوات الإصلاح البشرية والفلسفات العقلية، التي أبدعها وطبقها هؤلاء القادة والعظماء.

بينما سيرة رسولنا، ﷺ - وهو بشر حرص القرآن الكريم على التأكيد على بشريته - هي سيرة «بشر.. يوحي إليه».. في سيرته ودعوته وسنته وشمائله، ارتبطت البشرية بالنبوة.. والعادة بالإعجاز الخارق للعادة.. والاجتهاد بالعصمة.. والأرض بالسماء.. والنسبي بالمطلق.. والعلم

الجـزئي بالعلم المحيط.. وعالم الشـهادة بعالم الغيـب.. والزمني بالخلود.. فغدت سـيرة البشر الرسـول هنا - حالة من المطلق الخالد ما يجعلها دائمة العطاء، ومسـتعصية على الختم والانتهاء وطي الصفحات وجفاف الأقلام.

❐ كذلك، تميزت سـيرة رسولنا ﷺ، حتى على سير الخالين من الرسل والأنبياء، عليهم جميعًا صلوات الله وتسـليماته، بأنها سيرة النبوة الخاتمة والرسـالة الخالدة فاستمر عطاؤها، ومـن ثم ظـل كتابها مفتوحًـا دائمًا وأبـدًا لاكتشـاف السـنن والقوانين والـدروس والعبر والعظـات.. بينـما كانت رسـالات الخالدين من الرسـل، وكذلك معجزاتهـم، خاصة بقوم بعينهـم، وزمن بعينه، وحجة على من شـهد تلك المعجزات المادية التي أدهشـت العقول.. على حين كانت معجزة القرآن الكريم مسـتنفرة للعقول دائمًا وأبدًا، حتى يرث الله الأرض ومـن عليها.. وكانت السـنة النبوية المطهرة بيانًا نبويًا لهذا الإعجـاز القرآني الخالد، الأمر الذي جعلها - مع السـيرة النبويـة - كتابا مفتوحًا على ألوان لا تحـصر من الإعجاز العلمي والقيمي والإصلاحي، الصانع للإنسان السوي، عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إنها سـيرة الرسـول الخاتم، صاحب الشريعة الخالدة. إمام أولي العزم من الرسل.. والمتفرد بالرسـالة العالميـة.. وبإقامة الدولة وصنع الحضـارة، مع تبليغ الدعوة الدينيـة - فدينه قد تفرد بتأسـيس الدولـة، وتوحيد الأمة وتنظيم الاجتـماع، والتحريض على بناء الحضـارة. ودولته قد غدت الحارس للدين، الذي تسـوس به اجتماعها المدني.. كما ضمن خلود هذا الدين لحضارته خلودًا تفردت به عن سائر الحضارات.

❐ ولهـذا الكمال والاكتمال الجامع - في الدعوة الإسـلامية - بين الدين والدنيا.. والأرض والسماء - والاجتهاد والعصمة.. والدين والدولة - والدنيا والآخرة.. والفرد والأمة.. والتكاليف الفرديـة والاجتماعيـة.. والعلوم الشرعيـة والمدنية.. والعقـل والنقل والتجربـة والوجدان.. والتصديق لما سبق من الكتب والرسالات مع الهيمنة والتصحيح والإكمال لهذا الذي سبق من الكتب والرسالات.. لهذا الكمال والاكتمال في الدعوة الإسلامية، فلقد تميزت سيرة رسول هذه الدعوة، عليه الصلاة والسـلام، التي هي سـيرة «البشر - الرسول»، بأنها سيرة الإنسان الكامل،

بكل ما في هذا الكمال والاكتمال الإنساني من أبعاد تجعل ختم الكتابة لسيرته هذه أمرًا عصيًّا على التحقيق..

❐ فهو الذي وجده ربه فقيرًا فأغناه.. ومع ذلك كان انحيازه إلى بساطة عيش الفقراء وحياة المساكين طوعًا وشوقًا واختيارًا..

❐ وهو الذي تحمل - صابرًا ومصابرًا - كل إيذاءات الشرك والنفاق، ومع ذلك بلغت به الرحمة والرأفة إلى الحد الذي جعله رءوفًا رحيمًا بالذين آدوه وآذوا صحابته، فأطلق لهم عنان الحرية في لحظات انتصاره الأكبر.. ودعا لهم بالهداية في لحظات الذروة من الإيذاء - رجاء أن يخرج الله من أصلاب الغلظة من يرق قلبه لنعمة الإيمان بالإسلام، فيهتدي بسراجه المنير..

❐ ومع أنه قد حمل هموم إقامة الدين، وتأسيس الدولة، وصلاح الدنيا، وعبء تغيير العالم.. فلقد تكاملت فيه كل صفات الإنسان الكامل.. فكان بشوشًا، يمزح ولا يقول إلا حقا.. ويسامر أصحابه.. ويداعب زواره.. ويخدم أهله.. ويقدم اليسر على العسر.. ويحب أن تؤتى رخص الدين كما يجب أن تؤتى عزائمه.. ويحرص على طلب الجمال في محيطه، ليستمتع به ويعلم الناس الاستمتاع بنعمته، حتى ليجعل من صلاة الاستسقاء مناسبة يدعو الله فيها: «اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها».. ومن دعاء السفر مناسبة يستعيذ فيها بالله من كآبة المنظر.. ومن مسجد النبوة مسرحًا للفنون ومتعة الترفية الحلال.. ومن الأعياد والأعراس مناسبات للزينة والفرحة واللهو الحلال الذي يجدد الملكات والطاقات عند الإنسان.. حتى ليروي أنه «لم يكن ريح أطيب من ريحه، وكأن عرقه اللؤلؤ!»..

❐ وهو - مع ذلك - الذي يقف بين يدي مولاه - في الصلاة - حتى تتورم قدماه.. ويجعل من الرفق بالإنسان والحيوان والطبيعة مناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله..

❐ وهو الذي يغضب لما يغضب الله.. وإذا اضطر للجهاد القتالي - دفاعًا عن الدين والوطن - كان، إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق، أقرب المقاتلين إلى الأعداء، حتى ليحتمي به الفرسان في ساحة القتال..

فهو الإنسان الكامل.. والرسول الخاتم.. والبشر الذي يوحي إليه.. والمجتهد المعصوم..

الذي اتصلت - في سيرته - الأرض بالسماء.. وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود.. فهو ﷺ، روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. لكن روحه - بعبارة الإمام محمد عبده [1266 - 1321هـ - 1849 - 1905م] - «ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.. وهو بمنزلة العقل من الإنسان.. إنه إمام أولي العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها»..

نعم.. لهذا التميز والامتياز، الذي جعل من الرسول ﷺ، **«نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب.. وعقل الإنسانية والبشرية»**.. ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق.. وبالعالمية.. وبالخلود.. وبالدولة والاجتماع والحضارة مع ا لدين..

لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ، عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والأنبياء والمرسلين.. بل وشاء الله أن تكون سيرته وتاريخ دعوته هو التاريخ الوحيد المعروف والموثق دون سير الأنبياء وتواريخ الرسالات - التي لم يبق من سيرها إلا ما جاء في القرآن الكريم.. فكانت سيرته ﷺ، الخبر الصادق حتى في سير الخالين من الرسل، عليهم جميعًا أزكى الصلوات والتسليمات..

❐❐❐

الصحوة الإسلامية

الصحوة الإسلامية

الصحوة - لغة - من الصحو - وهو ذهاب الغيم.. وارتفاع النهار.. وذهاب السُّكر.. وترك الصبا والباطل. وفي الاصطلاح: هي اليقظة، تصيب الفرد أو الأمة، بعد سنة وغفلة وتخلف وتراجع.. ويشيع إطلاقها - في واقعنا المعاصر - على نزوع أمتنا إلى النهضة الإسلامية، بعد عصر التراجع الحضاري، الذي امتد تحت حكم العسكر المماليك والسلطنة العثمانية.. وهي صحوة تجاهد على صعيدين وفي جبهتين:

1- صعيد وجبهة التخلف الذاتي الموروث عن حقبة التراجع الحضاري.

2- وصعيد وجبهة التحديات الغربية، التي تريد تهميش دور الأمة الإسلامية، وإلحاقها بالتبعية للغرب ليتأبد استغلال الغرب وهيمنته على عالم الإسلام..

ووصف هذه الصحوة بالإسلامية، إنما يأتي تمييزًا لها عن مشروعات النهوض التي اختار أصحابها المذاهب والفلسفات الغربية مرجعية لدعوات النهوض ونماذج التحديث التي يبشرون بها - ليبرالية.. أو اشتراكية أو قومية كانت تلك النماذج والدعوات.

فالصحوة الإسلامية هي ذلك التيار العريض - المتعدد الفصائل والمستويات - الذي يسعى إلى تجديد الدين الإسلامي لتتجدد به دنيا المسلمين.

ولما كانت سنة الله، سبحانه وتعالى في مسارات الأمم والحضارات، هي «سنة الدورات» التي تتداول فيها الأمم والحضارات فترات وحقب التقدم والتراجع، والصعود والهبوط، والنهوض والركود، والحياة والموات.. وهي السنة التي أشار إليها القرآن الكريم عندما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 140] -..﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38]..

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251] - والتي بيَّنها حديث رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: **«لا يلبث الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لم يعرف غيره. ثم يأتي الله، تبارك وتعالى، بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»** - رواه الإمام أحمد - ..

إذا كانت «سُنة الدورات» هي التي تحكم مسارات الأمم والحضارات، فإن هذه السنة تقتضي «الصحوة» و«اليقظة» و«التجديد»، خروجًا من مراحل ودورات «الغفلة».. و«التراجع».. و«الجمود».. فصحوة التجديد هي الأخرى سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني وفي مسارات الحضارات - وعن هذه الحقيقة - التي يؤكدها استقراء مسارات الحضارات الإنسانية - ينبئ حديث رسول الله ﷺ، الذي يقول: **«يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»** - رواه أبو داود -..

وإذا كانت الحضارات الإنسانية هي مواضعات بشرية وإبداعات مدنية، لا توصف بالخلود ولا بالإطلاق، ومن ثم يجوز عليها الموت وإخلاء الطريق لحضارات أخرى وارثة لأممها وشعوبها وتاريخها، بمعنى أن سنة الصحوة والتجديد قد تأتي في صورة تداول الحضارات، لا بعثها وتجددها.. فإن الحضارة الإسلامية. وأيضًا اللغة العربية - مع أنهما مواضعات بشرية وإبداعات إنسانية - هما استثناء من مصير موت وفناء الحضارات واللغات. فالعاملة فيهما هي سنة البعث والصحوة والتجدد، لا سنة الموات، وذلك لارتباطهما بالمطلق الديني - وهو الإسلام الخالد والخاتم.. والقرآن الكريم، الذي تعهد الله بحفظه وجعله بلسان عربي مبين.. ولذلك كانت الصحوة وكان التجديد سنة مطردة وقانونًا لازمًا في مسار الحضارة الإسلامية، يقودها إلى النهوض بعد كل ركود.. وهذا هو الذي جعل حضارتنا الإسلامية - ومعها اللغة العربية - أطول الحضارات المعاصرة عمرًا، وأرسخها قدمًا على درب النهوض من العثرات، وأكثرها استعصاء على فقدان الهوية والخصوصية لارتباط ذلك فيها بالمطلق الديني والخالد الإلهي - فهي إبداع مدني بشري، حفز إليه وصبغه وحدد معاييره الوضع الإلهي، المتمثل في وحي الله ونبأ السماء العظيم - وتلك خصوصية لحضارتنا الإسلامية تفردت بها دون كل الحضارات..

وإذا كانت الحقبة «المملوكية - العثمانية» قد مثلت مرحلة التراجع في مسيرة حضارتنا الإسلامية، فإن بواكير الصحوة الإسلامية قد بدأت في بلادنا منذ أكثر من قرنين من الزمان.. وفي استطاعة المؤرخ لهذه الصحوة أن يتخذ من نداء الشيخ حسن العطار [1180 - 1250هـ - 1766 - 1835م] - أواخر القرن الثامن عشر الميلادي - علامة على مرحلة التبلور لبواكير هذه الصحوة.. ذلك النداء الذي قال فيه هذا الشيخ الرائد: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».

ولقد كان تلاميذ الشيخ حسن العطار - وفي طليعتهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي [1216 - 1290هـ - 1801 - 1873م] - الذين سعوا إلى تجديد «الذات الإسلامية» - بالإحياء - وإلى الاستفادة من علوم المدنية الغربية - علوم الواقع والتمدن المدني - بالتفاعل - وليس بالمحاكاة والتقليد - كانت هذه المدرسة هي طلائع وجذور الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة..

فلما حدث وعاجل المد الاستعماري الغربي مشروع النهضة الذي قاده محمد على باشا الكبير [1184 - 1265هـ - 1770 - 1849م] - والذي جسد إلى حد كبير فكر هذه الصحوة - تسلم ريادة هذه الصحوة تيار الجامعة الإسلامية، الذي تبلور - شعبيًا - عبر العالم الإسلامي - حول جمال الدين الأفغاني [1254 - 1314هـ - 1838 - 1897م] والذي كان الإمام محمد عبده المهندس الأول لمشروعه الفكري النهضوي.. والذي حملته إلى العالم الإسلامي - على امتداد أربعين عامًا - مجلة [المنار] التي رأس تحريرها الإمام محمد رشيد رضا [1282 - 1354هـ - 1865 - 1935م] ثم أسلم أمانة هذه الصحوة إلى الحركات والتنظيمات الإسلامية الحديثة - سواء منها تنظيمات الصفوة أو التنظيمات الجماهيرية، تلك التي نشأت عقب عموم بلوي الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي - إبان الحرب الاستعمارية العالمية الأولى [1332 - 1336هـ - 1914 - 1918م] - وبعد إسقاط الخلافة الإسلامية [1342هـ - 1924م].

ولأن هذه الصحوة كانت تواجه جناحي المأزق الحضاري. التخلف الموروث.. والزحف الاستعماري الغربي.. ولأنها قد سعت إلى الإحياء والتجديد الديني، لبلورة معالم المشروع النهضوي العصري، في مواجهة الجمود والتقليد الذين أوجدا «الفراغ الفكري» في بلادنا، وهو «الفراغ» الذي سعى الاستعمار الغربي إلى ملئه بنموذجه الوضعي العلماني،

فلقـد كان تركيز هذه الصحوة على تجديد دين الإسـلام لتتجدد به - وليس بالنموذج الغربي - دنيا المسلمين..

وهـذه الحقيقة هي التي جعلـت رفاعة الطهطـاوي يدعو إلى إحياء الشريعة الإسـلامية بالاجتهاد الجديد و إلى تقنين فقه معاملاتها ليحكم - بدلاً من القانون الوضعي الفرنسي - حركة الاجتماع والاقتصاد والسياسـة في بلادنا «لأن بحر هذه الشريعة الغراء، على تفرع مشـارعه، لم يغادر من أمهات المسـائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسـية عن المذاهب الشرعية، لأنها الأصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع. ولأن تحسـين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع.. فينبغي تعليم النفوس السياسـة بطـرق الشرع، لا بطرق العقول المجـردة.. أما المعاملات الفقهيـة فإنها لو انتظمت، وجري عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة، وكتب الفقه الإسلامية لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية»..

ولقـد انطلـق الأفغاني مـن ذات الموقف - إسـلامية الصحوة - فرفض أن نبـدأ صحوتنا من حيـث انتهى المشروع الغربي العلماني، قائلًا: «إنـه لا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الغـربي في نهايته..فالتمـدن الغربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشـأ فيهـا على نظام الطبيعة وسـير الاجتماع الإنساني.. والإسـلام هو السبب المفرد لسعادة الإنسـان.. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فد ركب بها شططا ولا يزيدها إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا..».

وعلى هذا الدرب - في إسـلامية الصحوة - سـار الإمام محمد عبده، الذي قال: «إن الإسلام دين وشرع - وهو لم يدع ما لقيصر لقيصر، و إنما كان من شـأنه أن يحاسـب قيصر على ماله، و يأخـذ على يديـه في عمله.. فهو كمال للشـخص، وألفة في البيت، ونظـام للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه.. فهو المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة عـلى سـلم المدينة.. ومن طلب إصـلاح الأمة من غير طريـق الدين فقد بذر بـذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها.. فسبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها..».

ولم تقف هذه الصحوة عند حدود «الفكر» و«الدعوة».. و إنما سلكت سبيل «التنظيم»، لإبلاغ الرسـالة، واسـتمرارية الدعـوة.. فعرفت مسـيرتها تنظيمات: «الحـزب الوطني الحر»

و«جمعية العروة الوثقى» و«جمعية أم القري» - في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر - كما عرفت «الحزب الوطني»، الذي قاده مصطفي كامل باشا [1291 - 1326هـ - 1874 - 1908م] في العقد الأول من القرن العشرين. وهو الحزب الذي جمع - في دوائر الانتماء - بين «الوطنية» وبين «الجامعة الإسلامية».. «فالدين والوطنية توءمان متلازمان، وإن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًا صادقًا، ويفديه بروحه وما تملك يداه.. وإن في الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، فهو الدين الذي يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها..».

وليس صحيحًا ما يظنه البعض من أن الصحوة الإسلامية قد تمثلت فقط في الحركات والتنظيمات الإسلامية، فأوسع وأعرض فصائل الصحوة الإسلامية هو التيار الشعبي المستمسك بالهوية الإسلامية.. وفي مقدمة مؤسسات الصحوة الإسلامية الأزهر الشريف، الذي ظل يرعى علوم الشريعة والعربية ويحرس الوجدان الإسلامي للأمة عبر تاريخها الطويل.. كما أن هناك ميادين الإبداع في الفكر الإسلامي، والتي شهدت مواكب الأعلام والعلماء والمفكرين، الذين دافعوا عن إسلامية الصحوة ومشروع النهضة والمدنية، في مختلف ميادين الإبداع الفكري، وإذا كان الطهطاوي قد تمنى إحياء الشريعة الإسلامية وتقنين فقه معاملاتها، فلقد سعى على هذا الطريق العديد من أعلام الفقه والقانون.. وكان الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [1313 - 1391هـ - 1895 - 1971م] واحدًا منهم، جعل هذه المهمة مشروع حياته - تأليفًا وتطبيقًا - «فالإسلام - عنده - دين ودولة.. ملك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. وهو دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية أساسها الشريعة الإسلامية، وهي أكثر تهذيبًا من المدنية الأوروبية.. والشريعة الإسلامية هي النور الذي نستطيع أن نضيء به جوانب الثقافة العالمية في القانون.. ودول المشرق لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير الإسلام.. فالإسلام بالشرق، والشرق بالإسلام..».

وإذا كانت العقود الأخيرة قد شهدت تعاظم الصحوات الدينية، في مختلف الديانات، بعد أن فشلت مشروعات النهوض والتحديث اللادينية، فإن تعاظم الصحوة الإسلامية يستند إلى خصيصة إسلامية، ينفرد بها الإسلام عن غيره من الديانات، هي منهاجه الشامل، الذي يجعله بديلًا حضاريًا، وليس مجرد عقائد وعبادات..

هكـذا ارتبطت الصحوة الإسـلامية بحلم الأمة في النهوض، والانعتـاق من أسر التخلف المـوروث، ومـن الهيمنة الاسـتعمارية والحضاريـة الغربية، منـذ فجر هـذه الصحوة وحتى الآن..

□□□

صراع الحضارات

صراع الحضارات

في بداية الحديث عن طبيعة العلاقة بين الحضارات.. وهل هي:

- حوار.. وتعارف..و تفاعل.. وتعايش؟

- أم صراع.. وصدام؟؟

لا بد من التنبيه على عدد من الملاحظات.. ومنها:

1- أن حديثنا هذا سينصب - أساسًا - على العلاقة بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الإسلامية.. فذلك هو المشكل الملح والمطروح على دوائر الفكر في الحضارتين معًا - الآن.. ومنذ قرون.. وهو الذي يدور حوله الجدل.. وتعقد له المؤتمرات.. بل والذي نعاني من تداعياته وآثاره في الممارسة والتطبيق..

2- إن حديثنا عن الغرب والحضارة الغربية، لا بد أن يميز - في هذا الغرب - بين مكونات أساسية ثلاثة:

أ- فهناك «**الإنسان الغربي**».. ولا مشكلة لحضارتنا الإسلامية مع هذا الإنسان.. ولا مشكلة لهذا الإنسان الغربي مع حضارتنا الإسلامية.. بل إن هذا الإنسان الغربي عندما تعرض عليه قضايانا العادلة، بل وديننا الإسلامي، عرضًا موضوعيًا ومنطقيًّا كثيرًا ما يتفهمها.. بل ويفتح لها عقله وقلبه.. وما تزايد انتشار الإسلام في الغرب - رغم العقبات المتزايدة - إلا دليل على ذلك.

ب- وهناك «**العلم الغربي**».. وخصوصًا في جوانبه الطبيعية والدقيقة والمحايدة - وتطبيقات هذه العلوم وتقنياتها -.. وحضارتنا الإسلامية - ككل الحضارات - تسعى للتتلمذ على هذا العلم الغربي، كما حدث ذلك في طور نهضتنا الإسلامية الأولى - وكما

حـدث للغـرب عندما تتلمذ على حضارتنا الإسـلامية - في هذه العلـوم - إبان النهضة الأوروبيـة الحديثة - فالحكمـة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحـق الناس بها.. ومن العلوم والمعارف ما هو «مشترك إنساني عام»، كالماء والهواء، ليس له وطن، ولا تحده حدود.

جـ - أما المكون الثالث من المكونات المتمايزة في الحضارة الغربية، والذي يثير الإشـكالات ويمثـل التحديات في هـذا الموضـوع - موضوع طبيعـة العلاقة بين الحضـارة الغربية والحضارة الإسلامية - فهو **«مشروع الهيمنة الغربية»**، الساعي - تاريخيًّا - إلى استعمار العالم الإسـلامي - ضمن سـعيه للسـيطرة على كل العالم -. فمؤسسـات هذه الهيمنة الغربية - الاقتصادية. والسياسية.. والدينية. والفكرية.. والثقافية.. والإعلامية - هي التي تمارس - تاريخيًّا - نهج الصراع والصدام مع كل الحضارات غير الغربية. وهي قد مارست وتمارس هذا النهج الصراعي مع حضارتنا الإسلامية منذ ظهور الإسلام.. حتى ليقول القائد الإنجليزي - والكاتب - الجنرال «جون باجوت» (جلوب باشا) [1987 - 1986]: **«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»**!!.. أي أن مشكلة الهيمنة الغربية مع الشرق الإسلامي قد بدأت بظهور الإسلام.

3- أن مشروع الهيمنة الغربي هذا، إنما يبتغي من وراء هيمنته - أولًا وقبل كل شيء - الاستيلاء على الأرض لينهب الثروات.. ثم هو يتوسل بالأفكار والعقائد والفلسفات و«الأيديولوجيات»، وبالدين لتغليف مقاصده «الإمبريالية»، ولإقناع شـعوبه كي تضحي في صراعاته الاستعمارية لتحقيق هذه الأهداف.. كما يتوسل بالفلسفات و«الأيديولوجيات» لتغريب عقولنا.. وأحيانًا بالديـن لتنصير شـعوبنا.. ليس فقط لكراهيته لديننا وعقائدنا وفلسـفاتنا، وإنما لأن إسـلامنا ومنظومة القيم والمبادئ والأفكار التي أفرزها الإسلام هي الرابط الذي يوحد أمتنا، والباعث المحـرض على مقاومة المسـلمين لمشروع الهيمنة هـذا، بقيم الحرية والعـزة، والجهاد، والتميز الحضاري والاستقلال الوطني.

4- أن الجهد الفكري - الذي يبذله العقل المسلم في هذا الميدان - ميدان العلاقات الصحية بين الحضارات يجب أن يتوجه أساسًا إلى الإنسان الغربي - الذي هو ضحية للنزعات الأيديولوجية

التي تفرزها المؤسسات الفكرية والدينية لمشروع الهيمنة الغربي - تلك «الأيديولوجيات» التي كونت - على مر تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام - مخزونًا من **«ثقافة الكراهية السوداء»** للإسلام وأمته وحضارته.. فنحن مطالبون بالحوار الموضوعي والصبور مع الإنسان الغربي، لتوضيح موقفنا الحقيقي من طبيعة العلاقات التي يجب أن تسود بين الحضارات - وبين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية على وجه الخصوص - وذلك لتحرير عقل هذا الإنسان الغربي من سجن **«ثقافة الكراهية السوداء»** للإسلام وحضارته، تلك التي أشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية عبر قرون طويلة في المجتمعات الغربية..

كما أننا مطالبون بفتح نوافذ فكرنا هذا - حول موقفنا من طبيعة العلاقة بين الحضارات - على الحضارات غير الغربية - وخصوصًا حضارات الشرق والجنوب: الصينية - والهندية.. واليابانية.. وذلك لإقامة قدر من التساند بين حضارتنا وبين هذه الحضارات - التي تعاني، هي الأخرى، بشكل أو بآخر في علاقاتها بالغرب -.. وذلك خروجًا من المأزق الذي أراده ويريده مشروع الهيمنة الغربية: مأزق عزلنا عن هذه الحضارات، لمصارعتنا أولًا.. ثم الدوران عليها للخلاص منها بعد ذلك.. والانفراد بالهيمنة على العالم كله..

فالجهد الفكري الذي يبذله العقل المسلم في هذه القضية، يجب أن يتوجه إلى الإنسان الغربي أولًا.. وإلى دوائر الفكر والثقافة والسياسة في الحضارات الشرقية أيضًا..

5- إن إمكانات التساند المتاحة أمام حضارتنا الإسلامية - في معركة التصدي لمشروع الهيمنة الغربي، وممارسته المعاصرة لصراع الحضارات - ليست قائمة وموجودة فقط في حضارات الشرق والجنوب.. بل إن لنا في قطاعات واسعة من الفكر الغربي أنصارًا قد أبدعوا في إنصاف الإسلام وحضارته إبداعات عظيمة، هي شهادات شهود من أهل تلك الحضارة الغربية، يجب أن نتوسل بها لتحرير عقل الإنسان الغربي من «ثقافة الكراهية السوداء» الموجهة نحو الإسلام.. فلربما كانت هذه الكتابات الغربية المنصفة للإسلام وحضارته أفعل في إزالة الأوهام الفكرية التي سادت المجتمعات الغربية - إزاء الإسلام - لعدة قرون[1].

(1) انظر كتابنا: [الإسلام في عيون غربية: بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء] طبعة القاهرة - دار الشروق 2004م.

6- أن ترتيب البيت العربي والإسلامي، والبدء بإقامة قواعد الحدود الدنيا والضرورية للتضامن والتكامل في ميادين: الاقتصاد.. والثقافة.. والتشريع.. والتعليم.. وكذلك الترتيب والتعظيم «لأوراق» الإمكانات والطاقات الطبيعية والبشرية في وطن العروبة وعالم الإسلام.. وبعث الحياة والحيوية في منظماتنا الإقليمية: الجامعة العربية.. ومنظمة التعاون الإسلامي - هو واحد من أمضى أسلحة تصحيح صورة ديننا وأمتنا وحضارتنا في عيون الآخرين.. وفعالية هذا السلاح أقوى بكثير من مئات - بل وآلاف - المؤتمرات التي نعقدها لتحسين الصورة، ولصد طوفان **«ثقافة الكراهية السوداء»** الذي يصبه الغرب الاستعماري على الإسلام والمسلمين.

إن ترتيب البيت العربي والإسلامي، وتعظيم الإمكانات المادية والبشرية للمسلمين، هو الذي سيجبر مؤسسات الهيمنة الغربية على إعادة النظر في طموحاتها وأطماعها المجنونة للسيطرة على عالم الإسلام.. ومن ثم يجبرها على التقليل من معدل الاندفاع على طريق الصراع والصدام.. الأمر الذي يعدل - ولا بد - في الخطاب الغربي تجاه الإسلام..

7- أننا يجب أن نتخلص من وهم النظر إلى «نزعة صدام الحضارات»، التي دار الحديث حولها كثيرًا، منذ مقال «صامويل. ب. هانتنجتون» سنة 1993م، باعتبارها مجرد **«معركة فكرية»** بين دعاة حوار الحضارات وبين الداعين لصدامها.. ذلك أن «هانتنجتون» لم يكن - في مقاله، الذي تحول إلى كتاب - **«داعيًا ومبشرًا»** بصدام الحضارات.. وإنما كان - في حقيقة الأمر - **«كاشفًا»** عن الواقع التاريخي لصدام الحضارات، كما تمثل في علاقة الغرب بالإسلام.. ثم كان - مع ذلك **«مشيرًا»** على صاحب القرار الأمريكي، أن يحيِّد الحضارات غير الإسلامية، ويبدأ صراعه مع حضارتنا.. ثم مع الحضارة الصينية - الكونفوشيوسية -.. ليعود، بعد كسر شوكتيهما، إلى احتواء الحضارات الأخرى المستعصية على الأمركة والتغريب..

فصدام الحضارات هو **«فكر»** يعبر عن **«واقع»**، ويبرر **«للممارسات»** القائمة.. ومن ثم فإن الوقوف فيه عند أطروحات «هانتنجتون» [1927 - 2008م] و«فوكوياما» - حول «نهاية التاريخ» - هو اجتزاء يعزل فكر هذا الطور المعاصر لهذه النزعة الغربية عن جذورها التاريخية والحديثة.. كما أن الوقوف في رؤية «ممارسات» هذه النزعة الغربية عند مآسي الواقع

المعـاصر في فلسـطين.. والعراق.. وأفغانسـتان.. وأمثالها - هو اجتزاء يعزل هذه الممارسـات والمآسي المعاصرة عن سياقاتها وجذورها التاريخية..

❐❐❐

فعلى مسـتوى «ممارسـات» الغرب إزاء الشرق، يجـب أن يعي العقل المسـلم أن الغرب قد مارس الصراع والصدام والهيمنة - أو سـعى إلى ذلك وحاوله - على امتداد سـبعة عشر قرنًا من جملة قرون تاريخ الاحتكاك بيننا وبينه - البالغة.. أربعة وعشرين قرنًا -!!..

لقـد احتـل الغرب الإغريقـي.. والرومـاني.. والبيزنطي - الـشرق، وقهره سياسـيًّا ودينيًّا وحضاريًّا..ونهبـه اقتصاديًّا.. عشرة قرون.. من «الإسـكندر الأكـبر» [356 - 323ق.م] - في القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى «هرقل» [610 - 641م] - في القرن السابع للميلاد - عندما ظهر الإسلام، وحررت فتوحاته الشرق من هذا الاستعمار الغربي القديم..

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت في الفكر الغربي - الديني.. والسياسي.. والثقافي - نزعات تشويه الإسلام، والافتراء على رسوله ﷺ والازدراء بشعوبه وحضارته - وذلك لشحن الوجدان الغربي **«بثقافة الكراهية السوداء»**، التي تحرض على إعادة اختطاف الشرق من الإسلام..

❐ فكانت دعاوى الغرب **أن المسلمين إنما يعبدون ثالوثًا!!.. هو:**

1- أبوللين Apollin

2- وتير فاجانت Tervagant

3- ومحمد Mohaned.[1]

❐ وأن «محمـدًا ﷺ كان رجـلًا عـاش حيـاة داعرة، وتجـاوز خبثه كل حـدود الدناءة والانحطـاط.. ولم يتـورع خيالهم عن الادعاء بأن رسـول الإسـلام كان في الأصل كاردينالًا كاثوليكيًّا، تجاهلته الكنيسـة في انتخابات البابا، فقام بتأسـيس طائفة ملحدة في الشرق انتقامًا

(1) هوبرت هيركومر، وجيرنوت روتر: [صورة الإسلام في التراث الغربي] ص 25، 26. ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة- دار نهضة مصر، 1992م.

مـن الكنيسـة.. واعتبرت أوروبـا المسـيحية، في القرون الوسـطى، محمدًا المرتـد الأكبر عن المسيحية، الذي يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية!»[1].

❐ أمـا أكبر فلاسـفة الكاثوليكيـة - القديس «تومـا الأكويـني» [1225 - 1274م] فإنه يتحدث عن رسول الإسلام - ﷺ - فيصوره للثقافة الكاثوليكية بقوله:

«لقـد أغوى محمد الشـعوب من خلال وعـوده لها بالمتع الشـهوانية.. وحرَّف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون في البادية»[2]!!

❐ أمـا رأس البروتسـتانتية - «مارتـن لوثـر» [1483 - 1546م] - فهـو القائـل عن القرآن الكريم:

«أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع»!!

وهو القائل عن رسول الإسلام ﷺ:

«إنه خادم العاهرات وصائد المومسـات!!.. وعلى القساوسـة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائـع محمد، حتى يزداد المسـيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوي إيمانهم بالمسـيحية! ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب - ضد الأتراك - ويضحوا بأموالهم وأنفسهم»[3]!!

هكـذا تأسسـت في الثقافة الأوروبية أكاذيب الكراهية السـوداء، ضد الإسـلام وكتابه ورسـوله - عليه الصلاة والسـلام.. على الرغم من التكريم والتعظيم الذي جاء به الإسلام عن رموز النصرانية وغيرها من الشرائع السماوية!!

❐ أما صورة شـعوب الأمة الإسـلامية في هـذه الثقافة الغربيـة، فإنها تلـك التي صنعتها الخيالات المريضة والمغرضة.. وأشاعتها بين العامة والدهماء بواسطة الملاحم الشعبية.. وبنص عبارة المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون [1915 - 2004م]:

(1) المرجع السابق، ص 23، 24.
(2) المرجع السابق، ص 32، 33.
(3) المرج السابق، ص 21.

«فلقد حدث (في نظر الأوروبيين في مطالع العصور الوسطى) تحول في القوى والأقسام البعيدة من الشرق، وقام شعب هائج (هم العرب أو السراسنة) (البدو)، عرف بالسلب والنهب.. قام هذا الوباء الموجع فاجتاح وخرب أراضي واسعة وانتزعها من قبضة المسيحية..

كما حدث أن الكتاب اللاتين الذين أخذوا بين سنة 1100 - 1140م على عاتقهم إشباع حاجة الإنسان العامي، يوجهون اهتمام العامة نحو حياة محمد، دون أي اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر».. فكان محمد - في عرفهم - ساحرًا، هدم الكنيسة، في إفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية.. فهو كبير آلهة السراسنة.. والصنم الرئيسي في الثالوث الذي يعبده المسلمون.. تصنع تماثيله من مواد غنية وذات أحجام هائلة!!»[1]..

وغير شهادة «مكسيم رودنسون».. تشهد المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» [1913 - 1999] على فظاعة الصورة التي صنعها الغرب للعرب المسلمين ودينهم ورسولهم ﷺ ليشحن بها وجدان العامة في الصراع ضد حضارة الإسلام.. فتقول:

«لقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين: الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذين يصمهم - جهلًا وعدوانًا - بأنهم:

«رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسو الخرق المهلهلة.. عبدة الشيطان، ومحضرو أرواح الموتى، السحرة، وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، الذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين، وقد تربع على عرشهم الصنم الذهبي «لما هومد» - «مخيميد» - ، وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية، يذبحها أتباعه قربانًا وزلفى إليه..

فهم خلق غريب، غير متحضرين، متطفلون على الحضارة الهللينية الإغريقية، مستبعدون من العالم الهللينى.. وأقصى القول في هؤلاء المحمديين الدنيئين: أنهم ديدان حقيرة.. وسفلة

(1) مكسيم رودنسون: [الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«بوزورث» - القسم الأول. ص 27، 28، 34، 35. ترجمة: د. محمد زهير السمهوري. تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى. مراجعة: د. فؤاد زكريا – طبعة الكويت - 1978م.

أوغـاد.. أعداء الله.. وأعداء المسـيح؛ لأنهم يعبدون الدرك الأسـفل من الشـياطين.. وعالمهم هو عالم الخرافات والأسـاطير.. وبلادهم بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبي، اسمه محمد، تسهر على سلامته عصبة بين الشياطين..»[1]!!!

تلك هي الصورة التي صنعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام وأمته ورسوله وعالمه، وشحنت بها - كما تقول المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» - «أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين»..

وهي صـورة لا تزال بقاياهـا حية في الكتب المدرسـية الأوروبية والغربيـة.. وفي أفلام هوليود.. وفي الإعلام الغربي، حتى القرن الواحد والعشرين!..

❐ وإذا كانت الملاحم الشعبية قد مثلت - في العصور القديمة - ما يمثله الإعلام في عصرنا: الأوسـع في الانتشار.. والأشـد في التأثير.. فإن «ملحمة رولاند» - التي نظمها الشاعر القسيس «كونراد» - في ريجنز بورج - سنة 1300م - قد أشاعت في أذهان الجماهير لعدة قرون، الصورة التي تصف المسلمين بأنهم:

«الشـعب الذي لا يُروي تعطشـه لسـفك الدمـاء، والذي لعنـه رب السـماء.. فهم كفرة وكلاب.. وخنازيـر فجرة.. وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة.. لا يسـتحقون إلا أن يقتلوا وتطرح رممهم في الخلاء، فهم إلى جهنم بلا مراء».

وفي هذه الملحمة، يخاطب الشاعر القسيس الشعب المسلم، فيقول:

«إن مخمت.. قد أرسلني إليك لأطيح رأسك عن كتفيك، وأطرح للجوارح جثتك، وأمتشق برمحي هامتك، ولتعلم أن القيصر قد أمر أن كل من يأبى أن تعمده الكنيسـة، ليس له إلا الموت شـنقًا، أو ضربًـا، أو حرقًـا.. فهم جميعًا دون اسـتثناء حزب الشـيطان اللؤماء، خـسروا الدنيا والآخـرة، وحل عليهم غضب الله، فبطش بهم روحًا وجسـدًا، وكتـب عليهم الخلود في جهنم أبدًا»[2]!!

(1) سيجريد هونكة: [الله ليس كذلك] ص 8، 12، 13، 14، 19، 23. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة - دار الشروق - 1995م. و[العقيدة والمعرفة] ص 99، 161، 162. ترجمة: عمر لطفي العالم. طبعة دمشق - دار قتيبة - 1987م.

(2) المرجع السابق، ص 44.

تلك لمحة خاطفة من «ثقافة الكراهية السوداء» التي صنعتها وأشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية، للإسلام ورسوله وأمته، في صراعها الصليبي ضد عالم الإسلام والحضارة الإسلامية..

وإذا كانت الإمبريالية الغربية - في العصر الحديث - قد ورثت الأطماع الاستعمارية الغربية في ثروات الشرق، فإنها قد توسلت في صراعها ضد الإسلام وحضارته بالكثير من الأكاذيب التي صنعها أسلافها الصليبيون للإسلام والمسلمين..

ويشهد على ذلك المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون»، فيقول:

«لقد كانت الظاهرة التي لعبت الدور الأكبر في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق، وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر، هي الإمبريالية.. وكان من المحتم أن يؤدي ذلك إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهي صفة طبيعية في الأوروبيين، كانت موجودة دائمًا، ولكنها اتخذت الآن صبغة، تتسم بالازدراء الواضح للآخرين.

لقد نسب المبشرون - [المنصرون الأوروبيون] - نجاحات الأمم الأوروبية إلى الدين المسيحي، مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامي إلى الإسلام، فصورت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافي والتخلف، وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون، وبعثت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيفت إليها زخارف عصرية.. وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوروبيين، ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم، وخصوصًا حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية»[1].

هكذا ورثت الإمبريالية الغربية - في صراعها مع حضارة الإسلام - أكاذيب العصر الصليبي.. وغدا هذا الميراث الكاذب «علمًا» يقدمه «العلماء» الذين خدموا وزارات المستعمرات لأساطين السياسة الاستعمارية الغربية في العصر الحديث - عصر العلم والعقلانية والتنوير!! -..

ومع «مكسيم رودنسون» يشهد على ذلك، العالم الإنجليزي «مونتجمري وات» [1909 - 2006م]، عندما يقول:

(1) مكسيم، رودنسون: [الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] - مصدر سابق. ص 83، 86.

«لقد شـهدت بدايـات القرن العشريـن صرعة (مـودة) تقديم القرآن للقـارئ الأوروبي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسـيحية، بالإضافـة لقليل من الزيادة المحددة. ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقـع أن هـذه النظرة تعد بقيـة من بقايا الدعاية المسـيحية التي سـادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التي كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوي دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام»[1]!

وهكذا اسـتمر التزييف الثقافي سـلاحًا غربيًا في الصراع الحضاري الغربي ضد الإسلام، عبر تاريخ هذا الصراع.. ويشـهد على ذلك طوفانه الذي انهال على الإسـلام وأمته وحضارته، بصحبة الحرب «الصليبية - الإمبريالية» الجديدة، التي شنت على الإسلام وعالمه، عقب قارعة 11 سبتمبر سنة 2001م في أمريكا..

❐❐❐

لقد صنعت أوروبا - في عصورها الوسطى - كل ذلك الافتراء على الإسلام ورسوله وقرآنه وأمتـه وحضارته، لتأجيج نزعة الصراع وثقافة الصدام التي تشـحن الوجدان الغربي، وتجيش الجيـوش للحملات الصليبية [489 - 690هـ - 1096 - 1291م] - التي دامت قرنين من الزمان - والتي لم تفلح لغتها الدينية في إخفاء مطامعها المادية ومقاصدها الاقتصادية.. حتى في خطاب البابا الذهبي «أوربان الثاني» [1088 - 1099م] - الذي أشـعل تلك الحروب.. والذي وجهه إلى فرسان الإقطاع اللاتين.. وقال فيه:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودًا.. لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هي في حق الله.. عينه.. وليسـت هي لاكتسـاب مدينة واحدة.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء!..

(1) مونتجمري وات: [الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر] ص 98. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فاتخـذوا محجـة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسـة من أيادي المختلسـين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلًا.. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًّا.

اذهبوا وحاربوا البربر - [يقصد المسـلمين] - لتخليص الأراضي المقدسـة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية - [مفاتيح الجنة التي صنعها لهم البابا..] - واكتسبوا بهـا لذواتكـم خزاين المكافآت السـماوية الأبدية، فـإذا أنتم انتصرتم عـلى أعدايكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسمًا وميراثًا.

وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموهًا عدوانًا.. ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا، فاغسلوها بدم غير المؤمنين - [أي المسلمين]»[1]!!

لقد أعطى البابا الذهبي «الفرسان - اللصوص» مفاتيح الجنة، ليحاربوا المسلمين، وليغسلوا أيديهـم المصطبغة بالدمـاء في حروبهـم الإقطاعية، يغسـلوها ويطهروها بدماء المسـلمين.. وليمتلكوا كل أقاليم آسـيا الخصبة، التي تدر لبنًا وعسـلًا، والتي تشـبه - في الخصب - فردوسًا سماويًّا.. وذات الخزائن التي تعز على الإحصاء!!!..

هكذا غلفت «ثقافة الكراهية السـوداء» - الصليبية - الأطماع الاستعمارية، في الصراع الغربي ضد الإسلام وحضارته وعالمه.

❐❐❐

ولم تنتـه هذه «النزعة الصراعية» لدى مشروع الهيمنة الغربية بهزيمة الجيوش الصليبية، وإزالة قلاعها الحربية، وكياناتها الاسـتيطانية من الشرق الإسـلامي [690هـ - 1291م] - وإنما اسـتمرت - في صـور متعددة: صليبية.. وإمبريالية - فمنذ إسـقاط «غرناطة» في سـنة 897هـ يناير سـنة 1492م.. بدأت حملات الالتفاف حول العالم الإسلامي، تمهيدًا لضرب قلبه - الوطن العربي. - لاحتواء عالم الإسلام..

(1) مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول، ص 13، 14، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبعة أورشيلم، 1865م.

❐ فكر ستوفركولمبس [1451 - 1506م] يجمع الذهب من «الدنيا الجديدة» - القارة الأمريكية - ليطلب من البابا «إسكندر السادس» [1492 - 1503م] **تجيش «خمسين ألفًا من الجنود المشاة، وخمسة آلاف فارس لفتح الديار المقدسة»**[1]**!!**

كما يطلب - هذا الذي نعلمه لأبنائنا باعتباره مجرد مكتشف جغرافي -!!.. يطلب من ملكي إسبانيا الصليبيين، اللذين اقتلعا الإسلام من الأندلس، واجتثا جذوره بالقتل والحرق والتنصير.. يطلب «كولمبس» من «فرديناند» [1479 - 1516م] و«إيزابيلا» [1474 - 1504] تجييش حملة صليبية، لانتزاع بيت المقدس من جديد.. فهدفه.. كما قال: **«هو فتح الديار المقدسة، خلال ثلاث سنوات، لاسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس»**[2]**!**

❐ و«فاسكودي جاما» [1469 - 1524م] - بعد التفافه حول إفريقيا - يذهب لمحاربة المسلمين على شواطئ الهند [910هـ - 1504م] معلنًا: **«أننا جئنا لهدفين اثنين: المسيحية.. والتوابل»!!**

❐ و«ماجلان» [1480 - 1521م] - الذي تُعلم الثقافة المغشوشة أبناءنا أنه مجرد رحالة ومكتشف جغرافي - هو الذي قُتل على شواطئ الفلبين [927هـ - 1521م] وهو يحارب المسلمين - لتبدأ، منذ ذلك التاريخ، حلقات تنصير الفلبين المسلمة، والتي كانت عاصمتها - «مانيلا» - اسمها يومئذ. «أمان الله»!..

❐ ثم تأتي حملة بونابرت [1769 - 1821م] على مصر والشرق [1213هـ - 1798م] لتبدأ مسلسل ضرب قلب العالم الإسلامي.. وهو المسلسل الذي تتبدل - في مراحله - القيادات والإمبراطوريات الغربية.. مع بقائه حلقات متوالية ومتصلة في هذه الممارسات الصراعية الغربية ضد عالم الإسلام وحضارته..

❐❐❐

إذن.. فنحن أمام تاريخ غربي قديم لإنكار الآخر - الديني.. والحضاري.. وللتمركز

(1) أحمد عبد المعطي حجازي: صحيفة [الأهرام] - القاهرة - في 28/ 4/ 2004م.

(2) د.حاتم الطحاوي: [وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العرابي] - الكويت، عدد 532 - مارس 2003م.

حول الذات.. وأمام مخزون رهيب من «ثقافة الكراهية السوداء».. يغلف ويبرر للممارسات الصراعية الاستعمارية الغربية ضد الشرق الإسلامي..

ولسنا بإزاء مجرد «بدعة» اخترعها مفكر يهودي اسمه «صامويل هانتنجتون» - كما يريدوننا أن نتصور المثقفون المتغربون..

❐ فقبل «هانتنجتون» بأكثر من قرن ونصف من الزمان.. كتب المستشرق الإنجليزي «باركر» (سير أرنست) Sir ernest Barker [1874 - 1960م] عن تجذر هذه النزعة الصدامية في علاقات الغرب بالإسلام.. ورجوعها إلى تاريخ ظهور الإسلام.. فقال:

«إن الصدام الذي حدث بين بيعة الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته وبين دين الإسلام ومدنيته وشعوبه هو من أعظمها وأكبرها خطرًا. وربما جاز لنا القول إنه بدأ بهزيمة «هرقل» [610 - 641م] (أول الصليبيين(في موقعة اليرموك [636م] أمام قوات الخليفة عمر بن الخطاب»!!

فالصدام الصليبي مع الإسلام ، بدأ - برأي «باركر» - منذ ظهور الإسلام.. وتحريره الشرق من هيمنة الرومان..

ثم يتحدث «باركر» عن استمرارية هذا الصدام بين الحضارتين.. بل ويتساءل: هل له نهاية؟!.. فيقول:

«لكن، من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام؟!. لقد كان في وقت من الأوقات دينيًّا بالدرجة الأولى، وفي وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة. كان نضالًا بين شعوب مختلفة.. ولكنه بقي على الدوام صراعًا مختلطًا اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسية. وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع، بدأت في سنة 1096م وانتهت في 1291م - إذا ما حددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحي في أرض سوريا - أما إذا نظرنا إلى الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية، فقد يصح لنا القول إنها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد..»[1].

فبواعث هذا الصراع وهذا الصدام - الذي بدأ بظهور الإسلام - مستمرة - كما يقول

(1) باركر: [الحروب الصليبية]: بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - تحت إشراف أرنولد - ص 79 - ترجمة: جرجيس فتح الله - طبعة بيروت 1973م.

«باركر» - حتى الغزوة الصليبية التي بدأت بإسقاط غرناطة.. وهي الغزوة التي لا يزال العالم الإسلامي يواجه تحدياتها حتى هذه اللحظات!!

❐ وفي «مؤتمر كولورادو» - الذي انعقد بأمريكا سنة 1398هـ - مايو 1978م - لتنصير المسلمين.. تعلن المؤسسة الدينية البروتستانتية عن تجذر تناقضاتها وعدائها للإسلام.. فتقول:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودهاء؟!.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين!!.. وإنه بينما يوافق المنصرون على أن التحول إلى دين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم مازالوا يشعرون أيضًا بأننا ينبغي أن نجبرهم على الدخول في النصرانية!!!

ولكي يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشكلات وعوامل تدفع الناس - أفرادًا وجماعات - خارج حالة التوازن التي اعتادوها!.. وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني.. وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية!.. ولذلك، فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًّا في عملية التنصير!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلًا للنصارى!!..»[1].

هكذا أعلنت المؤسسة البروتستانتية الغربية: أنه لا بد من **«اختراق الإسلام في صدق ودهاء»**!. لتنصير كل المسلمين، وطي صفحة الإسلام من الوجود، اعتمادًا على **«معجزة الكوارث المصنوعة»** حينا.. وبالقوة في حين آخر!!..

(1) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي] - أبحاث ومناقشات مؤتمر كولورادو - ص 452، 22، 23، 770، 242، 826، 827، 469، 364، 147. طبعة مالطا 1991م.

أمـا المؤسسـة الكاثوليكية.. فلقد رفعـت - في الربع الأخير من القرن العشرين - شـعار: «إفريقيا نصرانية سنة 2000م»..

فلما خيب الله آمالها، ولم تتحقق أطماعها.. أخرت تاريخ تنصير إفريقيا إلى سنة 2025م..!!.

❐ وإمعانًـا في «أدبيـات» النزعـة الصراعيـة الغربيـة إزاء الإسـلام وحضارتـه.. يعلن الكاردينال «بول بوبار» - مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة -:

«أن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا. وأن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا لكي يلاحظ تفاوتًا متزايدًا بين معدلات النمو السـكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسـلامية.. وفي مهد المسيح يتسـاءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟!..

إن التحدي الذي يشـكله الإسلام يكمن في إنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيـام الـذي يفرضـه عليهـم دينهـم، وفي الوقت نفسـه ينبهرون بصيام المسـلمين في شـهر رمضان»![1].

❐ ويأتي الكاردينال «جاكوموبيفي» - أسـقف مدينة بولونيا - بإيطاليا - ليعلن في رسـالته يوم 13 - 9 - 2000م: أنه لا تعايش بين المسيحية والإسلام:

«فإما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية فورًا» وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا»[2]**!!**

❐ فلما جاء الرئيس الأمريكي - والمفكر الاسـتراتيجي - «ريتشـارد دنيكسون» [1913 - 1944م] - في ثمانينيات القرن العشرين - إذا به - في كتابه [الفرصة السانحة] - يذكرنا بفاسكودي جامـا [1469 - 1524م] الذي أعلن - في القرن السـادس عشر الميـلادي - أن أهداف الغرب في

(1) من حديثه إلى صحيفة «الفيجارو» - الفرنسية - والنقل عن صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - في 1/ 10/ 1999م.

(2) صحيفة [العالم الإسلامي] - مكة - في 6/ 10/ 1992م.

الشرق هي «المسيحية» و«التوابل»!.. جاء «نيكسون». في أواخر القرن العشرين - ليعلن: **«أنه ليس لنا في الشرق إلا البترول وإسرائيل»**!.

«وأن الأصوليين المسلمين، الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب، مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضي، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة. وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!.

وهو يدعو كل الغرب - الأمريكي والأوروبي.. البروتستانتي والكاثوليكي والأرثوذكسية الروسية - إلى التحالف ضد هذه الأصولية التي تريد بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام منهاجًا شاملًا لكل ميادين الحياة..

ثم يدعو هذا الغرب إلى مناصرة العلمانية في العالم الإسلامي **«ونموذجها تركيا الأتاتوركية التي تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر (الغرب) من الناحية السياسية والاقتصادية»..**

ولا يخجل «نيكسون» من التصريح بأن **«السياستان الأمريكية والغربية هما اللتان ستلعبان الدور الرئيسي في تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة»!!**

فهم الذين سيحددون لنا «الخيار العلماني».. ومع ذلك يسمونه خيارًا تختاره شعوبنا المسلمة!!

ولا ينسى «نيكسون» أن يذكرنا - في نهايات القرن العشرين - بأن صورتنا عند أغلب الأمريكيين، هي ذات صورتنا في الثقافة الصليبية في العصور الوسطى!.. فيقول:

«إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالمصادفة - على بعض الأماكن التي تحوي ثلث النفط الموجود في العالم. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي..»!![1].

(1) نيكسون: [الفرصة السانحة] ص 28، 140، 135، 138، 139، 141. ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة القاهرة - دار الهلال 1992م.

فهل نستغرب - بعد قراءة هذا الذي كتب عن الإسلام والمسلمين وحضارتهم في الثقافة الغربية. وعن صورتنا في الذهنية الغربية والأمريكية - قبل الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001م، أن يأتي استطلاع رأي الأمريكيين - في ديسمبر سنة 2004م، - محبذًا - من قبل 40 % من الأمريكيين - حرمان المسلمين في أمريكا - حتى المواطنين منهم - من الحقوق المدنية التي هي مفخرة أمريكا والأمريكيين؟!..

❐❐❐

وفور سقوط المنظومة الماركسية - وانهيار أحزابها وحكوماتها وأحلافها سنة 1411هـ - 1991م - «يعلن» الغرب عن أن الإسلام هو العدو الذي حل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية» - ومصطلح «الشر» هذا هو مصطلح ديني توراتي - من مزامير داود - أطلقه اليمين الديني الأمريكي المحافظ - برئاسة الرئيس الأمريكي «ريجان» [1911 - 2004م] على الشيوعية - ثم جاء الرئيس «جورج بوش - الصغير - ليطلقه على الإسلام والمسلمين، بعد وصفهم «بالأصولية» و«الإرهاب»!..

وعن اتخاذ الغرب للإسلام عدوًا، حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، كتبت مجلة [شئون دولية] - الصادرة في «كمبردج».. بإنجلترا - عدد يناير سنة 1991م - معللة هذا «الإعلان الغربي» - فقالت:

«إن الفكر الغربي المعاصر، الذي يميل إلى جعل الحضارة المسيحية - اليهودية/ الغربية هي الحضارة المهيمنة، وجعل أفكارها مطلقة - وليست مجرد ثقافة بين ثقافات عديدة يعج بها العالم. قد شعر الكثيرون من أبنائه بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول!.

إن الحساسيات الإسلامية - مقترنة بالقومية العربية - تعتبر، بصفة عامة، الخطر السياسي الرئيسي الذي يواجه الدول الغربية التي تسعى للقيام بدور نشط في الشرق الأوسط.. وبالإضافة إلى ذلك، فإن صعود الأحزاب التي تصف نفسها بأنها إسلامية في السياسة الداخلية لطائفة عريضة من البلدان الإسلامية، وبصفة خاصة تلك الأقرب إلى أوروبا، أمر مرجح أن يؤثر على العلاقات بين تلك البلدان والغرب..

ولذلك، كان الإسلام، من بين الثقافات الموجودة في الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة. ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها، أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات، ماديًا، فضلًا عن هلاكها المعنوي..

لقد أصبح الدين يقتحم الشئون الدولية بصورة متزايدة، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها.. وإن أوروبا، التي اعتادت أن تعرف نفسها من خلال تحديد الآخر، كان لا بد من أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام - أو بمعنى أدق العالم الإسلامي القريب من أوروبا.

والقضية هي ما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني، من خلال صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي/ الغربي الذي يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها في ديمقراطية علمانية؟؟..»[1].

فاستعصاء الإسلام على العلمنة، أي على الاستسلام في صراع الغرب ضده وضد حضارته، قد جعله - بنظر الغرب - العدو الذي يمثل التحدي الحقيقي له من بين ثقافات الجنوب.. ولذلك كان الإعلان عن أنه هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية!..

❐❐❐

❐ كل هذه «الممارسات» الصراعية.. والصياغات الفكرية المفصحة عن النزعة الصراعية في الحضارة الغربية سابقة على وجود صامويل هانتنجتون - كما اتضح بجلاء فيما قدمنا من إشارات..

فلما جاء هانتنجتون ليتحدث عن صدام الحضارات - في مقاله الذي نشر سنة 1414هـ - 1993م - قال:

(1) (19) مجلة [شئون دولية] - كمبردج - إنجلترا - عدد يناير 1991م. وانظر كتابنا [الغارة الجديدة على الإسلام] ص 15 - 31 - طبعة القاهرة - دار الرشاد - 1998م.

«إن الحضـارة هـي كيان ثقافي.. وليس ثمة حضارة عالمية واحـدة، بل عالم من الحضارات المختلفة.. وفي العالم سبع أو ثماني حضارات كبرى، هي:

1- الحضارة الغربية.

2- والصينية الكونفوشيوسية.

3- واليابانية.

4- والإسلامية.

5- والهندية.

6- والأرثوذكسية السلافية.

7- والأمريكية اللاتينية.

8- وربما الإفريقية.

وهي حضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة، والتاريخ، والثقافة، والعادات، وأهم من ذلك: الدين.

وأبنـاء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسـان، والفرد والجماعـة، والمواطـن والدولة، والآباء والأبنـاء، والزوج والزوجة. وكذلـك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والمساواة والتنظيم الهرمي.

وهـذه الاختلافات هي نتاج قرون، ولن تختفي في القريب العاجل، إذ إنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجية السياسية والنظم السياسية».

وبعـد هذا التحليـل العميق - بل والعبقري - الذي قدمـه «هانتنجتون» لتعدد الحضارات العالمية، وتمايزها.. ومقومات هذا التمايز.. تحدث عن الموقف الغربي المنحاز لفلسـفة الصراع بـين الحضارات، لا كموقف ذاتي اختاره «هانتنجتون» ليدعو إليه ويبشر به.. وإنما **«كحتمية واقعية»** للموقف الغربي تجاه الحضارات غير الغربية. فهو مجرد **«واصف»** لتاريخ وممارسـات هذا الصراع الغربي مع الحضارة الإسلامية. وذلك عندما يقول:

«إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ 1300 عام، وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه صدام حضارات».

وهو بالنسبة للمستقبل - مستقبل العلاقة بين الغرب والحضارة الإسلامية - يفصح عن المخططات التي تعلنها كثير من دوائر صنع القرار الغربي، ومراكز الفكر الاستراتيجي الغربي - هو مدير أحد تلك المراكز بجامعة هارفارد الأمريكية - يفصح - ولا يخترع - عن ما هو معلن من أن الإسلام هو الخطر الأخضر الذي حل محل الخطر الأحمر و إمبراطورية الشر الشيوعية.. فيقول:

«إن البؤرة المركزية للصراع، في المستقبل القريب، سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية..».

وبعد هذا **«الإفصاح»** - الذي يشكر الرجل عليه - عن **«واقع الموقف الغربي»** من صراع الحضارات تاريخيًّا.. ومستقبلًا - يأتي دور «هانتنجتون» - كمفكر استراتيجي يهودي الديانة - ليشير على حضارته الغربية، وقيادتها الأمريكية، بكيفية إدارة هذا الصراع الحضاري مستقبلًا.. ومراحل هذا الصراع.. وأولويات المعارك فيه.. فيشير بضرورة تقسم مراحل الصراع الحضاري الغربي، ضد الحضارات غير الغربية، إلى مرحلتين:

- الأولى - والقريبة: هي مرحلة «المدى القصير»، وفيها ينصح «هانتنجتون» الغرب بتوحيد عالمه الحضاري، وتجييش كل أدوات الصراع - من آلة الحرب إلى الاقتصاد إلى السياسة، إلى الثقافة إلى القيم، إلى المؤسسات الدولية - وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.. فيقول:

«إنه، على المدى القصير، من مصلحة الغرب أن يعزز تعاونًا أكبر، وتوحيدًا في نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكونيها: الأوروبي والأمريكي الشمالي..

1- وأن يدمج مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية في الغرب، وهي مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب.

2- وأن يعزز علاقات التعاون مع روسيا واليابان، ويحافظ عليها.

3- وأن يحـول دون تصعيـد الصراعـات المحليـة بين الحضـارات إلى حـروب كبرى بين الحضارات.

4- وأن يحد من توسع القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية.

5- وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية..

6- وأن يحافظ على التفوق العسكري شرق وجنوب غرب آسيا.

7- وأن يستغل الخلافات والصراعات الغربية في الحضارات الأخرى.

8- وأن يقوي المؤسسـات الدولية التي تعكس وترسـخ المصالح والقيـم الغربية، وتضفي عليها الشرعية..

9- وأن يروج لاشتراك الدول غير الغربية في هذه المؤسسات».

تلك هـي «معالم خطة هانتنجتـون» للمدى القصير، والمرحلـة الأولى من صراع الغرب الحضاري ضد الحضارة الإسـلامية والحضـارة الصينية.. وهي «معالم» قـد أصبحت«برنامجًا» يضعه الغرب - بقيادة أمريكا - في الممارسة والتطبيق.. وخصوصًا بعد «سنوح الفرصة» عقب قارعة سبتمبر سنة 2001م في أمريكا.. وليست، كما يحلو للمنافقين المتغربين، مجرد «خرافة» أطلقها «هانتنجتون» حول «ما يسمى بصراع الحضارات»!..

إننا نحترم «العدو» الذي يعلن عن «واقع العداء».. أكثر من المنافق الذي يسـعى إلى ستر عورات الأعداء!..

- أما المرحلة الثانية - من هذا الصراع الغربي ضد الحضارات غير الغربية - مرحلة «المدى الطويل» - فهي - بتعبير «هانتنجتون»: مرحلة الاحتواء الغربي للحضارات غير الغربية، التي نجحـت في «تحديث» واقعها، لكنها احتفظت بذاتيتهـا وهويتها الحضارية غير الغربية.. أي أنهـا أنجزت لونًا من التحديث.. غير الغربي، فأقلعت من مرحلة التخلف، لكن ليس إلى فضاء الذوبان في التغريب!..

فبعد المرحلة الأولى من هذا الصراع الحضاري.. مرحلة كسر شـوكة الحضارة الإسلامية،

والحضـارة الصينية، تأتي هذه المرحلة الثانية - مرحلة احتـواء الغرب للحضارات التي حيَّدها إبان المرحلة الأولى من هذا الصراع. وبعبارات «هانتنجتون» - التي يخطط فيها لصانع القرار الأمريكي والغربي:

«.. أمـا على المـدى ا لطويل، فسـيكون اتخاذ إجراءات أخـرى أمرًا مطلوبًـا، فالحضارة الغربية هي حضارة غربية وحديثة معًا. وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تصبـح غربيـة. وحتى يومنا هذا لم تنجح في هذا المسـعى إلا اليابان. وسـوف تواصل الحضـارات غير الغربية محاولاتها للحصول على الـثروة، والتكنولوجيا والمهارات والإمكانات والأسـلحة.. التـي تمثل جزءًا من كون الحضارة حديثة، كذلك سـتحاول تلـك الحضارات أن توائـم هذه الحداثة مـع ثقافتها وقيمها التقليدية. أما قوتها الاقتصادية والعسـكرية فسـوف تزيد بالنسبة للغرب. ومن ثم، يتوجب على الغرب - على نحو متزايد:

أن يحتوي تلك الحضارات الحديثة غير الغربية، التي تقترب قوتها من قوة الغرب، لكن قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير، عن قيم الغرب ومصالحه. وسـوف يسـتلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات!»[1]

هكذا عبر وأفصح «صامويل.ب. هانتنجتون» عن الرؤية الغربية للمسـتقبل الحضاري في العالم الذي نعيش فيه..

فالغرب يتصور حضارته منفردة «بالعرش الحضاري» العالمي.. وهي متمركزة حول ذاتها، لا تعترف بحق الحضارات الأخرى في مشـاركتها النفوذ والخبرات في هذا العالم.. بل إنها تريد تغريـب العالم، وعولمة نموذجها على العالمين.. فهـي المركز والمنهاج والطريق الذي يجب على الآخريـن تقليده أو اللحاق به، لتبنيـه.. حداثة كان هذا النموذج، أو مـا بعد الحداثة!.. لأن الليبرالية الرأسـمالية، - بالنسـبة للعالم كله - هي نهاية التاريخ.. و«القدر الغربي» الذي ليس منه فرار!..

(1) لقد اعتمدنا في أفكار هانتنجتون» على دراسته التي نشرت 1993م بعنوان «صدام الحضارات The Clash Of Civilization» - مجلة الشئون الدولية الأمريكية - ترجمة: عبد المنعم محفوظ - مجلة [الحرس الوطني] - السعودية - الرياض - عدد ذي القعدة/ ذي الحجة 1416هـ - مارس - 1996م.

ولنا، هنا، أن نسأل: من ذا الذي يستحق منا التقدير والاحترام:

- صامويل هانتنجتون.. الذي انحاز إلى التعددية الحضارية في عالمنا.. ثم أفصح عن الموقف الغربي من هذه التعددية الحضارية؟.. فأعلن ما يفكر فيه.. ويضعه في الممارسة والتطبيق؟.

- أم هؤلاء الذين يخدعوننا عندما يتحدثون عن وحدة الحضارة العالمية.. ثم يخدرون أعصابنا عن الواقع المر، بالحديث عن «خرافة صراع الحضارات».. جاعلين من الآمال في حوار الحضارات ستارًا يحاولون به حجب هذا الواقع عن العقول والأبصار؟!..

أعتقد - والله أعلم - أن صامويل هانتنجتون هو الجدير بالاحترام!..

ثم.. إن علينا أن ندرك - وأن ننبه - على أن في الغرب قوى أخرى.. انتقد بعضها تاريخ الغرب في مصارعة الحضارة الإسلامية.. وانتقد التصورات المشوهة التي قدمها وكرسها الغرب الاستعماري عن الإسلام ورسوله وأمته وحضارته - ولقد أشارت هذه الدراسة - واستشهدت - بفكر عدد من هؤلاء العلماء الغربيين -..

كما أن بعض هذه القوى الغربية الشريفة - ومعها جماهير واسعة من الذين يعانون - في الغرب - من ويلات حروب الصراعات الحضارية والذين يدفعون الأثمان الباهظة للحروب الاستعمارية.. إنما يقفون معنا في خندق الرفض لفلسفة صراع الحضارات.

وكما سبق وأكدت هذه الدراسة.. فإن المشكلة في هذه «الآفة» هي مع مشروع الهيمنة الغربية.. وليس مع الإنسان الغربي بحال من الأحوال:

❐❐❐

❐ أما «فوكوياما» - المفكر الاستراتيجي.. فلقد دعا - في سياق فكر النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام - إلى فرض النموذج الغربي على العالم، باعتباره «نهاية التاريخ».. كما دعا إلى شن «حرب داخل الإسلام» تجعله إسلامًا أمريكيًّا، وذلك لنزع سلاح مقاومة الأمة الإسلامية لممارسات الهيمنة الأمريكية، وتطويع هذه الأمة لقبول «الحداثة.. والعلمانية» الغربية.. فقال:

«إن الحداثة، التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية، وإن المؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم.. وهذه القيم والمؤسسات تلق قبولًا لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها. لكن السؤال الذي نحتاج إلى طرحه هو:

- هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم؟ أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث هذه؟

ثم يجيب «فوكو ياما» عن هذا التساؤل الذي طرحه، الإجابة التي تحمل أخطر الدلالات في هذه القضية.. قضية صراع الحضارات.. بل وحرب الحضارات!!.. فيقول:

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشكلات الأساسية مع الحداثة.. فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم، فهو وحدة قد ولَّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: التسامح الديني.. والعلمانية نفسها..

وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وإفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها - لو أنها فقط استطاعت ذلك - فإن الأصوليين المسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلًا على الانحلال الغربي..

لذلك، فإن المسألة ليست - ببساطة - حربًا على الإرهاب - كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم [؟!]» -.. وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين، أو نحو العراق. إن الصراع الأساسي الذي نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم الأساسية الأخرى.. إن الصراع الحالي ليس ببساطة - ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية.. وإن التحدي الذي تواجهه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من معركة صغيرة ضد الإرهاب.. إنه يشكل تحديًا أيديولوجيًّا هو، في بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية!!..

وإن التطور الأهم ينبغي أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة الغربية، خصوصًا فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية»؟![1].

هكذا وضحت تمامًا - في «إعلان الحرب» هذا - أن رفض الإسلام للقيم الحداثية الغربية، وبالذات للعلمانية.. هو السبب الأول في هذا الصراع الحضاري الغربي - الأساسي - ضد الإسلام!!.. وأن استعصاء الإسلام على العلمنة، ورفض المسلمين لها هو سبب الصراع.. لأنه رفض للذوبان في النموذج الغربي، والتبعية الحضارية له.. أما الحديث عن «الإرهاب» فهو ستار لحجب حقيقة الخلاف وأسباب الصراع.. وحتى الحرب الشرسة التي تتعرض لها بلاد إسلامية هي **«نتيجة»** وليست **«السبب»** في هذا الصراع!!..

ومرة أخرى نذكر أن مجلة [شئون دولية] قد كتبت سنة 1991م: أن السبب في اتخاذ الغرب الإسلام عدوًا، هو استعصاء الإسلام على العلمنة، ومن ثم تمثيله التحدي الثقافي الوحيد للغرب.. وها هو «فوكو ياما» يكتب - في (النيوزويك) الأمريكية - بعد أحد عشر عامًا من ذلك التاريخ. أن سبب الحرب على الإسلام، هو أنه **«وحدة الرافض للمبدأ الأكثر أساسية للحداثة والقيم الأمريكية.. مبدأ العلمانية!!**

ولقد كان «هانتنجتون» صريحًا كل الصراحة عندما خيرنا - عقب قارعة سبتمبر 2001م - بين قبول **«حرب داخل الإسلام، تجعله إسلامًا ليبراليًّا - حداثيًّا.. يقبل العلمانية والمبدأ المسيحي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»**.. وبين **«حرب على العقيدة الإسلامية الأصولية الرافضة للعلمانية»** لأن هذا الرفض للعلمانية هو **«أخطر من الشيوعية»**!!..

وعلى الذين يستغربون وضع الرفض الإسلامي للعلمانية في مستوى أكثر خطورة من الشيوعية - بالنسبة لأمريكا والغرب - أن يتذكروا، أن الشيوعية - مع خلافها الأيديولوجي في المسألة الاجتماعية مع الليبرالية الرأسمالية - إلا أنهما معًا إفرازات للحضارة الغربية.. ويشتركان معًا - الشيوعية والليبرالية - في العلمانية، التي هي - كما قال «فوكو ياما» المبدأ الأكثر أساسية في الحداثة الغربية!..

(1) فوكو ياما: مجلة [النيوزويك] - الأمريكية - العدد السنوي: ديسمبر 2001م - فبراير 2002م.

وعلينا جميعًا أن نتذكر ما قاله «هانتنجتون» من أن الحضارات تمايز بينها «الثقافة».. فخلاف الإسلام مع الحداثة الغربية هو بالفعل أكثر أساسية من ذلك الشقاق - الشيوعي/ الليبرلي - الذي حدث داخل الحضارة الغربية.. والذي طويت صفحته 1991م!!..

□□□

في منتصف القرن العشرين، كتب الشهيد سيد قطب [1324 - 1386هـ - 1906 - 1966م]: **«إن أمريكا تريد إسلامًا أمريكانيًّا، يمكن أن يُستفتي في منع الحمل، وفي نواقض الوضوء.. ولكنه لا يستفتي أبدًا في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي أو أوضاعنا السياسية والقومية، أو فيما يربطنا بالاستعمار من صلات.. تريد إسلامًا لا يقاوم الاستعمار ولا الطغيان.. وإنما يقاوم فقط الشيوعية.. وهي لا تريد للإسلام أن يحكم، لأنه حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلمها إعداد القوة لمحاربة الاستعمار والشيوعية معًا، لأنهما - كليهما - وباء واعتداء»**[1].

وعقب قارعة سبتمبر - بأمريكا - كتب «هانتنجتون»، يدعو إلى **«حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»**[2].

وفي ذات التاريخ كتب «فوكو ياما»: **«إن هناك بعض الأمل في ظهور فكر إسلامي أكثر ليبرالية، بسبب المنطق الداخلي للعلمانية السياسية!»**[3].

وفي سنة 2004م أصدرت «مؤسسة راند» الأمريكية - وهي واحدة من مؤسسات الدراسات الإستراتيجية - أصدرت تقريرًا - قدمته إلى صانع القرار الأمريكي - فصلت فيه خطة **«إعادة بناء الإسلام»** بالتعاون بين أمريكا والحداثيين والعلمانيين - في العالم الإسلامي - مع الاستفادة من بعض التقليديين لهزيمة الأصولية الإسلامية والأصوليين.

(1) سيد قطب: مجلة [الرسالة] - القاهرة - السنة العشرون - المجلد الأول - عدد 991 ص 713 - 715.
(2) عدد [النيوزويك] السنوي - ديسمبر 2001م - فبراير 2002م.
(3) المرجع السابق. نفس العدد.

وفي هذا التقرير [خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامي] - الذي فصلت فيه «مؤسسة راند» ما دعا إليه - إجمالًا - كل من «هانتنجتون»، و«فوكو ياما.. نقرأ بالنص:

«إن الإسلام المعاصر هو في حالة تصعيد، حيث يدخل في صراع داخلي وخارجي على قيمه وهويته ووضعه في العالم..

وإن الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الصناعي الحديث والمجتمع الدولي بأسره سوف يفضل عالمًا إسلاميًّا يأتلف مع باقي النظام العالمي والغربي..

ولذلك، لا بد من تشجيع عناصر داخل الخليط الإسلامي ممن يكونون أكثر توافقًا مع الحداثة الغربية..

والمسلمون مختلفون في طريقة التصرف حيال هذا الوضع:

- فالأصوليون يرفضون قيم الثقافة الغربية المعاصرة..

- والعلماء التقليديون يريدون مجتمعًا محافظًا وهم في ريبة «من الحداثة والتغيير».

- والعلمانيون يريدون أن يقبل العالم الإسلامي الفصل بين الدين والدولة، واستنساخ سلوك الديمقراطيات الغربية، مع إرجاع الدين إلى نطاق الحياة الخاصة بين كل شخص وربه..

- أما الحداثيون، فإنهم يريدون العالم الإسلامي جزءًا من الحداثة العالمية، وهم يريدون تحديث الإسلام كي يواكب العصر..

والحداثيون والعلمانيون هم الأقرب إلى الغرب، في ضوء القيم والسياسات.

ولذلك، يجب علينا:

أولًا: دعم الحداثيين.. فهم، من بين كل الجماعات، الأكثر إخلاصًا في تبني قيم وروح المجتمع الديمقراطي الحديث.. علينا دعمهم.. وذلك:

1- بنشر وتوزيع أعمالهم - في شرح الإسلام وطرحه - بتكلفة مُدَعَّمه..

2- وتشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب.

3- وتقديم آرائهم في مناهج التربية الإسلامية المدرسية..

4- وإعطائهم منصات شعبية للتواصل مع الجماهير..

5- وجعل آرائهم وأحكامهم في القضايا الكبيرة - للتأويل والفهم الديني - متاحة للجمهور - حتى يمكن أن تنافس آراء وأحكام الأصوليين والتقليديين..

6- وتيسير وتشجيع الوعي بالتاريخ السابق على الإسلام.. والثقافة اللاإسلامية.

7- وتشجيع تأويلهم للنص الديني الحرفي، الذي نعتبره تاريخًا وأسطورة!..

ثانيًا: دعم العلماء التقليديين ضد الأصوليين.. فالتقليديون هم قوة مفيدة ومضادة للأصوليين، وهم يتمتعون بشرعية واسعة وعامة في أعين الشعوب الإسلامية.. وهم منفتحون، يسعون للحوار بين الأديان.. ولذلك، فإن علينا تشجيعهم.. بواسطة:

1- نشر نقد العلماء التقليديين للعنف والتطرف..

2- وتشجيع الخلافات بين التقليديين والأصوليين.

ثالثًا: مواجهة ومعارضة الطرح الأصولي للإسلام: فالأصوليون هم الأكثر رفضًا، وبشكل أساسي وكلي، للديمقراطية والقيم الأساسية للمجتمع المدني الحديث..

رابعًا: دعم العلمانيين - بشكل انتقائي -: أي باستثناء العلمانيين القوميين واليساريين المعادين للولايات المتحدة الأمريكية، فالعلمانيون هم حلفاؤنا الطبيعيون في العالم الإسلامي.. وذلك عن طريق:

1- تثبيط التحالف العلماني مع القوى المضادة للولايات المتحدة الأمريكية.

2- وتشجيع إدراك أن الأصولية هي العدو المشترك..

3- ودعم فكرة أن الدين والدولة يمكن أن ينفصلا في الإسلام أيضًا، وأن هذا لا يهدد العقيدة الإسلامية..

أما الهدف من وراء كل ذلك. فهو إعادة بناء الدين الإسلامي، في ضوء العصر الإسلامي الجديد.. ليأتلف مع باقي النظام العالمي والغربي.. وليكون أكثر توافقًا مع الحداثة الغربية..

إن الإسلام ليس أكثر حصانة من الأديان الأخرى الكبرى في العالم وإن الإجماع بين الحضارات قادر على تغيير القيم، بما فيها قيم الإسلام»!![1].

❐❐❐

هكذا فصلت «مؤسسة راند» ما أجمله «هانتنجتون» و«فوكو ياما». وغيرهما من دعاة شن الحرب داخل الإسلام.. والثقافة الإسلامية.. والكتب المدرسية.. وتأوي الإسلام، ليقبل قيم الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. أي ليذوب في النموذج الحضاري الغربي، مستسلمًا في معركة صراع الحضارات!..

وهكذا نجد أنفسنا بإزاء قضية هي أعقد مما يتصور الكثيرون.. وأمام «نزعة صراعية وصدامية» تكونت وتراكمت وتكرست على مر تاريخ الاحتكاك الاستعماري الغربي بالشرق الإسلامي. لتكون الغلاف الفكري والثقافي المبرر «للممارسات الصراعية والصدامية» التي تمثلت في مشروع الهيمنة الغربي ضد الشرق منذ ما قبل الإسلام، وعلى امتداد تاريخ الإسلام..

وليس صحيحًا أننا أمام مجرد «نزوة» فكرية، ابتدعها وطرحها مفكر إستراتيجي - هو صامويل.ب. هانتنجتون».. ثم انبرى الكثيرون - في الشرق والغرب - لنقدها.. والادعاء بأنهم قد طووا صفحتها!..

إننا - حيال «نزعة صراع الحضارات» - بإزاء أمر لا نؤمن به.. ويرفضه إسلامنا.. وتكرهه أمتنا.. ولكنه - مثل القتال - قد كتب علينا، مع كراهتنا إياه.. ونحن نتمنى أن يقلع أهل هذه «النزعة الصراعية» عنها، فلا نلقاهم في ميادينها وساحاتها.. لكن «الواقع المفروض» شيء.. والتمنيات شيء آخر:

❐❐❐

(1) مؤسسة راند: [خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامي] ص 13، 20، 24، 71، 76، 78، 79، 93، 94 - ترجمة: د. محمد يحيى. طبعة القاهرة - المكتب المصري الحديث - 14525هـ - 2004م.

ويزيد من خطورة هذا الأمر وجديته، أن هذه «النزعة الصراعية والصدامية» قد تجلت في النظريات الأساسية التي ميزت مشروع النهضة الأوروبية والحداثة الغربية: وهي نظريات:

1- **الماكيافيلية:** نسبة إلى «ماكيافيلي» Machineve [1469 - 1527م] - في السياسة - والتي تعني أن «القوة - وليس العدل - هي المقصد من السياسة والدولة.. وهي الروح السارية في الحضارة الغربية.. وفي علاقات هذه الحضارة بالآخرين..

2- **والهيجلية** - نسبة إلى «هيجل» Hegel [1770 - 1831م] - في فلسفة التاريخ - والتي تعني أن كل عصر جديد إنما يقوم على نسخ العصر القديم، وذلك عبر الصراع مع مكوناته، والمحو لها، والحلول محلها..

3- **والداروينية** - نسبة إلى «دارون» Darwin [1809 - 1882م] في فلسفة النشوء والارتقاء.. وهي التي قامت على صراع الأحياء، ونسخ ومحو الأقوى للأضعف والضعيف.. لأن الأقوى - بإطلاق - هو الأصلح بإطلاق، ومن ثم فهو الأحق بالبقاء!..

4- **والصراع الطبقي:** سواء في الماركسية - نسبة إلى «ماركس» Marx [1817 - 1883م] - أو في الليبرالية الرأسمالية - والتي تعتمد «النزعة والفلسفة الصراعية» في علاقات الطبقات الاجتماعية.. فالطبقة الوليدة والجديدة تصارع الطبقة القديمة، لتقهرها، وتزيحها، وترثها، وتنفرد بكل الثمرات والامتيازات والسلطات - البورجوازية في الليبرالية.. والبروليتاريا عند الماركسيين -..

فهذه النظريات الأساسية التي طبعت النهضة الأوروبية الحديثة بطابعها.. قد غدت مصدر التبرير الفكري للممارسات الصراعية الغربية ضد الآخرين.. حتى لقد مارس الغرب - ولا يزال يمارس - هذا الصراع والصدام بضمير بارد، وقلب مستريح راحة الأموات!.. وذلك بحسبان أنه إنما يؤدي «رسالة نبيلة»، عندما يدمر الهويات والمواريث الحضارية للآخرين، ليحل محلها هويته وقيمه ونمطه في العيش والتفكير، باعتبار أن نمطه هذا - مثل «الحداثة.. والعلمانية» - هو الأقوى، ومن ثم فهو الأصلح والأحدث، والبديل الطبيعي والأحق بأن يحل محل الهويات والمواريث التي امتلكتها الحضارات الأخرى، التي لا يعترف الغرب بمشروعية وجودها ومن ثم لا يعترف بحقها في التميز واقتسام العالم الذي يريده الغرب إمبراطورية لاستغلاله الإمبريالي:

وإذا كانت هذه هي حقائق هذه القضية - قضية طبيعة العلاقة بين الحضارات العالمية.. والنزعة الصراعية التي مارسها الغرب الاستعماري عبر تاريخه مع الحضارات غير الغربية.. ومع الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.. فإن هناك مستجدات طرأت في إطار هذه القضية، يجب على العقل المسلم أن يضعها في الحسبان.

❐ ذلك أن الغرب «الصليبي» طوال عصوره الوسطي كان يواجه الإسلام، فقط، بالجيوش وفرسان الإقطاع الأوروبي.. ولم يكن لديه «فكر» يمكن أن يبشر به في ديار الإسلام، ويغري به عقول المسلمين.. حتى لقد وصف الأمير الفارس أسامة بن منقذ [488 - 584هـ - 1095 - 118م] - وهو الذي خبر الصليبيين حربا وسلما - وصفهم، فقال: **«إنهم بهائم، ليست لديهم سوى فضيلة القتال»**![1].

ولذلك، زالت كل آثار الحملات الصليبية القديمة فور هزيمة جيوشها، وهدم قلاعها، والاستيلاء على كياناتها الاستيطانية في بلاد الإسلام [690هـ - 1291م]..

بل إن الصليبيين هم الذين تأثروا حضاريًّا بحضارة الإسلام...

❐ أما الغرب الإمبريالي، الذي جاءتنا غزوته الحديثة منذ حملة «بونابرت» على مصر والشرق [1213هـ - 1798م] فإنه قد جاء إلينا مسلحًا - مع المدفع والبارود وأدوات القتال الحديثة - بفكر عصر النهضة الأوروبية، ونظرياتها وفلسفاتها الوضعية والعلمانية..

وحتى لا يكون مصير غزوته الحديثة هذه كمصير غزواته الصليبية القديمة، عندما تُجلي وطنيتنا جيوشه، فنحرر الأرض، ونستخلص ثرواتنا المنهوبة منه - حتى لا يحدث ذلك المصير لغزوته الحديثة، فلقد أراد - هذه المرة - احتلال العقل المسلم أيضًا، وذلك ليتأبد ويتأبد احتلاله للأرض ونهبه للثروات.. لقد أراد - بتغريب عقولنا - أن يكون نموذجه «قبلتنا» فيضمن تبعيتنا دون نفقات!.

ولقد كانت العلمانية الغربية سلاحه الفكري الأول الذي أراد به كسر شوكة الإسلام، وتحويله عن منهاجه الشامل للدين والدنيا، والدولة والاجتماع، والقيم والقانون، والفرد

(1) أسامة بن منقذ: [كتاب الاعتبار] ص 132. تحقيق: د: فيليب حتى. طبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - 1930م.

والمجموع، والآخرة والأولى.. أراد الغرب - بالغزو الفكري العلماني - تحويل الإسلام إلى صورة من النصرانية، التي تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. فلا بأس على الغرب الاستعماري من وجود «إسلام» يهتم، فقط، بخلاص الروح، ومملكة السماء، والعبادات الفردية، والزهد والرهبنة، ويدع دنيا المسلمين وعالمهم وثرواتهم للقيصر الغربي!!..

❐ لكن الغرب قد أفاق - في العقود الأخيرة من القرن العشرين - على حقيقة لا تزال تزعجه وتقض مضاجعه حتى الآن.. حقيقة أن قرنين من جهوده المحمومة في سبيل علمنة الإسلام وأمته قد ذهبت هباء.. فها هي الصحوة الإسلامية قد أصبحت أعظم ظواهر العصر في عالم الإسلام، وهي تدعو إلى إقامة الإسلام كمنهاج شامل لكل ميادين الحياة.. وها هي الأحزاب العلمانية ونظريات التغريب - التي رعاها الغرب وأنفق عليها بسخاء - تفلس وتسقط على امتداد عالم الإسلام - حتى لقد قالت مجلة [شئون دولية] - في يناير سنة 1991م - عن هذه الحقيقة المدهشة جدًّا.. والتي أزعجت الغرب:

«إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني، صالحة على العموم. فلقد تناقص التأثير السياسي والسيكلوجي للدين، عمليًّا، في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة..

لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًّا من هذا!.. فلم تتم أية علمنة في عالم الإسلام.. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي - بطريقة ما - أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت.. إن الإسلام مقاوم للعلمنة.. والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا في ظل مختلف النظم السياسية.. الراديكالية.. والتقليدية.. والنظم التي تقف بين هذين النوعين»!![1].

❐ ومع إفلاس العلمانية في عالم الإسلام، وخروج الإسلام من معركته معها أصلب عودًا، وأشد مراسًا، حدث النجاح الكبير والخطير لهذه العلمانية في المجتمعات الغربية، إلى الحد الذي هزمت فيه المسيحية هناك، وحولتها إلى هامش هزيل، ومجرد تراث..

(1) د. محمد عمارة: [الإسلام والآخر، من يعترف بمن ومن ينكر من؟] ص 140، 141 - طبعة القاهرة - مكتبة الشروق الدولية - سنة 1421هـ - 2001م.

ففـي أوروبا، لا يتجاوز الذين يؤمنـون بوجود إله 14 %.. ولا يتجاوز الذين يذهبون إلى الكنائس مرة في الأسبوع 10 %.. وفي أمريكا - الأكثر تدينًا - لا يتجاوز زوار الكنائس 40 % مـن السـكان!!..بل إن الكثيرين من المتدينـين هناك قد تخلو عن أهم مـا في الدين. تخلوا عن منظومة القيم والأخلاق، فلم يبق منه سـوى «العصبية والطقوس».. حتى لقد خانت كنائس غربيـة كثـيرة قيم مسـيحيتها، عندما أخذت تجذب النـاس بقيم ما بعد الحداثة والسـلوكيات المنحلة والماجنة - الحفلات الصاخبة. الموسيقى الملهية.. وحتى تزويج الشواذ -!!..

لقـد هزمت العلمانية المسـيحية في الغـرب.. وأصبحت كثير من المجتمعـات الأوروبية «فراغًا دينيًّا»..

ولأن العلمانية قد عجزت.. - هي الأخرى - عن ملء الفراغ الذي كانت تملؤه المسيحية.. وعن الإجابة عن الأسئلة الطبيعية للإنسان. فلقد تطلع الإنسان الأوروبي إلى العقائد الروحية التـي تلبي احتياجاتـه، وتملأ له هذا الفراغ.. وكان الإسـلام في مقدمـة الديانات التي أخذت تتمدد في هذا الفراغ الغربي..

وبشهادة القس الألماني - عالم الاجتماع - «جوتفرايد كونزلن»:

«فلقـد مثلـت العلمانية: تراجع السـلطة المسـيحية.. وضيـاع أهميتها الدينيـة.. وتحول معتقـدات المسـيحية إلى مفاهيـم دنيويـة.. والفصل النهائي بـين المعتقـدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين..

ولقد كان من نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملًا.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون، والنظام، والسياسة، والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشـكل عام.. فسـلطة الدولة، وليس الحقيقـة هي التي تضع القانون.. وهـي التي تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسـيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم.

لكـن.. وبعـد تلاشي المسـيحية.. سرعـان ما عجـزت العلمانية عـن الإجابة عن أسـئلة الإنسان، التي كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية، أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة بنفسـها، بل وتفكك أنسـاقها - العقليـة والعلمية - عدمية مـا بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسـيحي في أزمة.. فالإنهاك الذي أصاب المسـيحية أعقبـه إعياء أصاب كل العصر العلـماني الحديث.. وتحققت نبـوءة «نيتشـه» [1844 - 1900م] عن «إفراز التطور الثقـافي الغربي لأناس يفقدون (نجمهم) الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبـارة «ماكس فيبر» [1864 - 1920م]: «لقـد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!!..

ولأن الاهتمام الإنسـاني بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفي ظل انحسـار المسـيحية، انفتح بـاب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسـيحية ولا بالكنيسـة.. من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة..والاعتقاد بالأشـباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسـيوية.. والإسلام الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية»[1].

وعندئذ بلغ الانزعاج الغربي من الإسلام ذروة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الصراعية بين الغرب والإسلام.

لقد سـبق للفتوحات الإسـلامية - في القرن الهجري الأول.. أن حررت الشرق من الهيمنة الغربية، فتحول هذا الشرق إلى قلب للعالم الإسـلامي، بعد أن كان قلب العالم المسيحي لعدة قرون.

ثـم كانت أغلب حروب الغرب ضد الإسـلام إنما تقوم وتتم على أرض الشرق الإسـلامي، وبعيدًا عن الأرض الغربية.

(1) جوتفرايد كونزلن: [مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا] ص 22 - 36 - تقديم: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار نهضة مصر - 1999م.

أمـا الآن، فإن الإسـلام يتمدد في «معدة» المجتمعـات الغربية ذاتهـا.. وتنفتح أمام هديه الفطـري عقـول وقلـوب.. الأمر الذي جعـل كبار الكرادلـة في الغرب يـرون في ذلك **«فتحًا إسلاميًّا جديدًا لأوروبا»** يهدد بتحويلها عن أن تكون قلب العالم المسيحي - كما كانت لعدة قرون - إلى جزء من عالم الإسلام!!..

وبشـهادة المونسنيور «جوزيبي برناردیني» - في حضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني - في سنة 1999م:

«فإن العالم الإسلامي قد أخذ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»؟![1].

❐❐❐

ولهذه الوقائع والحقائق المسـتجدة، أعلن الغرب - بقيادة اليمين الديني في أمريكا - الحرب الصليبيـة الجديدة على الإسـلام مرة أخرى.. رابطًا بين الإسـلام والإرهـاب. وجاعلًا من كل مسـلم متهمًا ومشبوهًا. يقبض عليه دون سبب معروف!.. ويحاكم ويحكم عليه دون اتهامات معلنة، أو أدلة معروفة!.. ويحرم من الحقوق المدنية، فيصبح حاله في الغرب أسوأ مما كان عليه حال الزنوج!!.. حتى لقد تحققت عبارات المسـتشرق الفرنسي «جاك بيرك» [1910 - 1995م] التي قال فيها:

«إن الإسـلام، الذي هو آخر الديانات السـماوية الثلاث، والذي يدين به أزيد من مليار نسـمة في العـالم، والذي هو قريـب من الغـرب جغرافيًّا، وتاريخيًّـا، وحتى مـن ناحية القيم والمفاهيـم.. قـد ظل، ويظل، حتى هذه السـاعة، بالنسـبة للغرب: ابن العـم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدي.. والمبعد الأبدي.. والمتهم الأبدي.. والمشتبه فيه الأبدي»!![2].

❐❐❐

(1) صحيفة [الشرق الأوط] - لندن - في 13/ 10/ 1999م.

(2) من حديث لجاك بيرك - في 23/ 6/ 1995م - انظر صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - 1/ 11/ 2000م.

إذن.. فنحن - بسبب انتصار الإسلام على العلمانية - وبسبب هزيمة المسيحية الأوروبية أمام العلمانية.. وبسبب تمدد الإسلام في عقر دار الغرب.. أمام تصعيد - كيفي وكمي - جديد في الممارسات الصراعية الغربية ضد الإسلام.. وهو تصعيد كانت قارعة سبتمبر 2001م» في أمريكا **«مناسبة»** له.. ولم تكن «السبب» فيه - كما يحسب الكثيرون!..

وإذا كان هذا هو مبلغ تعقد هذه القضية - التي يسطحها الكثيرون - قضية طبيعة العلاقة بين الحضارات الإنسانية.. وهل هي الصراع والصدام؟.. أم الحوار.. والتعارف.. والتفاعل.. والتعايش؟؟.. فإن العقل المسلم مطالب ببلورة رؤيته لهذه القضية.. ومطالب بإدارة أوسع الحوارات حولها مع العقول الحضارية المختلفة، ومع العقل الحضاري الغربي على وجه الخصوص.. مستفيدين في ذلك الحوار من «منطق» هذه الرؤية الإسلامية.. ومن تمثيلها طوق نجاة الإنسانية كلها من هذا المسلسل الصراعي المدمر الذي شقيت وتشقى به الأمم والشعوب في مختلف الحضارات.. وأيضًا مستفيدين من تحقيق هذه الرؤية الإسلامية «لتوازن المصالح».. وليس «توازن القوى» - لجميع شعوب الحضارات.

❐ إن الإسلام - ومعه المسلمون - يرفضون مبدأ صراع الحضارات وصدامها.. يرفضون ذلك من حيث «المبدأ»، وليس، فقط، للمضار والكوارث التي جرتها عليهم هذه «النزعة الصراعية» عبر تاريخهم الطويل مع الغرب الاستعماري..

صحيح أن الكوارث والحروب والقهر الاستعماري والنهب الاقتصادي الذي عانى منه المسلمون - ولا يزالون - بسبب سيادة هذه النزعة الصراعية في علاقة الحضارة الغربية بالإسلام وأمته وعالمه وحضارته، كافية وحدها في جعل المسلمين - من باب المصلحة والمنفعة - يرفضون ويعادون هذا النهج في العلاقات بين الحضارات..

لكن الموقف الإسلامي - المبدئي.. والعقدي.. والفلسفي - هو الآخر، رافض ومعاد لمبدأ الصراع - بتعميم وإطلاق - سوء أكان هذا الصراع حضاريًّا أم دينيًّا أم فكريًّا أم عرقيًّا أم طبقيًّا.

وإذا كانت القضية الأولى التي تمايز بين العقائد والفلسفات و«الأيديولوجيات»، هي **«رؤية الإنسان للكون والوجود»**، التي تعتمدها هذه العقائد والفلسفات و«الأيديولوجيات»،

فإن الرؤية الإسلامية للكون والوجود تقود المسلم إلى رفض مبدأ الصراع وفلسفة الصدام، رفضًا «مبدئيًّا».. وبتعميم وإطلاق..

ذلك أن هذه الرؤية الإسلامية ترى: أن الواحدية والأحدية هي، فقط، للذات الإلهية.. أما كل من عدا الذات الإلهية، وجميع ما سواها فإنه يقوم على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف..

والإيمان بهذا التنوع والتمايز والاختلاف - في هذه الرؤية الإسلامية - يتجاوز كونه «حقًّا» من حقوق هذه المخلوقات، إلى كونه «قانونًا كونيًّا وتكوينيًا» و«سنة من سنن الله» التي لا تبديل لها ولا تحويل..

ولأن «الصراع» يعني: الانتهاء إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيلغيه ويهلكه، ليستأثر بما كان لدى هذا الآخر، ولينفرد بالميدان، ويستغني عن الآخرين.. كان هذا «الصراع» هو العدو اللدود للتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف.. وكان مرفوضًا إسلاميًّا - من حيث «المبدأ».. وبتعميم وإطلاق - لأنه مناقض، ومناهض لسيادة السنة الإلهية في تنوع سائر المخلوقات والحضارات والشرائع والفلسفات والمذاهب والقوميات..

ولقد استخدم القرآن الكريم مصطلح «الصراع».. بهذا المعنى.. معنى: الهلاك والإهلاك - في سياق الحديث عن قوم ثمود وقوم عاد: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 5 - 8]..

فدل هذا المصطلح - في القرآن الكريم - على إفضاء «الصراع» إلى نهاية الخصم وهلاكه وزواله من الوجود.. إلى التفرد والانفراد والاستغناء - وفي الاستغناء - وفق المصطلح القرآني - المقدمة المفضية إلى الطغيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 6 - 7]..

وفي كل ذلك مصادمة ومخالفة ومحادة لسنة الله - سبحانه وتعالى - في التنوع والتمايز بسائر عوالم الخلق وميادينها..

إن الوجود - بأسره - فيه: «الحق» - واجب الوجود - و«الخلق» - ممكن الوجود.. ووحدة «الحق» - سبحانه وتعالى وأحديته - في الرؤية الإسلامية - تبلغ الذروة والمنتهى في تصورات

العقل الإنساني للتنزيه والتجريد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 1 - 4].. ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].. وكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك!..

أما سائر عوالم الخلق - في الإنسان.. والحيوان.. والنبات.. والجماد.. وكذلك في العقائد والشرائع والفلسفات.. وفي الألوان والأجناس.. والألسنة واللغات والقوميات.. وفي المناهج والثقافات والمذاهب والحضارات.. وفي الأمم والقبائل والشعوب.. إلخ.. إلخ.. فجميعها قائمة على قانون التنوع وسنة التمايز والاختلاف..

- ففي الإنسانية الواحدة تنوع واختلاف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

- وفي الديانات تنوع واختلاف: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: 118، 119]-..

- وفي الشرائع والمناهج - أي الثقافات والمذاهب والحضارات - تنوع واختلاف: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48].

- وكذلك الحال - حال التنوع والتمايز والاختلاف - في الألوان والأجناس والألسنة واللغات - أي القوميات -: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: 22] -.. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: 3، 4].. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ [البقرة: 148]-..

وإذا كان «الصراع» يفضي إلى الانفراد بالساحة.. فإن التعدد والتمايز والاختلاف هو الباعث على التنافس بين المختلفين، وعلى التسابق على طريق الخيرات: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]

وانطلاقًا من هذا التأسيس القرآني لقانون التنوع والتمايز وسنة التعدد والاختلاف، قال العلماء - في تفسيرهم لهذه الآية القرآنية: إن الاختلاف طبيعة في المخلوقات.. وأنه هو علة خلق هذه المخلوقات!

فالحسن البصري [21 - 110هـ - 642 - 728م] ومقاتل بين سليمان [150هـ - 767ك] وعطاء ابن رباح [27 - 114هـ - 732م] يقولون إن الإشارة - في قوله تعالى: (ولذلك خلقهم] - هي إلى الاختلاف.. أي و«للاختلاف خلقهم»..

وحتى الذين يقولون: إن الإشارة إلى الرحمة - مثل ابن عباس [3 ق هـ - 68هـ - 619 - 687م] ومجاهد [21 - 104هـ - 642 - 722م] وقتادة بن دعامة السدوسي [61 - 118هـ - 679 - 736م] والضحاك [105هـ - 723م][1] فإن الجمع بين رأيهم هذا والرأي الأول ليس ببعيد.. فالتنوع والاختلاف - في إطار الوحدة الإنسانية - هو رحمة من الخالق - سبحانه وتعالى - لأنه الباعث على التسابق على طريق الخيرات.. ومعروف الفارق الجوهري - في العربية والإسلام - بين «الخلاف» - المذموم، لأنه في الأصول - وبين «الاختلاف» المحمود - لأنه في الفقهيات والفروع -..

ومن العلماء الأئمة الذين أكدوا على هذه الحقيقة: حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [450 - 505هـ - 1058 - 1111م].. وأبو حيان التوحيدي [400هـ - 1010م] والطباطبائي - محمد حسين [1293هـ - 1876م] والشيخ محمد رشيد رضا [1282 - 1354هـ - 1865 - 1935م]..

فالغزالي يتحدث عن سنة الاختلاف بين الناس، فيقول: **«وكيف يجتمعون على الإصغاء - [لرأي واحد] - وقد حكم عليهم في الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين.. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»**[2].

والتوحيدي، هو القائل في جدلية الاختلاف بإطار الوحدة: **«فالناس - في أصل جبلتهم، وبدء خلقتهم - قد افترقوا مجتمعين، واجتمعوا مفترقين، واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين**[3]**..**

(1) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج 9 ص 114، 115، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.
(2) الغزالي - أبو حامد: [القسطاس المستقيم] ص 61 ضمن مجموعة عنوانها: [القصور العوالي في رسائل الإمام الغزالي] طبعة مكتبة الجندي - القاهرة - بدون تاريخ.
(3) التوحيدي - أبو حيان - [المقابسات] ص 83. تحقيق محمد توفيق حسين. طبعة بيروت 1989م.

وليس يجوز أن يكون الناس مختلفين في ظاهرهم.. ولا يختلفون في باطنهم.. وليس يجوز في الحكمة أن يكثروا ولا يختلفوا، وليس يجوز أيضًا، أن يُضم الجنس والنوع ولا يأتلفوا..»[1].

وعند الطباطبائي - محمد حسين - **«فإن اختلاف الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى أمر لا مناص منه في العالم الإنساني.. ذلك أن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد، مما يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية. وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية التي لولاها لم يعش المجتمع الإنساني»**[2].

أما الشيخ رشيد رضا.. فإنه هو القائل: **«والذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى في الناس خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم، وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك: الدين والإيمان والطاعة والعصيان.. فالاختلاف طبيعي في البشر، وفيه من الفوائد والمنافع العلمية - والعملية - ما لا تظهر مزايا نوعهم دونه.. وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف»**[3].

❐ كذلك، جعلت الرؤية الإسلامية - وأوجبت - أن تكون العلاقة بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين هي «التوازن» أي العدل - الذي هو الوسط.. والخيار - الذي أراده الله - سبحانه وتعالى - لأمة الإسلام - ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]-..

وهذا التوازن - الوسط.. العدل.. في العلاقات بين الحضارات - وفي العلاقات الدولية - هو «توازن المصالح» - وليس «توازن القوى»، بين الحضارات والأمم والشعوب..

❐❐❐

(1) التوحيدي - أبو حيان : [الإمتاع والمؤانسة] ج 3 ص 99. تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين - طبعة القاهرة، 1944م.

(2) الطباطبائي - محمد حسين: [الميزان في تفسير القرآن] ج11 ص 60 - طبعة بيروت 1392هـ - 1932م.

(3) رشيد رضا: [تفسير المنار] ج 12 ص 19، 22 طبعة بيروت، دار المعرفة.

❐ لكـن.. مـاذا إذا اختل التوازن بين الأمم والشـعوب والحضـارات - أو الطبقات.. هل يكون «الصراع» هو السبيل لعلاج هذه الأمراض؟..

كلا. لأن سلوك سبيل «الصراع» - الذي ينهي التنوع والتعدد - ليس العلاج لهذه الأمراض.. لأنه أشبه ما يكون بإعدام المرضى.. وخصوصًا الضعفاء، الذين يهلكهم هذا الصراع..

لذلك، فإن الإسلام يقدم «فلسفة وآلية التدافع» سبيلًا لإصلاح الخلل، ورفع الظلم، وإعادة العلاقات بين المختلفين والمتمايزين إلى مستوى «العدل المتوازن» و«التوازن العادل».. فالدفع والتدافع، هو: «حراك» اجتماعي وفكري وحضاري.. وهو وسط بين «الصراع» - الذي ينهي التعدديـة - وبين «السـكون» - الذي يكرس المظالم والاختـلالات -.. حراك اجتماعي يعدل المواقف، مع الحفاظ على بقاء سنة التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف بين الفرقاء..

إنـه السـبيل لتصحيح الخلل والمظالم في علاقـات الطبقات.. والحضـارات.. وهو الحراك الفكـري الذي تمثله الاجتهـادات في عوالم الأفكار.. به تعود العلاقات بين الفرقاء المختلفين - إذا اختلت - إلى مسـتوى التوازن والعدل.. وبه تكون حوافز المنافسـة وبواعث التسابق على طريق الخيرات.. وهذا هو معنى قول الشهيد سيد قطب [1324 - 1386هـ - 1906 - 1966م]:

«إن مـن طبيعة الناس أن يختلفوا، لأن هـذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض، والاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشـئ بدوره اختلافًا في التصورات والاهتمامـات والمناهج والطرائق.. ولقد كانت الحياة كلها تأسـن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعـض، ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم اللـه عليها أن تتعـارض مصالحهـم واتجاهاتهم الظاهريـة لتنطلق الطاقـات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة مسـتنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهايـة يكون الصلاح والخير والنماء. فالعقيدة في حاجـة إلى الدفع عنها، وأماكن العبادة لا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض.. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسـان هو الإنسان».

ثم يشـير سـيد قطب إلى أن هذا التدافـع وهذا التنوع والاختلاف إنمـا يتم في إطار جامع

لفرقائـه. فهو ليس «الـصراع» الذي لا ضابط له، ولا سـقف يحكمه، والـذي يفضي إلى إنهاء التنوع والاختلاف.. فيقول:

«عـلى أنه لا بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفـئ إليه المختلفون، وقول فصل ينتهي عنده الجـدل، ومـشروع واحد لبني الإنسـان، ثم تختلـف التفصيلات بعد ذلك وفـق حاجات الأمم والأجيال..»[1].

□□□

ولم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية - على اختلاف مذاهبهم.. وتوالي أجيالهم - على هذه الفلسفة:

□ **التنوع** والتمايز والتعدد والاختلاف، في كل عوالم المخلوقات، كسنة من سنن الله تعالى التـي لا تبديل لها ولا تحويل. وليس التمركز حول الـذات، مع الإنكار للآخرين، ولمشروعية اختلافهم وتميزهم.

□ **والتدافع**، كطريق وسـط للحـراك الاجتماعي والفكري، يعـدل المواقف إذا اختلت علاقات العدل والتوازن بين الفرقاء المختلفين لإعادة هذه العلاقات إلى مستوى العدل المتوازن والتـوازن العـادل.. وليس الـصراع، الذي يصرع فيه - وبـه - القوي الضعفـاء، فينهي التنوع والتعدد والاختلاف.

لم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية على هذه الفلسفة، المؤسسة على رؤية المسلم للكون والوجود، مجرد «فكر إسـلامي»، حتى يكون من مناطق «الاجتهادات.. والمتغيرات»، وإنما هو «دين ثابت»، ومنهاج بلوره الوحي الإلهي في القرآن الكريم، باعتباره سـنة من سـنن الله - سـبحانه وتعالى - في الاجتماع الإنسـاني، حاكمة للعلاقات بين الأفكار والشرائع والملل والأقوام والحضارات..

فالله - سـبحانه وتعالى - عندما يخاطب رسـوله ﷺ فيقول له: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ

(1) سيد قطب: [في ظلال القرآن] ج 1 ص 215، 171، ج 4 ص 425، طبعة بيروت 1403هـ - 1987م.

صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 34، 35] -.. يعلمنا - سبحانه - معالم هذا المنهاج.. فالتدافع لا يتغيا «صرع الآخر و إلغاءه»، و إنما تحويل موقفه من «العداوة» - التي تجعله من أهل «السيئات».. إلى موقع وموقف «الولي الحميم» - الذي يجعله من أهل «الحسنات»-!.. فيتم «الحراك»، بواسطة «التدافع»، مع بقاء «تعددية الفرقاء المتمايزين».

بل لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه «السبيل الإسلامية» - سبيل «التدافع»، لا «الصراع» - باعتبارها الحافز الذي يدفع الحياة والعمران إلى الارتقاء دائمًا وأبدًا.. فقال ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 251]..

فالصراع الحضاري.. ونقيضه - السكون الحضاري - ليس سبيل التقدم والصلاح والإصلاح، و إنما سبيل التقدم هو وسطية التدافع والتنافس والتسابق على طريق التقدم والنهوض والخيرات..

وعندما أذن الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال - قتال الذين أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم وفتنوهم في الدين - جاء الحديث عن «التدافع»، لتكون غايات القتال - الذي فُرض على المسلمين وهو كره لهم - هي تعديل مواقف المشركين من مواقع العداء المشرك المعتدي إلى مواقف السلام.. فهي «حراك»، لا «نفي و إهلاك»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: 38 - 41]-..

ففلسفة « التدافع الحضاري «هي البديل الإسلامي «لفلسفة الصراع الحضاري» الغربية.. ولذلك، ازدهرت في دولة الإسلام وحضارته وأمته التعددية في الملل والنحل والشرائع واللغات والقوميات والعادات والأعراف.. فعاشت الديانات - الكتابية والوضعية - ومؤسساتها ومقدساتها، في ظلال حضارة الإسلام..

كما قنن الفقه الإسلامي، منذ صدر التاريخ الإسلامي، وتبلُور الحضارة الإسلامية للعلاقات الدولية. قنن لاحترام العهود والمواثيق.. ولمعاملة الأسري.. ولاحترام المقدسات.. بل وللرفق بالنبات والطبيعة أثناء القتال!.. وعلمنا - في النظر إلى «الآخرين».. وفي التعامل معهم - «منهاج: ليسوا سواء»!..

كل ذلك، انطلاقًا من البلاغ القرآني.. ومن البيان النبوي لهذا البلاغ القرآني..

على حين شقيت الحضارات - وخصوصًا حضارة الإسلام - من «الممارسات الظالمة» للنزعة الصراعية في الحضارة الغربية.. ومن الفكر العنصري، المتمركز حول الذات، والمنكر لحق الآخرين في الوجود المتميز.. ذلك الذي برر الغرب الاستعماري به تلك «الممارسات الظالمة»، عبر تاريخ غزواته للشرق.. وحتى هذه اللحظات..

إننا - في هذه القضية - أمام «واقع غربي»، مارس ويمارس ضدنا صراع الحضارات.. ولسنا أمام «نزوة» اخترعها مفكر - هو صامويل. ب. هانتنجتون.. الذي «كشف» عن «واقع» الموقف الغربي من صراع الحضارات..

ولذلك، فإن «ترتيب البيت العربي والإسلامي»، لتعظيم إمكاناتنا المادية والبشرية.. و«ترتيب العقل العربي والإسلامي»، ليبلور فلسفة الإسلام إزاء هذه القضية.. و إدارة الحوارات الموضوعية والصبورة، مع الإنسان الغربي. ومع حضارات الشرق والجنوب.. هي السبيل لرفع هذا «البلاء» الذي مارسه الغرب الاستعماري - ولا يزال يمارسه - انطلاقًا من هذه النزعة الشريرة: «صراع الحضارات»!..

والله أعلم..

❐❐❐

العقلانية

العقلانية

عندما نشر شيخنا محمد الغزالي [1336 - 1416هـ - 1917 - 1996م] - عليه رحمة الله - كتابه [السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث] نشر أدعياء السلفية ضده أربعة عشر كتابًا.. اتفقت جميعها على أن أُولى التهم الموجهة إلى الشيخ هي «العقل والعقلانية»!.

ولقد كان نصيب كاتب هذه السطور - من هؤلاء الأدعياء - عدة كتب، لنفس السبب - العقل والعقلانية - منها كتاب بلغت صفحاته 710 - بعنوان [محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة: دراسة سلفية لكتبه ومقالاته].. وآخر بعنوان: [العقلانية: غواية أم هداية]؟!

كذلك أفرد أدعياء السلفية هؤلاء العديد من الكتب للتهجم على العديد من علماء العصر ومفكريه، لا لشيء إلا لأنهم عقلانيون، ينتمون إلى «المدرسة العقلية»!.

وإذا كان الحديث عن دين بلا عقل، أو عقل بلا دين، هو أثر من آثار الغزو الفكري الذي جاءنا في ركاب الاستعمار الحديث.. والذي نقل إلينا مشكلات هي من خصوصيات الحضارة الغربية، التي عرفت - في عصرها اليوناني - «عقلًا» بلا «نقل».. ثم عرفت - في عصر نهضتنا الحديثة - «عقلانية وضعية مادية لا دينية»، جاءت ثورة على «النقل واللاهوت»؟؟

وإذا كان تاريخنا الحضاري قد برئ من هذا الفصام النكد عبر قرونه الطويلة، ومذاهبه الكبرى والمعتبرة.. حتى لقد استقر في تراثنا الإسلامي أن العقل هو أصل الدين - كما جاء في الحديث النبوي الشريف - وأنه هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين.. وأنه هو الطريق إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - ومعرفة صفات كماله وجلاله - والسبيل إلى التصديق بالنبوة والرسالة، ومن ثم حجية «الوحي - النقل».. كما أنه هو السبيل لمعرفة كل حقائق عالم

الشـهادة.. أما في عالم الغيـب، فإن للعقل حدودًا لا يتجاوزها، يسـتعين على ما بعدها بالوحي والدين..

و إذا كانت الفطرة السـو ية قد شـهدت - وتشـهد - على اسـتحالة الإيمان الحق بالدين مع الإكراه.. فإن افتراض التدين الصحيح بلا عقل هو - في الحقيقة - لون من الإكراه!..

إذا كانت هذه الحقائق التاريخية والبدهية قد استقرت في تراثنا الحضاري الإسلامي، ولدى مذاهبنـا الفكر ية الكبر والمعتـبرة.. فإن بقاء الجدل وتجدد المماحكات حول تناقض العقل مع الإيمان الإسـلامي، هو لون من إضاعة الوقت والجهد في شـغل الناس بما لا يفيد - بل بما يضر - ولون من إعادة إنتاج ما سبق إنتاجه واستهلاكه في فترات التراجع الحضاري التي أصابت أمتنا قبل ظهور تيار الإصلاح والإحياء والتجديد في عصرنا الحديث.

إن هناك محاولات بائسـة و يائسـة لافتعال خصومة بين العقل و بين الإيمان الإسلامي، تتم - تارة - باسم التصوف والصوفية.. وتتم - تارة أخرى - باسم السلف والسلفية.

ولأن الله - سبحانه وتعالى - قد بعث كل رسول بلسان قومه.. فإن الحوار المجدي والأفعل هو الذي يخاطب أهل كل مذهب بنصوص الأعلام المؤسسـين لهذا المذهب، وذوي المصداقية لدى أتباعه ومر يديه..

❐ إن الحارث بن أسـد المحاسـبي [165 - 243هـ - 781 - 857م] هو واحد من أئمة أعلام الصوفية وأقطاب التصوف في تار يخ الإسـلام.. فهل قرأ الذين يفتعلون تناقضًا بين العقل و بين الإيمان الإسـلامي - من أدعياء التصوف - ما كتبه الحارث المحاسبي عن علاقة العقل بالإيمان.. وعن مقام العقل في الإسلام.

لقـد عاش هـذا الإمام القطـب في عصر تابعي التابعـين - أي في خير القـرون - وخصص للعقلانية كتابًا أسماه [العقل وفهم القرآن].. وكتب فيه عن مقام العقل، فقال:

«العقـل: غر يزة وضعها الله - سـبحانه - في أكثر خلقه.. وعرفهم اللـه إياها بالعقل منه، فبذلـك العقل عرفوا الله، وشـهدوا عليه بالعقـل الذي عرفوه به من أنفسـهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفـة ما يضرهم.. وبغر يـزة العقل أقام اللـه الحجة على البالغين، و إياهـم خاطب من قبل

عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى، وحض وندب.. إنه - العقل - صفوة الروح، أي خالص الروح.. وهو اللب، ولب كل شيء خالصة، فمن أجل ذلك سمي العقل لُبًّا ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 9] - يعني أولي العقول.

والعقل نور وضعه الله طبعًا وغريزة، يُبصر به، ويعتبر به. نور في القلب كالنور في العين، وهو البصر، والعقل غريزة يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول.. وهذه المعرفة عن العقل تكون.. والله إنما خاطب العباد من قبل ألبابهم، واحتج عليهم بما ركب فيهم من عقولهم.. وقد روي في تفسير قول الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13] - أي اعقل ما أقول لك.. وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] - أي أذن عقلت عن الله ما سمعت مما قال وأخبر.

والفهم والتبيان يسمى عقلًا، لأنه عن العقل كان.. وأعظم العاقلين عن الله العارفين عقلًا عنه ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته.. وإذا تم عقل المؤمن عن ربه أفرده عز وجل بالتوحيد له في كل المعاني..

والحجة حجتان: عيان ظاهر، أو خبر قاهر. والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، والعقل هو المستدل.

ولذة الحكماء والعلماء في عقولهم ولذة الجهال والبهائم في شهواتهم.. ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار.. وأنزل الكتاب ليدبروا آياته بعقولهم، ويتذكروا ما قال بألبابهم ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي أنه أنزله للتذكر والتفكر فيه، وخص بالتفكر والتذكر أهل العقول وأولي الألباب»..

هكذا تحدث القطب الصوفي الحارث المحاسبي عن العقل، الذي هو النور الذي به نعرف الله.. ونتدبر الكتاب.. ونؤمن بصدق الرسول.. وبالدين الذي بلغه عن الله.

فهل قرأ أدعياء التصوف - الذين يلوكون دعاوى التناقض بين العقل والإيمان - هذا التراث الصوفي المتألق في تاريخ حضارة الإسلام؟!.

❐ وبعد الحارث المحاسبي جاء حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [450 - 505هـ - 1058 - 1111م] وهو قطب التصوف وفيلسوف الصوفية.. الذي قادته المعاناة الفكرية إلى مقامات الصوفية وأحوالهم - فتحدث عن مقام العقل - الذي خصص له كتابًا في موسوعته الكبرى [إحياء علوم الدين] - فقال:

«إن برهان العقل هو الذي عُرفه به صدق الرسول ﷺ فيما أخبر.. وأنه لا بد من تآلف الشرع والعقل، لأن مثال العقل: كالبصر السليم عن الآفات، ومثال القرآن كالشمس المنتشرة الضياء..فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، كالمتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور..

إن العقل نور، بل هو أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس.. وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة..

ثم إن وراء العقل طورًا آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما أن العقل يمثل طورًا وراء التمييز والإحساس، ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز.. ولقد ورد الشرع بأمور لا يعلم حقائقها.. [أي كنهها] - إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده.. فنور النبوة قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب أمور لا تعرف بالأسباب العقلية..والوحي الإلهي والشرع الحق لا يرد بهما ما ينبو عنه العقل..

و إن في قلب الإنسان عينًا هي صفة كمالها، هي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنسانية..

والعقل أولى بأن يسمى نورًا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص.. ولقد كان العقل من أعظم ما شرف الله به الإنسان وكرمه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70] - فبه تنبه على البهمية، وألحق بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته، والاستدلال به على صفاته بما أودعه في نفسه من الحكمة..

والأصول الأربعة هي: الكتاب والسنة والإجماع والعقل..

إن العقل نور يُقذف في القلب، يستعد لإدراك الأشياء.. وهو غريزة يتهيأ بها لإدراك العلوم

النظرية.. وهو منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، وشرف العقل مدرك بالضرورة، وكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟».

❐ ولقد تعرض حجة الإسلام أبو حامد الغزالي لموقف بعض الصوفية الذين يذمون العقل والعقلانية.. وأورد سؤالًا:

- «ما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول»؟.

ثم أجاب عن هذا السؤال فقال:

«إن السبب فيه، أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات.. أما نور البصيرة الباطنة التي بها يُعرف الله تعالى ويُعرف صدق رسله. فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله عليه؟.. وإن ذم فما الذي بعده يُحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع. فبم علم صحة الشرع؟.. لقد علم بالعقل..»

ولا يلتفت إلى من يقول: إن الشرع يدرك بعين اليقين ونور الإيمان، لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل ما يريده هؤلاء بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور.

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ، فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ».

هكذا تحدث فيلسوف التصوف، وقطب الصوفية حجة الإسلام أبو حامد الغزالي..

فهل قرأ هذه الحكم وهذه الدرر وهذا التراث الصوفي النفيس هؤلاء الذين يفتعلون - باسم التصوف - خصومة بين العقل والقلب؟ وفصامًا بين نور العقل ونور الإيمان؟

هل قرأوا وتأملوا إعلان حجة الإسلام اعتماد العقل أصلًا وحجة وأساسًا ومرجعية - مع الكتاب والسنة والإجماع - عندما قال: «إن الأصول الأربعة هي: الكتاب والسنة والإجماع والعقل»؟.

هـل قرأوا هذا؟. أم أن هناك إصرارًا على التخبط الذي أشـار إليه حجة الإسـلام.. جعل البعض يحيي التخبط، بدلًا من إحياء التراث؟!.

❐❐❐

أما الذين يخاصمون العقل باسـم السـلف والسـلفية.. ويسـعون لاحتكار هذا المصطلح العزيـز - والفضفـاض! -.. حتى ليعتبرون العقل والعقلانية «تهمة.. وسـبة»! يؤلفون في ذمها وذم أصحابها الكتب والمقالات.. فإننا ندعوهم إلى فقه تراث أعلام السلفية - الذين يتمسحون بهم، ويتعصبون لتراثهم - ونقول لهم:

❐ هـل قرأتم تقديم العلامـة ابن القيـم [691 - 751هـ - 1292 - 1350م] «للواقع» على «الأحكام»؟.. وقوله: «إن هناك نوعين من الفقه لا بد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية.

وفقـه في نفس الواقع وأحوال الناس.. ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفًا للواقع..

فالمفتـي والحاكم (القاضي) والعالم: من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله.. وإن الفتاوى والأحكام هي التي تتغير بتغير الواقع والمصالح، وليس العكس..

❐ وهل قرأ أدعياء السلفية - الذين يقيمون التناقضات بين «العقل» وبين «النقل» - إعلان فيلسـوف السـلفية شـيخ الإسـلام ابن تيمية [661 - 728هـ - 1263 - 1328م] استحالة مخالفة النقل الصحيح للعقل الصريح.. وقوله:

«إن مـا عرف بصريح العقـل لا يتصور أن يعارضه منقول صحيـح.. ولقد تأملت هذا في مسـائل الأصول الكبار، كمسـائل التوحيد والصفات ومسـائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعرف بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة، ضعيفة، فلا يصح أن يكون دليلًا.. كما وجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها»..

أي أن ابـن تيمية يسـتدل بالعقل على صحة النقل أو عـدم صحته.. كما يقطع بأن صحيح

المنقـول لا يمكن أن يخالف صريح المعقول «لأن الرسـل - [كـما يقول ابن تيمية] - لا يخبرون بمحـالات العقول، بل بما هـو جائز في العقول.. لقـد بعثوا بتكميل الفطـرة لا بتغيير الفطرة.. وهنـاك تطابـق بين الدلالة القرآنية والبرهانيـة العيانية.. و إذا بدا أن هنـاك تعارضًا بين العقل والنقـل، أخـذ بالقطعي منهما - سـواء أكان معقـولًا أم منقولًا - وترك الظني منها - سـواء كان معقولًا أم منقولًا - فالمقدم هو القطعي من الأدلة - بصرف النظر عن نوعه - والمؤخر هو الظني - بصرف النظر عن نوعه أيضًا».

فهل قرأ أدعياء السلفية هذه «الموازين» التي وزن بها شيخ الإسلام ابن تيمية علاقة العقل بالنقل؟.

وهـل قـرأوا - أيضًا - إعلانه اجتـماع جمهور فقهاء الأمـة وأئمتها على اعتـماد العقل أداة لتحسين الأشياء وتقبيحها - وهو ما يظنه أدعياء السلفية رأيًا انفردت به المعتزلة وحدها -؟!

لقـد قال ابن تيمية: «وأكثر الطوائف على إثبات الحسـن والقبح العقليين. وهذا قول أبي حنيفـة وكثـير من المالكية والشـافعية والحنبلية وأهـل الحديث.. بل لقد ذكـر هؤلاء أن نفي التحسين والتقبيح بالعقل هو من البدع التي حدثت في الإسلام.. ولم يقله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها.. فالعقل يحب الحق و يلتذ به، ويحب الجميل و يلتذ به - والجميل هو الحسن، والقبيح ضده.. وبالتمييز بين الحسن والقبيح يتفاضل العقلاء..».

هكذا نزع فيلسـوف السـلفية شيخ الإسـلام ابن تيمية فتيل التعارض الموهوم بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وقطع - مع جمهور أئمة الأمة وفقهائها - بأن العقل هو الأداة المعتمدة والمؤتمنة على التحسين والتقبيح للأشياء.

فهل يعيد المنتسبون إلى السلفية - والمتعصبون لابن تيمية - قراءة هذا التراث؟.. كما يجب أن يعيد أدعياء التصوف قراءة تراث أقطاب الصوفية وفلاسـفتها - من أمثال الحارث المحاسبي وحجة الإسـلام الغزالي - لنكشـف جميعًا عن المسـاحة الواسـعة من الأرض الخصبة التي أقام الإسـلام عليهـا المؤاخاة بين العقل والنقـل.. بين الحكمة والشريعة.. والتـي تحدث عنها فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء أبو الوليد بن رشد [520 - 595هـ - 1126 - 1198م] عندما قال:

«إن النظـر البرهـاني لا يـؤدي إلى مخالفـة ما ورد به الـشرع، فإن الحق لا يضـاد الحق، بل يوافقه و يشـهد له.. و إن الحكمة هي صاحبة الشريفة، والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة».

❐❐❐

إن الذين يحمّلون تراثنا الإسـلامي - الصوفي أو السـلفي - مسـئولية القـول بالتعارض بين العقـل والنقل إنما يتفقون - دون أن يشـعروا - مع المتغربـين الذين رأوا هذا التعارض في تراث الحضارة الغربية، فنقلوه - دون وعي - إلى ثقافتنا، ونسبوه إلى تراث الإسلام!.

❐ إن العقلانية الإسلامية نابعة من النقل الإسلامي - من القرآن الكريم - الذي هو معجزة عقليـة، توجهت بالخطاب إلى الذين يعقلون و يتدبـرون و يتفكرون و يفقهون و يتذكرون.. ولقد تحدث القرآن عن العقل ومرادفاته فيما يقرب من ثلثمائة آية.. وشـاع الاحتجاج بالمنطق العقـلي والعقلانية المنطقية في كل سـور القرآن الكريم.. بل لقد حدثنـا عن أن الذين دابروا العقل وأهملوا براهينه قد قادهم ذلك إلى الجحيم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملـك: 10، 11] - فإهمـال العقـل والعقلانية ذنب يقود أصحابه إلى جهنم وبئس المصير!.

❐ ولم يعـرف تاريخ الإسـلام من انحـاز للعقل وحده دون النقـل.. ولا من اتخذ الموقف المضـاد.. كما لم يعرف هـذا التاريخ من قدم العقل على النقل تقديـم أهمية وتشريف.. و إنما أقـصى ما قال بـه البعض أنه مقدم تقديـم ترتيب، كما تتقـدم «الأدوات» على «الموضوعات» و«الوسـائل» على «المقاصد».. فالنقل - في تراث الإسلام - هو المطلق والكلي والمحيط.. بينما العقـل - على عظمته وأهميته - نسـبي الإدراك. معارفه كسـبية وجزئية وسـبقها جهل - ككل ملكات الإنسان -..

ولقد اجتمعت مذاهب الإسـلام الكبرى والمعتبرة على أن أصول الأحكام أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل.. فالجميع يفقهون النقل بالعقل، ثم يحكمون العقل بالنقل، الذي يأتي مـن نبأ الغيب وحقائق الإلهيات بما لا يسـتقل العقـل بإدراكه، ولا تسـتطيع اللغة البشرية أن تعبر عن جوهره وكنهه ومآلاته.. ففي عالم الشـهادة السـيادة للعقل مطلقة، أما في عالم الغيب

والألوهية فإن هناك مناطق يقف العقل دون سرادق عزتها، و يستعين عليها بما ضرب النقل لها من الأمثال التي تقرب التصورات إلى العقول.

❐ ولقد عبر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م] عن هذا الموقف الجامع بين العقل والنقل.. والمتوازن - في العلاقة بينهما - فقال:

«إن الإنسان كون عقلي، سلطان وجوده العقل، والعقل هو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل. وهو جوهر إنسانية الإنسان، وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها.. والكون جميعه صحيفته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل الوصول إليه.

ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس - [القرآن] - على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة أن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي، الذي هو وسيلة الإيمان الصحيح.

لكن العقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة لأن غاية ما ينتهي إليه كما له إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني.. أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجًا إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة.. فالعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات.. ولذلك منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها لسعادته.

1- هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري.

2- هداية الحواس والمشاعر.

3- وهداية العقل - التي هي أعلى من هداية الحس والإلهام -.

4- وهداية الدين - التي تضبط وتصحح وتكمل أخطاء ونواقص غيرها من الهدايات..

وبهذا تتكامل - في المعرفة الإنسانية - هدايات: العقل.. والنقل. والتجربة. والوجدان..

□□□

هذا هو تراث الإسلام في العقل والعقلانية. وتلك هي الأرض المشتركة - الواسعة والخصبة - بين المذاهب الإسلامية الكبرى والمعتبرة في مقام العقل ومكانته.. اجتمع عليها فلاسفة التصوف، وفلاسفة السلفية.. وأئمة الإحياء والتجديد في العصر الحديث، الذين جمعوا - مثل محمد عبده - بين السلفية التي تفهم الدين كما فهمه سلف الأمة قبل ظهور الخلاف.. وبين التصوف، الذي هو المجاهدة الروحية التي تزكي النفوس والقلوب، وعلم السلوك الذي يحقق الإخلاص في الأعمال.

فهل نحتكم جميعًا إلى هذا المنهاج القرآني في مقام العقل وعظمته.. وفي حدوده؟.

وهل نصرف العقل المعاصر إلى ما يفيد، بدلًا من إعادة المضغ والإنتاج والاستهلاك لتناقضات الفصام النكد الذي جاءنا به التغريب؟

التناقض بين العلم والدين.. وبين العقل والنقل. وبين الدين والدولة.. وبين الدنيا والآخرة. وبين الذات والآخر.. وبين الفرد والطبقة والأمة.. إلخ.. إلخ.

وهي تناقضات بريء منها الإسلام وتراثه - كما عرفته المذاهب الكبرى والمعتبرة.. هل نصرف عقلنا المعاصر عن ما لا يفيد - بل ما هو ضار -.. ونوظفه فيما يفيد - وهو كثير وضروري -؟.

إنها كلمة سواء.. ندعو إليها جميع الفرقاء.

العلمانية

العلمانية

في حديث أجرته إحدى المجلات الشهرية، مع قائد إحدى الدول العربية - وهو مسلم، يحكم شعبًا مسلمًا، ليست فيه أقليات دينية - سألته المجلة عن رأيه في تطبيق الشريعة الإسلامية؟ - فكانت الإجابة التي أدهشتني - بل وأذهلتني - وإن كنت لم أجد سبيلًا للتشكيك في نسبتها إلى هذا الحاكم المسلم .. لأن المجلة ناطقة باسم نظامه، وممولة من خزائنه؟!... كانت الإجابة التي قال فيها:

❐ لا.. إن الله في السماء، ونحن في الأرض نصنع ما نشاء؟!..

وبعد الدهشة.. والذهول.. فكرت في مضمون هذه الإجابة، فاكتشفت أنها التعبير الدقيق والصريح عن كل الذي يقول به العلمانيون؟!.. فما العلمانية والعلمانيون إلا الدعوة والدعاة إلى عزل السماء عن الأرض، والكفر بالله كمدبر ومنظم وحاكم في الاجتماع الإنساني والعمران البشري.. وإن آمن به كثير منهم كخالق للعالم والإنسان فهم يقفون بفعله، سبحانه وتعالى، عند مجرد «الخلق»، منتزعين منه، سبحانه، سلطات الحكم والتدبير والتشريع؟!..

إنه موقف كل تيارات العلمانية، وسائر مذاهب العلمانيين، ذلك الذي عبر عنه هذا الحاكم العربي المسلم بحدة كشفت وعرت «النموذج العلماني» حتى من «ورقة التوت»؟!.

فنحن إذا استثنينا «العلمانية - المادية» التي يتبناها الماديون والدهريون الملاحدة - فإننا سنجد فيها تيارًا غالبًا يؤمن بالله خالقًا لهذا الكون وما فيه ومن فيه، ويعبد الله بأداء المناسك والشعائر الفردية.. وقد يكون منهم ورعون ومتنسكون في الشعائر والمناسك والطقوس. ولكنهم يعزلون الذات الإلهية عن تدبير شئون العمران البشري وحكم الاجتماع الإنساني قاصرين الحكم والتدبير في هذه الميادين الدنيوية على «العقل. والتجريب» وحدهما؟!.. أي أنهم جاحدون للشريعة، متميزون عن المؤمنين بها، الذين يدعون إلى التدرج في تطبيقها وتهيئة

المجتمع لهذا التطبيق.. وهم، هنا، إذا شئنا رأي الإسلام فيهم: مؤمنون بالله خالقًا للكون.. وكافرون به كمدبر وحاكم في شئون الدنيا والدولة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وغيرها من شئون وميادين العمران.. فهم ليسوا كفارًا بإطلاق.. وليسوا بكاملي الإيمان.. إنهم مؤمنون ببعض الكتاب وكافرون ببعضه الآخر؟!..

❐❐❐

والحقيقة التي لا بد وأن يعلمها هؤلاء العلمانيون - ومنهم جمهور مخدوع لا يعلم هذه الحقيقة - أنهم في إيمانهم بالله، سبحانه وتعالى، قد زيفت عليهم صورة الإله!.. فنموذج الألوهية الذي يؤمنون به ليس هو النموذج الحق الذي علمنا إياه القرآن الكريم، وبينت لنا صفاته وأسماءه سنة رسولنا ﷺ.

نعم هم يؤمنون بالله.. ويعبدونه.. لكن علمانيتهم قد جعلتهم «يشركون» مع الله «طواغيت» أخرى، جعلوها الحاكمة والمدبرة، دون الله، في الاجتماع البشرى والعمران الإنسان.. فهم - في الحقيقة - التي لا يعلمها كثيرون منهم - صنف من «المشركين».. يسيرون على درب أسلاف لهم من القدماء، آمنوا بالله خالقًا.. وكفروا به مدبرًا وحاكمًا.. وأشركوا معه، بل وأحلوا محله وبدلًا منه، في تدبير الدولة والدنيا والعمران طواغيت أخرى، جعلوا الاحتكام، في تدبير العمران، إلى مرجعياتها، بدلًا من الاحتكام إلى الشريعة الإلهية، التي هي المرجعية الإلهية في حكم وتدبير الدولة والدنيا والعمران؟!..

❐❐❐

إن فارقًا كبيرًا بين «الماديين - الدهريين»، الذين يجحدون وجود الله بإطلاق - ويقولون - كما عبر عن مذهبهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24] -.. فارق بين هؤلاء وبين «المشركين»، الذين يؤمنون بالله، لكنهم يعزلونه عن التدبير في بعض الميادين، ويشركون معه آلهة وطواغيت وشركاء يتحاكمون إليهم في حكم هذه المساحات والميادين ويلتزمون بمرجعياتهم في تدبير شئون هذه المساحات بدلًا من مرجعية الشريعة الإلهية التي تجسد حاكمية الله وتدبيره في كل ميادين وعوالم الوجود، وفي العمران البشري والاجتماع الإنساني على وجه الخصوص.

❐ فالتصور الوثني الجاهلي للذات الإلهية، لم ينكر وجود خالق لهذا الوجود، ولكنه وقف في تصوره لعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق».. ثم أشرك معه شركاء آخرين في «تدبير» شئون الحياة الدنيا، كان يحتكم إليهم «الوثنيون - المشركون» في السلم والحرب، والسفر والحضر، والإقدام والإحجام. وفي الكثير من ميادين الحياة والعمران.. تمامًا كما يصنع العلمانيون، الذين يؤمنون بالله خالقًا - ثم يحتكمون في تدبير شئون الدنيا والدولة والعمران الإنساني إلى غير الشريعة التي وضعها، والتي تجسد إرادته وتدبيره ومعاييره في حكم هذه الميادين!.

إن القرآن الكريم لم ينع على هذا التصور «الوثني - الجاهلي» إنكار الخالق للوجود.. وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق»، دون آفاق «التدبير» في كل ميادين الوجود وسائر شئون العمران.. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: 38]-..

ففي هذا التصور «الوثني - الجاهلي - المشرك» إيمان بالله، «خالقًا» لهذا الوجود، وعزل له عن «تدبير» شئون الدنيا، وإحلال «الشركاء» محله، وبدلًا منه في هذا «التدبير».. تمامًا كما هو حال التصور العلماني، الذي يؤمن بالله، خالقًا للوجود، لكنه يعزله عن «تدبير» الدنيا والدولة والعمران، مستبدلًا «العقل.. والتجريب» بالشريعة الإلهية، وذلك بدلًا من جعل «العقل.. والتجريب» سبلًا مؤمنة بهذه الشريعة، وعاملة على الاجتهاد فيها والتطوير لما فيها من فروع ومتغيرات!.. فالعلمانية تحل «العقل.. والتجريب» محل الشريعة، أي بدلًا من الله.. بينما «الإسلامية» تجعل من «العقل.. والتجريب» ومعهما «الوحي - والوجدان» سبلًا للمعرفة تتآزر وتتكامل في هداية الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة.. فهل يعلم العلمانيون الدرب الذي عليه يسيرون في تصورهم لذات الله، سبحانه وتعالى؟!..

❐ وكذلك نجد الحال مع التصور «الأرسطي - اليوناني» لذات الله.. فهو شبيه بهذا التصور «الوثني - الجاهلي - المشرك».. فهو يتصور الله خالقًا لهذا العالم.. لكنه يزعم أن الله بعد خلقه للعالم، قد ترك تدبيره للأسباب المادية الذاتية المودعة والمركبة فيه.. فعلاقة «الخالق» بالوجود

- في هذا التصور - «علاقة منطقية»، كعلاقة المقدمة بالنتيجة - وليست علاقة الراعي المدبر لشئون هذا الوجود؟!..

فإذا جاء التصور العلماني للذات الإلهية، وآمن بالله خالقًا للوجود، وبالدين عقيدة وشعائر وعبادات.. ثم «حرر» العمران الإنساني والاجتماع البشري - في السياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث والقيم - من «الشريعة الإلهية»، من ضوابط ومعايير التدبير الإلهي لهذه الميادين.. فإنه، في الحقيقة - رغم مرارتها - إنما يسير بأصحابه - العلمانيين - على درب «الوثنية - الجاهلية - المشركة» في تصور الذات الإلهية.. وهي حقيقة قد لا يعلمها كثير من العلمانيين؟!..

❐ إن التصور القرآني للذات الإلهية يتميز عن التصورات «المشركة».. فهو تصور «التوحيد» و«الوحدانية» في أرقى وأنقى صورها.. ولذلك، فهو لا يقف بنطاق عمل الذات الإلهية عند حدود «الخلق» فقط لهذا الوجود، وإنما يجعل الله سبحانه وتعالى، الراعي والمدبر والحاكم - بقضائه.. وشرعه - لكل شئون الحياة وسائر ميادين العمران..

فهو «الخالق» وهو «مدبر الأمر».. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3]-.. وله، سبحانه وتعالى «الخلق» و«الأمر» - أي التدبير - ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]-..

وهو، سبحانه، الذي «خلق».. والذي «هدى».. ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49، 50]-..

هذا هو التصور الإسلامي للذات الإلهية.. الذي تتنكب العلمانية والعلمانيون طريقه، عندما يريدون الله خالقًا معزولًا عن تدبير شئون الدنيا والدولة والاجتماع والعمران.. ويريدون الدين عقيدة وعبادات، لا شريعة فيه ولا قانونًا يضبط دنيا الناس - وهم عندما يتنكبون طريق التصور الإسلامي للذات الإلهية، إنما يسيرون - دون أن يدري كثير منهم - على درب «الوثنية - الجاهلية» القديمة، تستوي في ذلك «وثنية - العرب» و«وثنية - اليونان»؟!..

تلك هي «الحقيقة - المرة»، التي تضع العلمانيين في «سلة الشرك»، وإن لم تضعهم في «سلة الدهرية».. فهم، بهذه العلمانية، مؤمنون بالله «خالقًا»، وكافرون به «مدبرًا» للعمران الإنساني.. وعندما يعرض موقفهم هذا على التصور القرآني للذات الإلهية، نجدهم قد آمنوا ببعض ما جاء به القرآن في هذا التصور، وكفروا - كفر جحود.. أو كفر جهل - ببعضه الآخر.. فهم ليسوا كفارًا بإطلاق.. وليسوا كاملي الإيمان.. وإنما هم - بإشراكهم الشركاء مع الله في حاكمية التدبير للدولة والدنيا - «مشركون»، يسيرون على درب المشركين القدماء؟!

إن «مرارة» هذه الحقيقة قد تكون مفاجأة لقطاع كبير من العلمانيين.. لكن.. هل تسهم هذه «المرارة» في إيقاظهم من الغفلة؟.. أم يظلون في غيهم سادرين؟!..

إن «المعادن» و«المقاصد» هي معايير التمييز في هذا المقام.. ففارق بين أصحاب «الاجتهادات الخاطئة».. وبين «العملاء الحضاريين».. فولاء الأولين لوطنهم وأمتهم - والإسلام هو سياج هذا الوطن.. وهوية هذه الأمة وحصنها في الملمات وأمام كل التحديات.. أما الآخرون، فإن العلمانية هي سبيلهم إلى كسر شوكة الإسلام - حصن الأمة وهويتها - وطريق الاختراق والهيمنة والتبعية والإلحاق!..

ولقد صدق موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني [1254 - 1314هـ- 1838 - 1897م] عندما قال: «إن المقلدين للتمدن الغربي، إنما يشوهون وجه الأمة، ويضيعون ثروتها، ويحطون من شأنها.. إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب»؟!..

فهل يفيق العلمانيون من هذا «الخسران»؟!.. خسران الدنيا والآخرة.. الذي وضعهم على طريق «التبعية للغرب» في «الحضارة».. و«التبعية للشرك» في «التصور لذات الله»؟!..

إن الآمال كبيرة في أصحاب «الاجتهاد الخاطئ».. وإن لم تكن كذلك في «العملاء الحضاريين»!..

فصل المقال في كتب الضلال

فصل المقال في كتب الضلال

تقديم

مصر - دستوريًّا وقانونيًّا - دولة مؤسسات..

فعندما تريد الدولة المشورة في شأن حربي، تستشير المؤسسة العسكرية..

وعندما تريد مشورة في أمر من أمور النيل، تستشير وزارة الري..

وعندما تريد مشورة في شأن الأمن، تستشير مؤسسة الأمن القومي.. وكذلك الحال مع مختلف المؤسسات، في مختلف التخصصات والمشورات.. ولذلك كان في البرلمان.. الذي يمثل السلطة التشريعية.. لجان تمثل مختلف المؤسسات..

وفي الجانب الثقافي، نجد لدى وزارة الثقافة جهازًا للرقابة على المصنفات الفنية، يراقب هذه المصنفات، ويقترح عليها التعديلات والتصويبات.. وأحيانًا الحذف.. وربما المصادرة.. لكن المرجع النهائي في المصادرة هو القضاء.

لذلك، لم يكن بدعًا ولا غريبًا أن ينص القانون - وقبله الدستور - على أن مؤسسة الأزهر الشريف هي المرجعية، صاحبة الولاية على الشأن الديني، تستشيرها الدولة في هذا الشأن، وتعرض عليها النيابة العامة والجمارك بعض الكتب الإسلامية الواردة من الخارج للتداول، أو المصدرة إلى الخارج، وذلك لإبداء الرأي في صلاحيتها للتداول، ومن ثم للاستيراد أو التصدير..

وعندما يبدي الأزهر رأيه، فهو مجرد رأي، إذ لا يصادر في مصر كتاب إلا بحكم نهائي وبات من القضاء.

❐ ومنذ أن شرفت بعضوية «مجمع البحوث الإسلامية».. ثم «هيئة كبار العلماء» - بالأزهر الشريف - عهد إلى - ككثير من أعضاء المجمع - بفحص العديد من الكتب، المطبوعة

في مـصر، أو الواردة من الخارج لفحصها و إبداء الرأي فيها.. وكانت التقارير التي تكتب عن هـذه الكتب تعرض عـلى اجتماع المجمع، للموافقـة عليها، أو رفضهـا، أو لإعادة فحص هذه الكتب مرة أخرى..

وكانت السـيادة دائمًـا وأبدًا لهذا المبدأ الحاكم: **الأزهر هو مؤسسـة الدولـة، المنوط بها - بحكـم التخصـص - الولاية على الشـأن الديني، ورأيـه معتبر، لكنه مجـرد رأي، ويظل المرجع النهائي في مصادرة المصنفات الدينية - كالمصنفات الفنية - شأنًا قضائيًّا، يصدره القضاء، وتنفذه السلطة التنفيذية في الدولة.**

❐ ومع وضوح هذه الحقيقة، وشـهرة هذا الأمـر، فلقد ظل دور الأزهر في فحص الكتب الإسـلامية موضـع هجوم شـديد من قبل نفـر من المثقفـين العلمانيـين.. يصفونـه بالظلامية والرجعيـة، ويرونـه قيدًا ثقيـلًا على حرية الفكر والإبـداع.. بل ويشـبهونه - أحيانًا - بدور «محاكـم التفتيـش» الكنسـية في العصـور الأوروبية الوسـطى!!.. مـع علمهم بـأن «محاكم التفتيش» كانت تعدم الكتب والكتاب والعلماء وكل المخالفين، شنقًا و إحراقًا و إغراقًا، وعلى «الخوازيق المقدسـة»!.. أما الأزهر، فلا سـلطان له، ولا يملك مصادرة أي كتاب، ولا يسـائل كاتبًا من الكُتاب، وليس له إلا «الرأي» يبديه إذا طلبت منه المشورة من قبل الدولة..

وبعض النقد العلماني لرأي الأزهر في بعض الكتب، كان - ولا يزال - ينطلق من التسـاؤل عـن جدوى الاعتراض على تداول بعض الكتب، بينما أغلبها منشـور ومتداول بالفعل، وحتى إذا صادرها القضاء فإن تداولها ميسور عبر شبكة المعلومات العالمية.

وفي هذا النقد تجاهل للفارق بين «إبداء» الرأي وبين «فرض» هذا الرأي.. فالأزهر يزن المصنف الديني بميزان الإسـلام والصالح العام، وذلك بصرف النظر عن تداول هذا المصنف أو عـدم تداولـه.. فصاحب الـرأي يعلن عن رأيـه، كموقف، وذلـك وفاء بأمانة المسـئولية الدينية التي يحملها، وقيامًا بالمسـئولية الفكريـة والاجتماعية التي ائتمنته الدولة عليها.. كما يعلن الإنسـان - فردًا.. أو حزبا.. أو مؤسسـة - موقفه ورأيه، بـصرف النظر عن الاتفاق أو الاختـلاف معـه في هذا الذي رأى.. إذ الحكـم، في النهاية للقضاء.. والحسـاب في النهاية لله والأمة والتاريخ..

وحتى تستبين حقيقة هذا الأمر، فإننا نقدم للقارئ - في هذا الكتاب - نماذج من التقارير التي سبق وكتبتها عن بعض الكتب التي عهد إلى «مجمع البحوث الإسلامية» بفحصها.. نقدم نص هذه التقارير، مؤرخة بتواريخها، حول عدد من الكتب التي أشار المجمع بعدم تداولها.. وذلك ليتبين القارئ أن هذا الموقف من الأزهر لم يكن تعديًا على حرية الفكر والإبداع، وإنما كان حماية للعقول من السموم التي تشوه، بل وتقتل ملكات الإبداع.. كما كان حماية للقسمات الأساسية الممثلة لهوية الأمة الحضارية، وصيانة للإيمان الديني الذي يمثل مقومًا أساسيًّا من مقومات الأمة والمجتمع والدولة.. كما كان قيامًا بأمانة «الرأي»، وليس فرضًا لهذا الرأي على دوائر القضاء والتنفيذ.

فقراءة هذه التقارير عن هذه الكتب - وأغلبها وارد من الخارج - تكشف عن مدى الجناية التي كان يمكن أن تقع لو لم ينبه الأزهر على خطر هذه السموم الفكرية، التي تصدرها دوائر معادية لمنهاج الوسطية الإسلامية وللإيمان الديني، والتي تقف وراء بعضها دوائر استعمارية تعمل على رعاية الغزو الفكري، وتجفيف منابع التدين، وإذكاء ميزان الحرب الثقافية القائمة على وطن العروبة وعالم الإسلام.

❋❋❋

❐ بقي أن ننبه على المراد من مصطلح «الضلال» الذي وصفنا به هذه الكتب - في عنوان هذا الكتاب - فهو:

«العدول عن الطريق المستقيم - طريق الهداية - سواء أكان ذلك العدول كثيرًا أو قليلًا.. عمدًا أو سهوًا.. فالضلال لا يعني الكفر دائمًا.. ولقد نسب الضلال إلى الأنبياء - عليهم السلام - كما وصف به الكفار.. فهو يعني الحيرة حينًا.. والسهو حينًا آخر.. أما الكفر - في المصطلح القرآني.. فهو الضلال البعيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ **[النساء: 167] -..** ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ **[النساء: 60].. وهو - أيضًا - الضلال الكبير:** ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ **[الملك: 9].. وهو - أيضًا - الضلال المبين:** ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينًا﴾ **[الأحزاب: 36]»**[1] **فالمراد بالضلال - في عنوان هذا الكتاب - ليس**

(1) الراغب الأصفهاني [المفردات في غريب القرآن] طبعة دار التحرير. القاهرة سنة 1991م.

الكفر دائمًا.. «وأصل من أصول الإسلام: البعد عن التكفير.. ولقد اشتهر بين المسلمين، وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر».[1]

❋❋❋

❐ فهذه التقارير.. التي نقدمها في هذا الكتاب - عن هذه الكتب - هي شواهد صدق على أن ولايـة الأزهر.. القانونية.. على الشـأن الديني هي ضرورة فكريـة واجتماعية، وأنها مانعة من شيوع «الفحشاء الفكرية» بين الناس.. وفي الحد الأدنى هي إبداء الرأي في هذه الفواحش الفكرية التي تحملها كتب الضلال..

أمـا موقـع كل كتاب من وراء هـذه الكتب من «نوع الضلال» فهي مهمـة ندعها للقراء الأعزاء.

والله من وراء القصد.. منه - سبحانه وتعالى - الهدى والعون والتوفيق.

❋❋❋

(1) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ 3 ص 289. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة 1972م.. وطبعة دار الشروق. القاهرة سنة 1993 م.

تقرير عن فحص كتاب

فصل الكلام في مواجهة أهل الظلام

مؤلفه: حميد زناز

❐ كاتب هذا الكتاب جزائري.. يعيش في فرنسا.

❐ وهـذا الكتاب واحد من سلسـلة كتـب أصدرتها «رابطـة العقلانيين العـرب» - بلغ عددها - حتى الآن - 76 كتابًا.. وهذه الرابطة - سواء من هذا الكتاب - أو من عناوين الكتب الأخرى - متخصصة في تفكيك الإسـلام.. و إشـاعة المادية واللادينية والعلمانية بين القراء.. فنحـن - بإزاء هـذه الرابطة.. وكتبهـا - أمام عمل منظـم لطي صفحة الإيمـان الديني والإيمان الإسلامي على وجه الخصوص..

❐ وبعد فحص الكتاب يظهر أن معنى «أهل الظلام» - في عنوانه - هو «أهل الإسـلام».. أي أن الإسلام هو الظلام!!..

❐ ولإقامة الدليل - من أفكار هذا الكتاب وصفحاته - على هذه الحقيقة.. نورد نماذج مما ورد في صفحاته - على سبيل المثال.. لا الحصر -:

1- في ص 11 يقول: **«فالديانات كافة هي في الحقيقة معادية لحقوق الإنسان الأساسية»**.

2- وفي ص 19 ينقل عن كتاب صدر في فرنسـا لثلاثة من غـلاة الماديين والعلمانيين - هم: رفعت السعيد، ومحمد سـعيد العشماوي، وخليل عبد الكريم.. عنوانه [ضد الأصولية الإسـلامية] - ينقل هجومًا شرسًا ضد بناء المساجد.. وضد الأزهر.. والمعاهد الدينية.. وكتاتيب تحفيظ القرآن بالقرى.

3- وفي ص 25 يقول: **«إن الدين الإسلامي يكبل المجتمع ويهدمه كليًا»**.

4- وفي ص 27 يقول: **«إن الديانات كالدود المضيء ليلًا، تحتاج إلى كثير من العتمة لتسـطع»**.

5- وفي ص 34 يستشهد الكتاب بعبارة تقول: «**إن الاسلام اقتلع الشعوب من ماضيها، ومن كل ما يربطها بثقافاتها القديمة**».

وهو - بهذا الكذب - يتجاهل حقيقة أن الإسلام هو الذي أنقذ وأحيا المواريث الثقافية والحضارية للشعوب التي حرر أوطانها..

6- وفي ص 40 يتهم الشيخ رشيد رضا بتكفير سلامة موسى ومحمد حسين هيكل وطه حسين وغيرهم كثير..

وهذا كذب لا وجود له في تاريخنا الفكري.

7- وفي ص 41 يقول: «**إن هدف الجهاد الإسلامي كان احتلال العالم**».

وهو -بهذا الكذب- يتجاهل أن هذا الجهاد الإسلامي كان هدفه تحرير أوطان الشرق وشعوبه من قهر الاحتلال الإغريقي - الروماني - البيزنطي - الذي دام عشرة قرون.. ولم يكن هدف هذا الجهاد احتلال العالم.. بل لقد ترك الناس وما يدينون.. حتى إن كتابًا صادرًا عن (المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية) بباريس عنوانه [المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي] يقول إن نسبة المسلمين في رعية الدولة الإسلامية - بعد قرن من الفتوحات الإسلامية، وقيام الدولة الإسلامية - كانت 20 % من السكان!.

8- ص 42 - يزعم هذا الكتاب أن حركة حماس قد فرضت الجزية على المسيحيين أثناء الانتفاضة.. وهذا كذب بواح!.

9- في ص 48 يدافع الكتاب عن «**التحرر الجسدي، والحق في العري الذي تضمنه الحداثة**» ويسمى حشمة المرأة المسلمة - التي ترفض هذا العري والتحرر الجسدي - «تكفينا» للمرأة، أي وضعها في «كفن الحجاب»!.

10- وفي ص 11 يقول: «**إن حالة التخلف** والبطالة العقلية التي تعانيها البلدان الإسلامية ليست عرضية، بل هي **متجذرة في عمق الهيكل الديني ذاته**».

وهـو - بهذا الادعاء - يتجاهل أن هذا الدين هو ذاته الذي صنع الحضارة التي أضاءت الكون وعلمت الدنيا..

11- وفي ص 15، 17 يسـمي الإحياء الإسلامي: «هوس الإحياء الديني».. ويرى في الدين **«ألـد عائق في بلوغ تحقيـق التنمية البشرية»**.. ولذلك، يدعو - في ص 18 - إلى تحرير البحث العلمي من الدين.. وضرورة الوقوف ضد أسـلمة المجتمع، تلك الأسلمة التي يصفها «بالجريمة الشنعاء»!.

12- وفي ص 20 يقـول: «إن جـل الخطب الدينية التي تلقى بمسـاجد مـصر معادية لفكر الأنوار».. ويدعو الحكومة المصرية إلى «نشر المسيحية كما تنشر الإسلام».

13- وفي ص 21 يصف علماء الدين بأنهم **«سماسرة الغيب»**!.

14- وفي ص 22 يتحـسر هذا الكاتب - الجزائري - على أيام الاسـتعمار الفرنسي للجزائر **«عندما كنا - [حسب تعبيره] - نستطيع أن نفطر في رمضان جهارًا نهارًا. وهو ما يبدو اليوم مستحيلًا، حتى في الحلم»**.

15- في ص 31، 32 يسخر من قول رسول الله ﷺ في رسائله للقياصرة والأكاسرة: «أسلم تسلم» ويراه «منطقًا متعطشًا لإلغاء الآخر»!..

كما يسخر من حديث رسول الله ﷺ: **«خير القرون قرني ثم الذي يليه فالذي يليه»**.

16- وفي ص 54، 56 يقول - هذا الكتاب -: **«ينبغي على المثقف أن يقف في وجه كل ذوي النظريات والمشروعات السياسية المبنية على أساس النصوص المقدسة».. «فالمطلوب - برأيه - هو التخلص من قبضة الدين»**.

17- وفي ص 57، 58 لا يكتفـي بإدانة ختان الإناث.. وإنما يدين - أيضًا - ختان الذكور.. باعتباره - كما يقول - من مخلفات النرجسية الجاهلية.

18- وفي ص 60 يزعم **أن القرآن لا يحمل سوى «ثقافة القرن السابع الميلادي»**.

19- وفي ص 61 يقول: «لقد حان الوقت للاعتراف بأن الإسلام والحداثة خطان متوازيان لا يلتقيان أبدًا.. والحقيقة أنه **لا تنوير دون استبعاد الدين من الحياة العامة»**.

20- وفي ص 62 يرى ضرورة **«تحطيم أسطورة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان».. «فلقد وصلنا إلى مرحلة: إما الشرع وإما العقل»**.

والخبر السعيد - عند كاتب هذا الكتاب - هو إعلان: «فصل المقال فيما بين الشريعة والعقل من انفصال»!.

21- وفي ص 77 **يسخر كاتب هذا الكتاب من قول القرآن: ما فرطنا في الكتاب من شيء**.

22- ويتحدث - ص 78، 79 - عن **«ديكتاتورية النص الديني»** ويرى أن المجتمع العربي يحتاج إلى مفكرين متحررين من قبضة الدين، يمتلكون قدرة التحرر النهائي من ديكتاتورية النص.. ويرى - في ص 82 - أن النصوص الدينية «لا تعدو أن تكون بناءات إنسانية».

23- وفي ص 83 **يدعي أن الإسلام لم يكن قطيعة معرفية مطلقة مع الجاهلية، وإنما كان امتدادًا لعقائدها**..!..

كما يرى - في ذات الصفحة - أن علماء الأزهر هم أكليروس أهل السنة.

24- وفي ص 86، 87 يرى أن الدين مرض.. يسميه **«المرض بالدين»**!.. معتبرًا أننا «في يم الدين غرقى»!.

25- وفي ص 100، 101، 102 يرى أن الاجتهاد الإسلامي ليس سوى «استمرار اللاعقلانية بوسائل أخرى.. **فكل اجتهاد هو إضافة جهل جديد**»! ويقول: «أليس الاجتهاد هو السياج لحماية النص الديني من النقد الراديكالي الآتي من خارج منطقه والمتعارض مع رؤاه»؟.. ويضيف: «لابد أن يضع المفكرون حدًا للاجتهاد **ويفتحون عهدًا جديدًا ينعتق فيه الفكر تماما من المرجعية الدينية وسلطتها**..

ذلك أن «الاجتهاد - [كما يقول ص 105] - هو التبييض لما اسود من الأفكار.. والعالم العربي -[كما يقول ص 107]- ينتظر من مفكريه وعلمائه **تحريره من وصاية الدين والفقهاء**».

26- وفي ص 107، 108 ينكر - هذا الكتاب - إسلامية الحضارة العربية، ويقول:

«إن الحضارة العربية الإسلامية اسم على غير مسمى، بمعنى أنها لم تكن حبيسة تعاليم الدين. كان اللاهوت الإسلامي يحتل مكانًا ثانويًّا أيام ازدهار هذه الحضارة. **ويومها رقص الناس وغنوا وكتبوا الشعر وتذوقوا الخمر ومارسوا المثلية، فلم ينافسهم في خمرياتهم أحد ولم يشق لهم في الغلاميات غبار!!**»

ويستشهد - الكتاب - بقول «أدونيس»: «**إن كل عباقرة تلك الحضارة - من أبي نواس حتى المعري - وكل كبار الشعراء والفلاسفة - كانوا ضد الدين**»!!..

27- في ص 114، 115 يتهم اللغة العربية بالفاشستية، لأنها - برأيه - توجه القول، بل تجبر عليه، وتخفي الواقع بدل تعريته في كثير من الأحيان..

وهو - هنا - يتجاهل أن هذه اللغة قد ظلت لغة العلم والأدب والجمال - في العالم بأسره - لأكثر من عشرة قرون..

28- وفي ص 118، 119 يشن حملة شعواء على ابن رشد، لمحاولته التوفيق بين الحكمة والشريعة!. ويرى أن المعتزلة لم يصنعوا سوى محاولة «عقلنة اللا معقول»!.

وعنده أن ممارسة الفلسفة بأمانة تتناقض تمامًا مع الإيمان، «**وأن الإلحاد هو مهنة الفيلسوف**»!.

كما يعتبر أن مقولة: «رأس الحكمة مخافة الله» هي الانحدار!..

29- ويرى - في ص 120 - «أن التسامح هو وليد الشك والفلسفة، **وأن التعصب هو ابن اليقين والدين**»!.

30- وفي ص 138 يقول:

«في 1990 لفقت منظمة المؤتمر الإسلامي إعلانًا إسلاميًّا لحقوق الإنسان، في القاهرة، تجاهلت فيه المساواة بين الرجل والمرأة تجاهلًا سافرًا ومشينا».

وبالرجوع إلى هذا الإعلان.. نقرأ في المادة السادسة:

«المرأة مساوية للرجل في الكرامة الإنسانية، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، ولها شخصيتها المدنية وذمتها المالية المستقلة، وحق الاحتفاظ باسمها ونسبها»..

وهذا نموذج على كذب كاتب هذا الكتاب فيما ينقل عن المصادر الإسلامية.. وفيما ينسب إليها!.

31- وإذا كان الحياء فطرة فطر الله عليها الناس الأسوياء.. وجعله شعبة من شعب الإيمان.. فإن هذا الكتاب - في ص 143 - يرى **«أن الحياء قيمة مغشوشة من الفضائل المنافقة، وكذبة اجتماعية تأكل الجسد من الداخل، ولا تفرز إلا القلق والانزعاج»**!.

32- وفي الفصل الذي عقده الكاتب تحت عنوان [هل الحب حرام] - ص 141، 151 - يورد الكثير من العبارات التي تدخل في باب «الدعارة الجنسية» المكشوفة.. ثم يحبذها بما يدخل في باب «الدعارة الفكرية»!!..

33- وأخيرًا يدعي هذا الكاتب - في ص 163 - **«أن القرآن نص مجازي، وليس نصًا علميًا».. أي أنه لا حقيقة فيه**!!..

❋❋❋

لذلك.. فإن هذا الكتاب إنما يمثل مقالًا في الزندقة.. وفي هجاء الدين عمومًا.. وهجاء الإسلام على وجه الخصوص..

ومن هنا كانت التوصية بمنع دخوله إلى مصر وتداوله.. إذ لا منطق ولا عقل في استيراد السموم وتناولها..

كما أوصى بتنبيه المسئولين في الجمارك بالتدقيق عند استيراد سلسلة الكتب التي صدر هذا الكتاب ضمنها.. والتي أصدرتها الرابطة التي أطلقت على نفسها [رابطة العقلانيين العرب] والتي نشرتها:

❐ دار بترا -ودار الطليعة- ودار الساقي - ودار المدى- ودار الأهالي - بدمشق وبيروت.

❐ ولقد صورت قائمة هذه الكتب - المنشورة آخر هذا الكتاب - لترسلها أمانة المجمع إلى الجمارك.. وإلى المسئولين عن السماح بدخول الكتب إلى معرض القاهرة الدولي للكتاب.

والله الموفق للصواب[1].

17 محرم 1431هـ - 3 يناير 2010م.

❋❋❋

(1) ناشر هذا الكتاب دار الساقي - بيروت سنة 2009م.

تقرير عن فحص كتاب

فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب

ويليه رسالة:

شهادة الأثر على إيمان قاتل عمر

مؤلفه: الشيخ أبو الحسين الخوئيني

❐ مؤلف هذا الكتاب - كما يبدو من أسلوبه - هو واحد من علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية.. الذين درسوا أصول الفقه.. وعلوم الرواية والتاريخ.. وهو إيراني الجنسية..

❐ وموضوع هذا الكتاب - كما يظهر من عنوانه - مخصص «لتحقيق» تاريخ يوم مقتل عمر بن الخطاب [40 ق.هـ - 23 هـ - 584 - 644م] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. والأهمية التي تجعل تحقيق هذا التاريخ قضية تؤلف فيها الكتب، أن هذا اليوم - عند الشيعة - هو يوم عيد كبير، يحتفلون به منذ قرون، في التاسع من شهر ربيع الأول من كل عام..

والكتاب يجتهد ليثبت أن هذا التاريخ - التاسع من ربيع الأول - الذي يتم فيه العيد والاحتفال - هو التاريخ الحقيقي لهذا الحدث - مقتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وليس التاريخ الذي جاء في مصادر أهل السنة والجماعة - الذين يسميهم المؤلف: «العامة العمياء» - وهو أواخر شهر ذي الحجة 23هـ.

- 1 -

وفي هذا الكتاب تتكرر العبارات التي تصف عمر بن الخطاب بأنه:

«الجبت، الذي عادى النبي ﷺ وآله.. وفرعون.. الذي حرف القرآن.. وأذاع في الأرض الفساد.. وأظلمت من كفره الدنيا.. والذي طلب - عند مماته - أن يشرب النبيذ»!![1].

كما يصفه بأنه:

«أكبر صنم عرفته البشرية منذ بدء نشأتها وحتى يومنا هذا، بل إلى آخر الدنيا.. ذلك أنه لم يوجد منذ أول يوم من أيام الدنيا وحتى يومنا هذا ولن يوجد صنم أكبر وأعظم من عمر بن الخطاب.. فهو المنافق الذي أرضى المجوس واليهود والنصارى».[2]

كما يقول عن عمر:

«إن الكبش خير منه».[3]

❐ ولا يقف الكتاب - في هذه الأوصاف - عند «تأليف المؤلف».. وإنما يذهب لينسب مثل هذه الأوصاف إلى الوحي الإلهي.. في الحديث القدسي.. المنسوب إلى رسول الله ﷺ.. والذي جاء فيه - كما يقول الكتاب - عن عمر بن الخطاب:

«إنه أشد أهل النار عذابًا في الآخرة.. يبدل كلامي، ويشرك بي، ويصد الناس عن سبيلي، وينصب من نفسه عجلًا لأمتك، ويكفر بي في عرشي..».[4]

❐ كما ينسب الكتاب إلى الصحابي حذيفة بن اليمان، وصف عمر بن الخطاب بأنه:

«المنافق، الذي ارتد عن الدين.. وحرف القرآن.. وغير الملة.. وبدل السنة.. وغير السنن كلها.. وأظهر الجور.. وحرم ما أحل الله، وأحل ما حرم الله..».[5]

(1) [فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب] ص 75.
(2) المرجع السابق. ص 13، 292، 233، 183، 37، 50.
(3) المرجع السابق. ص 5/ 2.
(4) المرجع السابق. ص 48، 49.
(5) المرجع السابق. ص 5.

❐ كما ينسب الكتاب إلى رسول الله ﷺ:

«إن الآية: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ **[يوسف: 106] قد نزلت في عمر ابن الخطاب..».**[1]

❐ ويختم الكتاب صفحاته بشعر يقول فيه عن عمر بن الخطاب: أنه:

جبت بالله قد كفر

وعن مقتله: إنه عيد

فيه صنم الكفر انكسر

تلك قطرة من بحر الأوصاف التي امتلأ بها هذا الكتاب عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❋ ❋ ❋

- 2 -

و إذا كانت هذه مجرد نماذج من الأوصاف التي وصف بها عمر بن الخطاب - من قبل مؤلف هذا الكتاب -.. فإن صحابة رسول الله ﷺ وحواريه، الذين صنعهم على عينه، ورباهم في مدرسة النبوة، والذين أقاموا الدين.. وأسسوا الدولة.. وأزالوا - بالفتوحات التحريرية - دول الجور - الفرس والروم -.. وحرروا الشرق من القهر الحضاري والديني والسياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي.. وفتحوا الأبواب أمام انتشار الإسلام..

هؤلاء الصحابة - وخصوصًا الخلفاء الراشدين - كان نصيبهم في هذا الكتاب وصفهم بأنهم:

«الذين قال الله فيهم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ **[محمد: 22، 23] وأن أتباعهم ومن يواليهم هم** ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ

(1) المرجع السابق. ص 239.

أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: 51، 52]».[1]

❐ **كما يتهم الكتاب أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب بأنهما - بواسطة أم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين حفصة - قد سقيا رسول الله ﷺ سمًا، في حجرة عائشة، وسمياه (لدا)، تمويها للأمر، فمات ﷺ بسببه!!..**

كما يتهم عمر بن الخطاب - في ذات الصفحة - بأنه قتل أبا بكر - «فتك به» - بالسم أيضًا!!.[2]

❐ ثم يمد الكتاب نطاق الافتراء، ويعمم بلواه، عندما يتهم من يسميهم «حزب السقيفة» - سقيفة بني ساعدة - التي يسمي يومها **«اليوم المشئوم» الذي ترجع إليه المصائب والجنايات التي نزلت بالإسلام وبأهل البيت..**

يتهم الكتاب من يسميهم «حزب السقيفة».. ومنهم:

«عمر وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح، بأنهم أظهروا الإسلام طمعًا فيما سمعوه من علماء اليهود في حق النبي ﷺ وغلبته على العرب - كما غلب بختنصر على بني إسرائيل -..».[3]

هكذا قدمت صفحات هذا الكتاب صورة صفوة الصفوة من صحابة رسول الله - ﷺ - وحواريه.. على هذا النحو المشين.. والشائه.. والكريه..

❋ ❋ ❋

- 3 -

أما أهل السنة والجماعة.. وهم 90 % من أمة الإسلام.. فإن هذا الكتاب يسميهم: **«العامة العمياء».**[4]

(1) المرجع السابق. ص 9، 10.
(2) المرجع السابق. ص 212.
(3) المرجع السابق. ص 86، 225، 226.
(4) المرجع السابق. ص 86.

كما يهيل التراب على علماء أهل السنة والجماعة - في مختلف ميادين العلم - فيقول:

«إن البخاري وأضرابه كلهم متهمون بالخيانة والكذب.. وإن قلامة ظفر إبهام الإمام الصادق يعدل من مثل البخاري مائه»!![1]

ويقطع الكتاب **«بلزوم الحكم بالزندقة وهدر الدم للبخاري وأمثاله من علماء العامة ومؤلفيهم..»!**[2]

ويدعي أن بعض أئمة أهل السنة **«قال بضلال البخاري وانحرافه وفساد عقيدته»**[3] ثم يعمم هذه الأحكام على سائر علماء أهل السنة والجماعة - وليس فقط البخاري وأضرابه - فيقول:

«.. والتدليس طريقة شائعة مستمرة بين جميع طبقات محدثيهم، وأهل الحديث والتاريخ والسير عندهم.. فيلزم على ذلك فسق أكثر رواة العامة - [أئمة أهل السنة] - ومحدثيهم، وبالتالي سقوط رواياتهم المروية في كتبهم عن درجة الاعتبار.. فهم يدينون بدين البغال»!![4]

هكذا تحدث الكتاب عن علماء أهل السنة والجماعة - الذين بنوا علوم الحضارة الإسلامية وتاريخها - فحكم عليهم بالكفر والزندقة والضلال..

❋ ❋ ❋

- 4 -

أما أبو لؤلؤة المجوسي - قاتل عمر بن الخطاب - فهو - في هذا الكتاب -:

«مسلم.. مؤمن.. من خُلّص شيعة مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..».

(1) المرجع السابق. ص 28، 29.
(2) المرجع السابق. ص 137.
(3) المرجع السابق. ص 138.
(4) المرجع السابق. ص 140 - 160.

و إن قتلـه لعمـر بن الخطاب «إنما كان بإشـارة عـلي عَلَيْهِ السَّلَامُ**.. ولذلك، فمهمـة أبي لؤلؤة** رَحِمَهُ اللَّهُ **لا يُلقاهـا إلا ذو حـظ عظيـم، إذ على يديه جرى أعظم عمـل، ونفذت أكبر مهمة لم يعرفها العالم قبله، ولن يعرفها بعده، وهي كسر أكبر صنم عرفه التاريخ».**[1]

❐ ثم يمضي الكتاب فيورد عشرين صفحة - من ص 187 - تمجد أبا لؤلؤة، وتشـهد بإيمانه، ناسبًا ذلك إلى رسول الله ﷺ..

كما ينسب - الكتاب - إلى الإمام علي بن أبي طالب ما يشهد على إيمان أبي لؤلؤة ودخوله الجنة.[2]

و يصف أبا لؤلؤة بأنه:

«من أبرز مصاديق عنوان المؤمن.. وأن زيارة قبره - [في كاشـان - بإيران] - أولى وأوجب من زيارة سائر المؤمنين.. فهو مبشر بالجنة.. وقتله لعمر كان عملًا جهاديًّا عظيمًا، بدافع ديني سـام، مقبولًا عند الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]، ولذلك اسـتوجب عليه الجنة..».[3]

❐ و يعلل الكتاب إقدام أبي لؤلؤة على قتل عمر بن الخطاب، بأن السـبب الأصلي كان **منع عمر من الدخول بأم كلثوم - بنت علي - التي تزوجها عمر «بالإكراه..» فقتله أبو لؤلؤة، ليمنعه من الوصول إلى بنت أمير المؤمنين - علي - لأنها كالقرآن المصون لا يمسه إلا المطهرون..».**[4]

❐ و يقطـع الكتاب بأن أبا لؤلؤة قـد فر - بعد طعنه لعمر بن الخطاب - من المدينة - وطار إلى كاشـان.. بفـارس - بإعجاز من أمير المؤمنـين علي بن أبي طالب.. ومـات فيها، وقبره هناك معروف يزار..»[5].

❋ ❋ ❋

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق. ص 192، 193.
(3) المرجع السابق. ص 236 - 238.
(4) المرجع السابق. ص 210، 211.
(5) المرجع السابق. ص 182، 217.

ولم يقل لنا الكاتب - الذي يتحدث كثيرًا عن العقل والبراهين العقلية -:

إذا كان الإمـام علي يملك من المعجزات ما يجعله يحمي أبا لؤلؤة من المحاكمة والقصاص.. ويطيره - قبل اختراع الطيران - من المدينة إلى كاشان - بالمعجزات - فلم لم يقم - بواسطة هذه المعجزات - بمنع عمر من الزواج بأم كلثوم؟!.

كذلـك، لم يفسر لنـا الكاتب دعواه وروايات شـيعته كتمان رسـول اللـه ﷺ.. وتنزه عـن ذلـك - وحي الله - المزعوم - في نفـاق عمر وكفره وشركه وردته وظلمـه لفاطمة الزهراء وقتله لها.. ومقتله - على يد أبي لؤلؤة - وهي أمور من أمهات العقائد الشـيعية.. لتعلقها بالولاية والإمامة - كما ذكر المؤلف..

لم يفسر لنا سـبب كتمان الرسـول تبليغ أمته هذه الأمور العقدية - التي نسـبها الكاتب للرسول ﷺ.. وهو كتمان لا يجوز على أي نبي من الأنبياء، ولا يليق بخاتم الأنبياء..

وإلا.. فهـل كان النبـي ﷺ يخاف من عمر؟!.. ويسـتخدم التقية معـه؟!.. وهو الذي عصمـه الله من الناس - مطلق الناس -.. وأزال الـشرك.. وحارب اليهود.. وتحدى الروم.. ولم يخش في الله لومة لائم؟!..

❋❋❋

- 5 -

ولأن هذه هي نظرة المؤلف وعقيدته وعقيدة مذهبه في عمر بن الخطاب.. وفي الصحابة.. وفي أهل السنة والجماعة.. وفي علمائهم..

وتلـك هي عقيدتـه في أبي لؤلـؤة المجـوسي.. فلقد ذهب الكتاب للتشـديد عـلى الأهمية والعظمة والقدسـية التي أضفاها الشـيعة عـلى الاحتفال بمقتل عمر بن الخطـاب.. في التاريخ الذي كتب الكتاب لتحقيق يومه - التاسع من شهر ربيع الأول سنة 23 هـ - فهذا اليوم - برأي علماء الشيعة - كما جاء بهذا الكتاب -:

«يوم عيد اشـتهر بين الشـيعة من زمن الإمام أبي محمد الحسن العسكري [232 - 260 هـ -

846 - 873م].. وبـدأ الاحتفال به في قم.. ثم كاشـان، حيث مدفـن أبي لؤلؤة.. ثم بقية مواطن الشـيعة.. ولقد أصبح عيدا رسـميا بإيران منذ زمن الحكومة الصفوية [907 - 1149هـ - 1501 - 1736م]..

وأنـه - هـذا العيد - سيسـتمر - كما يقول الكتـاب - ويصل إلى غاية ازدهـاره بعد ظهور المهدي المنتظر، طالب ثأر الزهراء..».[1]

فهذا العيد - وفق الرواية عن إمامهم أبي محمد الحسن العسكري -:

«هـو أفضل الأعيـاد عند أهل البيت ومواليهم.. فيه يغتسـل الشـيعة، ويلبسـون الثياب الجدد..».[2]

❐ ويذهب الكتاب فينسب تشريع هذا العيد إلى رسول الله ﷺ.[3]

❐ . بل وينسب إلى الوحي الإلهي أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي جعل يوم مقتل عمر بن الخطاب عيدًا:

«يُرفع فيه القلم عن الخلق كلهم ثلاثة أيام، فلا يكتب الكرام الكاتبون على الخلق شـيئًا من خطاياهم.. ومن يحتفل بهذا العيد يغفر الله ذنبه، ويشفعه في أهله، ويوسع عليه في ماله... إلخ... إلخ..».[4]

❐ كـما يورد الكتاب كلامًا منسـوبًا إلى الإمـام علي بن أبي طالب، يسـمى فيه هذا العيد - عيد مقتل عمر بن الخطاب - يسـمى فيه هذا العيد باثنين وسـبعين اسـمًا - للدلالة على فضله وأهميته وقدسيته - ومن هذه الأسماء:

«يوم الهدى»..

و«ويوم البركة»..

(1) المرجع السابق. ص 42.
(2) المرجع السابق. ص 46.
(3) المرجع السابق. ص 47.
(4) المرجع السابق. ص 48، 49.

و«يوم العيد الأكبر»..

و«يوم فرح الشيعة»..

و«يوم الفطر الثاني»..

و«يوم الغدير الثاني»..

و«يوم عيد أهل البيت»..

و«يوم قتل المنافق»..

و«يوم يعض الظالم على يديه»..

و«يوم الإسلام»..

و«يوم الشكر»... إلخ... إلخ... إلخ..[1]

❋ ❋ ❋

- 6 -

وإذا كان هذا هو مقام أبي لؤلؤة المجوسي.. وتلك هي مكانة العيد الذي يحتفل فيه الشيعة بمقتل عمر بن الخطاب.. فإن لقبر أبي لؤلؤة - هو الآخر - مكانة عظمى لدى الشيعة.. يستفيض في الحديث عنها هذا الكتاب فيقول:

- **إن أبا لؤلؤة «هو مؤمن فارس».**[2]
- **وزيارة قبره - في كاشان - «كزيارة الأئمة المعصومين».**[3]
- **وإن الشيعة - في إيران - منذ قديم الزمان قد بنوا على قبر أبي لؤلؤة رَحِمَهُ ٱللَّهُ القبة**

(1) المرجع السابق. ص 51، 54.
(2) المرجع السابق. ص 7.
(3) المرجع السابق. ص 187، 189.

والأبـراج، وجعلـوا له رواقًا وصحنًا، وما زالوا يحسـنون بناءه، تعظيمًا لشـأنه، وتسـهيلًا على الزائرين الذين يأتون من كل أقطار العالم الشـيعي، متقربين إلى الله تعالى بزيارته، معتقدين بعلـو مقامـه، وكونه ممن يقـضي الله بهم الحاجـات.. بل كان أكـثر علماء الشـيعة يزورونه، خصوصًا في عيد الزهراء - عليها السـلام - حيث يزدحم حرمه الشريف بالعلماء والموالين من كافة المناطق والبلدان».[1]

❐ و إذا كان الكتـاب قد جعل طيران أبي لؤلؤة من المدينة المنورة إلى كاشـان، معجزة من معاجيـز الإمـام على بـن أبي طالب.. فإنـه لم ينس أن يحدث القـراء عن إعجاز قـبر أبي لؤلؤة ومزاره.. فنقل - المؤلف - عن (دائرة التراث الثقافي لمدينة كاشان):

«أن الزلـزال الـذي وقـع بالمدينـة 1192هـ قد دمـر كل المدينـة، وقتل فيه ثلاثـة أرباع السـكان، ولم يسـلم من الأبنية الأثرية بالمدينة سوى قبة أبي لؤلؤة رَحِمَهُ ٱللَّهُ..**» - كما جاء بهذا الكتاب -**[2].

❐ وحتـى يثبت الكاتـب و يؤكد على أن ما ذهب اليـه كتابه هذا ليس اجتهـادًا فرديًّا.. و إنما هو موقوف **«المذهب.. والطائفة»**.. أورد كلام «آيات الله العظمى: الوحيد الخراساني.. والتبريزي.. والسيد محمد اليثربي الكاشاني.. في تعظيم الشيعة لقبة أبي لؤلؤة ومزاره.. وتكريم بقعته المباركة.. وشخصيته العظيمة، بناء على:

«الأدلة المحكمة والمتقنة التي تثبت أن السـيرة المسـتمرة للسلف وقدماء الشيعة من قديم الأيـام كانـت على تعظيم واحترام هذه الشـخصية العظيمـة.. وأنـه أولى بالتعظيم بعد الأئمة المعصومين..»![3].

❋ ❋ ❋

وتلك هي المقولة الوحيدة التي صدق فيها كاتب هذا الكتاب!..

(1) المرجع السابق. ص 202، 203.
(2) المرجع السابق. ص 204.
(3) المرجع السابق. ص 206، 208.

فهـذا «الفكر الشـيطاني» الذي امتـلأت به صفحات هـذا الكتاب، والـذي طفح بثقافة الكراهيـة السـوداء ضد صحابة رسـول الله ﷺ وخصوصًا الراشـد الثاني الفـاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس مجرد وسوسـة شـيطانية لمؤلف هذا الكتاب.. و إنما هو موقف مذهب **«الباطنية - الغنوصية»** في هؤلاء الصحابة: حواريي رسـول الله ﷺ الذين صنعهم على عينه، والذين أقاموا الدين.. وأسسـوا الدولة.. وأزالوا طواغيت ذلك الزمان.. وفتحوا في ثمانين عامًا أوسـع مما فتـح الرومان في ثمانية قـرون.. وكانت فتوحاتهم تحريرًا لأوطـان الشرق، ولضمائر الشـعوب وعقائدها من القهر الحضاري والديني والثقافي والسـياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي دام عشرة قرون..

نعـم.. إنه فكر شـيطاني، تلبـس مذهبًا.. وليس مجـرد نزوة لمؤلف هذا الكتاب. و يشـهد على هـذه الحقيقة: «الكتاب العمدة» لأحاديث الأصـول والعقائد في هذا المذهب - [الكافي] - للكليـني [329 هـ 941م] - الذي ينسـب إلى جعفر الصادق [80 - 148هـ - 699 - 765م] - سادس أئمتهم..:

«أن الآيـة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ [آل عمران: 91] قد نزلت في أبي بكر وعمر وعثـمان.. وكذلـك آيـة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمـد: 25] وأنهم آمنوا بالنبي في أول الأمر، وكفروا حين عرضت عليهم ولاية علي بن أبي طالب.. وأنهم ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية علي..».[1]

«وأن المراد في الآية: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [فصلت: 29] هما أبو بكر وعمر..».[2]

وفي [شرح الـكافي] يقول المجلسي - محمد باقر [1077 - 1110 هـ - 1628 - 1698م]: **«إن الجن المذكور في الآية هو عمر بن الخطاب. سـمي بذلك لأنه كان شـيطانًا، إما لأنه كان شرك شيطان لأنه ولد زنى، أو لأنه في المكر والخديعة كالشيطان..»!**[3]

(1) الكليني [الكافي] جـ 1 ص 42. تحقيق: علي أكبر العفاري. طبعة طهران سنة 1388هـ.
(2) الكليني [الروضة من الكافي] جـ 8 ص 334.
(3) المجلسي [مرآة العقول] جـ 26 ص 488. طبعة دار الكتب الإسلامية - طهران.

فهو موقف «مذهب.. وطائفة» منذ تبلورت عقائد هذا المذهب وهذه الطائفة..

ويستمر هذا الموقف ثابتا من هذه الصفوة من صحابة رسول الله ﷺ منذ تأسيس هذا المذهب وحتى هذه اللحظات..

❐ فآية الله العظمى الإمام الخميني [1320 - 1405هـ - 1902 - 1989م] يقول عن أم المؤمنين عائشة.. وعن الزبير بن العوام.. وعن طلحة بن عبيد الله.. وعن معاوية بن أبي سفيان.. إنهم:

«أخبث من الكلاب والخنازير»!.[1]

❐ وكذلك آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي [1317 - 1413هـ - 1899 - 1992م] يقول:

«إنه قد ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، والوقيعة فيهم - أي غيبتهم - لأنهم من أهل البدع والريب، بل لا شبهة في كفرهم؛ لأن إنكار الولاية والأئمة حتى لواحد منهم والاعتقاد بخلافة غيرهم، يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة في كفر منكر الولاية».[2]

❋ ❋ ❋

فنحن - إذًا - أمام مذهب.. وليس مجرد مؤلف لكتاب..

مذهب يعتقد ويتدين بالبراءة والسب والوقيعة والتفسيق والتكفير، لا لجمهور الصحابة فقط.. وإنما لكل من والاهم من المسلمين.. أي لـ 90 % من أمة الإسلام.. الذين يسمونهم **«العامة العمياء.. التي تتدين بدين البغال»!!**

تلك هي القضية.. وهذه هي الحقيقة.. حقيقة «الفحش الفكري» الذي تجسد في صفحات هذا الكتاب [فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب].

❋ ❋ ❋

(1) الخميني [كتاب الطهارة] المجلد الثالث ص 457 طبعة طهران - مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني.
(2) الخوئي [مصباح الفقاهة] جـ 2 ص 11.

- 7 -

وأخيرًا..

فمن هو عمر بن الخطاب.. الذي افتروا عليه كل هذه الافتراءات؟؟..

❐ إنه أحد أشراف قريش.. والقائم على مهمة «السفارة» لها في الجاهلية..

❐ ولقد كان إسلامه - في السنة السادسة من الدعوة - استجابة إلهية لدعاء رسول الله ﷺ أن يهدي إلى الإسلام أحب الرجلين إلى الله: - عمر بن الخطاب.. أو عمرو بن هشام - ليعز الله به هذا الدين: **«اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»**.

وبإسلامه كمل عدد المسلمين - من الرجال - أربعين مسلمًا..

❐ وهو الذي أعز الله به الإسلام - بعد مرحلة الاستضعاف الشديد - فجهر المسلمون بصلاتهم بعد الاستخفاء.. ولذلك سماه الرسول ﷺ «الفاروق».. فلقد فرق الله بإسلامه بين مرحلتين من مراحل الدعوة إلى الإسلام..

❐ وهو أول من هاجر - من مكة إلى المدينة - علانية، متحديا ملأ قريش، بعد أن كان المسلمون يهاجرون متسللين في الخفاء.. فلقد حمل سيفه وسهامه، ومر على قريش متحديا.. فطاف بالبيت سبعًا.. وأتى المقام فصلى.. ثم قال لملأ قريش:

«شاهت الوجوه.. من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي».

فما جرؤ واحد من ملأ قريش على اعتراض سبيله.. كما يروي ذلك علي بن أبي طالب..!

وفي ذلك قال عبد الله بن مسعود:

«كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت - [الحرام] - حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا..».

❐ وهـو أحد العشرة.. المهاجرين الأولين - مؤسسـة الأمراء - الذين تحلقت بيوتهم حول مسـجد المدينـة، ولها أبـواب تفضي إليـه.. والذين كانوا يقفـون - في الصلاة - خلف رسـول الله ﷺ وفي الحرب يقفون أمامه..

❐ وهو الذي شـهد المشـاهد كلها مع رسـول الله ﷺ.. وفي مقدمتها: بـدرًا.. وأحدًا.. والخنـدق.. وبيعة الرضوان.. وخيـبرا.. والفتح الأكبر.. وحنينا.. وغيرها.. وكان أشـد الناس على الكفار فيها.. كما كان القائد لعدد غير قليل من السرايا وبعوث القتال..

❐ وهـو أحـد القلة القليلـة الذين صمدوا مع رسـول اللـه ﷺ يوم أحد.. وكان لسـان المسـلمين الذي تحدى أبا سـفيان - قائد الشرك يومئذ - عندما صاح عقب المعركة.. وكان يظن مقتل رسول الله ﷺ:

- أُعْلُ هُبَل!..

فقال عمر - صائحًا -:

- الله أعلى وأجل. لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار..

❐ وهو الذي شاعت في كتب السنة والسيرة والتاريخ يقظته وعداوته وشدته على المنافقين.

❐ وهو الذي تشهد فتاواه وأقضيته ومبادراته على أنه الفقيه الملهم.

❐ وهو الذي شهد له السابقون إلى الإسلام والهجرة بأنه كان أزهدهم في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة.

❐ وهـو المؤسـس للطور الجديـد للدولـة الإسـلامية كالدولـة العظمى في ذلـك العصر والتاريـخ.. خرج بها من شـبه الجزيرة العربيـة، فامتدت حدودها إلى شـمالي إفريقيا.. وإلى فارس.. فضمـت العراق.. والخليـج.. وفارس.. وأذربيجـان.. وآرانية.. وخوزسـتان.. وبلاد الجبـال.. والجزيـرة.. وديار بكر.. وأرمينية.. والشـام.. ومصر.. وإفريقيـا.. وغيرها.. حتى لقد ضمت - في عهده.. وتحت قيادته - معظم الشرق ببحاره وخلجانه وأنهاره وسـهوله وأوديته وصحاريه.. وطرق التقاء القارات في العالم القديم..

❐ وهـو الفاتـح لعواصم ذلك العـالم القديم: المدائـن.. والإسـكندرية.. والفاتح لأولى القبلتين وثالث الحرمين - القدس الشريف -..

❐ وهـو الـذي دون للدولة الإسـلامية العظمى الدواويـن، فنقلها من طور البسـاطة إلى مصاف الدول القائمة على ركائز المؤسسات الشورية الدستورية..

❐ وهو الذي حول جزيرة العرب إلى حرم إسلامي آمن لدين الإسلام، عندما أخرج منها غير المسلمين..

❐ وهـو الذي فتـح الطريق أمام الإسـلام، فتحول الشرق - بالسـلم والموعظة الحسـنة - إلى قلب العالم الإسـلامي، بعد أن كان مسـتعمرة للنصرانية الرومانية وللوثنية الفارسـية لعدة قرون..

❐ وهو الذي مصر الأمصار في الدولة الإسـلامية، عنوانًا على انتقالها من مرحلة السذاجة والبساطة إلى طور المدنية والحضارة..

❐ وهو الذي حافظت جيوش الفتح - في عهده - على كل المواريث الحضارية للحضارات والديانات والثقافات التي دخلت بلادها في دولة الإسلام..

❐ وهو أول من دون الدواوين.. وقنن العطاء.. وجند الجنود المنظمة والمحترفة للثغور.. ووضع التقنين لفلسفة الإسلام في الثروات والأموال.. وذلك عندما قال:

«والـذي نفـسي بيده، ما من أحـد إلا له في هذا المـال حق.. وما أحد أحـق به من أحد.. هـو مالهم يأخذونه.. وما أنا فيه إلا كأحدهم.. ولأنا أسـعد بأدائه إليهم منهم بأخذه، فالرجل وبـلاؤه، والرجل وقدمه، والرجل وغناؤه، والرجل وحاجتـه.. ووالله لوددت أني خرجت من هذا المال كفافًا، لا علي ولا لي!.. هو مالهم.. ليس لعمر ولا لآل عمر!..».

❐ وهو أول من أنار المساجد في تاريخ الإسلام..

❐ وهو - مع شرفه في قومه - القائل عن تحرير أبي بكر الصديق لبلال الحبشي:

- «سيدنا أعتق سيدنا»!..

❐ وهو القائل عن علاقته بالرعية:

«والله لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين.. ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة.. فأين المخرج؟!».

والقائل:

«لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين»؟!.[1]

❋ ❋ ❋

هذا هو عمر بن الخطاب.. الذي افترى عليه المفترون.. وظلمه الظالمون.. وبغى عليه البغاة.. ضمن من بغوا عليهم من صحابة رسول الله ﷺ.. أولئك الذين أعلوا منارة الإسلام.. وأورثونا أعظم النعم التي أنعم الله بها على المسلمين، على امتداد تاريخ الإسلام، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وتلك بعض معالم «الفحش الفكري» و «ثقافة الكراهية السوداء» التي حملتها صفحات كتاب [فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب].. إلى القراء.. والتي مثلت - وتمثل - معاول هدم لوحدة الأمة، ولكل محاولات التقريب بين الشيعة والسنة.. و لكل المؤتمرات التي تعقد تحت هذه الشعارات، بعيدًا عن المصارحات والمكاشفات!..

❋ ❋ ❋

ولذلك..

فإن التوصية لا تقف عند حدود منع هذا الكتاب من دخول مصر - التي دخلها - مع شديد الأسف.. وبيع في معرض الكتاب بها - يناير فبراير 2008م -.. و إنما تتضمن التوصية - فوق ذلك - نشر هذا التقرير.. ملحقًا لمجلة [الأزهر].. وفي صحيفة [صوت الأزهر].. ليكون هذا النشر:

(1) انظر في ذلك: ابن الأثير [أسد الغابة في معرفة الصحابة] المجلد الرابع ص 145 - 181 - تحقيق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد - طبعة دار الشعب - القاهرة. وابن سعد [الطبقات الكبرى] جـ 3 القسم الأول - ص 190 - 274 - طبعة دار التحرير - القاهرة - وابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص 81 - طبعة ليدن سنة 1920م.

❐ بيانًا للناس، يفضح هذا الفحش الفكري المسيء إلى رموز الإسلام وأمته ودولته وحضارته..

❐ و إظهارا لحقيقة مواقف هذه الطائفة التي احترفت الافتراء على صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين.. والافتراء على أهل السنة والجماعة - الذين يمثلون 90 % من أمة الإسلام.. و إهالة التراب على علماء الأمة.. ومن ثم على الحضارة الإسلامية.. التي صنعها هؤلاء العلماء.. والتي تعلمت منها الدنيا - ولا تزال تتعلم حتى هذه الأيام -..

❐ وأيضًا.. ليكون هذا النشر - لهذا التقرير - دعوة لعقلاء هذه الطائفة وحكمائها - وهم كثيرون - إلى إعلان الموقف اللائق بدعاة الوحدة الإسلامية.. والتقريب بين المذاهب الإسلامية، إزاء هذا التخريب المتعمد والمعلن لهذه المقاصد العظمى، التي نحن أحوج ما نكون إلى تحقيقها هذه الأيام..

والله من وراء القصد.. منه - سبحانه وتعالى - نستمد العون والتوفيق[1].

3 جماد أول 1429هـ - 8 مايو 2008م.

❋ ❋ ❋

(1) ناشر هذا الكتاب هيئة خدام المهدي - لندن - سنة 1427هـ - 2006م. والموزع: مركز نور الهدى - بيروت - حارة حريك - بئر العبد - خلف البنك الفرنسي.

تقرير عن فحص كتاب

البوذية والمسيحية والإسلام

مؤلفه: د. علي الخطيب

مؤلف هذا الكتاب شيعي.. ولقد جعل إهداءه إلى «الإمام الغائب.. المنتظر»..

وكذلك ناشر هذا الكتاب شيعي أيضًا..

❐ وهذا الكتاب عبارة عن كتب ثلاثة، تقتسم الصفحات.. بعد المقدمة و إلى نهاية الكتاب.

❐ **وأول هذه الكتب عن البوذية**.. وأسلوبه وعظي مشوق.. وفيه ذخيرة من الفكر العرفاني والروحاني المرقق للقلوب..

وواضح أن المؤلف ينقل عن مصدر آخر لكنه لم يشر إليه..

والبوذية - في هذا الكتاب - دين توحيد للذات الإلهية.. وتنزيه لها عن الشبيه.. وبوذا نبي ورسول - استنادًا إلى مرويات شيعية -.. والقادة الأربعة للهداية هم: بوذا والمسيح ومحمد وعلي.

❐ **أما كتاب المسيحية** - وهو أوجز من كتابي البوذية والإسلام - فهو وصايا من الله الواحد الأحد إلى عبده ورسوله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وفي هذه الوصايا جرعات من المواعظ المرققة للقلوب..

وفيه نقد لغلظة قلوب بني إسرائيل.. ومواعظ وعظ المسيح بها حواريه..

وفي نهايته مناظرة بين الإمام الرضا وبين أحد علماء النصارى حول موثوقية الأناجيل، وبشارة عيسى بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

❐ **أما مقدمة الكتاب - وكذلك القسم المخصص فيه للإسلام**.. فهو الذي يطفح بالغلو الشيعي في الأئمة.. والاعتقاد.. وفي الطعن بصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ..

- فعلي بن أبي طالب هو مفاتيح الجنان ص 21.. وهو الولي.. وهو المنذر ولكل قوم هاد.. وهو الوصي والوارث ص 50، 52..

- كما يمتلئ الكتاب بالمأثورات التي تتحدث عن مناقب الإمام علي وصفات أئمة الشيعة.. والتي تطفح بالغلو والأساطير..

- وأهل السنة - في الكتاب - هم «العامة» ص 16.

- والمدينة الفاضلة - في الكتاب - هي «مدينة المهدي والمسيح» ص 16.

- والفرس - هم أنصار الرسول ﷺ ص 168.

- و إيران هي «نداء الأنبياء».. كما أن إسرائيل هي «مشروع قتلة الأنبياء».. وعلى العالم الاختيار بين إيران و إسرائيل ص 16، 17.

❐ وفي الكتاب تجريح لعدد من كبار الصحابة.. مثل طلحة والزبير ومعاوية وأصحابه ص 65.

ومعاوية هو فرعون هذه الأمة.. وسامريها هو عمرو بن العاص.. وجاثليقها - [أي مقدم القساوسة] - هو أبو موسى الأشعري ص 99.

وهذه النقول والافتراءات مأخوذة من المصادر الشيعية المعتمدة - و منها [الكافي] للكليني -..

❐ أما الحسن والحسين - في هذا الكتاب - فإن الله قد خلقهما من نور ألقاه إلى علي وفاطمة..

❋ ❋ ❋

والخلاصة..

إن هذا الكتاب - في قسميه الخاصين بالبوذية والمسيحية - يقدم مواعظ ترقق القلوب.. لكنه في مقدمته وفي القسم الخاص بالإسلام يقدم غلوًا شيعيًّا في أئمة الشيعة.. والأخطر أنه يقدم تجريحًا في عدد من كبار صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين..

ولهذا التجريح - أولًا - ولهذا الغلو الأسطوري - ثانيًا - أرى أن الكتاب غير صالح للتداول.. ولا حاجة لمصر بهذا الغلو.. والتجريح.. الذي ألفه وطبعه الشيعة في لبنان..

والله ولي التوفيق[1].

5/ 10/ 2008م.

(1) ناشر هذا الكتاب دار الهادى - بيروت - لبنان 1425هـ - 2004م.

تقرير عن فحص كتاب

فرعون الخروج - الملف الشائك وحديث الآثار [1]

مؤلفه: د. جلال نعمان

وهو يبحث - من أوله إلى آخره - عن حقيقة الفرعون الذي شهد أحداث خروج بني إسرائيل من مصر على عهد سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ولقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار والمصريات حول هذا الفرعون، فقال جمهورهم: إنه «مرنبتاح» ابن «رمسيس الثاني» - الذي حكم حوالي [1223 - 1211 ق.م][2].. وقال المؤرخ «يوسيبيوس القيصاري» [275 - 339م] بل هو رمسيس الثاني [1313 - 1224 ق.م].

والمؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رمسيس الثاني هو فرعون الخروج قد استندوا إلى أن تاريخ هذا الفرعون قد دون تفصيلًا على الآثار والجداريات التي بقيت وتم اكتشافها، وأن هذا التاريخ لم ترد به أية إشارة إلى الأحداث التي ذكرتها الكتب المقدسة عن بعثة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون، وما نزل بفرعون وملئه من عقاب إلهي، وما انتهت إليه حياة فرعون من الغرق - كما استندوا إلى أن رمسيس الثاني قد حكم سبعة وستين عامًا - إذ اعتلى العرش 1290 ق.م - وأن حكمه قد امتد بعد تاريخ الغرق والخروج سنوات طوال.. كما استندوا إلى أن رمسيس الثاني كان مؤمنًا بالله الواحد - الذي يرمز له بـ «آمون» - وأنه قد ناجى ربه، وهو يحارب الحيثيين في «قادش» - فقال:

«لقد ناديتك - آمون - وأنا وسط الأعداء..

وأنا وحيد دون أن يكون معي فرد آخر.. لقد تركني جنودي..

(1) الناشر: دار المعارف - سلسلة «اقرأ» - العدد 605.

(2) [الموسوعة المصرية] المجلد الأول - الجزء الأول - إشراف: د. أحمد فخري، د. محمد جمال الدين محرز - طبعة وزارة الثقافة والإعلام - القاهرة.

وعندما دعوت وجدت آمون أكثر نفعًا من ملايين الجنود..

لقد رأيت الله في المعركة.. كان أقرب إلى من جنودي.. هو الذي نصرني..».

وأن إله رمسيس الثاني قد أجابه قائلًا: «إلى الأمام يا حبيب آمون، يا رمسيس»..

فتحول رمسيس - وهو وحده وسط جيوش الأعداء - إلى «مارد طائر».. حتى قال هؤلاء الأعداء: «إن الذي بيننا ليس بشرًا»!..

فهذا الفرعون المؤمن لا يمكن أن يكون هو فرعون موسى، الذي أفاضت الكتب المقدسة في الحديث عن كفره وجحوده بالله.

ثم إن مومياء رمسيس الثاني هذا موجودة، اكتشفها علماء الآثار، وليس بها أثر للغرق الذي جاء ذكره في الكتب المقدسة.. هكذا قال المؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

❋❋❋

لكن مؤلف هذا الكتاب يقف على الضفة الأخرى، ويتبنى وجهة النظر التي قال بها المؤرخ «يوسيبيوس القيصاري» [275 - 339م] والتي تقول إن فرعون الخروج هو رمسيس الثاني.. ومن ثم يقف هذا الكتاب - وهو تلك هي المشكلة - مما جاء في الكتب المقدسة عن أحداث الخروج موقفًا يتراوح بين «التأويل» الخالي من المنطق، وبين التجاهل لما جاء في هذه الكتب المقدسة - وخاصة القرآن الكريم - من آيات محكمات..

وتلك هي القضية التي نريد عرضها.. والحوار حولها.. في عدد محدد من النقاط:

أولها: فرعون الخروج بين الكفر والإيمان

لأن رمسيس الثاني كان مؤمنًا بالله.. ولأن المؤلف قد انحاز إلى الرأي القائل بأنه هو فرعون الخروج.. فلقد ذهب المؤلف إلى الادعاء بأن القرآن الكريم لم يحكم بكفر هذا الفرعون.. فقال: **«إن الآيات القرآنية في شأن فرعون لم تصفه قط بالكفر، فقد طغى، أو عصى، أو أفسد... إلخ... لكنه ليس كافرًا»**.[1]

(1) [فرعون الخروج] ص 142.

وفي مواجهة هذه الدعوى الخطيرة، نذكر بمعنى الكفر - كما جاء في المصادر الإسلامية - الذي «هو جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة».[1]

وإذا نحن عرضنا عقيدة فرعون الخروج على هذا المعنى للكفر، وجدناه - بنص الآيات القرآنية المحكمات - مستجمعًا لكل شرائط الكفر ومعانيه.. فهو لم يكفر بالله الواحد فحسب، بل ادعى أنه الإله الوحيد.. والإله الأعلى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: 38] ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: 23، 24] بل لقد خير فرعون نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين أن يتخذه إلهًا وبين أن يضعه في غياهب السجون ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: 29]..

وإذا كان الكفر يطلق - أيضًا - على من يكذب بالآيات المعجزات التي يظهرها الله على يدي الأنبياء والمرسلين، فإن فرعون وملأه قد جحدوا وكذبوا بكل الآيات - العشر - التي جاء بها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل: 12 - 14] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 41، 42] ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات: 20، 21].

فوصف الكفر قد أطلقه القرآن الكريم على فرعون الخروج في آيات محكمات كثيرة، اخترنا منها بعض النماذج.. ولقد سلكه القرآن في زمرة الذين كفروا بالوحدانية والنبوات والآيات المعجزات ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: 17 - 20].

وبهذا يسقط ركن ركين من الأساس الذي بنى عليه مؤلف هذا الكتاب حجته في أن رمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

(1) الراغب الأصفهاني [المفردات في غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة - سنة 1991م.

ثانيها: موقف المؤلف من معجزة فلق البحر

المعجزة - في الاصطلاح الإسلامي - ليست أمرًا خارقا للعقل والمعقولية والسنن الإلهية.. وإنما هي أمر خارق للعادة والمعتاد الذي اعتاد عليه الناس، ومفارق للواقع وسننه الاجتماعية المعتادة.. وهي مقرونة بالتحدي، يظهرها الله على يد الأنبياء والمرسلين؛ لإثبات صدقهم فيما إليه يدعون.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م]: **«فإن المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلًا، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته.. فإن قيل: إن ذلك لابد أن يكون تابعًا لناموس آخر طبيعي، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده»**.[1]

وإذا كان هذا هو تعريف المعجزة، ومكانها من العقل والعقلانية، ومن السنن والقوانين الحاكمة للمعتاد وغير المعتاد.. فلقد كان غريبًا - بل وعجيبًا - موقف مؤلف هذا الكتاب من المعجزات..

لقد اعترف بوجود المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثاني، عندما قاتل - وحده - أعداءه الكثيرين في معركة «قادش» حتى إنه - بعد أن دعا ربه - **جعله الله معجزة «تحول إلى مارد طائر» حتى قال عنه أعداؤه: «إن الذي بيننا ليس بشرًا».. وأضاف المؤلف: «إنها معجزة أكثر من أن تكون أسطورة.. هذه هي المعجزة..»**.[2]

يعترف المؤلف بظهور المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثاني.. ثم يتجاهل الحديث عن المعجزات التي أظهرها الله على يد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي عشر آيات - [اليد.. والعصا.. وفلق البحر.. والطوفان.. والجراد.. والقمل.. والدم.. والضفادع.. والسنين.. والطمس]-.[3]

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ 3 ص 416. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة 1993م.

(2) [فرعون الخروج] ص 177 - 179..

(3) انظر: القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] جـ 13 ص 162، 163 طبعة دار الكتب المصرية.

يتجاهل المؤلف أية إشارة إلى أي من هذه المعجزات.. ثم يذهب ليؤول معجزة غرق فرعون - لأن رمسيس الثاني مومياؤه قد اكتشفت وليس بها أثر للغرق - بل لقد عاش حاكمًا سنين عديدة بعد تاريخ الخروج -.. يذهب المؤلف ليؤول معجزة الغرق على نحو لا علاقة له بأي من مقومات التأويل وشروطه.. بل يذهب إلى جعل ما جاء في القرآن الكريم عن فلق البحر من الأمور المعتادة والطبيعية التي لا علاقة لها بأي لون من ألوان الإعجاز!..

فالقرآن يتحدث عن فلق البحر - والبحر هو كل مكان واسع جامع فيه ماء كثير.. وهو - في الأصل - للماء المالح دون العذب - ولا يسمى العذب بحرًا إلا إذا اقترن بالمالح ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: 53] - كما يقال للشمس والقمر: قمران -..

لكن المؤلف يدعي أن العبور لم يكن للبحر الأحمر.. وإنما كان على أرض يابسة، هي منخفض جنوبي بحيرة المنزلة، كانت تغطيه المياه أثناء المد، وتنحسر عنه أثناء الجزر.. وفوق يابسة هذا المنخفض كان العبور - الذي لا أثر فيه للإعجاز -!..

وفي هذا الادعاء الخطير والتأويل الفاسد يقول المؤلف - مستندًا إلى الآثار، وضاربًا عرض الحائط بآيات القرآن المحكمات: **«من الوجهة الأثرية، فإن أمر المعجزات ليس له أي صدى، حتى أحداث انفلاق البحر.. ففي «يم سوف» - أي «بحر البوص» - كان هناك منخفض - برزخ - يقع إلى الشرق من قناة السويس.. وهذا البرزخ كان ولا يزال عرضة لعمليات المد والجزر.. وهذا المنخفض كان امتدادًا طبيعيًّا لبحيرة المنزلة.. وكان هناك اختناق أرضي يربط هذا المنخفض بالبحيرة، وكان هذا الاختناق الأرضي يختفي ويظهر بتأثير حركات المد والجزر البحري، مما يعني أنه يصلح كمعبر أرضي إلى سيناء في حالات تراجع المياه عن المعبر أو في حالات العواصف الشديدة والأعاصير، وهذا يفسر ظاهرة انفلاق الماء أو البحر وظهور اليابسة، وكان الماء على يمين ويسار شعب إسرائيل أثناء عبوره الاختناق الأرضي، وبمعنى أوضح فإن مياه المنخفض كانت على يمين الشعب ومياه بحيرة المنزلة كانت على يساره، والمعبر اليابس تحت أقدامهم، وقد يحدث أن تتضافر ظاهرتا المد والجزر مع الرياح العاتية فتحيل منظر المياه إلى جبال عالية».**[1]

(1) [فرعون الخروج] ص 144، 145، 147، 149.

هكذا استبدل المؤلف «البرزخ المائي» بـ «البحر».. واستبدل «الممر الأرضي» العادي بـ «قاع البحر»، الذي انكشف طريقًا عند انفلاق الماء إلى جبلين كل منهما كالطود العظيم!..

لقد ذهب المؤلف إلى هذا التأويل الفاسد.. الذي هو في الحقيقة إنكار للمعجزة من أساسها، وليس تأويلًا لها بأي حال من حالات التأويل..

ثالثها: موقف المؤلف من معجزة غرق فرعون

إذا كان المؤلف قد صور إنكاره معجزة فلق البحر في صورة التأويل الغريب لهذه المعجزة.. فلقد كان موقفه من معجزة غرق فرعون الخروج إنكارًا لها من الأساس!.. فرمسيس الثاني - الذي جعله المؤلف فرعون الخروج - قد عاش وحكم بعد الخروج سنوات طوال.. ومومياؤه قد اكتشفت، وهي قائمة حتى الآن لا أثر فيها للغرق.. وبهذا تجاهل المؤلف آيات القرآن الكريم الشاهدة على حدوث معجزة الغرق لفرعون الخروج.. والتي تقول - ضمن ما تقول -: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ - [وليس البرزخ.. والمنخفض.. والمعبر اليابس] - ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ - [أي الرسوب في الماء] - ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: 90] ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: 50] ﴿ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ [الشعراء: 65 - 66] ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [الأعراف: 136] - [واليم هو البحر] - ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 39، 40].

ففرعون الخروج - بنص القرآن - قد [أدركه الغرق] - والدرك: هو أقصى قاع البحر - والإدراك: هو بلوغ أقصى الشيء.. ولقد نجاه الله ببدنه - والبدن هو الجسد -.. فلا يمكن أن يكون قد نجا حيًا، وعاش يحكم مصر بعد حادثة الخروج - كما يدعي المؤلف -..

❋❋❋

مكمن الخلل

وإذا كانت هذه هي المآخذ الأساسية على دعاوى هذا الكتاب.. فإن مكمن الخلل الذي أدى إلى هذه الأخطاء هو اعتماد المؤلف على المعلومات الأثرية دون ما جاء في الكتب المقدسة..

❐ صحيح أن الاكتشافات الأثرية هي مصدر معتبر من مصادر كتابة التاريخ.. لكن معلوماتها ليست حقائق مطلقة، كما هو الحال في محكم آيات القرآن الكريم.. فهناك آثار قد بادت، ولو أنها بقيت واكتشفت لغيرت - أو حتى عدلت - من المعلومات التي تم اكتشاف آثارها.. وهناك آثار لم تكتشف بعد، ولربما - عند اكتشافها - تتم المراجعة للمعلومات التي أصبحت في حوزتنا.. كما أن هناك عبثًا قد حدث من قبل بعض الفراعين وبعض الأسر الحاكمة بتواريخ من سبقهم من الملوك.. وخصوصًا في الأمور الخلافية - ومنها الموضوع الذي يدور حوله هذا الكتاب.. وخصوصًا عندما يكون هناك مصدر معصوم قد عرض لهذا الموضوع..

بل إن هذه المآخذ على المدونات الآثارية لا تزال تلاحق التواريخ التي تكتب لحكام عاشوا في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر..

لقد استجلب الملك فؤاد الأول [1285 - 1355هـ - 1868 - 1936م] مؤرخا أوروبيًّا صنع له تاريخه على عينه، وعلى النحو الذي يريد!..

وكذلك صنع الديكتاتور حافظ الأسد [1349 - 1421هـ - 1930 - 2000م] في سوريا - الذي استأجر عدة كتاب أجانب لكتابة تاريخه - منهم «لوسيان بيترلان» و «أجناتس كرسيتسكي»..

ومعمر القذافي [1361 - 1432هـ - 1942 - 2011م] الذي استجلب المؤرخ الأوروبي «ميريلا بيانكو» الذي كتب عنه كتابًا عنوانه [رسول الصحراء]!..

ولقد غيرت الثورة البلشفية أسماء عدد من المدن الروسية.. ثم عادت هذه الأسماء الروسية إلى ذات المدن بعد سقوط الشيوعية!.. وكذلك حدث كثيرًا لأسماء الميادين والشوارع والمؤسسات - التي تدخل في عداد الآثار -!

❐ أمـا الوحي الإلهي - ويعنينا هنا القرآن الكريـم - فإنه وإن لم يكن كتاب تاريخ، إلا أنه قد عرض - في سوره وآياته المحكمات - للكثير من وقائع وحقائق التاريخ.. عرض لأماكن تاريخيـة.. وأعـلام تاريخية.. وحضارات تاريخية.. وأقوام عاشـوا في التاريـخ القديم.. بل إن سيرة رسـول الإسلام ﷺ وهي تاريخ.. وكذلك سـير النبوات والرسالات وتواريخها.. سنجد أوثق مصادرها في القرآن الكريم..

لذلك، كان غريبًا تنحية المؤلف المصدر القرآني في كتابته عن فرعون الخروج، واعتماده - فقط - المعلومات المكتشفة من آثار الفراعين..

❐ إن مؤلـف هـذا الكتاب - وهو خبـير آثار - يتحلى بـروح وطنية عاليـة.. وبكراهية محمودة لبني إسرائيل.. لكن وطنيته قد تجاوزت حدود الموضوعية فجعلته ينحاز للفرعون ضد مـوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ!.. حتـى إنه جعل النجاة - في حدث الخروج - لرمسـيس الثاني - نجاته - على أرض فلسـطين - في قـادش - من أعدائه - وليسـت نجـاة نبي الله موسى والذيـن آمنوا معه من فرعون وجنوده!..

وهذا تأويل فاسد وعجيب يتجاهل أن حديث القرآن الكريم عن النجاة إنما كان لموسى ومن معه عند مجاوزة البحر وليس حديثًا عن نجاة رمسيس الثاني من حصار أعدائه له في قادش عـلى أرض فلسـطين!.. كما يتجاهل أن رمسـيس الثـاني - يوم نجاته في قـادش - لم يكن مؤمنًا بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل.. بينما فرعون الخروج.. الذي أغرقه الله في البحر، ونزل به قـاع البحر، هو الذي أعلن - وهـو على حافة الهلاك -: [لقد آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين].. وهي توبة وإياب جاءا بعد فوات الأوان.

❋❋❋

ولعل من المفيد - في ختام هذه الدراسات النقدية - لما جاء بهذا الكتاب من تأويلات بالغة الفساد، أن نذكر رأي الإمام محمد عبده في مثل هذه التأويلات.. فلقد قال:

«.. وزعـم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر زقاقًا إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدًا تيسر للإنسان أن يعبر

ماشـيًا. ولما أتبعهم فرعـون بجنوده، ورآهم قد عبروا تأثرهـم، وكان المد تفيض ثوائبه - وهي الميـاه التي تجـري عقيب الجزر - فلـما نجا بنو إسرائيـل كان المد قد غطى وعـلا حتى أغرق المصريين.. كذا قال المتهورون المنكرون للمعجزات.

ولكـن، يـدل على كونه - [فلق البحر] - آية لموسى وصف كل فـرق بأنه كالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن، فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى - في سورة الشعراء - ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **[الشعراء: 63].. وهو الموافق لما في التوراة».**[1]

❐ ولقـد جاء هذا «التهـور» المنكـر للمعجزات إلى بلادنـا في صورة الفلسـفات المادية والوضعيـة، التـي تفسر كل الظواهر تفسـيرًا ماديًـا.. ولقد كان خريجو مدارس الإرسـاليات الكاثوليكيـة - في لبنـان - الطلائـع الذيـن عملـوا عـلى إشـاعة هـذا المنهـاج و إحلالـه محل العقلانية الإسـلامية المؤمنة.. وتـم ذلك تحت رعاية النفوذ الاسـتعماري لبلادنا.. ولقد كانت مجلـة [المقتطـف] - 1876 - 1952م] الميدان الفكري للتبشـير بمثل هذه الفلسـفات والنزعات والنظريـات.. ولقد تحـدث عبد الله النديم [1261 - 1313هـ - 1845 - 1896م] عن أصحاب هذه النزعة من كتاب هذه المجلة، فوصفهم بأنهم **«أعداء الله وأنبيائه، والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي الإ معاول يهدمون بها عموم الأديان».**[2]

❐ لقـد وصف الأسـتاذ الإمام هذا التأويـل «بالتهور».. ووصف أصحابـه «بالمتهورين الذيـن لا يحبون المعجـزات».. أما عبد الله النديم فلقد وصف هذا النهج «بالتفسـير الطبيعي والكيماوي للمعجزات».. وهي أوصاف تنطبق على بعض ما جاء في هذا الكتاب..

❋ ❋ ❋

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ 4 ص 183، 184.

(2) مجلة [الأستاذ] العدد التاسع والثلاثون - ص 923، 924 في 7 ذي القعدة سنة 1310هـ - 23 مايو سنة 1893م.

ولأن ناشر هذا الكتاب قد أحسن - في التقديم له - عندما أهاب «بكتابات أخرى قد تسير في صف البحث أو تقف ضده، عملًا بالروح الجديدة التي نريد أن نتعلق به مع ثورة يناير، ألا وهو العقل في مقابل العقل».[1]

فلقد آثرنا تقديم هذه الدراسة النقدية لبعض ما جاء في هذا الكتاب، والتي استندت إلى العقل والنقل العقلاني جميعًا.. ذلك أن النقل القرآني هو معجزة عقلية احتكمت إلى العقل والمنطق والسنن الحاكمة للكون والاجتماع..

ذلك أن هذا الكتاب قد جاء متجاوزًا للمقومات الموضوعية اللازمة لكتابة هذا الفصل من فصول التاريخ.. فتاريخ فرعون الخروج - فرعون موسى - بصرف النظر عن اسمه -.. هو صفحة في كتاب النبوات والرسالات، لا يمكن أن تكتب بمعزل عن نبأ السماء العظيم.. فضلًا عن أن تكتب في تناقض مع محكمات آيات الذكر الحكيم.

❋ ❋ ❋

(1) [فرعون الخروج] ص 11.

تقرير عن فحص كتاب

الأسرار الإلهية في الكتب المقدسة

مؤلفه: جرجس عزيز راغب

هـذا الكتاب مخطوط.. أي أن صاحبه - وهو مسـيحي - قـد تقدم به إلى الأزهر الشريف طالبًا الموافقة على ما جاء فيه، والتصريح بنشره.

❐ ولقد خلا الكتاب من الفهرس.. ومن ترقيم الصفحات - ولقد قمت بترقيمها، حتى أشير إليها في التقرير - فبلغت 228 صفحة.

❐ وفي هذا الكتاب قسمان متمايزان: أولهما - وصفحاته 66 صفحة - يتحدث فيه الكاتب - كمسـيحي - عن العقائد المسـيحية التي يؤمن بها. أما القسـم الثاني - وصفحاته 163 صفحة - فهـو محـاولات دؤوبة وغريبة وعجيبة - وربمـا فريدة - في التدليس، بذلهـا الكاتب ليطوع القـرآن الكريـم - ومن ثم الإسـلام - ليتفق مع العقائد المسـيحية المرفوضة إسـلاميًّا بنصوص قطعية الثبوت والدلالة، وبإجماع مذاهب الإسلاميين.. وفي مقدمة هذه العقائد:

1- أنسنة الإله.

2- و الخطيئة.

3- وتجسد الإله في بشر.

4- وصلب المسيح وقتله.

وكمثال على ذلك:

- 1 -

❐ ذهب الكاتب - ص 5 - إلى أنسنة الإله، وذلك بجعله صاحب «عقل» تخرج منه الأفكار.. فقال - بعد إيراد شواهد من العهد القديم -: «ومن خلال الآيات السابقة اتضح أن لله أفكارًا خاصة به. ونحن نعلم أن محل الأفكار هو العقل، وعلى ذلك تكون الصفة الأولى في ذات السيد الرب هي العقل الذي تخرج منه أفكار لا حد لها».

❐وفي ص 9 يقول: الله خلق الإنسان على صورته وعلى شبهه، فصورة الإنسان هي ذات الله.

❐ وفي ص 69 يقول: «إن صفات الله - مثل الرازق.. الرحيم.. الغفور.. - لم تكن موجودة له قبل الخلق.. و إنما طرأت عليه بعد الخلق لمن يرزقه و يرحمه و يغفر له».

كما يتحدث - ص 69، 70 - عن الله وكأنه يتحدث عن الإنسان: فالأشياء قبل خلقها كانت موجودة في فكره وفي عقله الإلهي، ولم تكن عدمًا..

وفي ص 75 يقول إن الله لا ينسى، ولكنه يتناسى، أي يتعمد النسيان.

وفي ص 76 يزيف معاني الآيات القرآنية ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ [الأنفال: 68] و﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾ [الحج: 70] ومعناه القضاء والحكم واللوح المحفوظ.. يزيفها الكاتب فيقول: إن معناه «عقل الله».

وفي ص 77 يدلس على المرحوم الشعراوي - الذي يتحدث عن علم الله - فيقول الكاتب إنه يتحدث عن «عقل الله».

وفي ص 27 يورد شواهد من العهد القديم: «فحزن الرب وتأسف في قلبه» [تكوين: 6: 6] «والرب ندم» [صموئيل: 17: 35].

❋❋❋

- 2 -

❐ والذبيح - عند الكاتب - في ص 22 - هو إسحاق.. وليس إسماعيل.

وفي ص 21، 22 يقول إن آدم قدم ذبيحة، فغفر الله خطيئته.. ثم يعود - ص 23 - ليقول إن الذبيحة لابد أن تكون بشرية، وأن الذبيحة الحيوانية هي مجرد رمز للذبيحة البشرية.. وأن هذه الذبيحة البشرية لم تتوفر إلا في المسيح.

وفي ص 100 يزعم الكاتب أن آدم وامرأته ونسله أي ذريته من بعده يكونون من الظالمين.. ويستدل بآية لا تشهد له، بل تشهد ضده: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: 1]..

وفي ص 101 يقول: «إن أخطأ آدم وحواء فقد أخطأ العالم البشري كله، لأننا كنا في ظهورهما» ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] بينما الآية تتحدث عن بني آدم، وليس عن آدم.

كما يدعي أن آدم هو المراد بالآية: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 175 - 177].

وهذا ادعاء غريب، يلصق بآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كل هذه القبائح.. بينما الآيات تقص قصة أحد الزوجين الذين كفروا بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - «بلعام»، وتجعله مثل الكلب، وتضربه مثلًا للذين كذبوا بآيات الله.. وآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منزه عن كل هذا.

وفي ص 102، 103 يعود ليجعل آدم من الظالمين الملعونين المحكوم عليهم بدخول النار ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] ليصل بهذا الافتراء إلى عقيدة النصارى في الخطيئة والفداء والصلب؛ لأن «كفارة الظلم هي الذبح».. ثم يعود - ص 104، 105 - ليقول إن الله قد تاب على آدم «بعد كل الذي فعله.. وأدخله في رحمته التي وسعت كل شيء».. ثم

يعود - مرة أخرى - ليتساءل - ص 106 -: «هل هذه التوبة قد رفعت الحكم الإلهي بالظلم من على آدم»؟.. ثم يجيب - ص 107 - بالنفي «لأن الله قد فرض الذبيحة على كل أمة وشعب» ويستطرد - ص 109 - قائلًا: «إن التوبة التي تاب الله بها على آدم لم ترفع الحكم بالظلم من على آدم».

وفي محاولات تطويع القرآن ليشهد لعقائد النصرانية، يقول - ص 108 -: إن القرآن ذكر أن الله عهد إلى الناس أن لا يؤمنوا بأي رسول حتى يأتي الناس ببرهان على رسالته وهي نار تنزل من السماء تأكل هذا القربان الذي يقدمه الرسول» ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [آل عمران: 183].

وهذا افتراء، فالذي طلب القربان هم قوم موسى، وليس موسى. ولقد جعل الله لموسى معجزات وبينات ليس من بينها القربان. وكذلك كان الحال مع عيسى ومع خاتم الأنبياء.

ثم يستمر الكاتب في افترائه فيدعي أن القربان قد تقرر في أمة الإسلام، مستدلًا بآية: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: 196].. بينما الهدي والأضاحي لا علاقة لها بالقربان الذي تأكله النار النازلة من السماء!.

وفي ص 109 يسلك الكاتب قصة الذبيح - وهو عنده إسحاق - في سلك القربان - بذلك المعنى - بينما لم يقل أحد إن الكبش الذي استبدل بالذبيح قد نزلت نار من السماء فأكلته..

كل ذلك الافتراء ليصل الكاتب - ص 109، 110 - إلى أن الله «قد أعد ذبيحة وكفارة لآدم تتحمل هي الحكم الإلهي من على آدم.. ذبيحة من نفس نسل آدم، وبلا خطيئة.. وكل هذه الشروط لم تتوفر إلا في السيد المسيح، إذ هو الإنسان الوحيد المولود من أم دون أب، وبذلك رفع عنه حكم الظلم؛ لأن حكم الظلم محكوم على آدم وحواء على حد سواء لقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35]».

ولقد تجاهل الكاتب أن المسيح وأمه من نسل آدم وحواء - اللذين قال الكاتب إنهما من الظالمين!.. وأن مريم بنت أب وأم - أي من نسل آدم وحواء معًا -!.. فمن أين جاء بتفرد المسيح بالخروج من هذا الظلم المزعوم؟! - الظلم الذي قال الكاتب إن الله قد غفره بتوبة آدم وحواء.. توبة «أدخله بها في رحمته التي وسعت كل شيء»!.

❋❋❋

- 3 -

❐ وفي دعوى تجسد الله في البشر.. يعمم الكاتب هذه الدعوى، فيقول - ص 23، 24 - إن الشياطين تتجسد في البشر.. - وفي ص 25، 26 - يدعي أن الملائكة تتجسد في صورة جسد، خاصة الجسد الإنساني.. ويحاول الاستدلال بآية [الأنعام: 9] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.. بينما الآية تتحدث عن اللبس والخلط، وليس عن التجسد.. فالمعنى لخلطنا عليهم الأمر.. وليس «لجعلنا لهم ثيابا مما يلبس البشر»!.

كل ذلك ليذهب ص 26، 27، 133، 137، 138، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 156، 157 - إلى قياس الله - سبحانه وتعالى - على الشياطين والبشر والملائكة، فيقول: إنه قد تجسد في الجسد، لأنه روح، وكل روح يتجسد.. ثم يعود الكاتب فيقول: إن الذي تجسد هو الابن - أي النطق - الكلمة - أي ليس الروح - روح القدس -.. ثم يعود - في ص 27 - ليقول: «إن الله يعرفنا عن ذاته أنه روح ثم يؤكد لنا أن للروح القدرة على التجسد»!

وفي ص 137 يخلط بين «التجسد» وبين «التصور» - أي التمثل - فيقول عن الملائكة الذين ذهبوا إلى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «إنهم كانوا متجسدين في صورة بشرية»، ثم يعود بعد أسطر ليقول: «إنهم كانوا يتصورون في الصورة البشرية فقط».. ويتكرر الخلط - في ص 138، 139 - عندما يقول عن إبليس: إنه «دخل الجنة متجسدًا، أي أخذ صورة غير صورته الحقيقية».

ثم يصل الكاتب إلى مبتغاه - ص 140 - 144 - فيقطع «بتجسد الله تجسيدًا يظهره في صورة يراها الناس».. بل ويذهب في دعواه إلى الزعم بأن القرآن قد أكد هذا التجسد، مستدلًا بالآيات التي تحدثت عن «اليد» و«الوجه» و«السمع» قائلًا «فله وجه مثل باقي البشر».. ثم يسوي بين معاني الصفات التي ترد لله ومعانيها عندما ترد في الإنسان - صفات «الانتقام» و«المكر» و«الكيد» - ويقول: «إن لله كل المشاعر البشرية.. فالصورة البشرية التي يتخذها الله للظهور بها تأكل وتشرب وتنسى وتحب وتكره وتمكر وتتحسر وتندم دون المساس بالطبيعة الإلهية».

كـما يذهب - ص 145، 146 - ليسـتدل بآية ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17] على التجسـد الحقيقي لله!.. وهو يفسر [روحنا] بروح الله.. روح المولى عَزَّوَجَلَّ.. روح القدس.. بينما الحديث عن تمثل الملك في صورة البشر!..

ويحاول الكاتب الهروب من دقة التعبير القرآني ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: 19] والذي لم يقل: إنما أنا ربك، بالقول: «إن روح الله أطلق على نفسه أنه رسول الله»!!.

كـما يذهـب الكاتـب - ص 156، 157 - إلى الإدعاء بأن مجيء الله مـع ملائكته قبل يوم القيامـة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقـرة: 210] سـيكون - اللـه - متخذًا جسـدًا للظهور به بين النـاس، وأن هذا الإله هو «المسـيح»، أي الله عَزَّوَجَلَّ المتخذ جسدًا للظهور به للناس»!.

هكذا وقع الكاتب في هذا الكم من الأخطاء الفاحشـة؛ لأنه لم يميز بين «التجسـد» وبين «التمثل».. فالتجسـد يعني «الاتحاد» الذي يسـتعصي على الانفصال.. وفي [لسـان العرب]: [وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام]: «أن ذوي الأجسام يأكلون الطعام، وأن الملائكة روحانيون لا يأكلـون الطعام وليسـوا جسـدًا».. بينما التمثل هو تشـبه وتشـكل قابلة أطرافـه للافتراق. والملائكـة تمثلـت في صور بـشر - حدث ذلك لإبراهيـم ولوط ومريم، ولم تتجسـد في البشر.. [فتمثل لها بشرًا سويًا] أي فتصور لها بشرًا.. أما الذات الإلهية، فإن صفاتها تتجلى في المخلوقات.. يتجـلى الإبداع وتتجلى القـدرة.. والكمال.. والجلال.. والجمال.. كما تتمثل الشـمس وتتجلى في المرآة، دون تجسد واتحاد.. ولقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - في المخلوقات وللمخلوقات الأمثال، لكن ذاته منزهة عن التمثل [فلا تضربوا لله الأمثال] [ليس كمثله شيء].

ولو أدرك الكاتب - وكل الذين قالوا بالتجسـد الإلهـي في بشر - الفرق الجوهري والدقيق بين «التجسد» وبين «التمثل» لما وقعوا في هذا الذي وقعوا فيه.

❐ ومـما له صلة بهـذه القضية، خلط الكاتـب - ص 78، 79، 89، 93 - بـين «روح الله» - سـبحانه وتعالى - وبين «روح القدس» - الذي هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - فيقول: «إن روح الله في القرآن هي الروح القدس ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: 102]، والحق أن روح

القـدس هو جبريل، الذي نزل بالقرآن من لدون الحق.. وليس روح الله التي نفخ منها في آدم.. ويمضي الكاتب ليزعم أن الله قد أنزل القرآن على الرسول ﷺ مباشرة.. وليس بواسطة جبريل.. «لقد أنزل القرآن على رسوله بنفسه وبروحه وبكل صفاته الإلهية الثلاثة المعروفة».

ثـم يقـول - ص 90، 91 -: «ثم بعد أن أنزله الله بصفاته الإلهية أرسـل جبريل ليكون أمينًا على ما يوحيه الله» «إن الروح القدس غير الروح الأمين»!

ثم يعود - ص 93 - ليقول: «إن الروح هو رئيس الملائكة - جبريل - الذي أتى إلى الرسول وأوحى له هذا القرآن»!

فبعـد أن أنكـر أن جبريل هو الذي نـزل بالقرآن، مدعيًا أن الله أنزله بنفسـه وروحه، عاد ليقول إن جبريل - الروح - هو الذي أتى للرسول وأوحى له هذا القرآن.. مع التمسك بأن جبريل روح.. وليس روح القدس.. ليحتفظ بروح القدس لروح الله - كما هو حالها في التثليث -!.

❐ وإذا كان الإجماع قد انعقد على أن النبي لا يدرك كنه المطلق، وعلى أن العقل الإنساني - وهو نسبي الإدراك - عاجز عن الإحاطة بجوهر وكنه الذات الإلهية.. فإن الكاتب - كأثر من آثار أنسنة الإله - يزعم «أن الله هو المشيئة والإرادة، وهما يكمنان في العقل، وهو الناطق بالقول والمشـيئة وإرادته، وهو الروح الأعظم الواهب الحياة لكافة مخلوقاته، وبذلك يكون الله هو الذات العاقلة الناطقة الحية. وهذه هي صفات الله الحقيقية أو حقيقة الذات الإلهية».

كما يذهب إلى القول بأن صفات الله هذه موجودة في كل مخلوقاته، دون تمييز بين حقيقة الصفة عندما تكون للخالق وبين حقيقتها عندما تكون للمخلوق.. وإلا فهل حياة المخلوق هي ذات حياة الخالق؟.. وهل نطق المخلوق هو ذات نطق الخالق؟. وهل عقل الإنسان والسموات والأرض والحيوانات والدواب هو ذات عقل الله؟.. إذا جاز أن يقال إن لله عقلًا؟!..

إن الكاتب يؤنسن الذات الإلهية.. وهذه الأنسنة تشيع في أغلب صفحات هذا الكتاب!

ومـما يدخـل في هذا الباب، قول الكاتب - ص 87 -: إن اللـه يتكلم بصيغة الجمع لأنه هو الذات العاقلة الناطقة الحية.. ويتكلم بصيغة الفرد لأنه هو الإله الواحد الأحد!

والسؤال: هل الواحد الأحد - المفرد - خال من الصفات الثلاث؟!.

ثـم يعـود الكاتب - ص 89 - ليقـول: «إن الله الواحد الأحد فيه ثـلاث صفات، والثلاثة صفات في الإله الواحد».. ممهدا بذلك «للغز التثليث»!!.

❋❋❋

- 4 -

❐ أمـا القضيـة الرابعة - من القضايـا الكبرى في هـذا الكتاب - فهي قضية قتل المسـيح وصلبه -..

ففي ص 112 - 117 ادعى الكاتب أن القرآن الكريم لم ينكر قتل المسـيح وصلبه، وذلك بتقديـم تفسـير غريب وعجيـب للآيـة: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ [النسـاء: 157].. بتقديم تفسير غريب وعجيب يقول فيه: «إن الله لم ينكر صلب وقتل المسيح بل أنكر على اليهود تحديهم بقتل وصلب المسيح»!.

وهذا التفسـير الغريب قد بلغ في السفسـطة حـد الجهل حتى بقواعد السوفسـطائيين!.. فالقـرآن قد نفى القتل والصلب للمسـيح، بـصرف النظر عن القائلين به، يهـودا كانوا أو غير يهود.. ثم إن المسيحيين - وليس فقط اليهود - يقولون بحدوث هذا القتل والصلب!..

ونحن نسأل:

- عندمـا يقول الوثنيون بألوهية الأصنام.. وينفي القرآن هذه الألوهية عن الأصنام.. هل هنـاك مجال للقول بـأن القرآن فقط ينكر على الذيـن تلفظوا بألوهية الأصنـام، دون أن ينفي ألوهية الأصنام بتعميم وإطلاق؟!.

- وعندما يدعي المشركون أن القرآن قول شاعر.. وينفي القرآن هذه الدعوى.. هل يجوز لعاقل أن يشكك في هذا النفي؟!.

وقـس على ذلك كل نفـي قرآني لمقـولات الكفار ودعاواهـم - ومنها نفي القـرآن القاطع لدعوى قتل المسيح وصلبه.. إذ العبرة بعموم الحكم القرآني، الذي يشمل من نطق بهذه الدعوى ومن صدق بها ورددها.

❐ ثم إن ذهاب الكاتب إلى أن نفي القرآن قتل اليهود للمسيح وصلبه يمكن الجمع بينه وبين أن القتل والصلب قد قام به الحكام والجنود الرومان - وهو تخريج قد يقنع الجهلة - يعارضه ما أجمعت عليه الأناجيل من أن اليهود هم الذين حكموا على المسيح بالقتل والصلب، وهم الذين ألقوا القبض عليه، وسعوا - في مظاهرة حاشدة - إلى السلطة التنفيذية - الرومانية - لتنفيذ ذلك الحكم، وألحوا على التنفيذ.. فالقاضي الحاكم بالقتل والصلب هم اليهود - وفق روايات الإنجيل - بينما الرومان كان موقفهم على العكس من ذلك، إذ حاولوا إطلاق سراح المسيح، وأعلنوا براءته.. لكن اليهود هم الذين أصروا على أن ينفذ الرومان حكمهم بالقتل والصلب للمسيح..

ففي إنجيل يوحنا - إصحاح 18: 18 -: ثم جاءوا - أي اليهود - بيسوع إلى دار الولاية.. فخرج بيلاطس إليهم وقال «أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟. أجابوا وقالوا له: لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك. فقال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم. فقال له اليهود: لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا».

فاليهود هم الذين اتهموا المسيح، وهم الذين ألقوا القبض عليه، وحكموا عليه بالقتل، وذهبوا للسلطة التنفيذية - الرومانية - لتنفيذ حكمهم..

ولأن هذه السلطة الرومانية لم تكن مقتنعة بإدانة المسيح، ومن ثم بعدالة قتله، فلقد خرج بيلاطس - مرة ثانية - إلى اليهود طالبًا منهم الموافقة على العفو عن المسيح - أي وقف تنفيذ حكمهم عليه - بمناسبة عيد الفصح، وقال لهم: «أنا لست أجد فيه علة واحدة. ولكم عادة أن أطلق لكم واحدًا في الفصح. أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود - [المسيح] -؟. فصرخوا أيضًا جميعهم قائلين: ليس هذا، بل باراباس. وكان باراباس لصًا».

وفي الإصحاح 89: 4 من هذا الإنجيل - إنجيل يوحنا - عاد بيلاطس ليلتمس من اليهود التنازل عن حكمهم بصلب المسيح وقتله: «وقال لهم: ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة».

فالمسيح، بنظر الرومان، كان بريئًا، ليس فيه علة واحدة، ولقد حاول الرومان إقناع اليهود بالإفراج عنه بمناسبة عيد الفصح.. لكن اليهود هم الذين ثاروا على المسيح، واتهموه، وحكموا عليه بالقتل والصلب، وساقوه للسلطة التنفيذية الحاكمة، وصرخوا - في وجه

بيلاطس - كما يقول الإنجيل - قائلين: «اصلبه اصلبه.. وكانوا يلحون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب، فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة، فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم» - لوقا 23: 24 -.

فاليهود هم الطرف الأول والأساس الوحيد في هذا الذي جرى.. ولذلك - كما يقول إنجيل لوقا 23: 34 - طلب المسيح من ربه المغفرة للجنود الرومان - الذين نفذوا مرغمين حكم اليهود - ودعا على اليهود».

ومن ثم فإن النفي القرآني لقتل المسيح وصلبه كان طبيعيًّا أن يتوجه إلى ادعاء اليهود.

❐ وتتزايد تناقضات الكاتب - حول هذه القضية - عندما يقول - ص 117 -: «إن اليهود قد حكموا على المسيح.. إلا أنهم لم يقدروا أن ينفذوا فيه هذا الحكم، بل نفذه الرومان».

ثم يعود - ص 119 - لينقض قوله هذا، فيقول: «والحقيقة هي أن الرومان هم من حكموا على المسيح بالقتل والصلب».

ثم يعود - ثالثة - ص 120 - ليقول: «إن من صلبه وقتله على الصليب هم الرومان نتيجة ضغوط اليهود عليهم».

لقد كان المسيح - بنصوص الأناجيل التي أوردناها - بريئًا بنظر الرومان، ولقد عارضوا تنفيذ حكم اليهود بقتله وصلبه.. ثم حاولوا الإفراج عنه والعفو عنه بمناسبة عيد الفصح.. لكن اليهود أصروا على تنفيذ حكمهم عليه بالقتل والصلب.

ومن ثم فإن محاولة الكاتب إلقاء التبعة على الرومان - بدلاً من اليهود - هي محاولة ترفضها الأناجيل - مع القرآن الذي تحدث عن أن المدعي للقتل والصلب هم اليهود -.

❋❋❋

- 5 -

❐ وفي حديث الكاتب عن معجزات المسيح - الذي يتوسل به إلى فرادته، ومن ثم ألوهيته - لا ضرورة - في هذا التقرير - للإطالة في تفنيد هذا الحديث - ولقد سبق ووفينا هذا الموضوع

حقه في كتابنا [تقرير علمي] الذي نشره مجمع البحوث الإسلامية ملحقًا بمجلة الأزهر - عدد ذي الحجة سنة 1430 هـ - ص 110 - 137 -.. ويكفي - هنا - أن نقول: إن معجزات المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ككل معجزات الأنبياء والمرسلين - هي آيات يظهرها الله على أيدي هؤلاء الأنبياء والمرسلين.. وأن معجزات المسيح مسبوقة في تاريخ النبوات - كما جاء في العهد القديم -.. كما أن خلق آدم هو أبلغ في الإعجاز من خلق المسيح.. ولقد تحدث القرآن عن معجزات المسيح، وبها يؤمن المسلمون، فلا منازعة فيها، وإنما المنازعة في زعم النصارى - تبعا للإنجيل الوحيد الذي ألهه المسيح - زعمهم حلول المسيح محل الله، والقول: «إنه خالق كل شيء، وبه كان كل شيء، وبدونه لم يكن شيء، وهو الألف والياء والبداية والنهاية والأول والآخر» - يوحنا: 1: 3 - ورؤيا يوحنا 1: 8، 12، 21: 6، 22: 13 -.

ولقد فتح كاتب هذا الكتاب - تبعًا لهذا الاعتقاد - باب الشرك - ص 127، 127 - عندما جعل خلق المسيح لما خلق من الطير ليس بقدرة الله، وإنما هو - كما قال -: «هو يخلق من الطين كهيئة الطير مثل ما خلق الله.. وهنا - [يمضي الكاتب ليقول] -: وهنا اتفق المسيح مع المولى عَزَّوَجَلَّ في الخلق»!.

يقول هذا في الوقت الذي يقول فيه إن من آيات الخلق لله عَزَّوَجَلَّ وحده ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الفرقان: 59].. ويستشهد بآية: ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 49]، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة: 110].

❋❋❋

- 6 -

ولا ينسى الكاتب، الذي يسعى لتوظيف القرآن - بالقسر والتدليس - كي يشهد للعقائد المسيحية - التي عدها القرآن كفرًا - مثل ألوهية المسيح - وقتله وصلبه - لا ينسى أن يضع للمسلمين «طعمًا»، لعله يفتح أمامهم باب القبول لمقاصده، فيقول - ص 130 -: «ولأن المسيح يعلم الغيب بشرنا برسول يأتي من بعده واسمه أحمد ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6].. ولو أن الكاتب كان موضوعيًّا وأمينًا مع قوله هذا، لقال إن البشارة بمحمد في الإنجيل - مثلها كمثل البشارة بعيسى في التوراة - هي وحي إلهي، وليست غيبًا علمه عيسى

أو مـوسى.. وأيضًـا، لصدق الكاتب بما جاء به محمد ﷺ من الحكـم بالكفر على الذين ألهوا المسـيح وسـاووا بينه وبين الله.. بل وجعلوه «خالق كل شيء، وبه كان كل شيء، وبدونه لم يكن شيء، فهو الألف والياء والبداية والنهاية والأول والآخر»!.

❋❋❋

- 7 -

❐ ومـع أن هذا التقرير لا يسـتقصي قضايا الخلاف مع كاتب هـذا الكتاب، وإنما يقف أمام القضايا الكبرى فقط.. فلقد آثرنا الإشـارة إلى إنكار الكاتب - ص 134، 135 - أن يكون الرسول ﷺ مرسلًا إلى الجن.. رغم الأدلة الشاهدة على إرساله إلى العالمين - العوالم المختلفة.. ورغم أن الجن الذين سـمعوا القرآن وآمنوا بالرسـالة الخاتمة قد حملوهـا إلى قومهم قائلين لهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الأحقـاف: 31].. فهـو ﷺ داع لهـم، ورسـول إليهـم، وإجابتهم دعوته واجبة عليهم..

❋❋❋

- 8 -

❐ ولأن هـدف هذا الكتاب هو تطويع القرآن ليشـهد لعقائد الإنجيل - وذلك بلي أعناق النصوص والتدليس في تفسيرها - فلقد ازدحم الكتاب - كذلك - بالخرافات الغريبة والعجيبة.. وعلى سبيل المثال - لا الحصر -:

❐ في ص 157 يقول إن سنة مجيء الله - المسيح - في ظلل من الغمام هي سنة 2029م!.

ثم يجري حسابات غير مفهومة ليقول إن مقارنة هذا التاريخ بالتاريخ الهجري يفرز فارقا قدره عشر سنوات.. وأن هذه العشر هي المرادة في الآية القرآنية: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: 142].

وأن هـذه العشرة هي رمز المسـيح.. وأن الأربعين هي الأيام التي صامها المسـيح!.. وهي الأيام التي مكثها على الأرض قبل الصعود!..

وأن العشرة الموجودة في القرآن تدل على السنة الهجرية التي يأتي فيها المسيح!!..

❐ كما يقول إن اسم المسيح عيسى ابن مريم قد ورد بالقرآن 33 مرة.. وهذا الرقم هو سنوات عمر المسيح! - [والصحيح أن اسم عيسى والمسيح قد وردا بالقرآن 36 مرة وليس 33 مرة] -!.

❐ كما يزعم أن آية: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 196] الهدي فيها هو الذبيحة - المسيح - والعشرة الكاملة هي رمز المجيء الثاني للمسيح!.

❐ كما يقول إن الساعة في آية: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [النحل: 77] هي ساعة حقيقية بتوقيت العالم الذي نعيشه!.

❐ وأن عدم معرفة موعد قيام الساعة هو تقصير من سكان الأرض.. وأن سنة قيام الساعة قد حددها الإنجيل - سنة 3504م - وهي توافق سنة 2971 هـ.. وأننا إذا جمعنا هذا الرقم [1 + 7 + 9 + 2 = 19] - وأن هذا الرقم [19] هو المراد في الآية: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 29]!!..

❐ ولا ينسى كاتب هذا الكاتب أن يبشرنا بتفرده بتعريف سكان الأرض علم الساعة، ولذلك فهو المراد بالآية: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]!!.

❋❋❋

- 9 -

إننا أمام كاتب بذل جهدًا خرافيًا لتطويع آيات القرآن الكريم كي تشهد للعقائد النصرانية المرفوضة إسلاميًّا.. وأمام مستويات غريبة من التدليس في تفسير الآيات القرآنية..

ويكفي أن نشير إلى أن الكاتب قد استشهد بآيات من القرآن في أكثر من ألف موضع من كتابه هذا - 10075 موضعًا!!.. بينما شواهده من العهد القديم قليلة.. ومن العهد الجديد أقل!!..

وكتابـه هـذا نموذج صارخ لدأب الباطـل و إصرار الزور على التدليس الذي يريد مسـخ حقائق القرآن وعقائد الإسلام.. بينما الكثيرون منا قد انصرفوا عن فرائض:

1- تبليغ الدعوة..

2- و إقامة الحجة..

3- و إزالة الشبهات..

الأمر الذي يسـتدعي كلمات الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم إني أشـكو أليك جلد الفاجر، وعجز الثقة!» - ولا حول ولا قوة إلا بالله..

□ أمـا الرأي في هذا الكتاب - المخطوط - الذي تقدم به كاتبه إلى الأزهر الشريف طالبا الرأي فيه... فهو:

السماح للمؤلف بنشر الجزء الذي يعرض فيه عقيدته - فهذا حقه شرعًا وقانونا - وهو الجزء الواقع بين ص 1 وص 66.

مع أخذ تعهد الكاتب بالامتناع عن نشر ما كتبه عن القرآن والإسلام - في هذا الكتاب - وهو الجزء الواقع ما بين ص 67 وص 228 - نهاية الكتاب - لأن نشره لهذا الجزء إنما يمثل تدليسًا يكون جريمة الازدراء للإسلام - الذي هو دين الدولة بنص الدستور..[1]

والله الموفق للصواب.

18 محرم 1435هـ/ 22 نومبر 2013م

(1) بعد مناقشة المجمع لهذا التقرير، قرر منع نشر كل الكتاب.

تقرير عن فحص كتاب

المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء

مؤلفه: جمال البنا

عنوان هذا الكتاب -[الذي نشرته دار الفكر الإسلامي - القاهرة 2002م]- يعبر عن مضمونه.. فهو يسوق الأدلة على أن القرآن الكريم هو الذي أنصف المرأة وحررها. وأن الرسول ﷺ قد وضع هذا الإنصاف القرآني للمرأة في الممارسة والتطبيق..

وفي الكتاب نماذج على هذه الحقيقة من نساء مجتمع النبوة والخلافة الراشدة في صدر الإسلام.

❐ ثم تحدث الكتاب عن انتكاس هذا الإنصاف الإسلامي للمرأة في التاريخ الإسلامي..

وتحدث عن دور الفقه - الذي عبر عن عصره أكثر من تعبيره عن القرآن في هذا التراجع والانتكاس..

ولقد أكد الكتاب على أن التحرير القرآني للمرأة قد جاء ضمن تحريره للإنسان - مطلق الإنسان..

❐ وفي الفصل الثاني - الذي خصصه الكاتب للإنجاز النبوي في تحرير المرأة وإنصافها جاء رد الكاتب على الشبهات الاستشراقية حول تعدد زوجات الرسول ﷺ..

❋ ❋ ❋

❐ لكن الكتاب يتبنى اتجاهًا مغاليًا في نقد تراثنا الفكري - من الفقه إلى التفسير - ويدعو إلى إسقاطه جميعه من الحسبان.. وذلك بدعوى أنه ابن عصره ولم يعد صالحًا للعصر الذي نعيش فيه..

وهو - في هذا السياق - يسلط الأضواء الشديدة على بعض الأحكام الفقهية الموجودة في الكتب التي تدرس بالمعاهد الأزهرية.. والتي تم اختيارها وانتقاؤها وحدها لتشوه صورة

الفقه الإسلامي في نظر القارئ المعاصر.. مع التغافل - في هذا الكتاب - عن الجوانب الأخرى في هذه الكتب.. الأمر الذي أفقد هذا العرض فضيلة التوازن والإنصاف..

و إذا كان نقد الموروث الفقهي، والدعوة إلى تطوير مناهج تدريسه، هو مما تسعه حرية الفكر، فإن المساحة التي خصصها الكتاب لهذا «النقد - الساخر».. وغيبة التوازن الذي يستدعي الإشارة للإيجابيات.. يجعل حسن النية - في هذا النقد - فريضة غائبة عن هذا الكتاب!..

❐ ولقد ذهب الكتاب - في سبيل إهالة التراب على تراثنا الفقهي - إلى تبني لون من الفكر السقيم.. فهو يريد أن يرفض شروط الفقهاء في عقد الزواج - مثل الولي والشهود والمهر... إلخ - فيستدل بما لا يشهد له.. يستدل بتزويج الرسول ﷺ رجلًا وامرأة - بعد أخذ رضاهما.. و يعقب فيقول: «إن هذا الحديث يضرب عرض الحائط بكل المقدسات التي يوردها الفقهاء، من ولي وشهود ومهر... إلخ».

مع أن هذا الحديث يشهد للفقهاء ولا يشهد ضدهم.. فهذا الزواج قد عقده الرسول ﷺ وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم - وليس في الحديث دليل على أن المرأة كان لها ولي من أهلها.. ولقد توفرت في هذه الزيجة شروط الشهود.. والإشهار.. بل والمهر - كما اعترف الكاتب بذلك!..

لكنها مماحكات الهجوم على فقهنا الإسلامي وفقهائنا - بتعميم و إطلاق - هي التي أوقعت الكاتب في هذا «الفكر» السقيم..

❋ ❋ ❋

❐ على أن السقطة الكبرى.. بل و«الجريمة الفكرية» التي حواها هذا الكتاب قد تمثلت في الصفحات التي خصصها الكاتب للحديث عن «الزي والحجاب» - للمرأة - ص 25 - 36.. ففيها يزعم الكاتب - ص 27 - أن الخمار ليس فرضًا تعبديًا، و إنما هو مجرد زي تقبله الإسلام وأقره فيما أقر من الزي النسائي الموروث عن المجتمع السابق على الإسلام..

ومع تسليم الكاتب بأن الإسلام قد أضاف إلى هذا الزي الموروث تغطية فتحة الصدر [يضربن بخمرهن على جيوبهن].. إلا أنه يدعي - ص 29 - **أن الآية «أقرت» الخمار ولم «تأمر» به.. وأن هذا الإقرار «عادة» وليس «عبادة».**

وهذا رأي غريب، يتجاهل «لام» الأمر في [وليضربن].. بل لقد أورد الكتاب النص القرآني محرفًا.. بدون «لام» الأمر!! - المفيدة للوجوب.. وضده الحرمة - الأمر الذي يمثل «تدليسًا» في التعامل مع نص القرآن الكريم..

❐ بل لقد تجاوز الكتاب كل الحدود المعقولة والمقبولة، عندما اعتبر كشف شعر المرأة وتعرية الذراعين. بل وكل ما عدا فتحة الصدر وإدناء الثوب مجرد عادة..

- لقد رأى الكاتب - ص 30، 31 - أن قضية زي المرأة واختلاطها بالرجال ليست قضية دينية قرآنية، وإنما هي «تقاليد وتشدد ومزاج تلبس بالدين»!..

- ورأى - ص 34 - أن قضية زي المرأة بأسرها ليست من ثوابت الدين، وإنما هي من الآداب التي تخضع للأعراف والعادات والتطورات!

- وصعد الكاتب على درب «الشذوذ الفكري» حتى زعم - ص 34 - أن القرآن لم يمنع صراحة إلا كشف الثديين!!..

❋❋❋

وإذا كان الكاتب - في هذا الكتاب وفي كتب أخرى - يرفض تراثنا الفقهي بتعميم وإطلاق - من ابن عباس وحتى الآن - بدعوى أنه ابن عصره.. فإن هذا الشذوذ الفكري الذي يرى أن القرآن لم يمنع صراحة إلا كشف الثديين من جسد المرأة.. هو لون من «ثقافة الدياثة.. والعهر.. والانحلال» الوافدة إلى بلادنا من خارج الحدود.. حدود الفطرة والعفة التي تعارف عليها الناس الأسوياء - من كل الشرائع والثقافات والحضارات -..

لذلك.. كان تداول هذا الكتاب شديد الضرر.. لما فيه من فتح الأبواب لثقافة الدياثة.. والعهر.. والانحلال.. والأخطر أنه يفتح هذه الأبواب باسم الإسلام والقرآن.

والله ولي التوفيق.. والهادي إلى الصواب

13 ربيع الأول 1429هـ - 21 مارس 2008م

تقرير عن فحص كتاب

الصراطات المستقيمة

مؤلفه: د. عبد الكريم سروش

مؤلف هذا الكتاب - د. عبد الكريم سروش - مفكر وفيلسوف عرفاني - إيراني - له مشروع فكري، مثير للجدل الكبير.. وله أنصار كثيرون.. وخصوم كثيرون.. سواء في داخل إيران، والمتحدثين بالفارسية، أو في خارج هذا الإطار.

وهو معارض للفكر الشيعي الآحادي النظرة، والمعادي للتعددية الدينية والمذهبية، ولنظرية ولاية الفقيه ونظامها.. وهو - لذلك - نصير للفكر الليبرالي..

وفي ثقافة الدكتور سروش وفلسفته تتجلى النزعة العرفانية الصوفية.. الإسلامية.. إلى جانب الإلمام الواسع بالفلسفات الغربية.

❐ ولأن هذا الكتاب - المتخصص والعميق - هو مجموعة من المقالات.. والمحاضرات.. والحوارات.. فإن فيه فوارق جوهرية بين المقالتين: **الأولى:** وعنوانها [قراءة في البلورالية - [أي التعددية] - الدينية]. **والثانية:** وعنوانها [الحقانية، العقلانية، والهداية] - فوارق جوهرية بين هاتين المقالتين، وبين المقالات والمحاضرات والحوارات الواردة في بقية الكتاب - من حيث الاتفاق أو الاختلاف مع المقولات الواردة في هذا الكتاب.

ففي المقالتين الأولى والثانية، يتجلى مذهب المؤلف - الذي سبق وعرضه في كتاب شهير له عنوان [نظرية القبض والبسط] - يتجلى مذهبه في التأويل للنصوص الدينية المقدسة - وهو مذهب قد أثار الكثير من الجدل في الأوساط الفكرية - بإيران وخارجها -.. كما تتجلى في هاتين المقالتين اللتين تستغرقان نحو نصف الكتاب - ص 16 - 150 - العديد من الآراء التي هي موضع خلاف مع المؤلف.. ومن هذه الآراء:

❐ قوله إنه ليس هناك صراط مستقيم واحد.. و إنما صراطات مستقيمة لا تحصى، بمعنى أن

التأويل فضاء بلا سقف، يجعل لكل قارئ قراءته الخاصة للنص الواحد.. ومن ثم فلكل قارئ صراطه المستقيم.. فليس هناك معنى واحد ثابت في النص - هو مراد صاحب النص - و إنما لكل قارئ أن يكون له المعنى الذي يراه، بصرف النظر عن مقاصد صاحب النص..

وهذا التأويل - المفتوح بلا حدود - ينطبق على النص الديني، الموحى به.. ومن هنا افتتح المؤلف مقدمته لهذا الكتاب بأبيات محيي الدين بن عربي [560 - 638هـ - 1165 - 1240م] التي يقول فيها:

قد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلًا كل صورة ... فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه أرسلت ديني وإيماني

أي أن الدين الحق، والصراط المستقيم، ليس واحدًا.. و إنما هو كل دين يتدين به أي متدين في هذا الوجود.. سماويًا كان أو غير سماوي!..

فليس هناك «دين حق» واحد.. و إنما هناك - كما يقول المؤلف ص 7 - «حقانية الأديان والمتدينين» جميعًا!.

❐ ومنذ البداية - في المقدمة ص 7، 8 - يحدد المؤلف نظريته وقناعته: فتعدد الأديان.. وتعدد المتدينين بهذه الأديان المتعددة، هو الطبيعي.. لأن التدين بغير الدين الذي يعتبره البعض حقًا، ليس ناتجًا عن «سوء الفهم، أو الانحراف إلى الباطل، أو اتباع الهوى والشهوات، أو سوء اختيار الإنسان، أو غلبة قوى الشيطان».

❐ وهو يرى أن هذه النظرية تقف في مقابل «الانحصارية الدينية» التي ترى أن الحقانية والهداية والسعادة تكمن في أتباع دين معين، وأن المخالفين والمنكرين لهذا الدين يتسمون بالعناد عن الحق.. وأن كثرة الأديان توصد باب السعادة أمام البشر وتحجب أنوار الهداية عنهم».

أي أن الحق والحقيقة ليس واحدًا.. والدين الحق ليس واحدًا.. و إنما هناك تعدد للحق والحقيقة وتعدد للدين الحق بقدر تعدد المتدينين بأي دين من الأديان.

❐ وللوهلة الأولى.. فإن نظرية المؤلف مرفوضة إسلاميًّا.. بل ومرفوضة من قبل كل المتدينين بالديانات الأخرى، الذين يعتبر كل منهم أن دينه هو الحق، دون غيره من الديانات، فالإسلام يقول «بوحدة الحقيقة»، مع تعدد سبل إدراك هذه الحقيقة الواحدة.. ومع نسبية ما يدرك كل إنسان منها..

كذلك يؤكد الإسلام على وحدة الدين الحق، مع نسبية التدين لدى كل متدين بهذا الدين الحق.

وأيضًا، يؤكد الإسلام على وحدة الشريعة الإسلامية، التي هي «وضع إلهي ثابت» مع تعدد الاجتهادات والمذاهب الفقهية - التي هي علم الفروع - في إطار ثوابت وقواعد هذه الشريعة الإلهية الواحدة..

وهكذا يرفض التصور الإسلامي - للدين والتدين - نظرية المؤلف - الدكتور عبد الكريم سروش - في تعددية الحق والحقيقة.. وتعددية الدين الحق.. وحقانية المتدينين بالديانات، التي يراها المؤلف كلها حقًا.

إن نظرية المؤلف - هذه - في التعددية، التي لا تجمعها ثوابت موحدة - والتي لا يحد فضاءاتها حد - لابد أن تقود - وهي تقود بالفعل - إلى «لا أدرية» تفترس الإيمان واليقين إزاء الدين الحق والحقيقة.. كما أنها تفقد سنة التدافع والتسابق على طريق الحق مبررها - وهي سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل -.

يضاف إلى ذلك، فساد هذه النظرية عند عرضها على معايير الاستدلال القرآني.. حيث الصراط المستقيم واحد، لا يتعدد.. وحيث التحذير من اتباع السبل.. وحيث «النور» واحد - لم يرد مثنى ولا جمعًا - في القرآن الكريم.. وحيث الطاغوت جمع ومتعدد - وليس واحدًا - في القرآن الكريم.

❐ ومن دلائل فساد هذه النظرية، قول صاحبها - ص 10 - بتكافؤ الأدلة - في واحدية الحق والدين الحق -.. وهو قول يفتح باب «العبثية الفكرية» ليبتلع كل ألوان اليقين في الدين.. وكل ألوان الاطمئنان - الذي هو غاية التدين بالدين -..

❐ و إذا جاز لتعددية الانفلات من أي ثوابت - التي تكرسها نظرية المؤلف - أن تكون «رد فعل جامح» للجمود المذهبي والأحكام الحدية في المذهب الشيعي - وهو المذهب الذي نشأ وعاش فيه المؤلف - فإن هذا «الفعل» و«رد الفعل» غير موجودين في الفضاء السني.. الذي عرف الوحدة في الثوابت.. وآمن بوحدة الشريعة - الصراط الواحد المستقيم - مع تعدد اجتهادات الفقهاء ومذاهبهم الفقهية.. بل إن اعتبار الأديان كلها حق هو انحياز للواحدية، وليس التعددية!..

❐ إن المؤلف - ص 11 - يعتبر «الحقانية مقترنة بالعقلانية»..

وهذا خطأ منهجي.. إذ الحقانية هي حكم الإله الحق.. والعقلانية تدرك نسبة من هذه الحقانية.. وليست هي مصدر الحقانية وسببها.

❐ وفي ص 15 يتحدث المؤلف عن «التعدد والتنوع في الثقافات والأديان واللغات والتجارب البشرية»..

و إذا كان حقًا تنوع الثقافات واللغات والتجارب البشرية.. فإن تعدد الأديان غير مسلم به، وغير صحيح.. فدين الله واحد - عبر كل الرسالات - والتعددية إنما جاءت في الشرائع، التي تميزت بها النبوات والرسالات.. ولم ترد هذه التعددية أبدًا في الأديان.

إن التعددية الاجتماعية حقيقة.. وتعددية الفكر الديني حقيقة.. لكن الدين والوحي الإلهي ليس «فكرًا» أثمره العقل حتى ترد التعددية فيه.. إنها ترد في فهم العقل له.. لكنها لا ترد في ذاته أبدًا.

❐ وللمؤلف - الدكتور عبد الكريم سروش - كتاب آخر، عرض فيه نظريته هذه - عنوانه: [نظرية القبض والبسط] - لكنه خلط فيه - كما خلط في هذا الكتاب - بين تنوع الفهم الديني - وهو حق - وبين تنوع الحقيقة الدينية - وهو باطل ومرفوض -.

❐ وفي ص 16، 17 يتبنى المؤلف النظرية الحداثية الغربية القائلة: **«إن النص صامت»**، وأن القارئ هو الذي ينطقه و يستنطقه بما يريد - وليس وفق مقصد صاحب النص - لأن هذه النظرية الحداثية في «الهيرمينوطيقا.. التأويل» قد قالت **«بموت المؤلف»**.. وجعلت من كل «قارئ» للنص «مؤلفًا».. وسحبت ذلك حتى على النصوص المقدسة!.

❐ وفي ص 28، 29 يرجع المؤلف اختلاف الأديان إلى اختلاف زوايا رؤية الأنبياء إلى الحقيقة الواحدة، وإلى تنوع التجلي الإلهي.. وليس إلى تحريف وقع في بعض هذه الأديان من قبل نفر من أهلها، أو اختلاف فيها ناسب ظروفًا اجتماعية معينة..

ومن ثم فليس هناك - برأي المؤلف - دين أفضل من الآخر، ولا ثقافة دينية أفضل من غيرها من الثقافات الدينية الأخرى.

❐ وكما يعيب المؤلف - ص 36 - على اليهودية ظلم الفلسطينيين.. ويعيب على المسيحية ظلم اليهود.. والاستعمار.. فإنه يقول: «إن الاسلام لا يخلو - بدوره - من شامة على خده، وهي معاقبة المجرمين في الكثير من الدول بعقوبات بشعة وغير إنسانية»!.

❐ وحيث يحكم القرآن بلعن اليهود، وطردهم هم والذين عبدوا المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من دون الله - طردهم من رحمة الله.. فإن مؤلف هذا الكتاب يقول - في ص 36 «بصعوبة قبول الحكم بالبعد عن رحمة الله في حق أتباع الأديان الأخرى»!.

❐ وفي ص 36 يقول المؤلف: «إن ظهور الحق في مظاهر مختلفة وتجليات متنوعة هو السر في اختلاف الأديان، وهو الدليل على حقانيتها بأجمعها».

❐ وكما استشهد - في بداية المقدمة - بابن عربي - الذي ساوى بين الأديان - بما فيها الوثنية! - نجده يستشهد بجلال الدين الرومي [604 - 672هـ - 1207 - 1273م] - في ص 38 - على المساواة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين فرعون!:

«وعندما تصل إلى مرتبة عديم الألوان.

فسوف تجد موسى متصالحا مع فرعون».

❐ وفي ص 41 يفسر المؤلف قول القرآن: [على صراط مستقيم] بمعنى أن كل واحد من الأنبياء يتحرك على أحد هذه الطرق والخطوط المستقيمة المتوازية، لا أن المقصود صراط مستقيم واحد.

❐ وفي ص 48، 49 يقول المؤلف: «إن ما يذكر في الكتب الدينية من عناوين «الكافر»

و«المؤمن»، هي مجرد عناوين فقهية دنيوية.. وهي تحرمنا عن رؤية باطن الأمور، وتسدل على بصيرتنا ستار الغفلة عن رؤية الحقيقة».

وهو يتجاهل هنا، أن عناوين «الكافر» و«المؤمن» هي وحي إلهي.. وليست اجتهادات فقهية دنيوية!..

❐ وفي ص 49 يتبنى المؤلف فكرة «الفصل بين الشريعة والحقيقة».

❐ ويذهب - في ص 52 - إلى القول بأنه «لا عقيدة المسلمين نقية من الشرك ولا عقيدة المسيحيين.. ولا يوجد حق صريح خالص من جهة، وباطل كثيف وخالص من جهة أخرى»!.

وفي هذا القول «لا أدرية» وخلط بين الحق الخالص في ذاته، وبين ما يلحقه من تصورات البعض له.

❐ وفي ص 54، 55 يفترض المؤلف أن عمر الرسول ﷺ لو طال أكثر مما هو لأصبح حجم القرآن أكبر مما هو موجود الآن!.. لأن نزول الوحي يتزامن مع الحوادث!..

وهو - بهذا - يتجاهل تمام الدين - ومن ثم الوحي - قبيل انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. وتمام الوحي بالقرآن المحفوظ في اللوح المحفوظ.. كما يفتح الباب لمن يدعي قصور القرآن عن الوفاء بمقتضيات الحوادث التي تلت - وتتوالى - بعد وفاة الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وفي هذا التجاهل غفلة عن حقيقة أن الذي يتحرك مع الحوادث ليس القرآن، وإنما هو الفقه لقواعد التشريع التي جاءت في القرآن الكريم.

❐ وتتكرر - في هذا الكتاب - العبارات التي تزكي «اللاأدرية».. من مثل قوله - ص 64 -: «فبما أننا لا نعلم يقينًا لمن الحق، ومن يكون رأيه مصيبا، فإننا نحترم الجميع»!.

❐ وفي ص 75، 77 يفسر المؤلف آية ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: 106] بأن «أكثر الموحدين هم مشركون، وأن إيمانهم ملوث بالشرك»!

مع أن سياق هذه الآية يجعلها واردة في المشركين، وليس في الموحدين.. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 105 - 108]..

فالحديث - هنا - عن المشركين الذين يظنون أنفسهم موحدين.. وليس عن الموحدين - الذين يدعي المؤلف «أن أكثرهم مشركون، وأن إيمانهم ملوث بالشرك».

❐ وفي ص 112، 113 يفسر المؤلف «حقانية الديانات المتعددة» بأن كل واحد منها كان حقًا في زمانه..

وهذا «منطق» يحتاج إلى مراجعة - لأنه يثير أسئلة من مثل:

- هل كان التثليث حقًا في زمان المسيح؟!.

- وهل كان تأليه المسيح حقًا في زمانه؟!.

- وهل كانت الأناجيل - المحرفة.. والمتناقضة - حقًا في زمان المسيح؟!.

- وهل كان الإله خاصًا ببني إسرائيل في زمان موسى؟!.

- وهل كانت صورة الإله في أسفار العهد القديم حقيقية في زمن موسى؟!.

- وهل كانت أسفار العهد القديم - التي دونها «عزرا - عزير» - في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد - أي بعد ثمانية قرون على وفاة موسى - هي التوراة التي نزلت على موسى؟!.

❐ وفي ص 115 يقول المؤلف: «إن أيًا من الأديان لم يكلف أتباعه بلزوم البحث في الأديان الأخرى واختبار صحتها وحقانيتها، واعتناق الدين الحق منها».

وهذه الدعوى - من المؤلف - غير صحيحة..

- ألم يدع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نقد اليهودية، كما آلت إليه، على عهده؟.. مع دعوته بني إسرائيل إلى تعاليمه وبشارته؟.

- وألم يقدم الإسلام انتقادات كثيرة لليهودية وللنصرانية، كما آلت إليه كل منهما في عصره.. مع دعوته اليهود والنصارى إلى الحقانية الإسلامية المختلفة عن الباطل الذي لحق باليهودية والنصرانية؟.

❐ وفي ص 116 يدعي المؤلف أن مختلف الأديان «جميعها على حق بمعنى متساو؛ لأن الجميع محقون في اختيارهم لهذا الدين أو ذاك»!.

وهذا «منطق» غير مسلم.. «فالاختيار» لا يحول الباطل - عند اختياره - إلى حق!.

❐ وفي ص 126 - 128 - أثناء الحوارات - تهرب المؤلف من الاعتراف بميزات لكتاب مقدس - على الكتب الأخرى - من حيث التدوين والتواتر والحفظ - وذلك ليسوي بين الكتب، كما ساوى بين الأديان -!.

❐ وفي ص 131، 132 لا يرى المؤلف ترجيح تجربة نبي على نبي آخر!.

❐ وفي ص 146 يتحدث - بشكل مطلق - عن «إبهام النص» الديني.. ويقول: «لا أحد في إمكانه إزالة الستار عن الإبهام والغموض الذاتي للنص.. ولا يمكن حصر المعنى في واحد إلا نادرا.. ولا أن يصل إلى المعنى الواقعي للنص؛ لأن المعنى الواقع لا وجود له، والمعاني الصحيحة متعددة.. فالنص ليس له معنى واحد بالضرورة.. إن الحق في عالم النص ليس بمعنى التطابق مع نية المؤلف».

وهنا، لا يميز المؤلف بين «المحكم» و«المتشابه» في النص القرآني.. ويتجاهل معنى مصطلح «النص» عند الأصوليين - وهو ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا -.. كما ينفي أن يكون المعنى المراد هو ما قصده صاحب النص - وتلك هي نظرية «موت المؤلف» التي اخترعتها الحداثة الغربية في «التأويل - الهيرمينوطيقا».. وهي مخالفة لقواعد التأويل الإسلامي.. سواء في الفلسفة الإسلامية - عند الغزالي [450 - 505هـ - 1058 - 1111م] أو ابن رشد [520 - 595هـ - 1126 - 1198م] أو في التفسير للقرآن الكريم.

❐ وفي ص 148 يقول المؤلف: «إن النص يعيش بالقوة، ولم تتحقق له الفعلية، وهذه القوة تقبل صورا ومعاني كثيرة متعددة»!.

الأمر الذي يجعلنا نتساءل:

- هل النصوص المحكمة في التوحيد لله تقبل صورًا ومعاني كثيرة؟!.

- وهل النصوص المحكمة في نبوة الرسول ﷺ تقبل صورة ومعاني كثيرة؟!.

- وهل النصوص المحكمة في وجود عالم للغيب والحساب والجزاء - مجمل الوجود - تقبل صورا ومعاني كثيرة؟!.

- وهل النصوص المحكمة في ضلال الكفار تحتمل صورًا ومعاني كثيرة؟!.

أم أن الصور والمعاني هي في نسبة المدرك من هذه الحقائق والمعاني المتعينة؟!.

تلك هي أهم الملاحظات على الأفكار السلبية التي جاءت في النصف الأول من كتاب الدكتور عبد الكريم سروش [الصراطات المستقيمة].. وهي الأفكار المثيرة للجدل في المشروع الفكري لهذا المفكر الإيراني الكبير.

❋ ❋ ❋

❐ وإذا كانت هذه الملاحظات واردة - على سبيل الجملة - في المقالتين - الأولى والثانية - من هذا الكتاب.. **فإن في بقية الكتاب من الفكر الخصب.. والعلم الغزير.. والروحانية العميقة.. والفلسفة العرفانية، الجامعة بين العقل والقلب، ما يقدم متعة فكرية غنية لقارئ هذا الجانب من الكتاب.**

وهنا تنشأ إشكالية الموازنة بين إيجابيات هذا الكتاب وبين سلبياته..

- إن نصفه الأول يحمل الكثير من الأفكار المرفوضة، والمثيرة للبلبلة..

- بينما يحمل نصفه الثاني - في جملته - متعة فكرية.. وروحانية محلقة.. يحتاجها العقل المسلم المعاصر بكل تأكيد.

تقرير عن فحص كتاب

الأصول المصرية لليهودية

مؤلفه: المستشار محمد سعيد العشماوي

تمهيد

❐ مؤلف هذا الكتاب - المستشار محمد سعيد العشماوي - قاض مصري سابق.

❐ وصاحب مشروع فكري قاربت كتبه العشرين كتابًا..

❐ وهو في مقدمة الكتاب العلمانيين - الذين ذهبوا على طريق الغلو العلماني إلى حيث تجاوزت أطروحاتهم ومجازفاتهم الفكرية الحدود.. بل وصادمت الكثير من ثوابت الإسلام - دينًا.. وقرآنًا.. ورسولًا.. وأمة.. وحضارة -..

وهو - المؤلف - وإن كان يشاركه آخرون في هذه المجازفات الفكرية.. إلا أنه كان أصرحهم، عندما أعلن ما يسره أو يواريه آخرون..

❐ وإذا كان من الضروري.. لإلقاء الضوء على الأفكار المحورية التي تضمنها كتابه - موضوع هذا التقرير - الإشارة إلى نماذج - مجرد نماذج - من المجازفات الفكرية التي تضمنها المشروع الفكري للمستشار العشماوي.. والتي أثارت الكثير من الجدل الحاد في أوساط الفكر الإسلامي على امتداد العقود الأربعة الماضية.. فإننا نشير إلى نصوص عباراته وصياغاته وأحكامه التي تناول بها عددًا من ثوابت الإسلام - المعلومة من الدين بالضرورة.. والتي أجمعت عليها الأمة - وذلك عندما قال:

❋ ❋ ❋

- 1 -

عن الإسلام.. ورسوله.. وصحابته:

«إن الإسلام - [في عهد الرسول، ﷺ] - قد تشكل في صيغة حربية عندما بدأت أول سرية للمسلمين على قوافل تجارة قريش - [في بدر سنة 2 هـ] -..

وأن الصحابة والمسلمين الأوائل كانوا يتسابقون في الاغتيالات إرضاء للرسول، ولم يميزوا بين النبوة والملك، فحجبوا عن مفهوم النبوة، وعزلوا عن صميم الرسالة..

وأنهم قد بدلوا صميم الإسلام، وغيروا روحه..

وإن المسلم ليحزن أن ينحدر المسلمون الأوائل إلى هذا المنقلب الذي غير من روح الإسلام وبدل من صميم الشريعة..

لقد صارت السلطة والغرض والورث والصدقة عقيدة غير العقيدة، ودينًا بدل الدين، وشريعة عوضًا عن الشريعة.. فطفح على وجه الإسلام كل صراع.. وبثر بثورًا غائرة، ونشر بقعًا خبيثة»!!.[1]

هكذا صور العشماوي الإسلام، على عهد رسول الله ﷺ.. وصور الصحابة الكرام!..

❋ ❋ ❋

- 2 -

وعن القرآن الكريم

قال المستشار العشماوي ما لم يقله المشركون - من أئمة الفصاحة والبلاغة - الذين ساقوا - في معارضته - مختلف الاتهامات.. قال عن جمع القرآن.. واجتماع الأمة على المصحف الإمام:

«إن هذا الجمع قد ضيع الإنسان المسلم، بعد أن ذوت جذوته وخمدت شعلة الحضارة،

(1) محمد سعيد العشماوي [الخلافة الإسلامية] ص 104، 113 - 115 طبعة القاهرة 1990م.

فدخل في طور الجمود والتقليد وعدم الاجتهاد؛ لأنه جعل منه إنسان النص لا المعنى، إنسان النقل لا العقل، إنسان الحرف لا الروح».[1]

كما ادعى وزعم:

«أنه لا زالت توجد في القرآن حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية»!!.[2]

❋❋❋

- 3 -

وعن عقيدة العصمة للرسول ﷺ

قال المستشار العشماوي:

«إن القرآن لم يعتبر الرسول معصومًا.. وإن فكرة العصمة دخلت الإسلام من الفكر المسيحي»![3]

مع أن عقيدة العصمة هي من العقائد التي أجمعت الأمة على كفر منكرها!..

❋❋❋

- 4 -

وعن رسول الله ﷺ

قال المستشار العشماوي ما لم يقله أحد - حتى من غير المسلمين -.. قال:

أ- «إن الرسول كان يحكم الناس بوثيقة شبه جاهلية، وليست إسلامية»!..

ب- «وأنه كان يقضي بين الناس بسنة العرب في الجاهلية»!..

---

(1) محمد سعيد العشماوي [حصاد العقل] ص 72، 73 طبعة القاهرة 1992م.

(2) [الخلافة الإسلامية] ص 148.

(3) محمد سعيد العشماوي [معالم الإسلام] ص 148 طبعة القاهرة 1989 م، و[أصول الشريعة] ص 143 طبعة القاهرة 1979م.

جـ- «وكان يفـرض عـلى الناس إتـاوات أو جزية أو خراجًا أو رشـوة يسـوءهم أداؤها، ويذلهم دفعها»!.[1]

❋❋❋

- 5 -

وعن أبي بكر الصديق والخلافة الراشدة

قال المستشار العشماوي ما لم يقله أحد حتى من أعداء الإسلام.. قال:

«إن أبا بكر قد خلط بين حقوق النبي وحقوق الحكام.. فحدث زيوغ في الخلافة، وحيود في الحكم، واغتصاب لحقوق النبي، وانتشـار للجشع والفساد، وظهور للقبلية والطائفية، ولقد اغتصب أبو بكر سلطات الرسول، وأكره المؤمنين على ما ليس من الإسلام في شيء.. وأنشأ دينًا جديدًا غير دين النبي»!.[2]

❋❋❋

- 6 -

وعن الأمة الإسلامية

حكم المستشار العشماوي بردتها عن الإسلام وارتدادها إلى الجاهلية بُعيَد وفاة الرسول ﷺ فقال:

«لقد ارتدت الأمة إلى صميم الشخصية الجاهلية بعد أقل من عشرين عامًا من وفاة النبي.. فأبيحت كل حرمة، وانتهكت كل قيمة، وزيفت كل المبادئ.. وذابت قيم الإسـلام السامية، وأمحت مثل القرآن العليا، وعاد المسـلمون القهقرى إلى أخلاقيات الجاهلية وسـلوكيات ما قبل الإسلام.. خلق جاهلي وتصرف جاهلي في شتى عصور الخلافة بعد عمر بن الخطاب»!.[3]

(1) [الخلافة الإسلامية] ص 80، 102، 86 - وانظر له - كذلك - [جوهر الإسلام] - ص 7، 8 طبعة القاهرة 1992م.
(2) [الخلافة الإسلامية] ص 102، 238، 50، 105.
(3) محمد سعيد العشماوي [الإسلام السياسي] ص 10 طبعة القاهرة 1989م.

- 7 -

وعن قواعد الشريعة الإسلامية

قال المستشار العشماوي: إنها قواعد تاريخية، طويت صفحتها وانعدمت حجيتها بمرور الزمن والتاريخ.. وبنص عباراته:

«فإن هذه القواعد قد أصبحت حكمًا تاريخيًّا، ليست له قوة ملزمة أو أي أثر فعال.. وإن أحكام المعاملات ليست دائمة، لكنها أحكام مؤقتة ومحلية، تنطبق في وقت محدد وفي مكان بعينه[1].

وإن آيات: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ **[النساء: 65]** و﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ **[النساء: 105].. هي - [برأي العشماوي] - تخاطب النبي وحده، وتختص به دون غيره»!.**[2]

❋ ❋ ❋

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى نماذج - مجرد نماذج - من المجازفات الفكرية الصارخة التي طالت وصادمت ثوابت الإسلام ومقدساته ومقوماته.. والتي امتلأت بها وطفحت كتب المستشار محمد سعيد العشماوي.. والتي أثارت - ولا تزال تثير - الجدل الحاد حول فكره، منذ سبعينيات القرن العشرين.. وحتى هذه اللحظات.[3]

❋ ❋ ❋

(1) [معالم الإسلام] ص 112.

(2) [الإسلام السياسي] ص 39.

(3) انظر في تفصيل ذلك كتابنا [سقوط الغلو العلماني] طبعة دار الشروق - القاهرة 1995م.

تقرير عن فحص كتاب

الأصول المصرية لليهودية

أما هذا الكتاب - موضوع هذا التقرير - فإذا نحن شئنا إيجاز وصف الفلسفة التي تحكمه، والمحور الذي يدور حوله، والرسالة التي يريد إبلاغها إلى القراء.. فإننا نستطيع أن نوجز ذلك في العبارة التي تقول:

«إن هذا الكتاب هو تكذيب للقرآن الكريم».

أما الأدلة على ذلك، فإننا نسوقها - بنصوص المؤلف - عندما نعرضها ونعرض أفكارها على آيات القرآن الكريم المحكمة.. قطعية الدلالة والثبوت..

ذلك أن هذا الكتاب - من بدايته إلى نهايته - هو تفسير مادي لتاريخ النبوات والرسالات.. فهو يقول إن التوحيد الديني - الذي عرفته الإنسانية عبر تاريخها - هو «إبداع مصري قديم.. وإلهام مصري» منذ عهد «أوزير» - إدريس -..

وأن كل الأنبياء والمرسلين الذين عاشوا في مصر، أو مروا بها، أو اتصلوا بأهلها، قد تعلموا هذا التوحيد من التراث المصري.. وليس هناك وحي سماوي جاء بهذا التوحيد وهذا الدين.. فالدين والتوحيد اختراع مصري، ووضع بشري.. وليس تنزيلًا سماويًّا..

وبنص عبارة المستشار العشماوي: «فإن الفكر المصري القديم هو الذي قدم الفتح الروحي للإنسانية، وهو الذي أسس الفهم الديني للبشرية.. فالمصريون القدماء أول من وصل إلى التوحيد، وعرف الله الواحد الأحد».[1]

وفي هذا الادعاء، يتجاهل المؤلف أن «إدريس» - الذي يعود إليه تاريخ التوحيد - في التراث المصري القديم - هو نبي ورسول، أوحى الله إليه بالتوحيد.. وهو ثالث الأنبياء - بعد

(1) [الأصول المصرية لليهودية] ص 89، 192. طبعة بيروت سنة 2004م.

آدم وشيث - كما جاء في [قصص الأنبياء][1] ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: 56]..

❋❋❋

ونحن إذا شئنا إلقاء الأضواء على الوقائع الشاهدة على شيوع هذا المنهاج المادي - المكذب للقرآن الكريم - في فصول هذا الكتاب وصفحاته.. فإننا نقدم هذه «الوقائع الشاهدة»!

- 1 -

يقرر القرآن الكريم أن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو من بني إسرائيل.. فيقول: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأنعام: 84]..

لكن هذا الكتاب - للمستشار العشماوي - ينكر هذه الحقيقة القرآنية.. ويقول إن موسى ليس من بني إسرائيل - أي ليس عبرانيًّا - وإنما هو ابن ابنة فرعون.. وحفيد الفرعون رمسيس الثاني [1290 - 1224ق.م].[2]

- 2 -

يحكي القرآن الكريم قصة مولد موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. وإلقائه في اليم.. والتقاط آل فرعون له.. وتتبع أخته لمسيرته.. وإرضاع أمه له.. فيقول:

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [القصص: 7 - 9]..

(1) انظر [قصص الأنبياء] للشيخ عبد الوهاب النجار.. طبعة بيروت.
(2) المرجع السابق: ص 85.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: 10 - 13]..

□ لكن كتاب المستشار العشماوي - هذا - ينكر هذه الحقائق القرآنية، معللًا إنكاره هذا أو تكذيبه «بمنطق» جغرافي!.. يقول فيه: إن العبرانيين - بني إسرائيل - كانوا يقيمون في «جاسان» - بشمالي مصر - بينما كان فرعون - وقصره وآله - في «طيبة» - الأقصر - بالجنوب.. الأمر الذي يجعل إلقاء موسى في اليم، ومسيرته فيه، وتتبع أخته له - من الشمال إلى الجنوب - أمرًا مستحيلًا..[1]

ويتجاهل الكاتب إمكانية وجود بعض الأسر العبرانية - ومنها أسرة موسى - ساكنة ومقيمة في الجنوب - قريبًا من قصر فرعون - أو أن يكون لفرعون قصر في الشمال، قريبًا من موطن سكن العبرانيين. الأمر الذي يجعل الرواية القرآنية صادقة بمعايير «العقل» و«النقل» جميعًا.

- 3 -

يقدم القرآن الكريم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واحدًا من الأنبياء والمرسلين.. وكليم الله.. وأن الله - سبحانه وتعالى - قد أيده بالمعجزات.. فيقول القرآن - ضمن ما يقول -:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: 7]..

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: 51]..

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ

(1) المرجع السابق: ص 85.

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: 144 - 145]..

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: 42 - 44]..

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات: 17 - 21]..

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: 96]..

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف: 104 - 108]..

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: 101]..

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: 117 - 122]..

□ لكن كتاب المستشار العشماوي - تبعًا للمنهاج المادي في تفسير تاريخ الدين والوحي والنبوات والرسالات - يكذب كل هذا القرآن.. وينكر نبوة موسى ورسالته.. ويراه وعقيدته ثمرة للفكر المصري.. كما ينكر معجزاته والبينات الإلهية التي جاء بها.. ويراه مجرد خبير قديم في السحر!!.. فهو - بنظره - كان ضليعا وعالما بالسحر!..

ويذهب - صاحب هذا الكتاب - إلى حيث يستشهد على مقالته هذه بقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [الشعراء: 49]..

متجاهلًا أن هذا القول هو قول فرعون - يحكيه القرآن الكريم - وليس الحقيقة

التي يقررها القرآن عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وبهذا يقع المستشار العشماوي في صميم التدليس![1].

❐ وتبعًا للتفسير المادي للنبوات والرسالات والتوحيد، وعموم الدين.. ينفي هذا الكتاب حدوث المعجزات.. ينفي شق البحر وفلقه لموسى.. وينكر مرور موسى ومن معه بمم مائي أصلًا - خليج السويس -.. ويزعم أن الرحلة - الخروج - كانت شمالًا.. في الصحراء الشرقية.. ثم شرقًا في سيناء.. كما يزعم أن فلق البحر كان قد قام به كاهن مصري - اسمه «تشاتشا» - قبل عصر موسى!.. والغريب أن يقر المستشار العشماوي فلق البحر للكاهن «تشاتشا»، بينما ينفيه كمعجزة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟[2]

❐ كما ينكر صاحب هذا الكتاب أن يكون خروج بني إسرائيل من مصر قد صحبته أية معجزات، ويقول: «إن الخروج لم يحدث بعجائب وشدائد»![3].

وفي هذا الإنكار - العشماوي - تكذيب للمعجزات التي تحدث عنها القرآن الكريم: فلق البحر - ونتق الجبل، وهلاك فرعون - ونجاة بدنه - وإنزال المن والسلوى... إلخ... إلخ.

❐ وتبعا لإنكار هذا الكتاب للوحي والنبوات والرسالات والمعجزات.. وإرجاعه الدين والتوحيد إلى الإبداع المصري والإلهام المصري، يقول عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

«إنه عاش في عصر رمسيس الثاني، وتأثر بذات الفكر الذي تأثر به جده رمسيس، فنقل الكثير منه إلى اليهودية.. وأن الفكر المصري القديم تضمن كل الأفكار والمفاهيم والنظريات والكلمات والعبارات التي وردت في الفكر الديني عامة، وفي اليهودية خاصة»

كما يقول: «إن موسى نقل كثيرًا من عناصر اليهودية عن مصر، وعن إخناتون بالذات»[4].

(1) المرجع السابق. ص 74، 140.
(2) المرجع السابق. ص 104.
(3) المرجع السابق. ص 206.
(4) المرجع السابق. ص 257.

❐ كـما يزعم أن المنظومـة القانونية - والوصايا العشر - في التـوراة.. والتي تبناها القرآن الكريم ليسـت وحيا إلهيا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ و إنما هي مأخوذة مـن قانون «حمورابي» [1792 - 1750 ق.م][1].

وهكذا يرجع المستشـار عشماوي «الدين» - وليس التراث الديني - إلى العبقرية البشرية المصرية.. عندما ينفي حدوث الوحي والنبوة والرسـالة عن الأنبياء والمرسلين.. وعندما يرجع التوحيد إلى الاختراع المصري، وليس إلى وحي السماء!..

- 4 -

ولقد تحدث القرآن الكريم عن التيه الذي كتبه الله على بني إسرائيل - في سـيناء - أربعين سنة.. أما هذا الكتاب فيكذب ذلك وينفيه![2]

- 5 -

ويتحدث القرآن الكريم عن قتل موسى مواطنا مصريا، قبل بعثته.. فيقول:

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: 15، 16].

❐ أما كتاب المستشـار العشماوي فيكذب حدوث ذلك الذي تحدث عنه القرآن الكريم![3]

- 6 -

ولقد تحدث القرآن الكريم عن أن موسى وهارون - عليهما السـلام - قد طلبا من فرعون السماح بخروج بني إسرائيل من مصر:

(1) المرجع السابق: ص 150.
(2) المرجع السابق. ص 99، 139.
(3) المرجع السابق. ص 106.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: 105].

❐ وعلى عكس ما جاء به القرآن الكريم يدعي هذا الكتاب أن الأمر كان إخراجا لبني إسرائيل من مصر - وليس خروجا - فيقول: إن فرعون أراد إخراج بني إسرائيل من مصر لإسكانهم في أرض كنعان، لحماية مصر من هجمات الهكسوس.. وأن موسى - القائد في جيش فرعون - قد نفذ هذه المهمة، رغم إرادة بني إسرائيل![1]

- 7 -

ويتحدث القرآن الكريم عن المعجزات التي أظهرها الله - سبحانه وتعالى - على يدي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إبان رحلة الخروج.. ومنها:

أ- فلق البحر..

ب- ونجاة بني إسرائيل..

جـ- وإغراق فرعون وملئه..

د- ونتق الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة..

هـ- وتظليل الغمام لهم..

و- وإنزال المن والسلوى عليهم..

ز- وانبثاق الماء من الحجر اثنتا عشرة عينا..

يتحدث القرآن الكريم عن هذه المعجزات، فيقول - ضمن ما يقول -:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: 50].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ

(1) المرجع السابق. ص 96 - 98، 101، 104.

﴿ ٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء: 60 - 66]..

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 90]..

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ [النساء: 154]..

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 57]..

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: 60]..

❐ لكن هذا الكتاب - [الأصول المصرية لليهودية] - يكذب كل هذا الحديث القرآني عن كل هذه المعجزات.. وينفي أن يكون هناك ممر مائي أصلًا في طريق الخروج.. ويدعي أن الخروج إنما كان إلى جهة الشمال - في صحراء مصر الشرقية - ولم يكن إلى الشرق - عبر خليج السويس -.. ثم اتجه الموكب - بعد ذلك - شرقًا في سيناء!.[1]

- 8 -

ولقد تحدث القرآن الكريم عن هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باعتباره نبيًا ورسولًا.. وباعتباره وزير موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وأخاه في النسب - أي أنه مثل موسى من بني إسرائيل - فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: 48]..

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [المؤمنون: 45، 46]..

(1) المرجع السابق. ص 104.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: 25 - 36]..

□ لكن المستشار العشماوي - في كتابه هذا - ينكر كل ذلك.. ينكر ما جاء به القرآن عن نبوة هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورسالته.. ويدعي أنه مجرد كاهن مصري - لا عبراني -.. كما ينكر أخوة هارون لموسى في النسب.. ويراها مجرد أخوة دينية، باعتبارهما مصريين، على ديانة المصريين![1]

- 9 -

وفيما يتعلق بأبي الأنبياء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يتحدث القرآن الكريم عن أنه:

أ- نبي ورسول، جاءه الوحي من الله:

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: 36، 37].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: 18، 19]..

ب- وأن توحيده إنما كان توحيدًا خالصًا لله رب العالمين فاطر السموات والأرض:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل: 120]..

﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 79]..

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء: 125]..

﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 75 - 77]..

(1) المرجع السابق. ص 127، 128.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 131]..

جـ- كما يتحدث القرآن الكريم عن الرحلة الحجازية لإبراهيم و إسماعيل وهاجر - عليهم السلام -.. وعن إقامته - هو و إسماعيل - قواعد البيت الحرام.. فيقول:

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: 125]..

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 127]..

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: 26]..

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ ﴾ [آل عمران: 96، 97]..

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37]..

❐ أما هذا الكتاب - للمستشار العشماوي - فإنه يكذب القرآن في جميع ذلك..

أ- فيرد التوحيد عند أبي الأنبياء إلى الفكر المصري.. وليس إلى الوحي الإلهي!..

ب- ويدعي أن هذا التوحيد - عند أبي الأنبياء - لم يكن توحيدًا خالصًا لرب العالمين.. و إنما كان - في مذهب العشماوي - توحيدًا منقوصًا.. فإله إبراهيم - كما زعم العشماوي - كان خاصًا به وحده!..

جـ- وعندما يفترض العشماوي أن إله إبراهيم كان هو رب العالمين.. وأن توحيده كان خالصًا.. فإنه يرجع هذا التوحيد الخالص إلى الفكر المصري.. وليس إلى الوحي الإلهي!..[1]

(1) المرجع السابق. ص 90.

د- كذلك ينحاز العشـماوي إلى الرأي التوراتي القائل إن اتجاه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رحلته إلى الجنوب إنما كان إلى «بئر سبع».. وليس إلى الحجاز.. أي أنه يكذب القرآن الكريم، وينكر رحلة إبراهيم و إسماعيل وهاجر إلى الحجاز، و إقامتهم قواعد البيت الحرام.. ومن ثم ينكر - بالتبعية - التأسيس الإبراهيمي - في ملته - لمناسك الحج والعمرة!..[1]

- 10 -

ولقد تحدث القرآن الكريم عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، باعتباره نبيًا ورسولًا.. فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: 6]..

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: 101]..

❐ أما هذا الكتاب، فإن يوسف في نظره ليس نبيًا ولا رسولًا.. و إنما «تعلم في معبد أون - بمصر.. وآمن بالتوحيد كتراث مصري قديم.. وتعلم علوم مصر - الحكمة.. والحساب.. والفلك.. والهندسة.. والري - وليس هناك وحي ولا نبوة ولا رسالة![2]

- 11 -

ولقد تحدث القرآن الكريم عن داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باعتباره نبيًا ورسولًا «جاءه الوحي الإلهي.. وأنزل الله عليه الزبور.. فقال - ضمن ما قال -:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: 163]..

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: 55]..

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: 15]..

(1) المرجع السابق. ص 45.
(2) المرجع السابق. ص 24.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: 20]..

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: 17]..

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78، 79]..

❐ أما هذا الكتاب، فإنه يتجاهل كل ذلك.. ويكتفي باتهام نبي الله داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالشذوذ الجنسي!.. ويقول إنه كان يمارس هذا الشذوذ مع «يوناثان» بن شاول![1]

- 12 -

ولقد جاء الحديث - في القرآن الكريم - عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كنبي ورسول من أنبياء الله ورسله.. فقالت آياته:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ [النساء: 163]..

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: 15]..

❐ أما هذا الكتاب - وتبعًا للتفسير المادي، الذي ينكر الوحي والنبوة والرسالة - فإنه يرى أن سليمان قد أخذ أفكاره من الكهنة المصريين![2]

- 13 -

وكذلك الحال مع عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتحدث عنه القرآن الكريم باعتباره نبيًا ورسولًا.. فيقول:

(1) المرجع السابق. ص 195، 196.
(2) المرجع السابق. ص 187.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87]..

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: 27]..

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 48، 49]..

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 171]..

❐ أما هذا الكتاب - وتبعًا للتفسير المادي الذي ينكر الوحي والنبوة والرسالة والإعجاز.. فإنه يقول - عن المسيح -: إنه عاش بمصر حتى سن الثانية عشرة.. ثم تردد عليها قبل بشارته.. وتردد على معبد أون الشهير، للتعرف أو التعليم.. أي أنه - هو الآخر - تلميذ وثمرة للفكر المصري![1]

- 14 -

ولقد نفى القرآن الكريم دعاوى صلب المسيح وقتله.. فقال:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 156 - 158]..

❐ أما هذا الكتاب.. فإنه يكذب القرآن الكريم.. ويقول: إن المسيح قد صلب.. وأعدم.. ونفذ فيه حكم الإعدام على الصليب![2]

(1) المرجع السابق. ص 290.
(2) المرجع السابق. ص 293.

- 15 -

ولقد قطع القرآن الكريم بتحريف اليهود لتوراة موسى - تحريفًا لفظيًّا.. وأيضًا في التفسيرات والتأويلات - فقال:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]..

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 78، 79]..

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 23، 24]..

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]..

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ﴾ [النساء: 46]..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 13]..

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ [المائدة: 41]..

❐ أما هذا الكتاب - [الأصول المصرية لليهودية] للمستشار محمد سعيد العشماوي - فإنه يدعي أن القرآن لم يقل بتحريف النص التوراتي ذاته.. ويقول:

«ومـا جاء في القـرآن عن التحريف.. لا يعني تغيير النص التوراتي، وإنما يفيد لي معناه إلى ما يرغبون، وصرف مبناه إلى ما يشتهون»[1].

وعـلاوة على مخالفة هـذا الزعم لصريح القـرآن.. ولإجماع علماء الأمة، الذيـن قالوا بأن التحريـف قد وقع لألفاظ التوراة ولتفسـيراتها معًا.. ومن هؤلاء العلـماء الإمام الفخر الرازي [544 - 606 هـ - 1150 - 1209م] - الذي قال في التفسير الكبير [مفاتيح الغيب] -:

لقد اسـتخدم القرآن - في سورة النسـاء - تعبير [يحرفون الكلم عن مواضعه].. واستخدم في سـورة المائـدة تعبير [من بعـد مواضعه] ببيان التحريـف بالتأويلات [يحرفـون الكلم عن مواضعه] والتحريف للألفاظ [من بعد مواضعه]..

«ومعناه: أنهم يذكرون التأويلات الفاسـدة لتلك النصوص - [آية سـورة النساء] -.. وأما الآيـة المذكورة في سـورة المائدة [مـن بعد مواضعه] فهـي دالة على أنهم جمعـوا بين الأمرين، فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظ أيضًا من الكتاب، فقوله: [يحرفون الكلـم] إشـارة إلى التأويـل الباطل، وقوله: [مـن بعد مواضعه] إشـارة إلى إخـراج اللفظ عن الكتاب..»[2].

❐ وبعد أن أنكر المستشار العشماوي ما جاء بالقرآن عن تحريف اليهود لألفاظ التوراة.. عاد فناقض نفسـه عندما اعترف بأن أسـفار العهد القديم - التوراة - قد كتبها الحاخام اليهودي «عـزرا» بن حلقيا - عزيـر - في منتصف القرن الخامس قبل الميـلاد - أي بعد ثمانية قرون من عصر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت فيها الثقافة اليهودية تراثًا شفهيًّا غير مدون.. وقال العشماوي:

«لقد كتبت أهم أسـفار التوراة من الذاكرة الفردية والشـعبية بكل ما فيها من تداخلات ومخالطات، أو مـن أوراق متناثرة.. وحاول الكتاب أن يوفقوا فيما بينها أو يلفقوا بين روايات متناقضة»[3].

(1) المرجع السابق. ص 148، 149.
(2) الرازي [مفاتيح الغيب] جـ 9 ص 121، 122. طبعة القاهرة سنة 1985م.
(3) [الأصول المصرية لليهودية] ص 184.

❐ لكن.. ومع الاعتراف بالتداخلات.. والمخالطات.. والتلفيق الذي حدث في تدوين أسفار العهد القديم.. فلقد ظل العشماوي حريصًا على تكذيب القرآن فيما ذكره عن هذا التحريف!!..

❋ ❋ ❋

هكذا تكرست كل فصول هذا الكتاب وصفحاته لتبني المنهاج المادي في تفسير الدين والوحي والنبوات والرسالات..

فأرجع الدين والتوحيد إلى العبقرية المصرية والإلهام المصري القديم - أي جعله وضعًا بشريًّا -.. مكذبًا - على نحو مباشر أو غير مباشر - كل ما جاء في القرآن الكريم عن قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب..

❐ ومن الغريب - والعجيب - أن هذا المنهاج المادي في تفسير التاريخ والنبوات والرسالات والوحي والدين والمعجزات، قد سقط في البلاد التي ظهر فيها، وظهر عواره في الحضارات التي أبدعته.. ومع ذلك يظل المتغربون والماديون في بلادنا متعلقين بجبال ذلك المنهاج، بعد أن أصبحت أو هي من خيوط العنكبوت!..

لذلك.. فإن الرأي حيال هذا الكتاب هو:

أولا: نشر هذا الرد والتفنيد لمقولاته، ملحقًا بمجلة [الأزهر]، لكشف ما فيه من فكر ضال وخبيث، يمثل تكذيبًا للوحي القرآني المعصوم.. وازدراء لما يؤمن به أصحاب الديانات السماوية الثلاث، حيال الأنبياء والنبوات والرسالات.

ثانيًا: بما أن هذا الكتاب مطبوع خارج مصر، فلا داعي للسماح باستيراده وتداوله بمصر.. إذ ليس من الحكمة استيراد «مفسدات الإيمان الديني» الذي هو مقوم أساسي من مقومات المجتمع الذي نعيش فيه.. بحكم الواقع.. ونص الدستور..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق.

5 ربيع الثاني 1430هـ - 1 إبريل سنة 2009م

❋ ❋ ❋

تقرير عن فحص كتاب

أهل الدين والديمقراطية

مؤلفه: سيد القمني

هذا الكتاب - في الأصل - مقالات نشرها صاحبها في مجلة «روز اليوسف».

وفي المقدمة القصيرة التي كتبها الكاتب لهذا الكتاب إعلان صريح عن جوهر فكره، الذي يستفز به عقائد الأمة، ويتحدى به الأفكار والمشاعر والشعائر التي يقدسها ويحترمها المسلمون.. يعلن - في هذه المقدمة - أن هدفه هو:

«نقد وتفنيد الثوابت والمسلمات الإسلامية» وينكر وجود «إسلام وحيد أحد مطلق الصحة ومطلق السلطان..» بل ويصل إلى إعلان التمرد حتى على الله - سبحانه وتعالى - فيقول: «سنفرض وجودنا وشروطنا.. ونرسم المستقبل بأيدينا، ولن يرسمه لنا بعد ذلك أحد كان في الأرض أو في السماء»!! ص 9، 10 - من الكتاب -

فحتى الواحد الأحد في السماء، سيفرض عليه «سيد القمني» الوجود والشروط!!

وإذا كان هذا الإعلان هو قمة الاستفزاز لكل ما يؤمن به المسلمون - بل والمتدينون بأي دين من الأديان - حتى ليذكرنا هذا «الاستفزاز» بالرسالة الشيطانية، التي حملها الشيطان، والتي تحدث عنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: 64].. فإن هذا الاستفزاز يكاد أن يلخص كل مضامين المقالات - الخمسة والأربعين - المنشورة في صفحات هذا الكتاب.

فإنكار الثوابت.. والهجوم على علماء الإسلام القائمين على حراسة هذه الثوابت -وخصوصًا علماء الأزهر الشريف -.. وتجريح المشاعر الإسلامية.. والسخرية من كل ما تحترمه الأمة.. هي المحاور التي تدور حولها صفحات هذا الكتاب.

❐ وهذا «الفكر» - المستفز لمشاعر الأمة.. والباعث على ردود الأفعال السلبية.. ومنها العنف العشوائي والأعمى -.. ليس جديدًا على صاحب هذا الكتاب.. فلقد سبق له نشر عدد من الكتب - منها: [الحزب الهاشمي] و[حروب دولة الرسول] و[رب هذا الزمان] - أنكر فيها الوجود التاريخي لعدد من الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم - برأيه - لم يتحدث عنهم المؤرخون القدماء، ولم يرد لهم ذكر في النقوش والحفريات الأثرية!!.. فالوحي الإلهي - عند صاحب هذا «الفكر» - ليس مصدرًا للعلم والمعرفة.. وإنما المصدر هو كتب التاريخ ونقوش الآثار والحفريات!! وفي هذه الكتب دعى «سيد القمني» إلى أن يمنح المصريون ولاءهم لفرعون.. ضد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!.. ففرعون مصري مثلهم.. أما موسى فمن بني إسرائيل!!.. فالمصرية هي معيار الولاء والبراء.. وليس التوحيد أو الإشراك بالله!!

كما اختزل «القمني» دين الإسلام، ورسالة محمد ﷺ في المشروع السياسي لبناء دولة قريش.. فزعم أن «رسالة» محمد لم تتجاوز بناء الدولة، التي حلم بها جده عبد المطلب.. والتي لم تمكن الظروف عبد المطلب من إنجازها.. فجاء الحفيد ليحقق حلم الجد.. فقط لا غير.. ومن ثم، فتلك هي كل «القصة».. ولا وحي - إذن - ولا نبوة ولا رسالة ولا دينًا هو الإسلام الذي ختم الله به رسالات السماء إلى الأنبياء والمرسلين!!..

❐ ولقد سبق وكتبت ردود علمية على هذه «الأفكار» نهض بها كتاب قاموا بفريضة التفنيد لمزاعم «سيد القمني».. منها ما كتبه الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض - الأستاذ بآداب عين شمس -.. والأستاذ منصور أبو شافعي، في [مركسة الإسلام] و[مركسة التاريخ النبوي].. حيث كشفوا العوار الفكري وانعدام الأمانة في التعامل مع المصادر والافتقار إلى الاستقامة الفكرية في هذا الذي كتبه «سيد القمني».. ولقد صمت القمني - يومئذ - فلم يحر جوابًا، ولم يستطع عليهم ردًا..

هذا إلى مقالات عديدة نشرت ضمن السجالات الفكرية مع صاحب هذا «الفكر» - في مصر وخارجها -.

❐ وإذا كان هذا هو مبلغ «الشذوذ الفكري» لصاحب هذا الكتاب - [أهل الدين والديمقراطية] - فإن الشذوذ الأكبر قد تجلى في إقدام مجلة قومية، تشرف عليها الدولة - مجلة

«روز اليوسف» - على نشر هذا الفكر على الأمة المسلمة.. وقيام وزارة الشباب بتوزيع هذه المجلة على أندية الشباب في مدن مصر وقراها!!..

❐ بل لقد اتضح وانكشف - عقب التغييرات الأخيرة لأسماء رؤساء مجالس إدارات الصحف والمجلات القومية - أن الرئيس السابق لمجلس إدارة روز اليوسف - محمد عبد المنعم - هو الذي كان يفرض على مجلة «روز اليوسف» نشر مقالات «سيد القمني»، رغم أنف مجلس تحرير المجلة!! ولقد أعلن هذه الحقيقة الرئيس الجديد لمجلس إدارة «روز اليوسف» - كرم جبر - في مجلة «القاهرة» - ضمن «الملف» الذي نشرته عن سيد القمني - في مايو سنة 2005م..

وعندما امتنعت «روز اليوسف» - في عهدها الجديد - عن نشر مقالات «القمني»، وسدت أبواب النشر الصحفي في وجهه، زين له مكره أن يتقمص دور «شهيد الحرية الفكرية»، فأعلن - في يوم الأربعاء 4 مايو سنة 2005م - أنه قد كف عن الكتابة.. وتاب عن «الكفريات» التي سبق له نشرها على الناس.. معللا ذلك التوقف وتلك التوبة بما وصله من تهديد إرهابي لحياته إذا لم يتب ويتبرأ من هذه «الكفريات»!.. وبنص عباراته - في هذا «الإعلان»:

«إنني أعلن براءة صريحة من كل ما سبق وكتبته.. أعلن توبتي وبراءتي من كل الكفريات التي كتبتها بمجلة روز اليوسف، براءة تامة صادقة يؤكدها عزمي على اعتزال الكتابة نهائيًا..»
- [صحيفة «القاهرة» في 10 مايو سنة 2005م] -..

وهكذا أراد «القمني» أن يحول الإفلاس إلى «ضجة» تكسبه العطف والإشفاق.. وبالفعل كتب البعض متعاطفين معه، ومدافعين عنه.. بينما كتب أصدقاؤه - من غلاة المنافقين والزنادقة.. الذين يسمون أنفسهم: «الليبراليون الجدد» - مهاجمين جبنه، ومتهمين إياه بالفرار من ساحة التصدي للإسلام ولثوابت الأمة الإسلامية!!.. ولقد أصدرت صحيفة «القاهرة» - التي تصدرها وزارة الثقافة المصرية - «ملفا» استغرق معظم صفحاتها، دفاعًا عن سيد القمني، واستنكارا «لتوبته»!! التي أعلنها - كما قال - تحت التهديد.. فجاءت مثل توبة فرعون بعد فوات الأوان!..

تلك هي خلاصة أفكار هذا الكتاب - [أهل الدين والديمقراطية] -.. وتلك هي قصة صاحبه.. وهذا هو المصير البائس الذي انتهى إليه:

❐ لقد أعلن موت نفسه ككاتب - مع بقاء الجانب الحيواني منه في هذه الدنيا -!..

❐ وحكم بالإعدام على ما خطه قلمه عبر السنوات التي حمل فيها القلم.. فدخلت «أفكاره» القبر قبل أن تحضره الوفاة!..

ولعلها أغرب قصة لصاحب قلم، أن ينتهي هذه النهاية البائسة التي انتهى إليها «سيد القمني»..

وإذا كان «الضرب في الميت حرام» - كما يقول المثل الشعبي -.. فإن إعارة الاهتمام - أي اهتمام - لمثل هذا الميت، سيصب في المحاولات العبثية لبعث مثل هذا الصنف من الأموات..

لقد لقي «الرجل» جزاء ما خطه قلمه.. فليكن الإهمال هو الموقف الذي نوصي به إزاء مثل هذا الغثاء..[1]

وصدق الله العظيم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17]..

والله ولي التوفيق

3 شعبان 1426هـ - 7 سبتمبر 2005م

❋❋❋

(1) نشرت هذا الكتاب دار مصر المحروسة - القاهرة 2005م.

تقرير عن فحص كتاب

أقلية معزولة: القصة الحديثة لأقباط مصر

مؤلفه: المستشرق الأمريكي إدوارد ويكن

مترجمه: نجيب وهبة

مؤلف هذا الكتاب - كما جاء على غلافه - هو المستشرق الأمريكي إدوارد ويكن.

وبالفحص في موسوعات الاستشراق والمستشرقين لم أجد ذكرا لمستشرق بهذا الاسم - الأمر الذي يرجح أن المؤلف «سائح أمريكي».. وليس من علماء الاستشراق!

أما المترجم لهذا الكتاب، فهو نجيب وهبة.. قبطي كان مفتشًا للغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم - بمصر -..

❐ وأهم من اسم المؤلف والمترجم، هو الناشر - الذي أوعز بالترجمة.. وتخير الكتاب.. وقام بالنشر - وهو «هيئة الدراسات القبطية - بنيوجرسي - بالولايات المتحدة الأمريكية - **وهي إحدى مؤسسات أقباط المهجر، التي تعمل بالتعاون مع «اللوبي» الصهيوني، واليمين الديني في أمريكا - والدائبة النشاط في تزكية التعصب الطائفي - بمصر - والهجوم على العروبة والإسلام.**

❐ والطابع الشائع في كل فصول هذا الكتاب وصفحاته هو:

- السموم العنصرية والطائفية التي تريد تفجير الوحدة الوطنية والقومية والحضارية لمصر..

- والأكاذيب التي تخدم هذا الهدف الخبيث.

- والتناقضات الشاهدة على المقاصد الخبيثة التي وقفت وراء كتابة هذا الكتاب.. وترجمته.. ونشره.

وعلى سبيل المثال:

1- يتهم الكتاب كلًا من المسيحيين والمسلمين المصريين بما يشينهم.. فيقول ص 7: إن المسيحيين نهبوا المعابد الوثنية.. وأن المسلمين قتلوا المسيحيين!.

2- وفي ص 8 يزعم **أن الأقباط هم «المصريون الحقيقيون»**.. وفي ذات الوقت يناقض ذلك الزعم عندما **يعترف بأن 80 % من المسلمين المصريين هم مصريون أصلاء، من نسل الأقباط، تحولوا إلى الإسلام منذ قرون مضت.**

3- وفي الوقت الذي يتهم فيه الإسلام بالتعصب.. ويتهم المسلمين بالسعي للقضاء على الأقلية القبطية.. يعترف - ص 10 - **«بأن الإيمان المسيحي قد ظل متغلبًا بمصر لبضعة قرون بعد الفتح»** - الذي يسميه «غزوا» -.. - الأمر الذي ينفي تعصب الإسلام، وسعي المسلمين للقضاء على المسيحيين -.

4- وفي الوقت الذي كرس فيه المؤلف كتابه للانتصار للأقلية القبطية.. نراه - ص 17 - قد اتهمها في وطنيتها، عندما قال **«إنها مالت إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882م»**!.. وفي ذات الصفحة يفتري على الزعيم الوطني أحمد عرابي باشا، عندما يقول: إنه أعلن أن وضع الأقباط في مراكز السلطة قد عرض الإسلام للمخاطر..

وهو يتجاهل حقيقة أن برلمان الثورة العرابية - المجلس العرفي - قد ضم بطرك الأقباط وحاخام اليهود المصريين!.

ثم.. لو كان الأقباط - كما قال الكتاب - قد مالوا للاحتلال الانجليزي - فهل يلام عرابي إذا اتخذ موقفا سلبيا من الذين مالوا للاحتلال؟!..

5- وفي الكتاب «جلافة» وسوء أدب في التعبير عن الإسلام ورموزه ومؤسساته.. ومن نماذج ذلك، حديثه - ص 20 - عن رسول الإسلام ﷺ وقوله: **«إن شخصية محمد هي التي تقف حائلًا بين المسلمين والمسيحيين»** - متجاهلًا اعتراف الإسلام ورسوله بالمسيحية.. وتكريمه للمسيح وأمه، وكل الأنبياء والمرسلين -..

ومن نماذج تلك «الجلافة» - أيضًا - وصفه - ص 77 - القرآن الكريم **«بالوثيقة التي خلفها محمد، المحيرة، وغير الواضحة، والمتناقضة غالبا»**!

وكذلك حديثه - ص 76 - عن الأزهر الشريف، وقوله: **«إنه طالما وجد الأزهر فسيكون هناك التعصب دائمًا»**!

واتهامه طلاب الأزهر **«بأنهم يعملون على تكثيف شبح التعصب الإسلامي الذي يرزح تحت نيره غير المسلمين»**!

ولقد بلغت الفجاجة حد الهجوم على الأزهر؛ لأنه - كما يقول المؤلف - **«اعترض على تعديل صيام رمضان، الذي - [برأي المؤلف] - يشل حركة العمل، ويعطل الإنتاج، الأمر الذي يسد الطريق أمام أي تعصير أو تجديد»**!.

6- ولقد بلغت العنصرية المقيتة بمؤلف هذا الكتاب الحد الذي وصف فيه الأقباط - ص 23، 28 - بأنهم **«الصفوة.. والمواطنون الممتازون عن بقية السكان بالذكاء والولاء والجدارة بالاحترام.. وأن القبطي هو أحسن الأشخاص»**!

أما المسلمون المصريون، فهم - بنظر المؤلف - ص 24 - «**اللصوص.. وتجار المخدرات.. والمتعاطون لها.. والمتاجرون بأعراضهم»**!

7- ويزعم الكتاب - ص 46 - أن المسلمين يقاطعون حوانيت الأقباط!.

8- كما يشكك الكتاب - ص 25، 26 - في الإحصاءات الرسمية لعدد الأقباط، زاعمًا أنهم سدس السكان.. بينما هذه الإحصاءات الرسمية قد أجراها الإنجليز - بمصر - كل عشر سنوات - منذ سنة 1882م -.. وكان الموظفون الأقباط هم الذين يشرفون على القيام بها - ولقد شهدت المصادر الأجنبية المحايدة بصدق هذه الإحصاءات الرسمية، وجاء بكتاب [أطلس معلومات العالم العربي] - الصادر عن المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية - بباريس - والذي كتبه «فيليب فارج» و«رفيق البستاني» أن نسبة الأقباط - بمصر - هي 5.8 % من السكان، انظر طبعة هذا الكتاب - بدار المستقبل العربي - القاهرة سنة 1993م -.

9- وهذا الكتاب يحرض على الفتنة.. وعلى العنف الطائفي، وذلك عندما يدعو - ص 121 - **«الرهبان الأقباط إلى التحول عن السماويات إلى الأرضيات، ويدعو إلى الراهب**

البطـل الذي يتحدى الأغلبية المسـلمة والنظام الحاكم.. الراهب الشـهيد المشـارك في حملة صليبية»!

و ينـسى المؤلف أنه، بدعوته هـذه للرهبان - إنما يدعو للانقلاب على المسـيحية - التي تدع مـا لقيصر لقيصر -.. والانقلاب على الرهبنة التي تعـني موت الراهب عن الدنيا وكل ما فيها!..

10- والكتاب يصور الأقباط - ص 138 - **«كأمة قبطية داخل الأمة المصرية» لها «حكم ذاتي، تمثلـه المجالس الملية»، تاركة «الخارجية والدفـاع للحكومة المصرية»**! وهي صورة - لو صحت - لنسفت الوحدة الوطنية المصرية من أساسها.. ولأججت الصراع الطائفي في مصر.

11- ورغـم أن الكتاب قد كتب سـنة 1963م - عندمـا كان الإخوان المسـلمون يقبعون في غياهب السـجون منذ عشر سـنوات.. فإنه دائم التخو يـف للأقباط من الإخوان المسلمين.

12- ولأن الكتاب قد كتب لتأجيج الصراع الطائفي بمصر.. فلقد تحدث - ص 165 - **«عن المواجهة التي لا مفر منها بين الأقلية القبطية والأغلبية المسلمة بمصر»**.

13- ولأن تحقير الإسـلام ورموزه هو أحد المقاصد مـن وراء تأليف هذا الكتاب - وترجمته ونشره من ثم - فلقد اتهم القبطي الذي أنصف الإسلام ورسوله.. د. نظمي لوقا - صاحب كتاب [محمد: الرسالة والرسـول] - بأنه «خائن»!.. وهاجم الدولة المصرية لاحتفائها بهذا الكتاب، وجعله ضمن مقررات مدارس وزارة التربية والتعليم سنة 1961م.

❋❋❋

هكـذا امتلأ هـذا الكتاب - الذي تعاون على تأليفه وترجمته ونـشره - الأمر يكان وأقباط المهجر - امتلأ بالسموم.. والأكاذيب.. والتناقضات.

ولـو كان هذا الكتاب منشـورًا بمصر، لوجب الرد على ما جاء به من أكاذيب وسـموم.. ونشر هذا الرد بمصر - تحصينًا لعقول القراء - مسيحيين ومسلمين ضد ما فيه من الأكاذيب..

ولكن.. لأنه منشور خارج مصر - في نيوجرسي - بأمريكا - فإن التوصية هي: منع استيراد هذا الكتاب وتداوله بمصر.. إذ لا يليق بأي مجتمع رشيد استيراد السموم والأكاذيب المفسدة لعقلية المجتمع وثقافته ووحدته الوطنية.

والله ولي التوفيق.

25 رجب 1430هـ - 18 يوليو 2009م

❋ ❋ ❋

تقرير عن فحص كتاب (مخطوط)

مفهوم الإسلام بين الآبائية والقرآن

مؤلفه: نيازي عز الدين

❐ مؤلف هذا الكتاب - كما يتضح من ثنايا بعض صفحاته - سوري - من هضبة الجولان - يحمل الجنسية الأمريكية.. ويعيش الآن في أمريكا.. ولقد تخرج من الكلية الحربية بمصر - إبان الوحدة المصرية السورية - وكان ضمن الجيش السوري الذي انهزم - في الجولان - سنة 1967م.. ولقد رغب في الاستقالة من الجيش، لكن لم تتحقق رغبته هذه إلا بعد حرب 1973م.. ولقد هاجر أهله من الجولان - التي احتلها الإسرائيليون ثانية سنة 1973م - إلى أمريكا، فلحق بهم، حيث يعيش هناك.. وحيث تفرغ للكتابة في الإسلام..

وهو يذكر - في ص 10 - أنه قد كان ملحدًا.. ثم عاد إلى الإيمان.

❐ وهذا الكتاب - المخطوط - موضوع التقرير - هو الكتاب السادس للمؤلف، في سلسلة نشر منها خمسة كتب، هي:

1- [إنذار من السماء] - طبعته دار الأهالي - دمشق سنة 1996م.

2- [دين السلطان] - طبعته دار الأهالي - دمشق سنة 1997م.

3- [دين الرحمن] - طبعته دار الأهالي - دمشق سنة 1998م.

4- [ما هو النسيء] - طبعته دار الأهالي - دمشق سنة 1999م.

5- [الحقيقة] - طبعته دار الأهالي - دمشق سنة 2000م.

ودار الأهالي هذه هي دار يسارية في سوريا ولبنان.

❐ ومصطلح «الآبائية» - في عنوان الكتاب.. وثناياه - هو البديل - المفضل عند الكاتب - لمصطلح «السلفية» - الذين - برأيه - يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم بدلاً من الحق..

❐ ومن الأفكار المحورية الشائعة في كل فصول الكتاب، تقسيمه آيات القرآن إلى:

1- متشابهات - وهي - عنده - التي لها صفة الديمومة والإعمال.

2- ومحكمات - وهي - عنده - ذات صبغة تاريخية مرتبطة مباشرة بعصر الرسالة وحده.. ولا عمل لها ولا إعمال بعد عصر الرسالة..

والسورة الوحيدة المحكمة بكاملها في القرآن - برأي الكاتب - هي سورة التوبة.. لأنها السورة التي ذكر فيها القتال - والذي لم يعد له مكان بعد عصر الرسالة..

كما يرى أن كل الآيات التي ذكر فيها القتال - في غير التوبة - أيضًا - آيات محكمات.. انتهى عصر إعمالها بانتهاء عصر الرسالة.. ومثلها كذلك - في الإحكام والتاريخية - كل آيات الخطاب للرسول ﷺ ولأهل عصره.. وبنص عباراته - ص 88، 89:

«فليس لها صفة الإطلاق تطبيقيًّا.. بل قد أوقف الله حكمها التطبيقي بعصر الرسالة.. وحكمها اليوم أن تبقى في القرآن كآيات منسية لا فعالية لها إلا الاتعاظ وللعبرة التاريخية..».

«والوحي المحكم.. لم يعد ملزمًا للمؤمنين أو المسلمين الذين أتوا بعد عصر الرسالة».

❐ كما يرى - الكاتب - ص 88 - أن الأمر بمحبة الرسول ﷺ في هذه السورة المحكمة - التوبة - **«خاص للذين عاصروا الرسول من المؤمنين» أما الذين يحبون الرسول - بعد موته - فهم كالذين ألهوا بوذا.. وكالنصارى الذين ألهوا المسيح..**

❐ كما يرى - ص 90 - **أن «أوامر الله التي أتت فيها طاعة الله مقترنة مع طاعة رسوله، تكون كلها من الآيات المحكمات التي توقف فعلها بعد موت الرسول.. الأمر الذي يجعل حب الرسول وطاعته - بعد موته - شركاء،** لذلك **علينا اجتناب مثل تلك الطاعة والحب».**

❐ وانطلاقًا من رأي الكاتب هذا في «المحكم».. وتاريخيته - يريد الكاتب - ص 90، 91 - نسيان آيات القتال في القرآن، بدعوى أن بقاء إعمالها بعد عصر نزولها يعد كارثة على المسلمين.. ويقول - ص 22 - **«إن الرسول قد أوقف عمل الآيات المحكمات بعد حجة الوداع مباشرة».**

❐ وفضلًا عن غرابة وشذوذ هذا المعنى الذي فسر به الكاتب معنى الآيات المحكمات.. فإنه يتجاهل أن آيات القتال إنما نزلت في المقاتلين للمسلمين - الذين فتنوا المسلمين في دينهم وأخرجوهم من ديارهم - ومن ثم فإنها دائمة العمل والإعمال إزاء كل من يبادرون المسلمين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار..

❐ كما يشذ الكاتب في اعتباره أن الآيات المتشابهات هي التي عليها المعول بعد عصر الرسالة.. مع اجتماع الأمة على أن المتشابهات مرجعها إلى المحكمات، التي هي أم الكتاب..

❐ كذلك، يريد الكاتب طي صفحة السنة النبوية كلها، معتبرًا إياها - ص 6 - ذات صفة تاريخية.. وذلك دون اعتبار للتمييز الذي قرره العلماء بين:

1- السنة التشريعية - التي هي جزء من الرسالة وبيان لها..

2- والسنة غير التشريعية - كسنة العادة.. والقضاء.. والإمامة - السياسة.

ويذهب الكاتب - ص 11 إلى اعتبار الإيمان بالسنة «إشراكات خفية بالله وبكتابه»

وضمن هجومه الدائم على السنة يهاجم الصحابي أبو هريرة والدولة الأُموية والدولة العباسية..

❐ والكاتب يطعن في إيمان أغلب المسلمين - منذ نهاية العصر الراشد وحتى الآن - ويرى - ص 8 - «إن أغلب من يدعون الإسلام اليوم قد هجروا القرآن، وعشقوا كتبا أخرى لا خير فيها ولا علم.. ومنها الكتب الملقبة بالصحاح»..

❐ كما يرى - ص 11 - «إن كثيرًا من المسلمين.. مع إيمانهم بالله العظيم، مازال أغلبهم يستصعب الإيمان بإمكانية البعث والحياة الثانية بعد الموت، كما لا يزال يشك ويستبعد إمكانية اللقاء بربه الكريم من جديد»

وهي أحكام - على أغلب المسلمين - لا علاقة لها بالصدق والواقع.. بل كأنها تتحدث عن مسلمين لا يعرفهم إلا الكاتب وحده!..

❐ وفي هجوم الكتاب على السنة النبوية وكل علوم الحضارة الإسلامية.. يحمل الكاتب السنة والتراث أسباب تخلف المسلمين وهزائمهم.. متناسيًا:

أن الحضارة الإسلامية - التي تعلمت منها الدنيا - قد بنيت في ظلال السنة..

وأن الانتصارات على الصليبيين والتتار قد حدثت في ظلال السنة..

وأن فتح القسطنطينية قد تم تحت رايات السنة..

وأن علوم الحضارة الإسلامية قد قامت على القرآن والسنة..

وأن هزيمة الغزوة الغربية الحديثة - ودفن إمبراطورياتها الاستعمارية - قد أنجزها المدافعون عن السنة..

الأمر الذي يفقد الكاتب والكتاب أي منطق في الهجوم على السنة والتراث، وتحميلهما وزر الهزائم التي أصابت الكاتب في هضبة الجولان!..

❐ وهو يعتبر علماء الأمة - على مر تاريخها - فقهاء للسلاطين وعملاء للطواغيت، دونما دقة أو إنصاف في قراءة تاريخ العلماء في حضارتنا وتاريخنا.

❐ والكاتب - انطلاقا من رأيه الشاذ في معنى المحكم - يعتبر - ص 92، 93 - الآية [يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] - يعتبرها آية محكمة.. انتهى زمن إعمالها.. ويرى أن المشركين اليوم يجوز لهم «أن يدخلوا مساجد المسلمين» وأن يحجوا إلى المسجد الحرام، وهم مشركون؛ لأنهم من الناس [ولله على الناس حج البيت]..

وهو لا يدرك لا سياق الآية.. ولا معنى العهد في أداة التعريف - «أل» -..

❐ وإمعانا في إهالة التراب على الأمة وحضارتها وتاريخها.. يرى الكاتب - ص 97 - «أن زمام الدين بعد عصر الراشدين قد أصبح بيد شياطين الإنس الذين في قلوبهم مرض، فبدئوا بتطبيق المحكم الذي كان موجهًا لعصر الرسول، وهجروا عن قصد الآيات المتشابهات التي خصها الله لعصر ما بعد الوحي»..

❐ وانطلاقًا من هذا الشذوذ الفكري - في التعامل مع القرآن.. وفي رفض السنة جملة وتفصيلا - يرى الكاتب - ص 104، 105 - أن الصلوات المفروضة والمكتوبة هي فقط أربعة:

الفجر والمغرب والعشاء والجمعة.. وكل منها ركعتان فقط.. أما الظهر والعصر فهي - عنده - نوافل كالتروايح والعيدين والجنازة والاستسقاء.. سنها الرسول ولم يفرضها الله..

❐ والكاتب - ص 106 - يتبنى عقيدة الخطيئة النصرانية، ويقول: «إن الإنس قد تدنسوا أصلًا بخطيئة أبيهم آدم قبل أن يتدنسوا بخطاياهم».

❐ كما يدعو - ص 266، 267 - إلى اجتناب مساجد المسلمين، وذلك عندما يقول إن الطاغوت هو الحاكم الظالم.. واجتناب هذا الطاغوت لا يتحقق «إلا إذا ترك الإنسان مساجد الطاغوت حيث لا يوجد فيها إلا كهانه وعيون زبانيته، حتى ولو اضطر أن يصلي وحده في العراء».

❐ وفي الوقت الذي يبيح فيه الكاتب الردة، ويقول - ص 3 - إن من حق أي إنسان أن يرتد عن دينه إن اعتقد أنه وجد دينا آخر أفضل منه.. يحكم بالشرك الحقيقي على أغلب المسلمين.. فيقول - ص 274 - «إن أغلبنا في حالة إشراك حقيقية.. يعبدون الطاغوت وهم يظنون أنهم إنما يعبدون الله».

❐ وفي ص 274 يسلم الكاتب بأن الرسول ﷺ هو آخر الأنبياء المتلقين عن السماء للوحي الخاتم - القرآن - لكنه - بنظره - ليس آخر الرسل.. «المؤهلين إيمانيًا وعلميًا من الراغبين في أداء مهمة تبليغ رسالة الله تعالى الأخيرة: القرآن».

❐ وفي خاتمة الكتاب.. يعيد الكاتب تأكيد الحكم بالضلال المبين على الأمة منذ نهاية العصر الراشد وحتى الآن.. فيقول:

«إن أول عهد المؤمنين الحقيقيين وآخرهم في تاريخ المسلمين كان عهد الراشدين، ومن بعدهم وإلى اليوم نحن كأمة في ضلال مبين»..

❋ ❋ ❋

هكذا شاعت الفواحش الفكرية في جميع فصول هذا الكتاب - المخطوط - تلك الفواحش التي تكفي واحدة منها لجعل أي كتاب من الكتب طامة كبرى على الإسلام والمسلمين..

وبما أن هذا الكتاب - الذي كان فحصه قطعة من العذاب الفكري - لا يزال مخطوطًا.. أي أن فحصه من قبل المجمع - إنما يتغيا إجازة نشره.. فإنني أوصي برفض الموافقة على طبعه، حماية للعقل المسلم من هذه الكوارث الفكرية التي شاعت في فصول هذا الكتاب المخطوط..

والله ولي التوفيق

18/ 2/ 2008م

❋ ❋ ❋

القدس الشريف

القدس الشريف

القدس - في الرؤية الإسلامية - ليست مجرد أرض محتلة، ومدينة مغتصبة.. وإنما هي - مع ذلك وفوقه وقبله وبعده - جزء من العقيدة الدينية الإسلامية - فضلًا عن الحضارة والتاريخ.. ذلك لأنها حرم مقدس، ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكي عندما تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1]..

فهي - في الدين والعقيدة - أولى القبلتين.. وثالث الحرمين.. وحرمها مع الحرم المكي والحرم المدني يمثلون المساجد الثلاثة التي تنفرد بشد الرحال للصلاة فيها.. ورباطها المقدس مع الحرم المكي هو الرمز المجسد لعقيدة وحدة الدين الإلهي الواحد، عندما ارتبطت القبلة الخاتمة - الحرم المكي - بقبلة النبوات السابقة - الحرم القدسي الشريف..

ولقد تجلت هذه المكانة المقدسة للحرم القدسي الشريف عندما عاملها المسلمون - على مر التاريخ - معاملة «الحرم»، الذي لا يجوز فيه القتال.. فالحرم المدني فُتح بالقرآن.. والحرم المكي فتح سلمًا، حتى لقد دخله الرسول الفاتح ﷺ يوم الفتح الأكبر - ساجدًا على راحلته، شكرًا لله.. والحرم القدسي حرص المسلمون على فتحه سلمًا وصلحًا، وجاء فتسلم مفاتيحه الراشد الثاني الفاروق عمر بن الخطاب [40ق.هـ - 23هـ - 584 - 644م]. ولقد سار على هذه السنة صلاح الدين الأيوبي [533 - 589هـ - 1137 - 1193م] عندما استردها من الصليبيين [583هـ - 1187م] بعدما يقرب من تسعين عامًا، احتكروها فيه وانتهكوا حرمتها وقدسيتها..

❐ ولقد كانت القدس الشريف - على مر تاريخ الصراع بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامي - **هي رمز هذا الصراع.. وهي بوابة الانتصارات..** حتى لقد لخص الشاعر العماد

الكاتب [519 - 597هـ - 1125 - 1201م] هذه الحقيقة من حقائق استراتيجية هذا الصراع، عندما قال لصلاح الدين الأيوبي:

وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق

هو البيت، إن تفتحه، والله فاعل ... فما بعده باب من الشام مغلق

❐ ولقد حرص المسلمون - عندما حرروا القدس [15هـ - 636م] من الاستعمار الروماني. الذي دام عشرة قرون - على أن يكون اسمها عنوانًا على قداستها وقدسيتها، فسموها «القدس» و«القدس الشريف» و«الحرم القدسي الشريف».. كما حرصوا - بحكم إسلامهم، الذي تفرد بالاعتراف بالآخرين - عقائدهم ومقدساتهم - على إشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات.. فجعلوها حرمًا مقدسًا وقدسيًا لكل أصحاب الديانات السماوية، **حتى لقد كانت السلطة الإسلامية هي الضمان لمصلحة الجميع، فلم تحتكرها للإسلام، كما احتكرها الرومان لوثنيتهم - عندما كانوا وثنيين - ولمذهبهم النصراني - عندما تنصروا.. - وكما احتكرها الصليبيون الكاثوليك - إبان الاحتلال الصليبي - .. وكما يحتكرها اليهود ويهودونها هذه الأيام..**

❐❐❐

وكما كانت العقيدة الإسلامية - التي تفردت وتميزت وامتازت بالاعتراف بالآخرين.. وبحماية مقدساتهم - انطلاقًا من تعهد رسول الله ﷺ للنصارى - في عهده مع نصارى نجران سنة 10هـ 631م - بحمايتهم وحماية مقدساتهم:

«وأن أحمي جانبهم وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبِيَعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا.. وأن أحرس ملتهم ودينهم، أين كانوا.. بما أحفظ به نفسي وخاصتي، وأهل الإسلام من ملتي»[1].

ومن ثم أشاع الإسلام والمسلمون قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات.

(1) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص 123، 124. تحقيق: د. محمد حميد الله الحيدر آبادي - طبعة القاهرة سنة 1956م.

فلقد كانت الأساطير النصرانية الغربية واليهودية هي المنطلق لغزو القدس. ولاحتكارها - بالإبادة والمجازر التي تقشعر منها الأبدان..

❐ فأساطير التعصب الصليبي هي التي دفعت البابا الذهبي «أوربان الثاني» [1088 - 1099م] لتغليف الأطماع الاستعمارية بالأساطير اللاهوتية.. فخطب في أمراء الإقطاع الأوروبيين - بمدينة «كليرمونت» بجنوبي فرنسا - سنة 1095م. مفتتحًا قرنين من الحروب الصليبية [489 - 690هـ - 1096 - 1291م] ضد الإسلام وأمته وحضارته.. فقال:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا..! لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هي.. في حق الله عينه.. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء..

فاتخذوا محجة القبر المقدس. وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم أملكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلًا.. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًا..

اذهبوا وحاربوا البربر - [يقصد المسلمين!] - لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية - [أي مفاتيح الجنة التي صنعها البابا!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدايكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسمًا وميراثًا.

وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانًا. من حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا، فاغسلوها بدم غير المؤمنين»[1]!!

وعندما اقتحمت الجيوش الصليبية - يومئذ - مدينة القدس [492هـ - 1099م] أبادوا جميع من بها من المسلمين - ومعهم اليهود - بالقتل والذبح والحرق.. حتى الذين احتموا بمسجد عمر -

(1) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول ص 12 - 14 - ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة 1865م.

مسجد قبة الصخرة - ذبحهم الصليبيون في المسجد.. حتى تحول المسجد إلى بحر من الدماء!.. وبعبارة صاحب [حرب الصليب]:

«فإن الصليبيين - خيّالة ومشاة - قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.. حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لجم الخيل!

ولما حل المساء اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك - [!!] - بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر - [!!] - إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها ورددوا الصلوات!!.. ثم كتبوا إلى البابا فقالوا له: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهي تسبح في دماء الكفار - [أي المسلمين]!»[1].

وحتى كبار رجال الدين، شاركوا في المذبحة.. ليتقربوا إلى ربهم بذبح المسلمين!.. ولقد نقلت المستشرقة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكة [1913 - 1999م] عن المؤرخ الأوروبي «ميشائيل درسيرر».

«كيف كان البطريرك نفسه يعدو في أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهًا يقضي» - [المزمور 58: 10 - 11] - ثم أخذ في أداء القداس قائلًا: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضي الرب»!![2].

هكذا بدأت الأساطير النصرانية الغربية حول القدس.. وهكذا وضعها الصليبيون في الممارسة والتطبيق..

---

(1) المصدر السابق، المجلد الأول ص 172 - 175.

(2) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص 25 - 34. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة دار الشروق القاهرة سنة 1995م.

❐ وهذه الأساطير النصرانية الغربية هي التي دفعت «كريستوفر كولمبس» [1451 - 1506م] - بعد هزيمة الحملات الصليبية في الشرق.. وعقب نجاح الصليبيين في إسقاط غرناطة في يناير سنة 1492م - إلى أن يسعى إلى القيام بغزوة صليبية جديدة، يعيد بها اختطاف القدس من الإسلام والمسلمين. فكتب إلى ملكي إسبانيا «فرديناند» [1479 - 1516م] و«إيزابيلا» [1474 - 1504م] يقول:

«إن هدفه هو العثور على الذهب بكميات كبيرة، حتى يتسنى للملكين أن يفتحا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات.. فقد أعلنت لسموكما أن كل المغانم التي سيدرها مشروعي هذا سوف تنفق على فتح القدس. وقد ابتسمتما - يا صاحبي الجلالة - وقلتما: إن ذلك يسركما..»[1].

وفي رسالة ثانية تحدث «كولمبس» إلى ملكي إسبانيا عن أن هدف حياته ومشاريعه ورحلاته هو تجهيز حملة صليبية لإعادة القدس إلى الكنيسة الكاثوليكية.. فقال:

«لقد مكثت في بلاطكم سبعة أعوام مناقشًا هذا الأمر مع العديد من الرجال.. ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل.. لقد قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين..

لقد ذكر الكاردينال «بيير» الكثير عن نهاية المسلمين، كما أن الأب «يواقيم الفيوري» قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا.. فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية»[2]!

تلك هي الأساطير النصرانية الغربية - حول القدس - كما آمن بها «كرستوفر كولمبس» - الذي لا نزال ندرسه لأبنائنا في المدارس باعتباره من عظماء المستكشفين الجغرافيين!!

(1) صحيفة [الأهرام] في 28 - 4 - 2004م مقال [أول إسرائيل آخر أمريكا] لأحمد عبد المعطي حجازي.
(2) د. حاتم الطحاوي [وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العربي] - الكويت - العدد 532 - مارس سنة 2003م ص 62 - 67..

❐ ولقد أدخلت البروتستانتية «البعد اليهودي» إلى هذه الأساطير - المحركة لاختطاف القدس وفلسطين - وذلك عندما أصدر «مارتن لوثر» [1483 - 1546م] سنة 1523م كتابه [المسيح يهوديًا] وقال فيه:

«إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف والغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها»[1]!

ولقد أدخلت البروتستانتية إلى صميم العقيدة المسيحية ثلاثة مبادئ - هي ثلاث أساطير - دمجت البعد اليهودي في البعد النصراني إزاء قضية القدس وفلسطين.. وهذه «المبادئ - الأساطير» هي:

أولًا: أن اليهود هم أبناء الله وشعبه المختار.

وثانيًا: أن ثمة ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين.

وثالثًا: ربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح بقيام دولة صهيون.

وهذه «المبادئ - الأساطير» هي التي أثمرت تيار «المسيحية - الصهيونية» في الحضارة الغربية.. ذلك التيار الذي استغلته الحركة الصهيونية في شراكتها مع الإمبريالية الغربية.. والذي قال عنه «بنيامين نتنياهو» - عندما كان سفيرًا للكيان الصهيوني بالأمم المتحدة - في خطابه أمام الجمعية العامة - في فبراير سنة 1985م -:

«إن كتابات المسيحيين الصهيونيين - من الإنجليز والأمريكان - أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل «لويد جورج» [1863 - 1945م] و«آرثر بلفور» [1848 - 1930م] و«ودرو ولسون» [1856 - 1924م] في مطلع القرن العشرين.

إن حلم اللقاء العظيم - [عودة المسيح] - أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورًا

(1) محمد السماك [الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي] - ص36. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا - سنة 1991م.

رئيسـيًا في إرساء القواعد السياسـية والدولية لإحياء الدولة اليهودية.. لقد تفجر الحلم اليهودي من خلال المسيحيين الصهيونيين»[1]!

وهكذا غدت الأسـاطير المسيحية الغربية تيارًا «مسيحيًا صهيونيًا»، تحالفت معه الحركة الصهيونية الحديثة، مسـتغلة إياه لتحقيق أطماع الشراكة «الصليبية - الصهيونية» ضد القدس وفلسطين!..

❐ ومـع مطالـع الغزوة الاسـتعمارية الغربيـة الحديثة - التـي قادها «بونابـرت» [1769 - 1821م] عـلى مـصر والشرق [1213هـ - 1798م] رمـى بونابرت حبال الشراكـة للأقليات اليهوديـة، لتكـون عونًا له عـلى إقامة إمبراطوريته الاسـتعمارية في الشرق الإسـلامي، مقابل زرعهم - ككلاب حراسـة - في أرض فلسـطين.. ولذلك أصدر - وهو على أسـوار عكا - سـنة 1799م نداءه لهؤلاء اليهود.. والذي قال فيه:

«أيها الشـعب الفريد! - إن فرنسـا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذي أرسـلتني العناية الإلهية به - قد اختار القدس مقرًا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق التي استهانت طويلًا بمدينة داود، وأذلتها!..

يا ورثة فلسطين الشرعيين! إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»[2]!

❐ وبعد هزيمة بونابرت.. وتبخر أحلامه الاستعمارية في لهيب الثورات المصرية وحرارة تضحياتها.. تسـلم الاسـتعمار الإنجليـز قيادة المشروع الغربي لاسـتعمار الشرق الإسـلامي. واختطـاف القدس.. مغلفًا تلك الأطماع الإمبريالية بالأسـاطير الدينيـة والأوهام اللاهوتية - التي استخدمت بمثابة «العقيدة القتالية» في الصراع التاريخي بين الغرب والإسلام..

1- ففي سـنة 1649م قدم لاهوتيان أنجليكانيان - هما «جوانا» و«البنزركارترايت» نداءً

(1) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص 78 طبعة بيروت سنة 2003م . وجريس هالسل [النبوءة والسياسة] ص 140 ترجمة محمد السماك. طبعة ليبيا سنة 1989م.

(2) محمد عمارة [في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص 21 طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة 2003م.

إلى الحكومة الإنجليزية، لإقامة شراكة مع اليهود في مشروع الاستيلاء على القدس وفلسطين.. وذلك كي يكون للبروتستانت الإنجليز والهولنديين **«شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب، ومنحهم إياها إرثًا أبديًا»**[1]!

2- وفي سنة 1838م أنشأت إنجلترا أول قنصلية إنجليزية في القدس.. وعينت قسيسًا بروتستانتيًا نائبًا لقنصلها فيها!..

3- وفي سنة 1839م نشر اللورد الإنجليزي «آشلي كوبر» (إيرل شافتسبري) [1801 - 1885م] دراسته التي يقول فيها:

«إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية، وعودة المسيح ثانية» ليحكم العالم ألف سنة سعيدة!..

4- وفي 1839م أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية «بالمرستون» [1784 - 1865م] رسالة يقترح فيها:

دعوة أوروبا للاقتداء بالملك الفارسي «قورش» [557 - 528ق.م] و إعادة اليهود إلى فلسطين، كما سبق وأعادهم «قورش» من السبي القديم!..

5- وفي سنة 1840م طلب وزير الخارجية الإنجليزي «اللورد بالمرستون» من سفيره في الآستانة السعي لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين، ليكونوا حاجزًا ضد تجديد وحدة الشرق، التي كان يعمل لها محمد علي باشا الكبير [1184 - 1265هـ - 1770 - 1849م].. وجاء في مذكرة «بالمرستون»:

«ويكون من مصلحة السلطان الواضحة، أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين.. ليكونوا حجر عثرة في سبيل أي أهداف تخطر ببال محمد علي أو من يخلفه»[2]!

6- وفي سنة 1840م قدم اللورد الإنجليزي «شافتسبري» برنامجًا إلى مؤتمر لندن بشأن

(1) [الأصولية الإنجيلية. أو الصهيونية المسيحية] ص 36، 39.

(2) جورج كيرك [موجز تاريخ الشرق الأوسط] - ترجمة عمر الإسكندري - مشروع الألف كتاب - القاهرة.. و: د. محمد عمارة [إسرائيل: هل هي سامية؟] ص 14 طبعة القاهرة سنة 1967م.

توطين اليهود في فلسطين، على قاعدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»! - وهي القاعدة التي تبنتها الشراكة «الصليبية - الصهيونية» لاغتصاب القدس وفلسطين.

7- وفي سنة 1844م ألف البرلمان الإنجليزي لجنة «إعادة أمة اليهود إلى فلسطين»!..

8- وفي سنة 1882م ذهب القس الإنجليزي «وليم هشلر» [1845 - 1931م] إلى السلطان عبد الحميد الثاني [1258 - 1336هـ - 1842 - 1819م] في القسطنطينية، محاولًا إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين..

9- وفي نفس العام - سنة 1882م - عقد في إنجلترا المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين، من أجل «إيجاد حل للمسألة اليهودية»!.

10- وفي سنة 1894م صدر كتاب الدبلوماسي الإنجليزي، القس «وليم هشلر»: [إعادة اليهود إلى فلسطين] تنفيذًا للنبوءات الدينية!..

11- وفي 2 نوفمبر سنة 1917م صدر وعد «جيمس بلفور» [1848 - 1930م] وزير الخارجية الإنجليزي إلى المليونير الصهيوني «لورد روتشيلد» [1845 - 1934م] بإقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين.. وهو الوعد الذي وضعه الانتداب البريطاني في الممارسة والتطبيق..

فدخل الجيش الإنجليزي إلى القدس سنة 1917م بقيادة الجنرال «اللنبي» [1861 - 1936م] .. ويومها قال كلمته الشهيرة: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!..

ويومها نشرت مجلة «بنش» Punch - الإنجليزية - رسمًا «كاريكاتوريًا» موحيًا.. ظهر فيه الملك الصليبي الإنجليزي «ريتشارد قلب الأسد» وهو يقول: «أخيرًا تحقق حلمي»!..

وهكذا **«غلفت»** الأساطير الدينية البروتستانتية و**«حركت»** الأطماع الإمبريالية في اختطاف القدس وفلسطين.

❐ ثم جاء الدور الأمريكي - الوارث للإمبراطوريات الاستعمارية الغربية القديمة - فأقام «توأمة» مع المشروع الصهيوني، انطلاقًا من الأساطير البروتستانتية:

1- فالمستوطنون البيض - الآباء المؤسسون - الذين استعمروا أمريكا.. وأبادوا الهنود الحمر - قد اعتبروا أنفسهم بعثًا لبني إسرائيل عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان.. فالملك جيمس الأول [1566 - 1625م] ملك إنجلترا - الذي خرجوا من بلاده - اعتبروه [فرعون].. وأنهم خرجوا إلى «كنعان الجديدة» و«القدس الجديدة».. فهم - من ثم - شعب الله المختار.. ذهبوا إلى أرض بلا شعب لتكون وطنًا لشعب بلا أرض!.

2- ولقد أطلق هؤلاء المستوطنون البروتستانت على بقاع البلاد التي غزوها أسماء عبرانية - مثل «حبرون» و«كنعان»، كما أطلقوا على مواليدهم أسماء عبرانية - مثل «أبراهام» و«سارة» و«ألعازر» - وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم.. حتى إن أول دكتوراة منحتها جامعة «هارفارد» 1642م كان عنوانها: «العبرية هي اللغة الأم»!.. وأول كتاب صدر في أمريكا هو [سفر المزامير].. وأول مجلة صدرت حملت عنوان «اليهودي»!.. كما أطلقوا على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم «باشان»!..

وسمحوا ببناء المعابد اليهودية في أمريكا هذه قبل السماح ببناء كنائس الكاثوليك!..

وهكذا تمت «توأمة» أمريكا مع بني إسرائيل.. وتأسست الدولة الداعمة للإحياء اليهودي والصهيوني في القدس وفلسطين!.

3- ولقد تخلقت في هذا المناخ.. وبين الأمريكان، الذين سموا أنفسهم «أطفال إسرائيل» Childern Of Israel أساطير المسيحية الصهيونية، التي تؤمن بأن مجيء المسيح يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية.. ومن ثم عملوا على ذلك منذ فجر تأسيسهم لهذا البلد - أمريكا - ..

4- ولقد تبنى القس الأمريكي «جوزيف سمث» [1805 - 1844م] - مؤسس الكنيسة المرمونية - نظرية البعث اليهودي في فلسطين.. ولحق به كوكبة من ألمع اللاهوتيين الإنجيليين - من مثل «سايروس سكوفيلد» و«وليم بلاكستون» [1841 - 1935م] و«وردر جريسون» - والذين عملوا على بناء المستوطنات اليهودية في أرض فلسطين!..

5- كما أنشأ «بلاكستون» «البعثة العبرية من أجل إسرائيل» - المستمرة حتى الآن باسم «الزمالة اليسوعية الأمريكية» - والتي تمثل نواة جهاز الضغط - Lobby الصهيوني في أمريكا..

6- وفي سنة 1818م طالب الرئيس الأمريكي «جون آدمز» [1735 - 1826م] باستعادة اليهود لفلسطين، و إقامة حكومة يهودية مستقلة فيها!..

7- وفي سنة 1866م أرسلت البروتستانتية الأمريكية أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسطين، يقودها القس «آدم»، ومعه 150 قسيسًا أمريكيًا.. وفي العام التالي سنة 1867م قامت على أرض فلسطين أولى المستوطنات الأمريكية، بمشاركة 70 شخصية دينية، من المسيحيين الصهاينة!..

8- وفي سنة 1878م قام القس الأمريكي «وليم بلاكستون» [1841 - 1935م] بالتنظير اللاهوتي «للمسيحية - الصهيونية»، ولاغتصاب القدس وفلسطين، وذلك بكتابة [المسيح آت] - وهو الكتاب الذي ترجم إلى أربعين لغة.. وأصبح الأكثر انتشارًا في القرن التاسع عشر بعد الكتاب المقدس!..

وعندما زار «بلاكستون» فلسطين سنة 1888م رفع شعار: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»!.. وذلك قبل عشر سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول.. وقبل تأليف «تيودور هرتزل» [1860 - 1904م] لكتابه [الدولة اليهودية] سنة 1896م.. **أي أن المسيحية الصهيونية - البروتستانتية هي التي ابتدأت التسويق للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين حتى قبل أن يتبناه اليهود!.**

9- وانطلاقًا من الأساطير الدينية البروتستانتية أصبح المشروع الصهيوني - وكيانه إسرائيل - تجليًا إلهيًا، يمهد لعودة «الرب - يسوع».. وليس كيانًا سياسيًا يحاسب كما تحاسب الدول، ويخضع - مثلها - للقانون! ولقد عبر القس الأمريكي «والتر ريجانز» عن هذه النظرية اللاهوتية بقوله:

«إن الصهيونية التوراتية، التي هي بالتأكيد أمنية كل مسيحي، تتعلق بشكل أساسي بالله بأهدافه، ولذلك تفهم الصهيونية، من خلال الرؤية المسيحية، على أنها جزء من اللاهوت الديني، وليست جزءًا من السياسة، و إن دولة إسرائيل هي مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي ومن خلال الشعب اليهودي. إن من واجب المسيحيين دعم إسرائيل وسياستها باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله، واستجابة لإرادته، على أنها تشكل إشارة توراتية بأن الله منشغل جدًا في قضايا هذا العالم»[1]!

(1) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص 26، 27، طبعة بيروت سنة 2003م.

10- ولأن الأمـر دين ولاهوت - وليس مجرد سياسـة و إمبرياليـة - كان الالتزام الأمريكي نحو إسرائيل - بكل السـبل.. من المال.. إلى السـلاح - إلى النفوذ.. إلى الفيتو - على النحو الذي يستغربه الذين لا يعلمون!!.. كما كان الضغط على صناع القرار لوضع هذا الدين - المسيحي الصهيوني - في الممارسة والتطبيق..

فالقس «وليم بلاكستون» - في سنة 1891م يجمع توقيعات 413 شخصية مسيحية و يهودية على مذكـرة تطلب من الرئيس الأمريكي «بنجامين هاريسـون» [1833 - 1901م] عقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين - ومن بين الذين وقعوا على هذه المذكرة «جون روكفلر» [1839 - 1937م] و«وليم روكفلر» [1841 - 1922م][1]..

11- وفي سنة 1918م أعلن الرئيس الأمريكي «ويلسون» [1856 - 1924م] التزام أمريكا بتنفيذ وعد بلفور - ثم صادقت أمريكا على هذا الوعد رسميًا سنة 1922م.. وقرر مجلس النواب الأمريـكي «منح اليهـود الفرصة التي حرموا منها لإعادة إقامة حيـاة يهودية وثقافية خاصة في الأرض اليهودية القديمة»!..

12- وفي إدارة الرئيـس الأمريـكي «روزفلـت» [1858 - 1919م] أصبـح اليهـود - الذيـن يشكلون أقل من 3 % من سكان أمريكا - يسيطرون على 15 % من المناصب القيادية القابضة على المواقع الحساسة في الدولة الأمريكية![2]

13- وأصبحت الصهيونية المسـيحية - أو المسيحية الصهيونية - العقيدة المحركة للقيادات الأمريكية.

فالرئيس الأمريكي «ليندون جونسـون» [1908 - 1973م] يخطب سـنة 1968م في إحدى المنظمات اليهودية فيقول:

«إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إليّ، ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم، إن القصص التوراتية محبوكة مع

(1) المرجع السابق، ص 33، 34.
(2) المرجع السابق، ص 81.

ذكريات طفولتي، كما أن الكفاح الشجاع الذي قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس في نفوسنا»!

والرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» [1924 -] - الذي يعتنق عقيدة «الولادة الثانية» يعترف بأن مشاعره المؤيدة للصهيونية كانت الموجه لسياسته الشرق أوسطية.. فيقول في خطاب الأول من مايو سنة 1978م:

«إن العودة إلى أرض التوراة التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، و إن إقامة الأمة الإسرائيلية في أرضها، هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تشكل جوهر هذه النبوءة»!

والرئيس الأمريكي «رونالد ريجان» [1911 - 2004م] هو القائل سنة 1984م.

«إنني أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة في العهد القديم، و إلى المؤشرات حول هرمجيدون، فأتساءل بيني وبين نفسي: ما إذا كنا الجيل الذي سيرى تحقق ذلك؟.. إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»!![1]

14- ويقرر الكونجرس الأمريكي - في 24 أكتوبر سنة 1995م: اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، لأنها - كما يقول -: «الوطن الروحي لليهودية»!..

وتشرع الحكومة الأمريكية - بعد هذا القرار - في بناء سفارتها بالقدس على أرض مملوكة للوقف الخيري الإسلامي!

15- وحتى الغزو الأمريكي للعراق - في مارس سنة 2003م يعتبره الرئيس الأمريكي «بوش - الصغير» حربًا مقدسة عادلة بمقاييس القديس «أوغسطين» [354 - 430م] والقديس «توما الإكويني» [1225 - 1274م][2].. وهي للقضاء على صدام حسين - بختنصر بابل الذي يهدد إسرائيل، ويعرقل عودة المسيح!!.. وفي هذا التنظير المسيحي الصهيوني يقول القس الأمريكي «دافيد بريكنر»..

(1) المرجع السابق، ص 41، 42.

(2) مجلة «نيوزويك» - الأمريكية - الطبعة العربية - عدد 11 - 3 - 2003م.

«إننا نعرف أن تدمير بابل - الذي ورد في الإصحاح 18 - يعني تدمير العراق»!!. كما يقول القس «تشارلز داير» - أستاذ اللاهوت في جامعة «دالس»:

«إن إصحاح إشعيا 13 يشير إلى قيام صدام حسين، وإلى غزوه للكويت، وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل.. فصدام هو خليفة «نبوخذ نصر» [605 - 562ق.م] (الذي هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل) وذلك بسبب عداء صدام لإسرائيل، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل»![1]

وهكذا نظرت الأساطير المسيحية الصهيونية لدمار العراق على يد «بوش الصغير» - هولاكو القرن الواحد والعشرين - دمارًا فاق ما صنعه هولاكو القديم - «هولاكو» المغول [614 - 663هـ - 1217 - 1265م].

16- وفي إبريل سنة 2004م يعطي «بوش - الصغير» لأربيل شارون - رئيس وزراء إسرائيل - «رسالة الضمانات» التي تحرم اللاجئين الفلسطينيين من حق العودة - الذي قررته الشرعية الدولية بالقرار194 - .. وهي «الرسالة» التي تفوقت على وعد «بلفور» سنة 1917م.. إذ حرمت الفلسطينيين حتى من «الحقوق المدنية والدينية» التي نص عليها وعد بلفور!..

17- وفي الذكرى الستين لقيام الكيان الصهيوني - مايو سنة 2008م يخطب «بوش الصغير» بالكنيست الصهيوني خطابًا توراتيًا.. يقرر فيه أن إسرائيل ليست 7.000.000 نسمة.. وإنما هي 207.000.000 نسمة.. لأن أمريكا هي جزء متمم لإسرائيل!!.[2]... كما يقرر يهودية الدولة العبرية. أي التشريع لطرد العرب الذين يعيشون فيها!.

تلك هي الأساطير الدينية النصرانية الغربية **«المغلفة.. والمحركة»** للأهداف الاستعمارية الغربية من وراء استعمار الشرق ونهب ثرواته واختطاف القدس وفلسطين..

□□□

(1) [الدين في القرار الأمريكي] ص 52.

(2) انظر تفاصيل هذه الحقائق - وأمثالها - بكتابنا [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق - القاهرة سنة 2005م.

❐ أمـا عن الأسـاطير اليهودية، التي تزعم أن لليهود حقوقًا في القدس وفلسـطين. فيكفي لتفنيدها ودحضها - بالمنطق العقلاني.. والعقلانية المنطقية - أن نقول:

إن اليهودية - التي ينتسبون إليها - هي شريعة موسى - عليه السلام - التي جاءت بها التوراه - ومـوسى - عليه السـلام - ولد ونشـأ.. وبعث في مـصر.. ونزلت عليه التـوراة - بمصر - باللغة الهيروغليفية.. ثم مات ودفن بمصر - قبل غزو بني إسرائيل لأرض كنعان - فلسطين.. وقبل نشأة اللغة.. العبرية - التي هي في الأصل لهجة كنعانية.. فموسى - عليه السلام - لم يدخل فلسطين، ولم تر عينه القدس.. ومن ثم فلا علاقة لليهودية - وشريعة موسى - بالقدس ولا بفلسطين..

وإذا كانوا يقولون: إنهم يصلون إلى القدس.. كما يصلي المسـلمون إلى مكة.. فإننا نقول: إن الصلاة إلى بلد لا تسـتدعي ولا تتطلب ولا تبرر الاسـتيلاء عليه.. فكل المسيحيين.. من كل الأقطار والقارات والقوميات - يصلون إلى القدس، دون أن يكون ذلك داعيًا ولا مسـتلزمًا ولا مبررًا لأن يخرجوا من بلادهم ويحتلون القدس!..

وكل المسـلمين - مـن كل الأقطـار والقـارات والقوميـات - يصلـون إلى مكـة المكرمة، دون أن يكـون ذلك داعيًا ولا مسـتلزمًا ولا مـبررًا لأن يحتل هؤلاء المسـلمون الحرم الذي إليه يتوجهون!..

وإذا كان تفرد الإسـلام بالاعتراف بكل الآخرين، وحماية عقائدهم ومقدسـاتهم.. وإذا كان التاريخ الإسلامي في القدس قد طبق وجسد هذه الحقيقة.. فإن عروبة القدس وإسلاميتها هي الضمانة لإشـاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات.. وللنأي بها عن الاحتكار من قبل أهل دين من الأديان.

ولقد لخص هذه الحقيقة - حقيقة إسلامية القدس وعروبتها، الضامنة لإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسـات - صلاح الدين الأيوبي - الذي اسـترد أمانة عمر من الصليبيين - وذلك عندما كتب إلى الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [1157 - 1199م] فقال:

«القـدس إرثنـا كما هي إرثكـم.. من القدس عـرج نبينا إلى السـماء.. وفي القدس تجتمع الملائكـة.. لا تفكـر بأنه يمكـن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسـلمة. أما بالنسـبة إلى الأرض، فإن

احتلالكم فيها كان شيئًا عرضيًا، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء.. ولن يمكنكم الله أن تشيدوا حجرًا واحدًا في هذه الأرض طالما استمر الجهاد»!..

❐❐❐

نعم.. هذا هو الطريق.. وهذا هو المنهاج..

❐ لقد بدد صلاح الدين الأيوبي - بالجهاد - أساطير الكاثوليكية الصليبية في التاريخ الوسيط للصراع.

❐ وبددت ثورات مصر وتضحيات شعبها أساطير بونابرت وأحلامه مع مطلع العصر الحديث..

❐ واليوم.. لا سبيل أمام أمتنا لتبديد أساطير، المسيحية الصهيونية والعنصرية اليهودية إلا بالجهاد.. فهو «رهبانية» أمة محمد - عليه الصلاة والسلام..

وإذا كان الوعي بتاريخ هذا الصراع الطويل هو لون من الجهاد، لأنه سلاح من أمضى الأسلحة في مواجهة التحديات التي قامت وتقوم على أرض القدس وفلسطين.. فإننا نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل صفحات هذه الدراسة إسهامًا في استرداد أمانة عمر إلى أحضان العروبة والإسلام..

وصدق الله العظيم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 38 - 40]..

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:

«لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء - [شدة ومحنة] - حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك».

قالوا: يا رسول الله: وأين هم؟.. قال:

«ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» - رواه الإمام أحمد. -..

تلك هي مكانة القدس في عقيدة الإسلام وحضارته وتاريخه.. وتلك هي أساطير الصليبية والمسيحية الصهيونية حول المدينة المقدسة، التي كانت - دائمًا وأبدًا - «رمز الصراع.. وبوابة الانتصارات».

□□□

القُدس والوعي بالتاريخ

فارق كبير وبون شاسع بين **«الوعي بالتاريخ»** وبين مجرد **«قراءة التاريخ»**.. فالوعي بالتاريخ يفتح العقل التاريخي على مقدمات الوقائع وملابساتها وآثارها وتوابعها، وعلى علاقات بعضها بالبعض الآخر.. **الأمر الذي يحصن هذا العقل التاريخي ضد الغفلة، ويجعل امتلاك الوعي التاريخي سلاحًا في مقاومة سلبيات وقائع هذا التاريخ.. فالوعي بالتاريخ هو سلاح فعال في التعامل حتى مع سنن التاريخ..**

أما مجرد قراءة التاريخ فهي تجعل هذا التاريخ أشبه ما يكون «بأكفان الموتى».. فضلًا عن إشاعتها للغفلة التي تجعل الغافلين أسري وضحايا للقوي التي تقف و راء وقائع هذا التاريخ.. حتى لتخرج هذه الغفلة أصحابها من التاريخ!.

و إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثلة الدالة والكاشفة عن ضرورة الوعي بالتاريخ - لا مجرد قراءته - فعلينا أن نعي:

1- لماذا عندما اقتحمت جيوش القائد الإنجليزي الجنرال «اللنبي» [1936-1861م] مدينة القدس الشريف سنة 1917م، وهزمت الجيوش العثمانية والألمانية.. آثر «اللنبي» أن يدخل القدس راكبًا حمارًا.. وذلك تشبها بالمسيح - عليه السلام - عندما دخل هذه المدينة.. وذلك استحضارًا لمغزى وهوية هذا الدخول الديني القديم؟!.. ولذلك لخص «اللنبي» هذا المشهد في كلماته: **«اليوم انتهت الحروب الصليبية»**!!.

2- ولماذا احتفلت الكنائس الألمانية - البروتستانتية والكاثوليكية - بهزيمة جيشها الوطني القومي أمام الجيش الإنجليزي، الذي قاده «اللنبي» - في القدس الشريف - فدقت أجراسها احتفالًا بالنصر الصليبي على الإسلام.. رغم ما مثله هذا النصر الصليبي من هزيمة للوطنية والقومية الألمانية؟.. فالصليبية فوق الوطنية والقومية.. بل وضدهما عند الذين وعوا مغزى هذا الحدث التاريخي الكبير.

3- وكيف كان احتفال إنجلترا بغزو القدس وعيا صليبيًا بالتاريخ.. فنشرت مجلة «بنش Punch» - الأنجليزية - يومئذ رسما « كاريكاتوريا» لـ «ريتشارد قلب الأسد» [1157 -

1199م] الملـك الصليبي الذي حارب صلاح الدين الأيـوبي [532 - 589هـ - 1137 - 1193م].. وكتبت المجلة - على لسان ريتشارد قلب الأسد - تحت الرسم -: **«أخيرًا تحقق حلمي»**!.. وفوق الرسم عنوان: **«آخر حملة صليبية»**!.. فكان ذلك درسًا في استدعاء الوعي بالتاريخ!.

4- ولماذا اختار الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب» - وهو الممثل للمسيحية الصهيونية عند الحزام المعمداني الأمريكي - يوم غزو «اللنبي» للقدس - 9 ديسمبر - ليكون هو يوم نقل سفارة بلاده من تل أبيب للقدس - 9 ديسـمبر سنة 2017م.؟.. فتكون مئوية الغزو الصليبي الحديث للقدس، إعلانًا عن تصفية القضية الفلسطينية. وتجسيدًا الآخر الحملات الصليبية؟!.

5- ولماذا احتفل الغرب الصليبي بمرور خمسـمائة عام على إسقاط «غرناطة» سنة 1492م، بإقامـة دورة أولمبية في «برشـلونة» سـنة 1992م، احتفالًا بهذه الذكـري.. وفي الموقع الذي تم فيه اقتلاع الإسـلام من غرب أوربا - الأندلس.. وعرضوا - في احتفالات هذه الدورة الأولمبية - أفلامًـا ومسرحيات تتحدث عن الوعي بهذا التاريخ.. بينما غاب عن «لاعبينا» هناك يومئذ - فضلًا عن حكامنا ومثقفينا - الوعي بهذا التاريخ؟!.

6- ولمـاذا - في ذات التاريـخ سـنة 1992م - بدأت الصليبية الغربية - بقيادة الأرثوذكسـية الصليبية - حرب إبادة المسـلمين في البوسـنة والهرسـك، لاقتلاع الإسـلام من وسـط أوربا في ذكري اقتلاعه من غرب أوربا - .. مع إعلان وزير الإعلام الصربي عن الهوية التاريخية لهذه الحرب، عندما قال: **«نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»**!

7- ولمـاذا اسـتدرج الغرب الصليبي - بروح المسـيحية الصهيونية - في ذات التاريخ سـنة 1992م منظمة التحرير الفلسـطينية لتصفية القضية الفلسـطينية عبر مفاوضات مدريد - نعم مدريـد؟! - التـي انتهت باتفاقات أوسـلو، التي أفضت إلى تهويد القدس وابتلاع الاسـتيطان الصهيوني للضفة الغربية من فلسطين؟!.

❐ تلـك أمثلـة - مجرد أمثلـة - **لمنهاج الوعي بالتاريخ**، الذي يكشـف عـن معاني ومغازي حقائـق وقائـع التاريخ.. **والـذي لا بد من الاهتداء بـه في قراءة معني ومغـزي «وعد بلفور» إعطاء الصهيونية الحق في وطن قومي يهودي في فلسطين**..

ذلك أن الذين وقفوا عند مجرد قراءة التاريخ قد فاجأهم هذا «الوعد»، عندما غاب عنهم الوعـي بوقائع التاريخ التي مهـدت له.. فتعاملوا معه و مع توابعه دون امتلاك سـلاح الوعي بالتاريخ، الأمر الذي حرمهم من امتلاك سلاح الوعي بالتاريخ في هذا الصراع الحافل بالهزائم والإخفاقات..

المقدمات الممهدات

لقـد تبلـور المشروع الصهيـوني لإقامة الدولـة التوراتيـة العبرية على أرض فلسـطين في إطار اللاهوت البروتسـتانتي الغربي، قبل أن يتم تسـويقه والدعوة إليه في الأوساط الصهيونية اليهودية.

ولقـد بدأت هـذه المقدمات فور نجاح الصليبية الكاثوليكية في إسـقاط غرناطة واقتلاع الإسـلام من غرب أوربا سـنة 1492م.. وذلك بالسـعي لانتزاع الأرض المقدسـة من التحرير الإسلامي الذي أنجزه صلاح الدين الأيوبي.. **وذلك لإقامة الدولة التوراتية التي تحقق - بالنسبة للمسـيحية الصهيونية - الشروط الممهدة لعودة المسـيح كي يحكم العالم ألف سنة سعيدة - وفق رؤيـا يوحنا.. والارتكاز الاسـتعماري على هذه الدولة التوراتيـة للحيلولة دون نهوش الشرق الإسلامي من جديد..**

بـدأت هذه المقدمات الممهدة تحت سـتار: اسـتعادة قبر المسـيح إلى الكنيسـة المقدسـة، وتحقيق «ما قال به يسـوع المخلص، وذكره من قبل عبر رسـالة القديسـين».. وتحقيقًا لنبوءات الكاردينـال «بيـير» عن «نهاية المسـلمين»!.. ونبـوءات الأب «يواقيم الفيـوري» القائلة: إن استعادة القدس، وقبر المسيح، ستتحقق على يد حملة صليبية تخرج من إسبانيا.. وتقوم «بإعادة بناء الضريح المقدس للمسـيح، فوق جبل صهيون بالقـدس.. وتعيد مدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكثوليكية»..

هكذا حركت هذه الأسـاطير اللاهوتية الحملة الصليبية الحديثة التي بدأت عقب اقتلاع الإسـلام من الأندلس.. والتي عبر عنها «كريسـتوفر كولمبس» [1451 - 1506م] - الذي جمع الذهب، وطلب من ملكي إسـبانيا «فرديناند» [1479 - 1516م] و«إيزابيلا» [1474 - 1504م]

ومن البابا «إسكندر السادس» [1503-1492م] تجهيز حملة صليبية من خمسين ألف جندي - مشاة - وخمسة آلاف فارس، لفتح الديار المقدسة، والاستيلاء على القدس من جديد».

❐ ولقد تجذرت هذه العقيدة المسيحية في الأساطير اللاهوتية البروتستانتية الأوربية، منذ «مارتن لوثر» [1483 - 1546م] وكتابه: [المسيح يهوديًّا] الذي أضفي القداسة على [العهد القديم] مع [العهد الجديد] ومن ثم أضفي القداسة على وعد الله بالأرض المقدسة - وضمنها القدس - لإبراهيم وذريته من اسحق.. و الذي حوّل هذه الأسطورة إلى عقيدة «المسيحية الصهيونية» حول «الألفية السعيدة» التي سيعود فيها المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد حشر اليهود في الأرض المقدسة، و إعادة بناء الهيكل اليهودي على إنقاض المسجد الأقصي.

نعم.. لقد زرع «مارتن لوثر» المسيح في إسرائيل.. وزرع [العهد الجديد] - بأساطيره - في المسيحية البروتستانتية، وذلك عندما قال - في كتابه [المسيح يهوديًا]: «إن الروح القدس أنزل ل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف الغرباء، ولذلك علينا أن نرضي بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها»[1]!

ومنذ ذلك التاريخ، تبلورت في البروتستانتية «»عقيدة المسيحية الصهيونية» التي تري:

أولًا: أن اليهود هم أبناء الله وشعبه المختار.

وثانيًا: أن ثمة ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود بالأرض المقدسة - فلسطين -.

وثالثًا: ربط الإيمان المسيحي في عودة المسيح بقيام الدولة الصهيونية في الأرض المقدسة، وبناء الهيكل اليهودي على أنقاض المسجد الأقصى.

وفي إطار هذه البروتستانتية الأوربية بدأت وتصاعدت الأنشطة والمشاريع والكتابات والسياسات العاملة على إعادة اغتصاب القدس والأرض المقدسة من المسلمين.. و إقامة الدولة التوراتية. تحقيقًا للأساطير اللاهوتية، ودعمًا للمد الاستعماري الإمبريالي الجديد.

(1) أما عداؤه - بعد ذلك - لليهود، فهو لليهود الأوربيين المعاصرين - ملوك النظام الربوي الذي كان «لوثر» عدوًا له.. وحديثه في كتابه [المسيح يهوديًا] عن اليهود الذين نزلت عليهم التوراة.

ومن نماذج هذه الأنشطة والمشاريع والكتابات والسياسات:

❐ النداء الذي قدمه اللاهوتيان الإنجليكانيان - الإنجليزيان - «جوانا» و«لبنزر كار ترايت» سنة 1649م إلى الحكومة الإنجليزية لإقامة شراكة مع اليهود للاستيلاء على القدس وفلسطين، وذلك كي يكون للبروتستانت الإنجليز والهولنديين «شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم إبراهيم و إسحق و يعقوب، ومنحهم إياها إرثًا أبديًا»..

❐ ووعد «نابليون بونابرت» [1769 - 1821م] في ندائه الذي وجهه إلى يهود العالم - من على أسوار «عكا» - في 4 إبريل سنة 1799م، لدعمه في بناء إمبراطوريته الشرقية، لقاء إعادة زرعهم في الأرض المقدسة.. وهو الوعد الذي جاء فيه: «أيها الشعب الفريد!.. إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقرًا لقيادته، وخلال بضعة أيام ستنتقل إلى دمشق، التي استهانت طويلًا بمدينة داود، وأذلتها!.. يا ورثة فلسطين الشرعيين!.. إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»!

❐ وبعد فشل حملة «بونابرت».. واصلت الإمبريالية الإنجليزية السعي على ذات الطريق، فاحتلت عدن سنة 1838م لمواجهة المشروع التجديدي والتوحيدي والإنقاذي الذي نهضت به مصر تحت حكم محمد علي باشا الكبير [1184 - 1265هـ - 1770 - 1849م].. فحاولت إنجلترا زرع التناقضات بين محمد علي وبين السلطان العثماني.. وهنا جاءت محاولة المليونير اليهودي الإنجليزي «موسي حاييم مونتفيوري» [1784 - 1885م] - في سنة 1255هـ - 1839م استئجار عدد من القرى الفلسطينية ليبدأ فيها المشروع الاستعماري الاستيطاني اليهودي على أرض فلسطين.. لكن مصر محمد علي باشا رفضت - بوعي مبكر - هذا المشروع..

❐ وفي سنة 1838م بدأت إنجلترا السعي لتوظيف اليهود في المشروع الاستعماري الغربي، العامل - يومئذ - على ضرب مشروع محمد علي.. فأنشأت أول قنصلية إنجليزية في القدس سنة 1838م، وعينت قسيسًا بروتستانتية نائبًا لقنصلها فيها!.

❐ وفي سنة 1255هـ سنة 1839م نشر اللورد «آشلي كوبر» (إيرل شافتسبري) [1801 -

1885م] دراسته التي يقول فيها: «إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية، وعودة المسيح ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة».

❐ وفي سنة 1255هـ سنة 1839م أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير خارجيته اللورد «بالمرستون» [1784 - 1865م] رسالة يقترح فيها دعوة أوربا للاقتداء بالملك الفارسي «قورش» [557 - 528 ق.م] وإعادة اليهود إلى فلسطين، كما سبق وأعادهم «قورش» من السبي القديم!.

❐ وفي سنة 1256هـ - 1840م - في الوقت الذي كانت الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية تتحالف رغم ما بينها من تناقضات وصراعات استعمارية، ضد مصر وحكومة محمد علي باشا الكبير، وتسعي لتفرض عليها معاهدتي لندن سنة 1840م وسنة 1841م اللتين أجبرتا مصر على الانسحاب من الشام وفلسطين، والانزواء في الحدود القطرية - كانت إنجلترا تسعي لدي السلطان العثماني كي يسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين، باعتبارها العقبة أمام توحيد المشرق العربي مع مصر، وللحيلولة دون تكرار التجربة الوحدوية لمحمد علي في مستقبل الأيام!.

فطلب وزير الخارجية الإنجليزي «بالمرستون» من سفيره في الآستانة «بونسنبي» - في 11 - 8 - 1840م - أن يطلب من السلطان العثماني السماح بالهجرات اليهودية إلى فلسطين - ولقد جاء في هذه المذكرة التي حملت رقم 134/ 390 /870 -:

«ويكون من مصلحة السلطان الواضحة، أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين، والإقامة فيها لأن ما سيحملونه معهم إلى البلاد من الثروة يزيد موارد دولته.

إن الشعب اليهودي بعودته إلى البلاد، بإذن السلطان، وفي حمايته، وبدعوة منه، يكون حجر عثرة في سبيل أي أهداف سيئة تخطر ببال محمد علي أو من يخلفه.

ضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية، بصفة سرية، وأبذل وسعك في إقناعها بأن تقدم كل تشجيع عادل ليهود أوربا لأن يعودوا إلى فلسطين»!.

❐ وفي سنة 1356هـ سنة 1842م عقد في لندن مؤتمر لتوطين اليهود في القدس وفلسطين، قدم

فيه اللورد الإنجليزي «شافتسبري» برنامجًا لهذا التوطين على قاعدة: **«أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»**!.. انطلاقًا من الاستعمار الاستيطاني الذي مارسه العبرانيون القدماء في أرض كنعان!.

❐ وبعد أربعة أعوام - في سنة 1260هـ سنة 1844م ألف البرلمان الإنجليزي لجنة « إعادة أمة اليهود إلى فلسطين»!.

❐ وفي سنة 1261هـ سنة 1845م نشر مشروع الإنجليزي «إدوارد متفورد»: «إقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين، تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة، إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها».. - وهو المشروع الذي حققه الانتداب البريطاني في فلسطين في القرن العشرين-!.

❐ وفي سنة 1276هـ سنة 1860م صدر كتاب «إرنست لاهاران» - المستشار الخاص لنابليون الثالث [1808 - 1873م] بعنوان: **[المسالة الشرقية: إعادة الأمة اليهودية]**!.

❐ وفي سنة 1281هـ سنة 1865م تأسس - في لندن - برعاية الملكة فكتوريا [1819 - 1901م] - رئيسة الكنيسة الإنجليكانية - و رئيس كنيسة كانتربري - «صندوق استكشاف فلسطين».

❐ وفي سنة 1297 هـ 1880م صدر كتاب: [أرض جلعاد] لـ «لورنس أولفنت» [-1829 1888م] - عضو البرلمان الإنجليزي - الذي يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية إلى الشرق من نهر الأردن، تكون مساحتها مليونًا ونصف المليون فدان، تحت السيادة العثمانية، وتحت الحماية البريطانية، ليهاجر إليها يهود روسيا ورومانيا..

❐ وفي سنة 1298هـ سنة 1881م وقع حادث اغتيال القيصر الروسي «الإسكندر الثاني» [1818 - 1881م] وتعرض اليهود في روسيا القيصرية للاضطهاد، فتدفقت هجراتهم إلى خارج روسيا..

❐ وفي سنة 1299هـ سنة 1882م ذهب القيس الإنجليزي «وليم هشلر» [1845 - 1931م] إلى السلطان عبد الحميد الثاني [1258 - 1336هـ - 1842 - 1918م] في القسطنطينية - محاولًا إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين..

❐ وفي نفس العام - سنة 1882م - عقد في إنجلترا المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين، من أجل إيجاد حل للمسألة اليهودية.

❐ وفي سنة 1301هـ سنة 1894م صدر كتاب الدبلوماسي الإنجليزي القس «وليم هشلر»: [إعادة اليهود إلى فلسطين].. وذلك تنفيذًا للنبوءات الدينية البروتستانتية.

❐❐❐

كل هذه المقدمات المهدات حدثت على جبهة «المسيحية الصهيونية» الأوربية، المتحالفة مع الإمبريالية الاستعمارية.. والمدعومة «بالمسيحية الصهيونية» الأمريكية.. وذلك قبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول، الذي دعا إليه «تيودور هرتزل» [1860 - 1904م] - في «بال» بسويسرا - في أغسطس سنة 1897م.. وهو المؤتمر الذي شارك فيه مع «اليهود الصهاينة» ممثلون «للمسيحية الصهيونية» - التي أصبحت تعني «المسيحي الذي يدعم الصهيونية»-.. ولقد أطلق «هرتزل» هذا المصطلح - أول ما أطلقه - على المليونير السويسري «هنري دونانت» [1828 - 1910م] مؤسس منظمة «الصليب الأحمر»، الذي حضر المؤتمر الصهيوني الأول، مع عدد من رموز المسيحية الصهيونية.

❐ وفي سنة 1896م عام صدور كتاب [الدولة الصهيونية] - أرسل مؤلفه «هرتزل» صديقة «نيولنسكي» إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ليطلب منه فتح أبواب فلسطين للهجرات اليهودية، عارضًا عليه إغراءات مالية، ومواصلًا بذلك المساعي المسيحية الصهيونية التي بدأت منذ عقود وعقود..

لكن السلطان عبد الحميد رفض هذه العرض، من منطلقات مبدئية ووعي سياسي، وقال لـ «نيولنسكي»:

«إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فأنصحه ألا يسير أبدًا في هذا الأمر. **لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدة من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي. لقد حصل شعبي على الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا.**

لقد حاربت كتيبتنا في سورية وفلسطين، وقُتل رجالنا الواحد بعد الآخر لأن أحدًا منهم لم يرض بالتسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال.

إن الإمبراطورية ليست لي، وإنما للشعب العثماني، وأنا لا أستطيع أبدًا أن أعطي أحدًا أي جزء منها.

لتحتفظ اليهود ببلاييهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان».

❐ لكن مقومات الشراكة «الصليبية - الإمبريالية - الصهيونية» كانت قد اكتملت مقدماتها ومقوماتها.. فمصر وبلاد المغرب الكبير كانت قد سقطت في شرك الاستعمار، ففقدت استقلالها واستقلال قرارها.. والدولة العثمانية كانت قد دخلت مرحلة الضعف والغروب، وحكمتها علمانية «جمعية الاتحاد والترقي» التي اتخذت من النزعة الطورانية سبيلًا لاضطهاد العرب العثمانيين وزيادة الفجوة بين الطوارنية والعروبة..

❐ وجاءت المساندة والدعم للمسيحية الصهيونية الأوربية من نظيرتها الأمريكية، التي جعلت أمريكا تتماهي مع الحلم الصهيوني بالدولة التورانية.. **فمنذ هجرة الآباء المؤسسين لأمريكا، اعتقد هؤلاء المهاجرون، الذين خرجوا من حكم الملك الإنجليزي «جيمس الأول» [1566 - 1625م] أنهم هم «أطفال إسرائيل»، الذين ناظر خروجهم خروج العبرانيين القدماء من حكم فرعون، فأبادوا الهنود الحمر، كما صنع العبرانيون القدماء مع الكنعانيين.. وبنوا أمريكا على قاعدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»!.. وبلغوا في التوأمة مع بني إسرائيل حد إطلاق الأسماء العبرانية - مثل «حبرون» و«كنعان» - على الأماكن والأنهار.. وإطلاق الأسماء العبرانية - مثل «أبراهام» و«سارة» و«إلعازر» - على المواليد!.. وفرض تعليم اللغة العبرية في المدارس والجامعات.. حتى لقد كان أول كتاب طبع في أمريكا هو [سفر المزامير].. وأولي مجلة تصدر هي [اليهودي].. وأول دكتوراه تمنحها جامعة «هارفارد» سنة 1642م عنوانها: [العبرية هي اللغة الأم]!.. كما أطلقوا على نهر كولورادو الاسم العبراني القديم.. «باشان»!..**

وهكذا اعتبر الآباء المؤسسون لأمريكا أنهم قد خرجوا إلى «كنعان الجديد»!.. وإلى «القدس الجديدة»!.. معتبرين أنفسهم «أطفال إسرائيل» Children of Israel.. ومن ثم

انخرطـوا في إطـار التبشـير والعمل على وضع الأسـاطير - أسـاطير المسـيحية الصهيونية - في الممارسة والتطبيق.

❐ فتبني القس الأمريكي «جوزيف سـمث» [1805 - 1844م] مؤسس الكنيسة المرمونية - نظريـة «البعث اليهودي».. وتبعـه عدد من ألمع اللاهوتيين الإنجيليين، من مثل «سـايروس سـكوفيلد»، و«وليم بلاكسـتون» [1841 - 1935م]، و«رودر جريسـون»، الذين عملوا على إقامة المسـتوطنات اليهودية على أرض فلسطين!.. ولقد أنشأ «بلاكستون» «البعثة العبرية من أجل إسرائيل»، المستمرة حتى الآن باسم «الزمالة اليسوعية الأمريكية» - التي تمثل نواه مركز الضغط - Lobby - الصهيوني في أمريكا.

❐ وفي سنة 1232هـ سنة 1818م طالب الرئيس الأمريكي «جون آدمز» [1735 - 1826م] باستعادة اليهود إلى فلسطين، و إقامة حكومة يهودية مستقلة فيها!.

❐ وفي سنة 1826هـ سنة 1866م أرسل البروتستانت الأمريكيون أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسـطين، يقودها القس «آدم»، ومعه 150 قسيسًـا أمريكيًا.. وفي العام التالي [سـنة 1867م] قامت على أرض فلسطين أول المستوطنات الأمريكية، بمشاركة 70 شخصية دينية من المسيحيين الصهاينة الأمريكان!.

❐ وفي سنة 1295هـ سنة 1878م قام القس الأمريكي «وليم بلاكستون» [1841 - 1935م] بالتنظير اللاهوتي للمسـيحية الصهيونية، وذلك في كتابه: [المسـيح آت] الذي ينظر للأسـاطير المسـيحية في اغتصاب القدس وفلسـطين.. **وهو الكتاب الذي ترجم إلى أربعين لغة.. وأصبح الأكثر انتشارًا في القرن التاسع عشر بعد الكتاب المقدس!**

وعندما زار «بلاكسـتون» فلسطين سنة 1305هـ سنة 1888م رفع شعار: «أرض بلا شعب لشـعب بلا أرض» وذلك قبل عشر سنوات من المؤتمر الصهيوني الأول.. وقبل تأليف «هرتزل» كتابه [الدولة اليهودية سنة 1896م!.

❐ وفي سنة 1308هـ سنة 1891م جمع هذا القس الأمريكي - «وليم بلاكستون» - توقيعات 413 شخصية مسيحية ويهودية على مذكرة تطلب من الرئيس الأمريكي «بنجامين هاريسون»

[1833 - 1901م] عقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين.. ومن بين هذه الشخصيات التي وقعت على هذه المذكرة: «جون روكفلر» [1839 - 1937م] و«وليم روكفلر» [1841 - 1922م] من كبار رجال المال والصناعة، ومن صناع القرار في أمريكا.

❐❐❐

كل ذلك قد حدث في إطار المسيحية الصهيونية على ضفتي الأطلسي - في أوربا وأمريكا - والشرق العربي والإسلامي في غفلة تامة، لا نقول عن الوعي بهذا التاريخ، بل وحتى عن قراءة هذا التاريخ!!.. حتى فوجئ هذا الشرق - بـ «وعد بلفور» - في 2 نوفمبر سنة 1917م - الذي نقل المشروع الصهيوني - مشروع المسيحية الصهيونية المتحالفة مع الإمبريالية الغربية - من إطار الكنائس والمؤسسات اللاهوتية ودوائر المجتمع المدني إلى إطار الدولة والسلطة الاستعمارية - التي أصدرت - باسم وزير الخارجية الإنجليزي «جيمس بلفور» [1848 - 1930م] الوعد للحركة الصهيونية - ممثلة في المليونير الصهيوني «لورد روتشيلد» [1845 - 1934م] بإقامة الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين.. وهو الوعد الذي جاء فيه:

[وزارة الخارجية

في الثاني من نوفمبر سنة 1917م.

عزيز اللورد روتشيلد

يسرني جدًا أن أبلغكم، بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي، الذي ينطوي على العطف على الأماني اليهودية والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتي بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

وسأكون ممتنا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علما بهذا التصريح.

المخلص: آرثر بلفور].

❐ وفي هـذا «التصريح - الوعد» تم الاعتراف بالأقليات اليهودية «شـعبًا» له كل حقوق الشـعوب في أوطانها.. وتـم التأكيد على الحقوق السياسـية لليهود في أي مكان يعيشـون فيه.. بينما أشـير إلى «الشـعب الفلسـطيني» بلفظ «الطوائف غير اليهودية»، مع إغفال الإشـارة إلى «حقوقهم السياسية»، والاكتفاء بالإشارة إلى «حقوقهم المدنية والدينية» فقط لا غير!!.

ولقد تسـارعت، منذ ذلـك التاريخ، الوقائع والقرارات التي تضع هذا الوعد في الممارسـة والتطبيق.

❐ فالقوات الاسـتعمارية الإنجليزية - بقيادة الجنرال «اللنبي» تحتل القدس - في الشـهر التالي لإصدار وعد بلفور، لتضعه في الممارسة والتطبيق:

❐ وفي سـنة 1336هـ سـنة 1918م يعلن الرئيس الأمريكي «ويلسـون» [1856-1924م] التـزام أمريكا بتنفيذ «وعـد بلفور».. ثم ما لبثت أمريكا أن صادقت على هذا الوعد رسـميًا سنة 1922م.. **وقرر مجلس النواب الأمريكي «منح اليهود الفرصة التي حرموا منها لإعادة إقامة حياة يهودية خاصة في الأرض اليهودية القديمة»!.**

❐ وفي سـنة 1340هـ سنة 1922م أقرت «عصبة الأمم» الانتداب البريطاني على فلسطين، لوضع وعد بلفور - بواسطة الاستعمار الإنجليزي، في الممارسة والتطبيق.

وتوالـت الوقائع والأحداث التـي حولت وعد بلفور - بعد ثلاثـين عامًا من صدوره - إلى قـرار أممـي اتخذته الأمم المتحدة في 2 نوفمبر سـنة 1947م - و2 نوفمبر هو تاريخ صدور وعد بلفور!! - فصدر القرار 181 لسـنة 1947م بتقسيم فلسطين، وإعطاء اليهود - الذين لم يكونوا يملكون من أرض فلسطين يومئذ سوي 6.7 % - 54 % من أرض فلسطين!.. أما العرب - الذين كانوا يملكون يومئذ 93.3 % من الأرض - فقد أعطاهم قرار التقسيم 45 % من أرض فلسطين.. مع ترك 1 % للقدس التي قرروا تدويلها!.

❐ والغريب والعجيب أن يقظة العرب على أهوال هذه المأساة لم تبلغ المستوي المطلوب.. فعندمـا ذهبـوا لمحاربة العصابـات الصهيونية التي أعلنـت قيام دولتها، جعلـوا قيادة الجيوش العربية للجنرال «جلوب باشـا» [1897 - 1986م] ابن المسيحية الصهيونية الإنجليزية، وأحد

أركان الانتداب البريطاني على فلسطين.. وصاحب العبارة التي كان مفترضًا أن توقظ النيام - عبارة: **«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»**!!.. أي أن عداء الغرب للشرق ومشكلته معه إنما تعود إلى ظهور الإسلام - الذي حرر الشرق من القهر الروماني - الذي دام عشرة قرون!.

❐ بل لقد تجاوزت الغفلة العربية الوعي بالتاريخ الغربي في المسيحية الصهيونية، إلى حيث تمت الغفلة أيضًا عن النشاطات الصهيونية التي كان يمارسها الصهاينة الذين يعيشون في البلاد العربية ذاتها!!..

ففي دراسات أكاديمية جادة عن الصحافة اليهودية - التي كانت تصدر في البلاد العربية - وعن مواقف اليهود الشرقيين واختياراتهم بين الولاء للأوطان التي يعيشون فيها وبين الولاء للصهيونية الخادمة للمشروع الإمبريالي الغربي، نطالع حقائق مذهلة.. ونقرأ - على سبيل المثال:

«إن معظم اليهود الذين وجدوا في مصر كل رعاية، قد أيدوا الصهيونية، وقاموا بدعمها بشتي الوسائل.. وذهبوا إلى حد إنشاء الجمعيات الصهيونية التي كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشبان اليهود تمهيدًا لتهجيرهم إلى فلسطين، وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة - بما فيها اللغة العربية - لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيوني الأسمي الذي يتمثل في إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين.

❐ ولم يكن يهود مصر فقط هم الذين سارعوا إلى هذه الخيانة الوطنية والحضارية.. فيهود الجزائر قد اشتركوا بوفد يمثلهم في المؤتمر الصهيوني العالمي الأول، الذي انعقد في بال - بسويسرا - 1897م.

❐ ويهود المغرب قد أسسوا أول جمعية صهيونية سنة 1901م، وشاركوا في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس، في بازل - بسويسرا - في ديسمبر سنة 1901م بوفد يمثلهم.

وأصدروا - في الجزائر والمغرب - العديد من الصحف اليهودية، التي اهتمت بإيجاد رابطة بين الصهيونيين والعناصر الموالية للصهيونية في تلك البلاد.

❐ وفي ليبيا أنشأت الطائفة اليهودية مدرسة عسكرية عبرية، خلال الحرب العالمية الثانية لتجنيد بعض شبابها حتى ينضموا إلى اللواء اليهودي الذي تشكل خلال هذه الحرب.. وهو اللواء الذي أصبح القوة الصهيونية الضاربة في حرب اغتصاب فلسطين سنة 1948م.

❐ وفي العراق بدأ النشاط الصهيوني سنة 1919م حينما أسس «أهارون ساسون»، فرعًا للمنظمة الصهيونية.. وفي سنة 1923م اشترك يهود العراق في المؤتمر الصهيوني العالمي الثالث عشر بوفد يمثلهم.

❐ وفي الوقت الذي كانت المظاهرات والإضرابات والاعتصامات والاضطرابات العربية تعم أرض فلسطين سنة 1935م ضد الصهيونية والاستيطان اليهودي، أنشأ اليهود المصريون - في مصر - «وكالات لبيع أرض فلسطين لليهود»!!.. وأخذت الصحف الصهيونية التي يصدرونها - بمصر - في نشر الإعلانات كي يشتري اليهود الأرض العربية في فلسطين.. ولقد نشرت إحدى هذه الصحف - [الشمس] - في العدد 18 بتاريخ 11 - 1 - 1935م - هذا الإعلان:

[إخواني الإسرائيليين

إن فلسطين تناديكم بأعلى صوتها طالبة منكم أنتم أبناءها - [كذا] الأبرار، أن تشتروا كل واحد منكم قطعة أرض بالنقد أو بالتقسيط، وذلك بواسطة البنك على يد الوكيل الوحيد بالقطر المصري، مع التسهيلات في الدفع. وفي زيارة واحدة تشهدوا - [كذا] بصدق قولنا وأمانتنا.

فهيا اذهبوا إلى شارع عبد العزيز رقم 11 شقة رقم 8 بالدور الرابع.

عجلوا ولا تتأخروا، إذ الأراضي يزيد ثمنها من يوم إلى يوم، والمسألة فرصة عظيمة.

الوكيل الوحيد

إبراهيم يعقوب سبرييل

والمقابلة معه من الساعة 1.30 إلى الساعة 3.30 بعد الظهر من كل يوم].

فيهود مصر - الصهاينة - هم في هذا الإعلان - «أبناء فلسطين البررة»!!.. وأرض فلسطين تناديهم لشرائها كي تقوم عليها دولة التوراة!!.

❐ حـدث هـذا - في الأوطـان العربيـة - في ظـل الغفلة شـبه التامة، لا نقول عـن الوعي بالتاريخ.. بل وعن النشاطات التنظيمية والفكرية والعسكرية والإعلامية والاقتصادية التي كان يمارسها الصهاينة في المجتمعات العربية في ذلك التاريخ.

❐ وتشـهد الدراسات الإعلامية الجادة التي كشـفت عن هذه الغفلة أن أوساط «المثقفين الليبراليـين» - الذيـن كانـوا الأكـثر إطلاعًا على مـا يجـري في الدوائر الفكريـة والإعلامية والسياسـية الغربية، والأعلم بلغات البلاد التي تشـهد هذا النشاط المحموم لاغتصاب القدس وفلسطين - كانوا هم الأكثر جهلًا بهذا المخطط القائم تنفيذه على قدم وساق.. وبعبارة إحدى هذه الدراسـات: **«فإن المثير للدهشـة أن معظم المثقفين المصريين الذين عاصروا اليهود أثناء وجودهم في مصر قبل حرب سـنة 1948م كانوا لا يعلمون شـيئًا عن طبيعة النشاط الصهيوني الذي مارسه الصهيونيون في البلاد.. لقد تسامح المثقفون الليبراليون العرب مع الصهيونية، ولم يقف ضدها إلا أصحاب الاتجاهات الإسلامية والعربية»**!!

❐ وحتى القوي التي قفزت على السلطة - عقب هزيمة سنة 1948م - والتي بررت قفزها على السـلطة بالعمل على إنقاذ فلسـطين، فإنهـا - مع هزائمها المتواليـة.. التي مكنت الكيان الصهيوني من ابتلاع كل فلسـطين، والوصول إلى أضعاف حجمه في قرار التقسـيم - مع كل ذلـك، وفوقه، **ظلت هذه النظم تعلـق آمالها في «حل القضية» على رعـاه البقر الأمريكان، الذيـن بلغوا الـذروة في التماهي مع المسـيحية الصهيونية والتوأمة مـع الكيان الصهيوني في فلسطين!!..**

❐ لقد سـادت الغفلة العجيبة عن أن «المسـيحية الصهيونية» قد أصبحت العقيدة الدينية التـي تغلـف النزوع الإمبريالي لأمريـكا في الشرق.. والتي تجعل من الدولـة الصهيونية - التي كانـت أمريـكا أول مـن اعترف بها سـنة 1948م - تجليا إلهيًـا، وكيانًا مقدسًـا، لا يسري عليه القانـون الدولي.. حتى لقد قال القس الأمريـكي «والتر ريجانز» عن هذه النظرية - العقيدة - اللاهوتية:

«إن الصهيونية التوارتية، التي هي بالتأكيد أمنية كل مسـيحي، تتعلق بشكل أساسي بالله وبأهدافـه، ولذلـك تفهم الصهيونيـة من خلال الرؤية المسـيحية على أنها جـزء من اللاهوت

الديني، وليست جزءا من السياسة، وإن دولة إسرائيل هي مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي ومن خلال الشعب اليهودي.

إن واجب المسيحيين دعم إسرائيل وسياستها باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله، واستجابة لإرادته، على أنها تشكل إشارة توراتية بأن الله منشغل جدًا في قضايا هذا العالم»!

ولهذا العقيدة الأسطورية تولي - وتوالي - «الفيتور» الأمريكي لحماية إسرائيل من أن يطبق عليها القانون!.

❐ ولقد عبر «بنيامين نتنياهو» - عندما كان سفيرًا للكيان الصهيوني بالأمم المتحدة - في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1985م عن دور هذه العقيدة المسيحية الصهيونية في البعث اليهودي، والحركة الصهيونية، وفي إقامة إسرائيل، فقال:

«إن كتابات المسيحيين الصهيونيين - الإنجليز والأمريكان - أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل: «لويد جورج» [1863 - 1945م] و«آثر بلفور» [1848 - 193م] و«درو ولسون» [1856 - 1924م] في مطلع القرن العشرين.

إن حلم اللقاء العظيم - [عودة المسيح] - أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورًا رئيسيًا في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية.. لقد تفجر الحلم اليهودي من خلال المسيحيين الصهيونيين»!.

❐ ولقد استمرت هذه الأساطير المسيحية الصهيونية - مسيطرة على صانع القرار الأمريكي.. ومغلفة لمطامع الإمبريالية الأمريكية، بعد قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين..

فالرئيس الأمريكي «لندون جونسن» [1908-1973م] يخطب سنة 1968م في إحدى المنظمات اليهودية فيقول: «إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم روابط عميقة مع أرض وشعب إسرائيل، **كما هو الأمر بالنسبة إليّ، ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم. إن القصص التوراتية محبوكة في ذكريات طفولتي، كما أن الكفاح الشجاع الذي قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس في نفوسنا»**!.

❐ والرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» [1924 - م] الذي يعتنق عقيدة «الولادة الثانية»

- يعترف بأن مشاعره المؤيدة للصيهونية كانت الموجه لسياسته الشرق أوسطية - وضمنها معاهدة كامب ديفيد؟!.. ويقول - في خطاب الأول من مايو سنة 1978م: **«إن العودة إلى أرض التوراة التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية في أرضها هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تشكل جوهر هذه النبوءة»!**

لقد قال ذلك إبان اختيارنا له راعيا للمفاوضات التي أثمرت معاهدة كامب ديفيد سنة 1979م!

❐ والرئيس الأمريكي «رونالد ريجان» [1911 - 2004م] هو القائل سنة 1984م: **«إنني أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة في العهد القديم وإلى المؤشرات حول هرمجدون، فأتساءل بيني وبين نفسي ما إذا كنا الجيل الذي سيري تحقق ذلك؟.. إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»!!**

❐ وحتى الغزو الأمريكي للعراق - الذي قاده الرئيس الأمريكي «بوش» - الصغير - 2003م.. والذي استهدف البترول، وتحطيم القوة العربية التي تخشاها إسرائيل في المشرق العربي - تغلفه أساطير المسيحية الصهيونية التي عبر عنها القس الأمريكي «ديفيد بريكنز» يقوله: **«إننا نعرف أن تدمير بابل - الذي ورد في الإصحاح 18 من سفر إشعيا - يعني تدمير العراق»!**

❐ وبعبارة القس الأمريكي «تشارلزداير» - أستاذ اللاهوت في جامعة «دالس»-: **«إن إصحاح إشعيا 13 يشير قيام صدام حسين [1356 - 1427هـ - 1937 - 2006م] بغزو الكويت، وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل، فصدام هو خليفة «بنوخذ نصر» [605 - 562ق.م] الذي هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل. وذلك بسبب عداء صدام لإسرائيل، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل»!**

هكذا أسست أساطير المسيحية الصهيونية الأمريكية تماهيها مع إسرائيل على النبوءات التوراتية، محولة الخيالات إلى حقائق..

والأعجب والأغرب هو الجهل العربي بكل ذلك.. بل واتخاذ أمريكا راعية لحل النزاع مع إسرائيل، وكأن شعارنا المأساوي هو: **«أشكو منك إليك»!!**

بل لقد ساند العرب والفرس المسيحية الصهيونية الأمريكية في تدمير العراق حتى لا يحدث للدولة الصهيونية الدمار والسبي الجديد؟!.

❐❐❐

تلك هي قصة الأساطير التي صنعت عقيدة المسيحية الصهيونية في الغرب البروتستانتي - الأوربي منه والأمريكي - تلك التي حركت وصنعت تحالف الدين مع الإمبريالية لاغتصاب الأرض المقدسة في القدس وفلسطين..

وتلك هي وقائع المقدمات الممهدات لوعد بلفور.. وما تبعه من غزو وخداع وضعه في الممارسة والتطبيق..

وتلك هي قصة الغفلة العربية عن دور العامل الديني - للمسيحية الصهيونية - في صناعة المأساة التي تجابهنا على أرض فلسطين.. والتي تحتاج - كي نواجهها مواجهة حقيقية وفاعلة - إلى وعي تاريخي.. و إلى جهاد مسلح بهذا الوعي التاريخي.. وذلك على النحو الذي جسدته كلمات صلاح الدين الأيوبي [532 - 589هـ - 1137 - 1193م] في رسالته إلى الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [1199-1157م] والتي قال فيها:

«القدس إرثنا كما هي إرثكم.

من القدس عرج نبينا إلى السماء.

وفي القدس تجتمع الملائكة.

لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة.

أما بالنسبة إلى الأرض، فإن احتلالكم فيها كان شيئًا عرضيًا، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء.

ولن يمكنكم الله أن تشيدوا حجرًا واحدًا في هذه الأرض طالما استمر الجهاد»[1].

(1) من مصادر ومراجع هذه الدراسة:

- [ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية] طبعة هيئة الاستعلامات - القاهرة - بدون تاريخ. =

❐ إنـه صراع تاريخي، مركب.. ومعقد.. والطريق إلى حله وحسـمه هو الجهاد - في كل ميادين الجهاد - كما قال وفعل صلاح الدين الأيوبي.. وليس «لعبة» 99 % من أوراقها بيد رعاة البقر الأمريكان - كما زعم الذين لا يعون التاريخ.

❐❐❐

= - [النبوءة والسياسة] لجريس هالسل - ترجمة محمد السماك - طبعة ليبيا سنة 1989م.
- [الدين في القرار الأمريكي] لمحمد السماك - طبعة بيروت سنة 2003م.
- [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] لسهام نصار - طبعة بيروت سنة 1980م.
- [الصحافة الصهيونية في مصر 1897 - 1954م - دراسة تحليلية] للدكتورة عواطف عبد الجليل - طبعة القاهرة سنة 1980م. =
- [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة 2005م.
- [القدس الشريف - في الدين والتاريخ والأساطير] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة 2011م.

المنهجية

المنهجية

المنهاج. والمنهج.. والنهج.. هو، الطريق الواضح البين. وقسطاس النظر المستقيم.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركَكم على طريق ناهجة، أي واضحة بينة مستقيمة.

ولأن هذا الذي صنعه رسول الله ﷺ من القول والفعل والإقرار هو البيان النبوي للبلاغ القرآني، والخلق والسجايا والإنجازات العملية التي حولت القرآن الكريم إلى حياة معيشة ومنهاج شامل للفرد والأسرة والأمة. للذات والآخر، للدين والدولة. للعبادات والمعاملات، للثقافة والمدنية، والحضارة، لآداب السلوك وعلم القلوب وفلسفات العقول، لفقه الكتاب المسطور والوعي بسنن كتاب الله المنظور.

لأن منهاج النبوة هذا كان البيان النبوي للبلاغ القرآني، فإن هذا القرآن الكريم قد مثل - وما زال يمثل وسيظل يمثل - الكتاب الجامع لكل مناهج النظر والعمل للإنسان الراشد في جميع ميادين الحياة وفي سائر الأعمال التي تؤدي إلى الرشاد والسعادة في المعاش والمعاد.

إنه كنز المنهجية الذي لا ينفد، وجماع آفاق النظر المنهجي التي تتسع دائمًا وأبدًا أمام خطرات القلوب ونظرات العقول وتجارب المشاعر والحواس.

وإذا كانت كلمات الله ومخلوقاته لا نهائية، تبعًا للانهائية طلاقة القدرة الإلهية والإبداع الرباني:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: 27].

فإن آيات الله المسطورة، وكلماته التي نزل بها الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ﷺ هي مجمع بحار النظر ومناهج الفكر في كل ميادين الحياة وسائر عوالم الأحياء.

□□□

وإذا نحن شئنا في هذا الحيز الموجز أن نشير - مجرد إشارات - إلى نماذج من المناهج التي يمكن للعقل، المسلم أن يلمحها ويستخرجها ويبلورها من القرآن الكريم، لترسم له معالم المنهج الذي يعين ويحدد سبل الرشاد في المواقف المختلفة، والطرق المتباينة، ووفق مقتضيات الأحوال، وبحسب فقه الوقع المعيش، تحقيقًا للمقاصد والثوابت الكبرى التي جاء لها الدين: هداية الإنسان إلى السعادة في المعاش والمعاد.

إذا نحن شئنا - في هذا الحيز الموجز - إشارات إلى بعض الآيات القرآنية التي تمثل إضاءات منهجية، والتي تمثل نماذج تفتح الأبواب لهذا العلم من علوم القرآن الكريم - علم المناهج القرآنية - فإننا نشير إلى هذه النماذج التي تمثلها هذه الآيات:

1- المنهاج القرآني الذي يعلم المسلم عدم الجمود على طريق واحد من الطرق المتعددة التي توصل إلى ذات المقاصد والمصالح الشرعية المعتبرة؛ فالمقاصد الشرعية المعتبرة واحدة، لكن المناهج والطرق إلى تحقيقها تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف الواقع المعيش ووفق الموازنات بين المصالح والمفاسد في هذا الواقع المعيشي:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: 67].

2- ومنهاج التلطف، عندما يكون السبيل إلى الحفاظ على الذات التي ستسعى لتحقيق المقاصد الشرعية المعتبرة:

﴿ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [الكهف: 19، 20].

3- ومنهاج الغلظة الرادعة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: 9].

4- ومنهاج الإغاظة للكفار المعتدين:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: 120].

5- ومنهاج الجدال والحوار بالتي هي أحسن، إلا مع الذين ظلموا:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 46].

6- ومنهاج الصبر على مقولات الشرك وإحالة أمر رؤوس المكذبين إلى القادر القاهر:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ [المزمل: 10، 11، 12].

7- ومنهاج بذل المعرفة والعلم للكافة، حتى للمشرك الطالب للمعرفة:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6].

8- ومنهاج التمييز بين فصائل الآخرين وتياراتهم ومذاهبهم:

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 113، 115].

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 100، 101].

9- ومنهاج نسبية العلم الإنساني، وجزئية المعرفة الإنسانية، تبعًا لنسبية مدركات العقل الإنساني، بالقياس إلى العلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط:

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 76].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: 114].

وقصة موسي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع صاحب العلم اللدني في سورة الكهف شاهد على الفارق بين النسبي وبين اللدني في المعارف والعلوم:

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: 65].

فالعلم الإنساني ثمرة للوجود والموجود، بينما العلم الإلهي مصدر للوجود والموجود؛ ولذلك يوصف الله تبارك وتعالى بأنه عالم ولا يوصف بأنه عارف لنسبية المعرفة وجزئيتها ولسبق الجهل لها. كما يقال: عرفت الله، ولا يقال: علمت الله؛ لاستحالة إحاطة الإنسان يعلم ذات الله وكنهه، كما يوصف الله جلت قدرته بأنه الشارع للشريعة الإلهية، التي هي علم إلهي كلي، ووضع إلهي مطلق ومحيط.. ولا يوصف الله - سبحانه - بأنه فقيه لأن الفقه معرفة جزئية، متغيرة، يثمرها التفكر والتعقل في فقه الواقع وتنزيل الشريعة على هذا الواقع المعيش.

10- ومنهاج التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في: الخلق، والشرائع، والملل، والنحل، والثقافات، واللغات، والقوميات، والحضارات، والأنواع، والأجناس، والألوان، والقبائل، والأمم والشعوب.. ودوام هذه السنة في التعدد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: 4].

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه: 53].

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: 148].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 48].

11- ومنهاج التدافع، والحراك الفكري والاجتماعي. الذي يصحح الخلل، ويزيل المظالم، ويعيد العلاقات بين الفرقاء المتمايزين إلى مستوى العدل والتوازن:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: 251].

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40].

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 96].

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

وهذا المنهاج القرآني في التدافع هو البديل لمنهاج الصراع الذي يصرع فيه القوي الضعيف؛ فينهي سنة التعددية والتمايز والاختلاف:

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 7، 8].

12- ومنهاج الضرورات المبيحة للمحظورات، والتي تقدر بقدرها:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 173].

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن

كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: 105، 106].

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28].

13- والمنهاج الوسطي في التعامل مع الأنبياء والمرسلين - كبشر يوحى إليهم - فهم بشر، تسري عليهم سنن الله في البشر، وهم معصومون فيما يبلغون عن الله من نبأ السماء العظيم؛ فأرواحهم - كما يقول الإمام محمد عبده [1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م]، ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية، يشرفون بها على الغيب بإذن الله، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. أما فيما عدا ذلك، فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده (الأعمال الكاملة ج 3 ص 400، 406).

وهذا المنهاج هو الذي يعصم من غلوي الإفراط والتفريط. يعصم من تأليه الأنبياء والمرسلين وعبادتهم من دون الله، كما يعصم من تكذيبهم وقتلهم على نحو ما صنع الغلاة!

❐❐❐

تلك إشارات - مجرد إشارات - لنماذج من المنهجيات القرآنية، التي مثلت - وتمثل - أبوابًا متعددة، وطرقًا متمايزة يفتحها فقه المنهجية القرآنية أمام العقل المسلم؛ ليتخير هذا العقل المنهاج الذي يقود إلى تحقيق المقاصد الشرعية المعتبرة، في ضوء فقه الواقع المعيش.

المواطنة

المواطنة

المواطنة: مفاعلة - أي تفاعل - بين الإنسان المواطن وبين الوطن الذي ينتمي إليه ويعيش فيه.. وهي علاقة تفاعل، لأنها ترتب للطرفين وعليهما العديد من الحقوق والواجبات - فلا بد لقيام المواطنة أن يكون انتماء المواطن وولاؤه كاملين للوطن، يحترم هويته ويؤمن بها وينتمي إليها ويدافع عنها، بكل ما في عناصر هذه الهوية من ثوابت اللغة والتاريخ والقيم والآداب العامة، والأرض التي تمثل وعاء الهوية والمواطنين.. وولاء المواطن لوطنه يستلزم البراء من أعداء هذا الوطن.

وكما أن للوطن هذه الحقوق على المواطن، فإن لهذا الوطن على وطنه وشعبه وأمته حقوقًا كذلك، من أهمها المساواة في تكافؤ الفرص، وانتفاء التمييز في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بسبب اللون أو الطبقة أو الاعتقاد، مع تحقيق التكافل الاجتماعي الذي يجعل الأمة والشعب جسدًا واحدًا.

وإذا كان التطور الحضاري الغربي لم يعرف المواطنة وحقوقها إلا بعد الثورة الفرنسية، بسبب التمييز على أساس الدين - بين الكاثوليك والبروتستانت - وعلى أساس العرق - بسبب الحروب القومية - وعلى أساس الجنس - بسبب التمييز ضد النساء - وعلى أساس اللون - في التمييز. ضد الملونين. - فإن المواطنة الكاملة - في الحقوق والواجبات - قد اقترنت بالإسلام، وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى - في المدينة المنورة - على عهد رسول الله ﷺ.. فالإنسان - في الرؤية الإسلامية - هو مطلق الإنسان.. والتكريم الإلهي هو الجميع بني آدم.. والخطاب القرآني موجه أساسًا إلى عموم الناس.. ومعايير التفاضل هي التقوى المفتوحة أبوابها أمام الجميع..

ولقد وضعت الدولة الإسلامية فلسفة المواطنة هذه في الممارسة والتطبيق، وقننتها في المواثيق والعهود الدستورية منذ اللحظة الأولى لقيام هذه الدولة في السنة الأولى للهجرة.. ففي أول دستور لهذه الدولة تأسست الأمة على التعددية الدينية، ونص الدستور - الصحيفة

- على أن «**اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن لهم النصر والأسوة مع البر من أهل هذه الصحيفة.. وينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم**».

هكذا تأسست المواطنة، بالإسلام، في الدولة الإسلامية عندما جمعت الأمة أهل الديانات المتعددة، على قدم المساواة، لأول مرة في التاريخ.

❐❐❐

وعندما بدأت العلاقات بين سلطة الدولة الإسلامية - على عهد رسول الله ﷺ والمتدينين بالنصرانية - نصارى نجران سنة 10هـ - قررت الدولة الإسلامية - بالعهود الموثقة - كامل المساواة في حقوق المواطنة وواجباتها، وكان الشعار هو: «**لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**».. ولقد نص العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ لنصارى نجران - ولكل النصارى عبر الزمان والمكان - على «**أن لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل النصرانية في أقطار الأرض، جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم.. وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..**».

❐ وعندما أباح الإسلام زواج المسلم من الكتابية - اليهودية والنصرانية - أسس ذلك على شرط احترام عقيدتها الدينية احترامًا كاملا.. ولا بد في الزواج من رضا الأهل.. ولقد جاء في عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران عن هذا الزواج: «**ولا يحملون من النكاح شططا لا يريدونه. ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين.. لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم.. إن أحبوه ورضوا به.. وإذا صارت النصرانية عند المسلم، فعليه أن يرضي بنصرانيتها، ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك. فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها، فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين**».

❐ بل لقد بلغت آفاق المساواة في حقوق المواطنة إلى الحد الذي نص فيه عهد رسول الله ﷺ إلى النصارى على مساعدة الدولة الإسلامية لهم - عند الحاجة - في بناء دور عبادتهم وترميمها.. وجاء في هذا العهد والميثاق النبوي: «**ولهم - إن احتاجوا إلى مرمة بيعهم وصوامعهم أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم - إلى رفد - [أي دعم و إعانة] - من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، ن يرفدوا على ذلك و يعاونها، ولا يكون ذلك دينا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم، ومنة لله ورسوله عليهم..**».

❐ وحتى في المسائل المالية والاقتصادية - مثل الخراج والضرائب - نص عهد رسول الله للنصارى على أنه «**لا يجار عليهم، ولا يحملون إلا قدر طاقتهم وقوتهم على عمل الأرض وعمارتها و إقبال ثمرتها، ولا يكلفون شططا، ولا يتجاوز بهم أصحاب الخراج من نظرائهم..**».

❐ وكل حقوق المساواة في المواطنة، التي قررها الإسلام لغير المسلمين في الدولة الإسلامية - «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.. وحماية الأنفس والدماء والأموال والأعراض وأماكن العبادة والحريات» هي في مقابل الولاء الكامل للوطن، والانتماء الخالص للمجتمع والدولة والأمة - وهي واجبات على كل المواطنين، المسلمين منهم وغير المسلمين.. وفي تقرير هذه الواجبات نص عهد رسول الله ﷺ فقال: «**واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم في دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عينا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته، ولا يأوي منازلهم عدو للمسلمين ولا يساعدوا أحدًا من أهل الحرب على المسلمين بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصافحوهم.. وأن يكتموا على المسلمين، ولا يظهروا العدو على عوراتهم..**».

❐ كذلك نص عهد رسول الله ﷺ للنصارى على الحرية الدينية.. فجاء فيه: «**ولا يُجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الإسلام** ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46]. **ويخفض لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد..**».

❐❐❐

بل إن هذه المساواة الكاملة في حقوق المواطنة وواجباتها - «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم - لم تقف بها الدولة الإسلامية عند أهل الكتاب - اليهود والنصاري - و إنما شملت حتى المتدينين بالديانات الوضعية - من المجوس وغيرهم.. فبعد فتح فارس عرض عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الأمر على مجلس الشورى - مجلس السبعين - وقال: نحن نعرف حكم اليهود والنصارى.. فماذا عن حكم هؤلاء المجوس؟.. فوثب عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قائلاً: **«أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوفيهم سنة أهل الكتاب»**.. فعاملت الدولة الإسلامية طوال تاريخها أهل الديانات الوضعية - المجوس.. والزرادشت.. والبوذيين.. والهندوس - معاملة أهل الكتاب، التي قررت مبادئها مواثيق رسول الله ﷺ لغير المسلمين في الدولة الإسلامية..

❐ و إذا كانت المواطنة وحقوقها قد عرفها الغرب على أنقاض الدين، بعد انتصار العلمانية على الكنيسة الغربية. ولذلك جاءت مواطنة علمانية.. فإن الإسلام هو الذي أنشأ المواطنة، وشريعته هي التي قررت حقوقها، وبذلك ضمنت القداسة لهذه الحقوق، حتى لا تكون «منحة» يسمح بها حاكم ويمنعها آخر.. وبعبارة رسول الله ﷺ **«فمن خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله فهو عند الله من الكاذبين»**..

كذلك، قرر الإسلام - في دستور دولة المدينة - أن الشرعية الإسلامية - كما هي ضامنة للحقوق والواجبات في المواطنة - فإنها هي المرجع عند الاختلاف.. فنص هذا الدستور على **«أنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو شتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله و إلى محمد رسول الله»**..

❐❐❐

هكذا أبدع الإسلام - الدين والدولة والحضارة - كامل المساواة في حقوق المواطنة وواجباتها، قبل أربعة عشر قرنًا.. عندما كانت الدول والحضارات الأخرى لا تعترف بالآخر.. فالمواطنون في أثينا كانوا هم الرجال الأحرار الملاك الأشراف من اليونان، ومن عداهم برابرة ليست لهم أية حقوق.. وكذلك كان الحال عند الرومان.. لكن الإسلام هو الذي قرر وقنن

وطبـق كامل المسـاواة بين الرعية والأمة في الدولة الإسـلامية، في تكافـؤ الفرص.. وفي حرمة الأنفس.. والدماء.. والأعراض.. والأمـوال.. والعقائد.. والحريات.. ولذلك فتحت الأبواب الواسـعة أمام مختلف الملل. والنحل والمذاهب فشاركوا في بناء هذه الحضارة الإسلامية وصنع التاريخ الإسلامي..

و إذا كانت السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. فإن هذه العهود النبوية التي قننت حقوق المواطنة وواجباتها هي «سنة نبوية قولية»، تحولت - بالتطبيق - إلى «سنة عملية» أيضًا.. وأمام هذه السـنة النبوية لا مجال لأي اجتهاد يخالفهـا، بصرف النظرعن مقام صاحب الاجتهاد المخالف..

لقـد شـهد التاريخ الإسـلامي آراء مختلفة إزاء غير المسـلمين في المجتمعات الإسـلامية.. وكانت كثير من هذه الآراء ثمرة لظروف سياسـية.. ومخاطر خارجية.. لكن يظل الإسلام هو كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ ففيهما الحكم العادل في قضية المواطنـة والوحدة الوطنية، التي قررها الإسلام.

□□□

ميثاق العيش المشترك

ميثاق العيش المشترك

- 1 -

من القرآن الكريم

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 63].

- 2 -

من السنة النبوية

في عام الوفود [سنة 10هـ - سنة 631م] جاء إلى المدينة المنورة - عاصمة دولة النبوة - وفد نصارى نجران - باليمن -.. فاستقبلهم الرسول ﷺ وصحابته..

وفتح لهم الرسول أبواب مسجد النبوة، فصلوا فيه صلاة عيد الفصح..

وكتب لهم عهدا دستوريًا، لهم ولكل من يتدين بدين النصرانية - عبر الزمان والمكان - جاء فيه:

«لنجران وحاشتيها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وتبعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.

❐ لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته.

❐ وأن أحرس دينهم، وملتهم أين كانوا.. بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..

❐ ولا يُحملون من النكاح - [الزواج] - شططا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا في ذلك إن منعو خاطبًا وأبو تزويجًا، لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به.

❐ و إذا صارت النصرانية عند المسلم - [زوجة] - فعليه أن يرضى بنصرانيتها، و يتبع هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك. فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

❐ ولهم - [أي النصاري] - إن احتاجوا في مرمة بيعهم وصوامعهم أو أي شيء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفد - [مساعدة] - من المسلمين وتقوية لهم على ترميمها، أن يرفدوا على ذلك و يعاونوا، ولا يكون ذلك دينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنة لله ورسوله عليهم.

❐ .. لأني أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذي استوجبوا حق الزمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذب عنهم كل مكروه حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.

❐ واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم في دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها:

ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته.

ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا في شيء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة.

ولا يرفدوا - [يساعدوا] - أحدًا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.

و إن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن

يؤوهـم و يرفدوهم و يواسـوهم فيما يعيشـون به ما كانـوا مجتمعين، وأن يكتمـوا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم.

ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم..

❐ ولا يدخل شيء من بنائهم في شيء من أبنية المساجد، ولا منازل المسلمين..

❐ ولا خـراج ولا جزبة إلا [على] من يكون في يده ميراث من ميراث الأرض، وممن يجب عليه فيه للسـلطان حـق، فيؤدي ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يجـار عليه، ولا يحمل منه إلا قدر طاقتـه وقوته علي عمل الأرض وعمارتها و إقبال ثمرتها، ولا يكلف شـططا، ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه.

❐ ولا يكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، و إنما أعطوا الذمة على أن لا يكلفوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذبابًا عنهم، وجوارًا من دونهم.

❐ ولا يكرهـوا على تجهيـز أحد من المسـلمين إلى الحرب الذي يلقون فيـه عدوهم، بقوة وسـلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسـهم، فيكون من فعـل ذلك منهم وتبرع به، حمد عليه وعرف له، وكوفئ به.

❐ ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهًا على الإسـلام، ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

❐ ويخفض لهـم جناح الرحمة، و يكف عنهم أذى المكروه حيـث كانوا، وأين كانوا من البلاد..

❐ فمن نكث شـيئًا من هذه الشرائط وتعداها إلى غيرها فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله..

❐ ولا ينقض ذلك ولا يغير حتى تقوم الساعة إن شاء الله..»[1].

(1) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص 112، 123 - 127. تحقيق: د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة 1376هـ - 1956.

الهوية الحضارية الإسلامية

الأصالة.. والمعاصرة.. والتحديات

الهوية الحضارية الإسلامية

الأصالة.. والمعاصرة.. والتحديات

تحرير مضامين المصطلحات

في بداية الحديث عن قضية «الهوية الثقافية الإسلامية» وأبعادها المختلفة، وعلاقتها بكل من «الأصالة» و«المعاصرة»، و«الثوابت» و«المتغيرات».. لا بد من تحديد المعنى العلمي للمصطلحات..

❐ **«فالهوية»:** في اصطلاح حضارتنا العربية الإسلامية - مأخوذة من «هو.. هو»، بمعنى: جوهر الشيء - وحقيقته - وبتعبير «الشريف الجرجاني» [740 - 816 هـ - 1340 - 1413م] فهي: **«الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة»**.

وعند «أبو البقاء الكفوي» [1094هـ - 1683م] هي: **«ما يتميز به الشيء عن الأغيار»**[1].. فهوية الإنسان، أو الثقافة، أو الحضارة.. هي: جوهرها وحقيقتها وثوابتها السارية فيها، والمصاحبة لها..

ولما كان في كل شيء من الأشياء - إنسانًا أو ثقافة أو حضارة - «الثوابت» و«المتغيرات»، فإن هوية الشيء هي «ثوابته» التي «تتجدد» ولا «تتغير».. تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة.. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان، تتجدد فاعليتها، وينجلي وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الغبار وعوامل الطمس والحجب، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات.

(1) الجرجاني [التعريفات] طبعة القاهرة سنة 1938م. وأبو البقاء الكفوي [الكليات]. تحقيق: د. عندنان درويش، محمد المصري. طبعة دمشق سنة 1982م.

❐ **و«الثقافة»:** هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها.. فالتثقيف: من معانيه التهذيب. **و إذا كانت «المدنية» هي تهذيب الواقع بالأشياء، فإن «الثقافة» هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار**.. وكلاهما عمران.. عمران الواقع.. وعمران النفس.. فهما شقا «الحضارة» - التي هي «العمران» -.

وتعلق «الثقافة» واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها، هو الذي يعطي لثقافات الحضارات المتميزة تمايزًا منبعه ومنطلقه ودواعيه: تميز النفس الإنسانية، في كل حضارة من الحضارات، بتميز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات التي تمايز بين «البصمات الثقافية» في أمم هذه الحضارات.

❐ **و«الأصالة»:** في عرف العربية - من «الأصل».. وأصل كل شيء نسبه الذي إليه يرجع وله ينتسب وجوهره وحقيقته وثوابته الباقية، والمستعصية على الفناء والزوال.. **فالأصالة، في ثقافة ما، هي جذورها الأصلية، وثوابتها المستمرة**، أي هويتها الممثلة «للبصمة» التي تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى.

❐ **أما «المعاصرة»:** فإنها المفاعلة، **أي التفاعل بين الإنسان - أو الثقافة أو الحضارة - وبين العصر - أي الزمن - المعيش**.. فإن تمايزت الأمم في ثقافاتها لتمايز هويات هذه الثقافات فإنها لا بد متمايزة في تفاعلها مع العصر الذي تعيش فيه.. فللأمم المتمايزة في الهويات الثقافية «معاصرات» متميزة.. وليست هناك في العصر الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات - كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هي استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة في عصر ما -!.

إنها أشبه ما تكون بتفاعل الإنسان وتلاؤمه مع اللحظة الراهنة من عمره، تفاعلًا يضيف به الجديد ويتجاوز به غير الملائم من مواريثه، وفق المعايير التي هي ثوابته، وأصالته، وهويته.. إنها الهوية المتميزة، والأصالة المتميزة تتجلى في طور جديد.. كالإنسان الذي يتطور دون أن يفقد هويته أو يتنازل عن أصالته أو يمحو «البصمة» التي تميزه عن غيره من الناس.

إذًا: فلكل ثقافة أصالة متميزة هي هويتها وجوهرها وحقيقتها وثوابتها.. ولكل أصالة ثقافية متميزة معاصرتها المتميزة كذلك.

هذا عن المصطلحات ومضامينها.. وما يمثله ضبط هذه المضامين من إسهام في وضوح الرؤية الذي نطمح إليه.. وضوح الرؤية لموضوع «الهوية الثقافية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة».

إسلامية الهوية الثقافية

فـإذا ما انتقلنا إلى صلب الموضوع، وتسـاءلنا عن هوية ثقافـة أمتنا، التي هي جوهر هذه الثقافة، وحقيقتها والأصالة المميزة لها، فإننا نستطيع أن نقول إنها **«الإسلام.. والعروبة»**.

فمنذ أن تدينت أغلبية هذه الأمة بالإسـلام، أصبح هذا الإسـلام هو الهوية الممثلة لثقافة هذه الأمة.. فهو الذي طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته.. فعاداتها وتقاليدها وآدابها وفنونها، وسـائر علومها الإنسانية - في السياسة والاقتصاد والاجتماع - وفلسفة علومها الطبيعيـة والتجريبية.. ونظرتهـا للكون.. وللذات.. وللآخر.. وتصوراتها لمكانة الإنسـان في هذا الكون.. من أين أتى؟.. وإلى أين ينتهي؟.. وحكمة هذا الوجود وغايته؟.. كل ذلك - وما ماثله - قد انطبع بطابع الإسـلام، واصطبغ بصبغته.. حتى لنسـتطيع أن نقول ونحن مطمئنون كل الاطمئنـان: إن ثقافتنا إسـلامية، وإن معيار الدخول والخـروج في ميدان ثقافتنا، والقبول والرفض فيها، هو المعيار الإسلامي.

❐ ولأن الإسلام هو خاتم الرسالات التوحيدية، ولأنه انتشر في بلاد كانت تتدين شعوبها بديانـات سـماوية سـابقة، **فإنه لم يقم قطيعـة معرفية مع هـذه الديانات، وإنما جـاء مصدقًا لثوابتهـا النقيـة، ومضيفًا إليها.. مصدقًا ومهيمنًا، لا بمعنى قاهـرًا - وإلا لم يكن مصدقًا - وإنما بمعنى مسـتوعبًا ومصححًـا ومضيفًا..** ولقد تجلت هذه الحقيقة، التي جعلت الهوية الإسـلامية مسـتوعبة للهويات الدينية التي سـبقت ظهوره.. تجلت في عقيدة «وحدة الدين» من بدئه إلى ختامـه، مع تعدد الشرائع - عبر التاريخ - في إطار وحدة الدين.. على النحو الذي يجعل الإيمان الديني أشبه ما يكون «بالسلم» الذي تمثل كل شريعة من شرائعه درجة من الدرجات، فالأمم تصعد درجات هذا السلم، حتى ختام درجاته، مضيفة الجديد، دونما قطيعة معرفية مع الثوابت والأصول.

ولقد عبر عن وضوح الرؤية الإسلامية لهذه الحقيقة - حقيقة استيعاب الإسلام لمواريث النبوات السـابقة، واشـتماله على ثوابتها وأصولها، ذلك الحوار الذي دار بين الصحابي حاطب ابـن أبي بلتعـة [35 ق.هـ - 30هـ - 586 - 650م] وبـين «المقوقس» - عظيم القبط - عندما حمل

حاطب إليه رسالة رسول الله ﷺ سنة 7 هـ 628م.. ففي هذا الحوار قال حاطب للمقوقس: **«إن لك دينًا (أي النصرانية) لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل.. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»**[1].

فالإسلام - إلى جانب تقريره حرية الاعتقاد - هو الوارث والمستوعب لثوابت كل الرسالات السابقة، على النحو الذي جعله **«الكافي به الله فقد ما سواه»**!.. وليس الذي يقيم قطيعة معرفية مع ما سواه.

❐ وكما استوعب الإسلام المواريث الثقافية والحضارية السابقة على ظهوره - بل و إحيائه لها و إنقاذها من الموات! - فلقد فتح الأبواب لأهل الديانات السابقة كي يسهموا في بناء ثقافته وحضارته - التي غدت ثقافتهم وحضارتهم - .. وتفاعل مع ما لديهم من ثقافات فرعية، وترك بصماته عليها.. فاندمجت مواريثهم في الثقافة الإسلامية الجامعة.. وتأثرت ثقافاتهم الفرعية بثقافة الإسلام.. وكما يقول المستشرق الألماني «شاخت» [1902 - 1969م]: **«فإن التشريع الإسلامي قد أثر تأثيرًا عميقًا في جميع فروع القانون عند أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية.. فموسى بن ميمون [601هـ - 1204م] قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته «مشنة توراة» وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من اليهود.. وبالنسبة للجانب المسيحي، فليس هناك شك أن اليعاقبة والمونوفيزية - [أصحاب الطبيعة الواحدة] - والنسطوريون لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي»**[2].

هكذا نضج المزيج الثقافي الإسلامي الجديد، مستوعبًا مواريث الثقافات والحضارات والديانات السابقة، ومشركًا الطوائف والأقوام الشرقيين في بناء هذا المزيج الجديد، ومؤثرًا في الثقافات الفرعية التي فتح أمامها أبواب الازدهار.

---

(1) ابن عبد الحكيم [فتوح مصر وأخبارها] ص46. طبعة ليدن سنة 1920م. و[مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص72، 73. تحقيق: د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة 1956م.

(2) شاخت [التشريعة الإسلامية] - كتاب [تراث الإسلام] القسم الثالث - ص27 - 29 - طبعة عالم المعرفة - الكويت - 1978.

❐ وكما أن في الإسلام عقائد وعبادات، هي خاصة بالأغلبية التي آمنت به ودخلت فيه، فإن فيه - أيضًا - شرائع وفقه معاملات - قوانين - غدت سمات جامعة وقسمات شاملة لكل الذين عاشوا في ديار الإسلام، على اختلاف عقائدهم ولغاتهم ولهجاتهم.. وكذلك الحال مع منظومة القيم والأخلاق، التي جاء الإسلام متممًا لها - وليس ناسخًا لما سبقته بها الرسالات السماوية السابقة - .. أصبحت هذه المنظومة من القيم والأخلاق جزءًا من الهوية الثقافية الإسلامية الجامعة لكل الذين استظلوا براية الإسلام..

هكذا أصبحت هوية الأمة إسلامية.. وغدت «الإسلامية» ثابتًا وجامعًا في هذه الهوية الحضارية.

❐❐❐

عروبة الهوية الثقافية

❐ أمـا قسـمة العروبة، فإنها معيار لغوي وثقافي، وليسـت عرقًا ولا دمًـا.. ولقد حدد هذا المعيار - المتسـق مع عالمية الإسـلام - حديث رسـول الله ﷺ الذي قال فيه: «**ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي**»[1].

فحيثـما امتدت العربية وثقافتها، غدت هوية للذيـن اتخذوها لغة لهم، ومنحوها ولاءهم وانتماءهم.. بصرف النظر عن أصولهم الجنسية والفئوية..

❐ ولأن العربيـة هـي لغة القرآن الكريم - النص المؤسـس والمركزي الذي انداحت من حولـه دوائـر الثقافة والمدنيـة والحضارة - فلقد عُـدت هي الأخرى مكونًا رئيسـيًّا في الهوية الثقافيـة والحضارية.. لكل الذين اسـتظلوا براية الحضارة الإسـلامية.. ولقد كان موقفها من اللغات واللهجات في البلاد التي أنتشر فيها الإسلام مماثلا لموقف الإسلام من المواريث الدينية التي سـبقت ظهوره.. فهي لم تقهر اللغات واللهجات التي استمسك بها أقوامها، وإنما تبوأت موقع اللغة الأم، والرباط الجامع، مع بقاء اللغات واللهجات القومية الأخرى - مثل الفارسـية والكردية والأردية والتركية والأمازيغية - لغات أو لهجات فرعية خاصة بأقوامها.. **فالإسلام هـو المكون الأول لهوية الأمة، مع بقاء العقائد السـماوية الأخرى دوائر عقدية في المحيط الإسـلامي الجامع.. والعربية هـي المكون الثاني للهوية الثقافيـة والحضارية مع بقاء اللغات واللهجـات القومية الأخـرى دوائر في الثقافات الفرعية لأقوامهـا.. وهكذا أصبحت الهوية الإسلامية العربية أشبه ما تكون «بالمحيط» الذي يحتضن «جزرا» من العقائد واللغات دونما تناقض بين الهوية الأم والأساسية وبين الثقافات الفرعية ولغاتها ولهجاتها.. فالتعددية - حتى في العقائـد - سـنة من سـنن الله في الاجتماع الديـني.. والاختلاف في الألسـنة - اللغات - آية مـن آيات الله!.. إنها الوحدة في الهوية الثقافية الإسـلامية التي صاغها الإسـلام، والتنوع في الثقافات الفرعية التي استظلت بشريعة الإسلام ولغة القرآن الكريم.**

❐❐❐

(1) رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل.

شهادات مؤيدة وداعمة

❐ و إذا كانت تيارات الأصالة الفكرية في واقعنا المعاصر إنما تتمثل - أساسًا - بل وتكاد تنحصر في:

أ- تيار إسلامي.. تنتمي إلى فصائله المتعددة أغلبية الأمة..

ب- وتيار قومي؛ هو - في أغلب فصائله - امتداد لأصالة الأمة اللغوية والتاريخية.. و إذا كان الإيمان بأن الإسلام هو ثقافة أمتنا وأصالتها ومعيار تميز هويتها - ومن ثم معاصرتها - عن أمثالهما في ثقافات أمم الحضارات الأخرى.. إذا كان ذلك مسلّمة من المسلمات الفكرية لدى المسلمين والإسلاميين من أبناء أمتنا.. فإنه أيضًا من المسلمات التي يدعو إليها العديد من الرموز في الدوائر غير المسلمة وغير الإسلامية في واقعنا الوطني والعربي والإسلامي المعاصر.. وعلى سبيل المثال:

❐ **فمكرم عبيد باشا** [1889 - 1961م] يعلن عن عروبة مصر والمصريين في اللغة والثقافة.. وعن إسلامية حضارتهم - بمن فيهم النصارى والأقباط - أي عن أن هوية الأمة - بدياناتها المختلفة - هي العروبة والإسلام.. يعلن عن ذلك، فيقول: «**المصريون عرب.. وتاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات، لا بل هو شبكة محكمة العقد.. ورابطة اللغة، والثقافة العربية، والتسامح الديني، هي الوشائج التي لم تفصمها الحدود الجغرافية، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالًا على الرغم من وسائلها التي تتذرع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التي لا ريب في أنها أعظم الأركان التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي. وأبناء العروبة في حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبني حضارة زاهرة.**

نحن عرب، ويجب أن نذكر في هذا العصر دائمًا أننا عرب، وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان، نحن عرب من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية في مصر، وامتداد أصلنا السامي القديم إلى الأصل السامي الذي هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية.. فالوحدة العربية حقيقة

قائمـة موجودة لكنها في حاجـة إلى تنظيم فتصير كتلة واحدة وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة»[1].

هكذا تحدث مكرم عبيد باشـا عن عروبة الهوية الحضارية للأمة.. وتحدث - أيضًا - عن إسـلامية هذه الهوية الحضارية بالنسـبة لأقباط مصر، فقال: **«نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين»**[2].

❐ ومـن رجال الكهنوت الأرثوذكس، تحدث **الأنبا موسى** - أسـقف الشـباب بالكنيسـة الأرثوذكسـية، وعضو المجمع المقدس - عن عروبة الهوية الثقافية والحضارية و إسـلاميتها، فقال: **«من جهة الهوية العربية: نحن مصريون عرقًا، لكن الثقافة الإسلامية هي السائدة الآن. كانت الثقافة القبطية هي السـائدة قبل دخول الإسلام. وأي قبطي يحمل في الكثير من حديثه تعبيرات إسـلامية، يتحدث بها ببسـاطة ودون شـعور بأنها دخيلة، بل هي جزء من مكوناته، نحـن نحيا العربية لأنهـا هويتنا الثقافية ومقتنعـون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسـية واقتصاديـة وثقافية، بالإضافة لوحدة المصير المشـترك.. والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية.. هذه دوائر متداخلة.. ومصر دائمًا دولة مسـلمة ومتدينة، ولكن بدون تطرف، ولو عشنا كمسلمين وأقباط وفي إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق»**[3].

❐ ومـن رجال الكهنوت الكاثوليك، تحدث **الأنبا يوحنا قلتـه** - نائب البطرك الكاثوليكي - فقال: **«أوافق تمامًا على أن أكون مصريًا.. مسـيحيًا، تحت حضارة إسـلامية.. أنا مسلم ثقافة مائـة في المائة.. أنا عضو في الحضارة الإسـلامية كما تعلمتهـا في الجامعة المصرية.. تعلمت أن النبي ﷺ سمح لمسيحيي اليمن أن يصلوا صلاة الفصح في مسجد المدينة.. فإذا كانت الحضارة الإسـلامية بهذه الصورة.. التي تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحي.. والتي**

(1) مكرم عبيد - مجلة [الهلال] عدد إبريل 1939م.

(2) صحيفة [الوفد] عدد 21 - 1 - 1993م.

(3) الأنبا موسى- في: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص 529 - 534. طبعة القاهرة 1990م.

تعلي من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض.. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة.. وإنه ليشرفني، وأفخر أنني مسيحي عربي، أعيش في حضارة إسلامية.. وفي بلد إسلامي، وأسهم وأبني مع جميع المواطنين، هذه الحضارة الرائعة»[1].

❐ ومن المفكرين المسيحيين، تحدث **الدكتور غالي شكري** [1935 - 1998م] فقال: **«إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر.. وعلى الشباب القبطي أن يدرك جيدًا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هي حضارته الأساسية.. إنها الانتماء الأساسي لكافة المواطنين.. صحيح أن لدينا حضارات عديدة من الفرعونية إلى اليوم، ولكن الحضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هي الانتماء الأساسي، والذي بدونه يصبح المواطن في ضياع، إننا ننتمي - كعرب من مصر - إلى الإسلام الحضاري والثقافي، وبدون هذا الانتماء نصبح في ضياع مطلق.. وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقًا مع العقيدة الدينية.. بالعكس.. لماذا؟ لأن الإسلام وحد العرب، وكان عاملًا توحيديًّا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد»**[2].

❐ ونفس الموقف يعلنه **الدكتور أنور عبد الملك** [1922 - 2012م] الذي كتب يقول: **«إن أي إنسان عاقل يدرك أن مصر هي أقدم أمة وحضارة في التاريخ قاطبة، ومنذ الفتح العربي الإسلامي دخلنا بالتدريج في إطار دائرة أسميناها - منذ خمسين عامًا - الدائرة العربية، ولكنها في الواقع هي دائرة الحضارة الإسلامية، التي تتمركز حول مبدأ واحد هو «التوحيد» الذي يتفق بشكل مطلق مع خصوصية مصر، فالحياة العامة في مصر بها قبول بالسليقة للتوحيد ناتج من وحدة الأمة المصرية منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وبالتالي فالإطار الحضاري للإسلام يشمل المرحلة القبطية «أي المسيحية المصرية» كما أن لغتنا هي العربية، لغة القرآن»**[3].

---

(1) الأنبا يوحنا قلته - من حوار عقب محاضرة لي - في جمهور من النخبة المسيحية - الممثلة لمختلف الطوائف: دعت إليه «اللجنة المصرية للعدالة والسلام» بفندق الحرية - بمصر الجديدة - بتاريخ 9 نوفمبر 1991م.

(2) صحيفة [الوفد] عدد 21 - 1 - 1993م.

(3) د. أنور عبد الملك - صحيفة [أخبار الأدب] عدد 30 - 4 - 2000م.

❐ وعـن وحدة المرجعية والهوية الإسـلامية لكل الأمة، تحـدث المفكر الحضاري **د. رؤوف نظمـي - [محجوب عمـر]** - [1932 - 2012م] فقال: **«الأمة مرجعيتها واحدة، وهي الإسـلام، بماله من تراث وعقائد وأصول.. والأساس هو أن تكون للأمة مرجعية واحدة، فإذا كانـت الأمة إسـلامية فمرجعيتها الإسـلام، و إذا كانت كونفوشيوسـية، فمرجعيتها الكونفوشيوسية.. إن أغلبية الأمة مسلمون، والمطلوب هو توجيه الجهود للعمل مع الأغلبية التـي لا تـزال على مرجعيتهـا التاريخية، على تراثهـا الحضاري وعلى عقيدتهـا.. نحن لدينا دسـتور يقول: إن دين الدولة هو الإسـلام، وكافة مواد القانون تكون في حدود الشريعة، والمطلـوب فقط ترويـج هذا الفهم لإطلاق طاقـات الإبداع في المـشروع الحضاري.. إذا كانـت المرجعية الإسـلامية هي مرجعيـة الجميع، تنتهي المشـكلة، فالمطلـوب أن يكون مشروعنـا حضاريًّا، مـن حضارتنا، وحضارتنا إسـلامية فالمطلوب أن يكون الإسـلام هو المرجعية العامة للجميع»**[1].

❐ وعلى ذات الدرب سـار الكاتب المسيحي **صادق عزيز**.. الذي كتب يقول: **«إن مصر دولـة إسـلامية منذ دخلها الإسـلام، و يومها كان المسـلمون هـم الأقليـة، وكان الأقباط هم الأغلبيـة، ومع ذلك كانت إسـلامية.. بل إن مصر في تاريخها لم تكـن دولة «قبطية» حتى من قبل الإسلام، فهي تقع دائمًا تحت الحكم الروماني أو البيزنطي أو المقدوني، وأما الحكم القبطي فلم نسـمع عنه قط.. وفيما عدا الأحوال الشخصية فإن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتعارض إطلاقًا مع المسيحية، وذلك لعدة أسباب أهمها:**

1- إنه إذا كانت الدولة إسـلامية، فالقوانين الوضعية يجب أن تكون إسـلامية، وعلينا قبـول ذلك، بل والترحيب به عملًا بقول المسـيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

2- أن أحـكام الشريعـة الإسـلامية تنطبق في كثير جـدًّا من الأحوال مـع شريعة العهد القديم، وهي ما جاء المسيح لا لينقضها.. بل ليكملها.

3- أن المسـيحية لم تـأت بأحـكام وقوانين وضعية، عمـلًا بقوله - (المسـيح) - : «مملكتي

(1) د. محجوب عمر - رؤوف نظمي - مجلة [منبر الحوار] عدد خريف 1989 ص 41 - 42 - بيروت.

ليست في هذا العالم» ومن ثم ترك للحكام أو لقيصر وضع الأحكام الأرضية، وأمرنا بأن نعطي ما للحكام للحكام..»[1].

❐ وعلى النطاق العربي، قال فيلسوف البعث العربي **ميشيل عفلق** [1910 - 1989م] - وهو المسيحي الذي غدا أبرز المفكرين القوميين العرب - : **«لا يوجد عربي غير مسلم.. فالإسلام هو تاريخنا، وهو بطولاتنا، وهو لغتنا وفلسفتنا، ونظرتنا إلى الكون.. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.. وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذا كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان متجردًا من الأهواء ومتجردًا من المصالح الذاتية.. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحيونها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم.. ولئن كان عجبي شديدًا للمسلم الذي لا يحب العرب، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام»**[2].

هكذا ارتفعت أصوات الزعماء والقادة والمفكرين غير المسلمين لتشهد على أن الهوية الثقافية والحضارية للأمة هي العروبة والإسلام.

❐❐❐

(1) جمال بدوي [الفتنة الطائفة: جذورها وأسبابها: دراسة تاريخية ورؤية تحليلية] ص 137 - 141. طبعة القاهرة 1992م.

(2) ميشيل عفلق [الكتابات السياسية الكاملة] جـ3، ص 33، 269 وجـ5 ص 68. طبعة بغداد 1987م - 1988م. وانظر كتابنا [التيار القومي الإسلامي] طبعة دار الشروق - القاهرة، 1417هـ - 1997م.

ومواقف رافضة

❐ لكـن هنـاك أصواتًا أخـرى - قومية.. وطائفيـة - قد ارتفعـت - بعد تراجـع الصيغة الإسـلامية الجامعة - وبعـد تكريس التشرذم القطري - الذي أسسـت له اتفاقية «سـيكس - بيكو» 1916م.. وتصاعد الغلو القومي والطائفي الذي أنعشه نجاح الإمبريالية والصهيونية في إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسـطين 1948م وهو الكيان الذي لا يتحقق أمنه واستقراره ولا تتحقق هيمنته إلا بتفتيت المفتت وتجزئة المجزأ في المحيط العربي والإسـلامي.. وذلك على حـد تعبير «إسـتراتيجية إسرائيـل في الثمانينيات» التـي قالت: **«إنه لا يمكن بقـاء إسرائيل إلا بتفكيك الكيانات وبعثرة السكان، وهذا دافع إستراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقـاء مهمًّا كانت الحدود»**[1].. ووفق توصيات ندوة «الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في منطقة الشرق الأوسـط» - التي عقدها «مركز بارايلان للأبحاث الإسـتراتيجية» - بإسرائيـل في 20 مايو 1992 التي قررت: **«أن هذه الأقليات هي شريكة لإسرائيل في المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»**![2].

إن أصواتًـا قوميـة وطائفيـة - في هذا المناخ وتلك الملابسـات التي صاحبـت قيام الكيان الصهيـوني بعد الحرب العالمية الثانية - قد ارتفعت بالدعوة إلى إقامة كانتونات طائفية وقومية، بدلًا من الصيغة الجامعة المؤسسة على الهوية العربية الإسلامية.. وفي هذا الفضاء:

❐ خاضت المارونية السياسـية - بالتحالف مع إسرائيل - حربًا أهلية دامت خمسـة عشر عامًا [1975 - 1989م].

❐ ولم تقـف النزعـة القومية الكردية التـي أعانها الأمريكان على حكم شـمال العراق، عنـد الإحياء اللغـوي والثقافي للقومية الكردية، وإنما أحلت هـذه الثقافة الفرعية محل الهوية العربية الإسـلامية الجامعة.. فمدارس هذا الإقليم وجامعاته تخرج عشرات الألوف الذين لم

(1) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص 144. طبعة بيروت 1990م.
(2) [ندوة الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في العالم العربي] ص 6 - ترجمة: الدار العربية للدراسات والنشر. طبعة القاهرة 1992م.

يدرسوا حرفًا واحدًا من لغة القرآن.. اللغة التي خدم الأكراد تراثها الأدبي والشرعي على امتداد تاريخ الإسلام!.. فبدلًا من أن يكون مستقبل الكرد جماعة قومية منفتحة أمامها أبواب الجامعة الإسلامية والأمة الإسلامية، تتجه البوصلة إلى إقامة «كانتون» خاص بالأكراد!.. ولقد احتجت هذه النزعة بتفتيت الجماعة الكردية بين أربع دول.. وغفلت عن أن الجماعة العربية قد تم تفتيتها بين أكثر من عشرين دولة!.. ومن ثم فإن الحل هو الاتجاه والنضال من أجل إقامة الصيغة الجامعة للأقوام في إطار الجامعة الإسلامية، وليس النكوص على الأعقاب لتفتيت المفتت وتجزئة المجزأ في وطن العروبة وعالم الإسلام!.

❐ وعلى ذات الدرب يسير أنصار الأمازيغية السياسية في بلاد المغرب العربي، متنكرين للآباء والأجداد الذين نشروا الإسلام والعربية في بلاد المغرب العربي الكبير!.

❐ وفي الإطار القبطي - المصري - ارتفعت أصوات تريد إحلال هوية قبطية محل الهوية العربية الإسلامية الجامعة.. ومن هذه الأصوات:

❐ **سلامة موسى** [1888 - 1958م] - الذي جاهر - مفتخرًا.. بأن نابليون [1769 - 1821م] قد قاد الحملة الفرنسية **«ليزيل عنا كابوس الشرق، وليغرس فينا الحضارة الأوروبية»! والذي قال: «أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب.. وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة!.. ونحن نريد العامية، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن»!**[1].

❐ وتلميذ سلامة موسى: **د. لويس عوض** [1915 - 1989م] الذي وصف اللغة العربية **«بأنها لغة ميتة - ولغة دخيلة - وأنها الأغلال التي يجب تحطيمها»!**[2].

❐ و**«جماعة الأمة القبطية»** التي أعلنت عن نفسها أول شهر «توت» - رأس السنة الفرعونية سنة 1669 قبطية - 1 سبتمبر 1952 م - قد جاء في ميثاقها: **«إن الأقباط يشكلون أمة.. ويطلبون حذف النص الدستوري الذي يقول إن الإسلام دين الدولة!.. وأن اللغة العربية**

(1) سلامة موسى [اليوم والغد] ص 200، 201. طبعة القاهرة 1928م.

(2) د. لويس عوض [تاريخ الفكر المصري الحديث] جـ1 ص 209. طبعة دار الهلال - القاهرة 1969م.

هي لغتها!.. وذلك ليكون الدستور مصريًّا.. وليس عربيًّا ولا إسلاميًّا.. وإن مصر كلها أرضنا التي سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ 14 قرنًا.. وإننا سلالة الفراعنة.. وديانتنا هي المسيحية.. وسيكون دستورنا هو الإنجيل.. وتكون لغتنا الرسمية هي اللغة القبطية»!.

ولقد كان لهذه الجماعة علمها وزيها الخاص بها.. وكان العلم يمثل صليبًا منصوبًا في الإنجيل.. كما كان لها نشيد خاص تنشده في جميع الاحتفالات والاجتماعات.. كما افتتحت في المحافظات مدارس لتعليم اللغة القبطية بالمجان![1].

❐ **والأنبا غريغوريوس** [1919 - 2002م] - الرجل الثاني في الكنيسة الأرثوذكسية.. وأسقف التعليم والبحث العلمي والدراسات العليا - يكتب فيقول: **«إن اللغة القبطية هي لغتنا.. وهي تراث الماضي، ورباط الحاضر، وهي من أعظم الدعائم التي يستند إليها كيان الشعب المسيحي.. وهي السور الذي يحمينا من المستعمر الدخيل»**![2].

❐ وعميد معهد الدراسات القبطية **الدكتور رسمي عبد الملك**، يدعو إلى **«أن يكون محو أمية الشعب المصري باللغة القبطية، لا** العربية»!.

❐ وأستاذ اللغة القبطية بهذا المعهد - **الدكتور/ كمال فريد إسحاق** - يدعو **«إلى أن تكون اللغة القبطية هي اللغة القومية لمصر - وليست العربية -»**![3].

❐ **والأنبا توماس** - أسقف القوصية - وعضو سكرتارية المجمع المقدس بالكنيسة الأرثوذكسية - يعلن - في محاضرته بمعهد «هديسون» الأمريكي، بواشنطن - في 18 يوليو 2008م عن المشروع الطائفي للكنيسة فيقول: **«إن الشخص القبطي يشعر بالإهانة إذا قلت له إنك عربي!.. وإن اللغة القبطية هي اللغة الأم لمصر!.. وإن الأقباط يعانون ويحاربون خطري التعريب والأسلمة!.. وأنهم قد وجدوا ثقافتهم تموت، ووجدوا أنفسهم مسئولين عن حمل ثقافتهم والمحاربة من أجلها حتى يأتي الوقت الذي يحدث فيه انفتاح وتعود دولتنا لجذورها القبطية.. وحتى يأتي هذا الوقت، فإن الكنيسة تقوم بدور الحاضنة للحفاظ**

(1) د. سليم نجيب [الأقباط عبر التاريخ] ص 184، 185. طبعة القاهرة - دار الخيال - 2001م.
(2) صحيفة «وطني» مقال: «اللغة القبطية والألحان القبطية» عدد 30 - 7 - 2000م
(3) صحيفة «الدستور» عدد 2 - 7 - 2008م.

عـلى هذا التراث القومي المختلف.. وإن المسـلمين قد خانوا الأقبـاط منذ الاحتلال العربي لمصر»![1].

❐ وبعد أن أجرى «المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية» سنة 1985م استطلاعًا للرأي العام حول تطبيق الشريعة الإسلامية - بما فيها الحدود - وانحاز في هذا الاستطلاع 63 % من المسـيحيين المصريين لتطبيق هذه الشريعة بالمنظومة القانونية المصرية[2].. وأيد ذلك البابا شـنودة الثالث (1923 - 2012م) وقال: **«إن الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسـلامية يكونون أسـعد حالًا وأكثر أمنًا. ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السـائد.. نحـن نتـوق إلى أن نعيـش في ظل «لهم مـا لنا وعليهم مـا علينا».. إن مصر تجلـب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا.. ونحن ليس عندنا ما في الإسـلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام»**[3]!.

وبعد أن أعلن البابا شنودة تأييده لمبدأ **«عمومية القانون الإسلامي»** على كل أبناء الوطن، فقال - بمناسبة تشريع «قانون الخلع» -: **«إن الخلع مبدأ موجود منذ القدم في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به، وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسـباب تبينها للمحكمة، منها اسـتحالة الحياة الزوجية بينهـما. وإذا كان قانون الخلع يسـمح للمرأة المسـلمة بأن تسـتفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تسـتفيد منه المرأة المسـيحية.. فالمعروف في القانون هو عمومية القانون، فلا نطبقه في حالة معينة لفائدة البعض ونرفضـه في حالة أخرى لفائدة البعض الآخر. إذن، الخلع يسـمح للمرأة - مسـيحية كانت أو مسـلمة - أن تتخلـص من الزوج «المتعب» وبخاصة لو كانت هناك أسـباب تجعل اسـتمرار الحياة بينهما مستحيلًا»**[4].

---

(1) صحيفة «الدستور» و«المصري اليوم» و«البديل» في 20 - 7 - 2008م. والنص الكامل للمحاضرة منشور بصحيفة «الدستور» في 13 - 8 - 2008م. وعلى موقع «مصريون ضد التمييز الديني» بترجمة: محمود الفرعوني.

(2) انظر: [استطلاع الرأي العام في مصر حول تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على جرائم الحدود] طبعة القاهرة، 1985م.

(3) البابا شنودة [الأهرام] عدد 6 - 3 - 1985م.

(4) البابا شنودة [الأهرام] عدد 26 - 3 - 2002م.

❐ بعد هذه المواقف الكنسية الداعمة للاحتكام إلى الشريعة الإسلامية - التي هي قسمة من قسمات الهوية الثقافية والحضارية للأمة - والتي لا تمثل بديلًا لشريعة مسيحية - **إذ إن كلمة «الشريعة» لم ترد ولو مرة واحدة في الأناجيل الأربعة** - وإنما هي - الشريعة الإسلامية - بديل للقوانين الأجنبية المجلوبة من الخارج - على حد تعبير البابا شنودة - .. كما أن هذه الشريعة - بالنسبة للمسيحي - هي قوانين وضعية، من اختصاص «القيصر» الذي لا دخل للإنجيل في تشريعاته..

بعد هذا الموقف الحاسم، والمنحاز للهوية الإسلامية للدولة والمجتمع، وجدنا البابا تواضروس الثاني - في أول تصريح له بعد انتخابه - يقول كلامًا مضادًا - وغير مسبوق - وذلك عندما يسأله مندوب «الأهرام» «أشرف صادق»:

- «هل الكنيسة مع الشريعة الإسلامية أم ضدها»؟

- فيقول: «في الأمور الدينية تطبيق الشريعة يخص المسلمين؛ لأنها أمر ديني. **وفي الأمور الوطنية وفي الأمور الاجتماعية ليس مناسبًا أن تطبق على غير المسلمين»**![1].

أي أنه - ولأول مرة في تاريخ البابوات - يرفض أن تكون الشريعة الإسلامية، في جوانبها الوطنية والاجتماعية شريعة المجتمع المعبرة عن هويته القانونية!.

❐❐❐

(1) البابا تواضروس الثاني - الأهرام - عدد 5 - 1 - 2013م.

الهوية والقانون

وإذا كانت الهوية العربية والإسلامية هي السمات والقسمات التي تمثل الأرض المشتركة للأمة.. وإذا كان القانون - وفقه المعاملات - هو الضابط لحركة المجتمع.. فلقد ظلت هذه الهوية الإسلامية هي الروح السارية والمرجعية الحاكمة للقانون في بلادنا على امتداد تاريخ الإسلام.

وقديمًا، وقبل مزاحمة المرجعية الفكرية الغربية - الوضعية العلمانية - للهوية الإسلامية ولمرجعية الشريعة في القوانين، لم تكن هناك حاجة للنص في القوانين على إسلاميتها؛ لأنه لم يكن هناك بديل يزاحم هذه الإسلامية.. فالفقه والقانون في بلادنا لم يكن يوصف - تاريخيًّا - بوصف الإسلامي، أما بعد تسلل القانون الوضعي الغربي - في ركاب النفوذ والغزو الاستعماري - إلى العالم الاسلامي - في القرن التاسع عشر - فلقد برزت الحاجة إلى الإعلان عن ضرورة إسلامية المرجعية القانونية عندنا كموقف منحاز للهوية الإسلامية التي تميزت قوانينها عن القوانين الوضعية الغربية..

لقد قال المستشرق الإيطالي «دافيد دي سانتيلانا» [1845 - 1931م] - وهو أستاذ الشريعة الإسلامية والقانون الروماني - قال عن تميز القانون الإسلامي عن نظيره الغربي - ومن ثم تميز الهوية القانونية الإسلامية عن نظيرتها الغربية - : «**..عبثا نحاول أن نجد أصولًا واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية - (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك - إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانينا - (الغربية) - لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلًا.. إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى أسلافنا: هو مجموعة من القوانين السائدة التي أقرها الشعب، إما رأسًا وإما عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.**

إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع لهذا القانون هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل ويقترف خطيئة دينية أيضًا.. إن هذا القانون الذي يوزع

العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل، إنما يستند إلى الإيمان القويم أساسًا.. ومع ذلك، فإن هذه الشريعة الإسلامية تفسح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشرية، وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانوني، لا على نص القانون الحرفي.. وهكذا ترسم الأخلاق والآداب في كل مسألة حدود القانون.. والشريعة الإسلامية شريعة تطورية.. غير جامدة.. «وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن».. لذلك؛ فإننا نجرؤ على وضعها في أرفع مكان، وتقليدها أعظم مديح علماء القانون»[1].

❐ ولهذا التميز في الفقه والقانون والشريعة - ومن ثم الهوية - كان موقف رفاعة الطهطاوي [1216 - 1290 هـ - 1801 - 1873 م] الرافض لتسلل القانون الوضعي الأوروبي إلى محاكم الموانى التجارية - على عهد الخديوي سعيد [1237 - 1279هـ - 1822 - 1863م] في إبريل 1855م.. ودفاعه عن الفقه والقانون الإسلامي والشريعة التي تمثل هوية الأمة.. وفي هذا قال الطهطاوي: **«إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية.. وإن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»**[2].

❐ ومنذ الطهطاوي، أصبح الدفاع عن الهوية الإسلامية للأمة.. وعن المدنية الإسلامية - المتميزة عن المدنية الغربية - وعن الشريعة الإسلامية - التي تتجلى في التشريعات والقوانين - أصبح موقفًا ثابتًا لمفكري الأمة الشرعيين والدستوريين والقانونيين.. وكنموذج لهؤلاء كتب الدكتور عبد الرزاق السنهوري [1313 - 1391هـ - 1895 - 1971م] - أبو القانون المدني، وواضعه وشارحه - وواضع المقومات الدستورية والقانونية لكثير من البلاد العربية - مصر

(1) سانتيلانا [القانون والمجتمع] - كتاب [تراث الإسلام] ص 431 - 435، 438، 439، ترجمة: جرجيس فتح الله - طبعة بيروت 1972م.

(2) الطهطاوي [الأعمال الكاملة] جـ1 ص 544، 369، 370. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت 1973م. وطبعة مكتبة الأسرة - القاهرة 2010م.

والعراق وسوريا والكويت والإمارات وليبيا والسودان - كتب فقال:

❐ «الإسلام: دين ودولة.. مُلْك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. والنبي ﷺ هو مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبي المسلمين، أقام الوحدة الدينية للأمة العربية، والوحدة السياسية للجزيرة العربية.. ووضع قواعد الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية.. فالإسلام دين الأرض كما هو دين السماء..

❐ والإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية أكثر تهذيبًا من المدنية الأوروبية.. والرابطة الإسلامية هي المدنية الإسلامية وأساسها الشريعة الإسلامية.. وأمتنا ذات مدنية أصيلة، وليست الأمة الطفيلية التي ترقع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون!

❐ ولقد أعطى الإسلام للعالم شريعة هي أرسخ الشرائع ثباتًا، وهي تفوق الشرائع الأوروبية، وإن استقاء تشريعنا المعاصر من الشريعة الإسلامية هو المتسق مع تقاليدنا القانونية. إنها تراثنا التشريعي العظيم، وبها يتحقق استقلالنا في الفقه والقضاء والتشريع.. إنها النور الذي نستطيع أن نضيء به جوانب الثقافة العالمية في القانون.. لقد اعترف الغرب بفضلها، فلماذا ننكره نحن؟! وما بالنا نترك كنوز هذه الشريعة مغمورة في بطون الكتب الصفراء، ونتطفل على موائد الغير، نتسقط فضلات الطعام؟!».

كما تحدث السنهوري عن الشريعة الإسلامية باعتبارها شريعة الدولة والمجتمع - شريعة إقليمية - وليست شريعة طائفية للمؤمنين بعقائد الإسلام دون غيرهم.. فقال:

❐ «لقد أخطأ بعض الباحثين عندما اعتقدوا أن الإسلام ليس إلا دينًا منزلًا.. ودفعهم إلى هذا الخطأ تقريب خاطئ ما بين الإسلام والمسيحية، فالمسيحية أعطت ما لله لله وما لقيصر لقيصر..ولكن الإسلام يختلف عن المسيحية اختلافًا جوهريًّا، فقد جمع ما لله وما لقيصر، وخص المسلمين بما لله وجعل ما لقيصر عامًّا واجب التطبيق على الكافة، مسلمين وغير مسلمين.. والأصل في أحكام الشريعة أنها خطاب لجميع الناس - مسلمين وغير مسلمين - فهي إذًا أحكام إقليمية، إذ هي واجبة التطبيق في دار الإسلام على جميع المقيمين فيها من مسلمين وغيرهم، بل إن أعظم المذاهب الإسلامية شأنا وأوسعها انتشارًا - وهو مذهب الحنفية - يطبق أحكام الشريعة الإسلامية في دار الإسلام حتى على المستأمنين.

والواجب التطبيق من أحكام الشريعة الإسلامية على جميع المقيمين في دار الإسلام هي كل أحكام المعاملات، لا فرق في ذلك بين أحوال عينية وأحوال شخصية، فإن هذا التفريق لا يعرفه الفقه الإسلامي، وهو دخيل عليه استحدثه الكُتاب في هذا العصر متأثرين في ذلك بالنظم الأوروبية التي دخلت مصر حديثًا، فأحكام المعاملات جميعًا، سواء ما تعلق منها بالمال والعقود، وما تعلق بالمواريث والوصايا، وما تعلق بالأهلية والحجر، وما تعلق بالأنكحة والنفقات، يجب تطبيقها على كل المقيمين في دار الإسلام، مسلمين وغير مسلمين.. والمستثنى من ذلك مسائل قليلة، هي الزواج ونفي المهر وتقوّم الخمر والخنزير، لاتصالها بالعقيدة والدين فيتركون فيها وما يدينون.. وحتى في هذه المسائل، فإنهم يترافعون فيها إلى القضاء الإسلامي فيحكم بينهم بأحكام دينهم، إلا إذا تراضوا جميعًا على التحاكم إلى أهل ملتهم، وهذا تحكيم مباح للمسلمين وغير المسلمين.. على هذا أجمعت مذاهب الحنفية والشافعية والحنابلة: غير المسلمين مخاطبون بأحكام الإسلام في غير العقائد والعبادات.. لهم مالنا من الإنصاف، وعليهم ما علينا من الانتصاف»[1].

هكذا اجتمع الفكر والتطبيق - في الثقافة والحضارة والتاريخ - على إسلامية الهوية.. هوية الدولة.. والمدنية.. والقانون.. وعبر عن هذه الحقيقة - بحسم ووضوح - أبو القانون المصري، وفقيه الشريعة الإسلامية، القاضي العادل الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا..

❐❐❐

(1) د. عبد الرزاق السنهوري [إسلاميات السنهوري باشا] جـ1، ص 133، 145، 160، وجـ2، ص 704 - 707، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار السلام - القاهرة 1431هـ - 2010م.

الهوية الإسلامية والوطن والوطنية

❐ وهنا.. وعند هذا الموقف الذي تقررت فيه «إسلامية» الهوية و«عروبتها».. يرد السؤال عن علاقة هذه الإسلامية بدائرة الانتماء الوطني والولاء للوطنية..

- هل تهمش إسلامية الهوية الانتماءات الوطنية؟

- وهل تذوب الأوطان والوطنية - في ظل الهوية العربية والإسلامية - في الدائرة الأوسع، عربية أو إسلامية؟!.

إن هذا التساؤل المشروع، قد تحول - عند البعض - إلى شبهة - بل إلى اتهام - موجه إلى الهوية الإسلامية، وإلى إطار الجامعة الإسلامية - بل إلى إطار القومية العربية - .. اتهام بإذابة الأوطان والوطنيات وتهميشها..

وفي جلاء الموقف الإسلامي من هذه القضية علينا أن نعيد التذكير بأن الإسلام، ودولته الجامعة، وتجربته التاريخية، قد أكدت على تعدد وتكامل دوائر الانتماء والولاء.. فللإنسان انتماء وولاء لأهله وعشيرته، يليه انتماء وولاء لشعبه ووطنه، يليه انتماء وولاء لقومه وقوميته، يليه انتماء وولاء لأمته وحضارته.. ثم هناك الولاء والانتماء للإنسانية، التي تتنوع هي الأخرى إلى أمم وحضارات وشعوب وقبائل..

❐ إن الوطن - في اصطلاح العربية - كما في (لسان العرب) لابن منظور [630 - 711هـ - 1232 - 1311م] و(أساس البلاغة) للزمخشري [467 - 538هـ - 1075 - 1144م] هو: **«المنزل الذي يمثل موطن الإنسان ومحل إقامته، وفيه يكون المولد والمنشأ، وهو الديار الذي ينتسب إليها الإنسان، ولها يكون الحنين والولاء والانتماء»**.

❐ وفي القرآن الكريم - كتاب الرسالة العالمية ومنبع الهوية الإسلامية - آيات تقرر أن حب الإنسان لوطنه هو معادل لحياة هذا الإنسان.. ولقد تحدثت هذه الآيات القرآنية - لذلك - عن أن الإخراج من الديار معادل للقتل والإخراج من الحياة، فالتوطن حياة، والحرمان من الوطن موت وموات!: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ

﴿ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء: 66] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ [البقرة: 84].

كما ساوى القرآن الكريم بين الإخراج من الديار والحرمان من الوطن وبين الفتنة في الدين، فجعلهما وحدهما المبرر للقتال، القتال لتحرير الوطن ومقدراته ولحرية الضمير وتحريره كي يتدين دون إكراه، في إشارة إلى أن الوطن الحر هو الوعاء الذي بدونه لا يتأتى قيام كامل الدين، وكامل الحرية في التدين بالدين: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8].

❐ ولقد كان موقف رسول الله ﷺ من وطنه مكة، عندما ظلمته وعذبته هو وصحابته الكرام، وعندما تعصبت للشرك والوثنية ضد التوحيد، وعندما أخرجت الرسول والذين آمنوا معه من وطنهم.. كان موقف الرسول من هذه البلدة الظالمة مصداقا لهذه الفطرة السوية - فطرة الحب والولاء والانتماء للوطن - فناجى مكة - لحظة فراقه لها - قائلًا: **«والله إني أعلم أنك أحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت»**.

ولقد ظل حنينه إليها جارفًا، حتى لقد كان يدعو ربه - وهو بالمدينة - أن يحبب إليه المدينة حبه لمكة!، وظل هذا الحب للوطن يملأ القلب حتى عاد إلى مكة فاتحًا، وحانيًا على مواطنيه الذين عذبوه وجاروا عليه وظلموه!.

❐ ولأن هذه هي مكانة الوطن في الرؤية الإسلامية: النسب الذي ينقذ الإنسان من الضياع، والقبلة التي تتجه إليها الأفئدة بالشوق والولاء والانتماء، قال الإمام الشيخ محمد عبده [1266 - 1327هـ - 1849 - 1905م] - وهو يفسر قول الله سبحانه وتعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ ﴾ [البقرة: 243].. قال: **«إن الخروج من الوطن بمعنى التفريط في استقلاله موت، بينما الحفاظ على استقلال الوطن حياة و إحياء»**![1].

❐ ولهذه الحقيقة، حقيقة الارتفاع بمكانة الوطن ومحبته والولاء له والانتماء إليه، كان

(1) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ4، ص 695. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت 1972م. وطبعة دار الشروق - القاهرة 1993م.

للوطـن - والوطـن المصري تحديدًا وعلى وجه الخصوص - عند رواد اليقظة الإسـلامية الحديثة الذين رفعوا شـعار الجامعة الإسـلامية، وأكدوا على الهوية الإسلامية، كان لهذا الوطن - عند هؤلاء الرواد - المكانة المتميزة والممتازة..

فرائـد هذه اليقظة الإسـلامية جمال الديـن الأفغاني [1254 - 1314هـ - 1838 - 1897م] الذي رفع شـعار «**الجامعة الإسلامية**» هو الذي رفع شـعار «**مصر للمصريين**».. وهو أول من أنشـأ - بمصر - «**الحزب الوطني الحر**».. ولقد عبر عن مكانة الوطن المصري في عقله ووجدانه، وفي جهاده، فقال: «**مصر أحب بلاد الله إلي، وهي أهم مواقع الشرق، وهي عند المسـلمين من الأراضي المقدسـة، ولها في قلوبهم منزلة لا يحتلها سـواها، نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنهـا بـاب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب آمنًا كانت خواطر المسـلمين مطمئنة على تلك البقاع وعلى سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية**».

وعندما نظر الأفغاني إلى المستقبل، علق الآمال على قيادة الوطن المصري للبعث الإسلامي والنهضة الشرقية، فقال: «**وربما لا يكون بعيدًا عن الواقع أن تصير عاصمة مصر كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل لقد كان ذلك أمرًا مقررًا في أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض لهم خطر**»[1].

❐ ومصطفى كامل [1291 - 1326هـ - 1874 - 1908م] الذي جاهد تحت رايات الجامعة الإسـلامية، هو «شـاعر الوطنية المصرية» الذي صك شـعار: «**لو لم أكن مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا**»!.

❐ وحسـن البنا [1324 - 1368هـ - 1906 - 1949م] هو الذي تحدث - بعمق - عن تكامل دوائـر الانتـماء، التي تبـدأ بالانتـماء الوطني، فقال: «**إن مـصر هي قطعة من أرض الإسـلام، وزعيمـة أممـه، وفي المقدمة من دول الإسـلام وشـعوبه، ونحـن نرجو أن تقـوم في مصر دولة إسـلامية، تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسـالته، إننا نحب وطننا مصر، ونحرص على وحدته،**

(1) جمال الدين الأفغاني [الأعمال الكاملة] ص 467، 479، 486، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة 1968م. وطبعة دار السلام، القاهرة 2016م.

ولا نجد غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار، وأن يقدمه في العمل على ما سواه، وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا. إننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد، فالوطنيـة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسـلام، فالدائرة الوطنية في دعوتنا هي الأسـاس الأول للنهـوض، والوحـدة العربية هي الحلقـة الثانية في النهوض، أما الجامعة الإسـلامية فهي السياج الكامل للوطن الإسلامي العام، ولا تعارض بين هذه الحلقات الثلاث؛ لأن كلًّا منها تشد أزر الأخرى، وتحقق الغاية منها»[1].

❐❐❐

هكـذا تبلورت الهوية العربية الإسـلامية في مسـيرتنا التاريخيـة، وفي تراثنا الحضاري.. ولـدت من رحـم القـرآن الكريم، وأقامـت بناءها شـعوب الأمة الإسـلامية، عـلى اختلاف أقوامهـا وتعدد دياناتها ومذاهبها.. وهكذا أفصحت عن تميزها بلسـان عربي مبين، هو لسـان القـرآن الكريـم.. ولخلود هذا القـرآن ومركزيته، ولخلود اللغة التي نزل بها، اسـتعصت هذه الهوية العربية الإسـلامية على كل التحديات.. تحديات التتريك.. وتحديات الفرنسة والجلنزة والروسنة.. رغم شراسة هذه التحديات..

و إذا كانـت أمم الحضـارات المختلفة تسـعى نحو التكامل والتسـاند، رغم مـا بينها من تناقضات، فإن أوطان عالم الإسلام، في حاجة إلى أن تتقارب لتسلك الوطنيات في الأطر القومية، ولتسلك القوميات في إطار الجامعة الإسـلامية، وذلك لمواجهة تحديات الهيمنة الخارجية، التي تريد لعالم الإسلام المزيد من التجزئة والتشرذم والتفتيت..

- ❐ إن أمة يزيد تعدادها على المليار وسبعمائة مليون نسمة..
- ❐ وتمتلك وطنًا مساحته 35.000.000 كيلو متر مربع - أي أربعة أضعاف الصين -.
- ❐ ولديها من الثروات ما يجعلها العالم الأول في كثير من الميادين الاقتصادية..

(1) حسن البنا [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] - رسالة «المؤتمر الخامس» ورسالة «دعوتنا» ص 176، 178، 190. طبعة دار الشباب - القاهرة - بدون تاريخ.

- ولديها من المواريث الفكرية والثقافية والحضارية ما لا نظير له عند الآخرين..
- وفي تاريخها تجربة حضارية جعلتها العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون..
- ولها في الهوية الثقافية هذه الثروة وهذه الآفاق التي تفتح الأبواب أمام شعوبها وأقطارها وأقوامها وأديانها لتعيد إحياء تجربتها التاريخية في «التنوع بإطار الوحدة».
- إن أمة تمتلك هذا التراث.. وهذا الثراء.. وهذا التاريخ لجديرة بأن تعي هذا التاريخ لتستأنف صناعة التاريخ.

❐❐❐

الهوية والدستور

❐ ولأن هذه هي مكانة الهوية العربية الإسلامية في تاريخنا الحضاري.. ولأن هذه الهوية قد صبغت كل مناحي الحياة في واقع أمتنا - ومنها ميادين التشريع والقانون - كان طبيعيًّا أن تجد هذه الهوية مكانها ومكانتها في الدساتير، منذ أن بدأت بلادنا وضع الدساتير في عصرنا الحديث..

- ففي دستور 1923م جاء النص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة.. وأن العربية هي لغتها.

- ولقد أضيف إلى ذلك - في دستور 1971م.. المعدل في 1980م - النص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع - وكان قد تم - في مجلس الشعب تقنين الشريعة الإسلامية، لتكون جاهزة للتطبيق.. في أكبر مشروع لتقنين الشريعة في العصر الحديث.

- أما دستور 1954م - الذي وضع بعد ثورة يوليو 1952م - والذي لم يطبق.. فلقد كانت الهوية الإسلامية حاضرة في صياغته.. فالسنهوري باشا كان رئيس لجنة وضع هذا الدستور.. وفي مداولات «لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة» بالجلسة السابعة 1953م تحدث الدكتور طه حسين [1306 - 1393هـ - 1889 - 1973م] عن حاكمية القرآن والإسلام على الدستور، فقال: **«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام، وإنه ليس هناك مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن، وإنه إذا وجد نص ديني صريح، فالحكمة والواجب يقتضياننا ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم، ولا في ضمائرهم، ولا في دينهم، وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلًا.. ولا يكون الإيمان إيمانًا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر»**[1].

- أما دستور 2012م فلقد تميز بنصوص جديدة وعديدة أكدت على هذه الهوية العربية الإسلامية للدولة والأمة والمجتمع.. ومن هذه النصوص - على سبيل المثال -:

(1) لجنة مشروع الدستور - محضر لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة - الجلسة السابعة ص 81 - 121، طبعة وزارة الإرشاد القومي القاهرة - بدون تاريخ.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (1) على أن الشعب المصري جزء من الأمة الإسلامية - بالإضافة إلى الأمة العربية -.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (219) على تفسير لمبادئ الشريعة - في المادة (2) - يخرج هذه المبادئ من الاختزال في النصوص قطعية الثبوت والدلالة إلى رحابة مصادر الشريعة.. «أدلتها الكلية وقواعدها الأصولية والفقهية ومصادرها المعتبرة».

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (6) على أن مبادئ الشورى - مع الديمقراطية - هي قوام النظام السياسي.. هذه الشورى التي مثلت معلمًا من معالم النظام السياسي الإسلامي، والتي عرفها العلماء بأنها **«من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه»**!.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (12) على حماية الدولة للمقومات الثقافية والحضارية واللغوية «وأنها تعمل على تعريب التعليم والعلوم والمعارف».

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (4).. على استقلال الأزهر الشريف، ودعم رسالته في نشر الدعوة الإسلامية وعلوم الدين واللغة العربية والفكر الوسطي المستنير في مصر والعالم. وعلى «أخذ رأي هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في الشؤون المتعلقة بالشريعة الإسلامية».

❐ النص - ولأول مرة - في المواد (21، 25، 2/2) على إحياء الوقف - كشكل متميز من أشكال الملكية - وعلى تشجيع الوقف الخيري ونشر ثقافة الوقف في المجتمع.. ولقد كان الوقف - في تاريخنا الحضاري - المؤسسة الأهلية الأم التي مولت صناعة الحضارة، وأسهمت في إقامة العدل الاجتماعي، وحققت استقلال الأمة عن الدولة، وجسدت فلسفة الإسلام في الملكية العامة للثروات والأموال..

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (44) على حظر الإساءة أو التعريض بالرسل والأنبياء كافة.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (204) على إنشاء المفوضية الوطنية لمكافحة الفساد.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (3) على المبدأ الشرعي الخاص بالديانات السماوية الأخرى: «يتركون وما يدينون» يحتكمون إلى مبادئ شرائعهم في أحوالهم الشخصية وشئونهم واختيار قياداتهم الروحية.

❐ النص في المادة (10) على الدين والأخلاق ضمن مقومات الأسرة التي هي أساس المجتمع.

❐ النص في المادة (11) على رعاية الدولة للأخلاق والآداب والنظام العام والمستوى الرفيع للتربية والقيم الدينية والوطنية والحقائق العلمية والثقافية العربية والتراث التاريخي والحضاري للشعب.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (65) على تكريم الشهداء، وكفالة الرعاية اللازمة لأسرهم.

❐ النص في المادتين (18، 24) على أن الثروات الطبيعية للدولة ملك للشعب.. وعلى «الوظيفة الاجتماعية» للملكية الخاصة.. وهو تعبير عن فلسفة الاستخلاف الإسلامية في الثروات والأموال..

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (60) على تدريس القيم والأخلاق اللازمة للتخصصات العلمية بالجامعات.

❐ النص - ولأول مرة - في المادة (70) على التنمية الدينية كحق من حقوق الطفل.

❐ النص في المادة (43) على ثوابت الإسلام في صيانة حرية الاعتقاد، وكفالة الدولة لحرية ممارسة الشعائر الدينية وإقامة دور العبادة لأهل الديانات السماوية.

❐ النص في المادة (81) على ضبط ممارسة الحقوق والحريات بالمعايير التي نصت عليها المقومات الأساسية الواردة في باب الدولة والمجتمع بالدستور.

❐ النص في المادة (207) على إنشاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي، الراعي للعدالة بالنسبة للفلاحين والعمال والمهنيين.

❐ النص في المادة (208) على إنشاء المفوضية الوطنية للانتخابات، لضمان عدم تزوير إرادة الأمة.

❐ هذا إلى جانب ما شاع في مواد الدستور من نصوص تنتصر للقيم الإسلامية التي تؤكد على الكرامة الإنسانية، وتحقيق أعلى مستويات الضمانات للحريات.. والسعي لإقامة التكافل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية. الأمر الذي جعل من هذا الدستور - دستور 2012م - التجسيد الأول والأعلى للهوية العربية الإسلامية.

وحدة الأمة الإسلامية

وحدة الأمة الإسلامية

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الناس من نفس واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1]..

وبتكاثر الناس توزعوا إلى شعوب وقبائل وأمم مختلفة ومتمايزة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13]..

وإذا كانت الإنسانية قد بدأت بلغة واحدة، فلقد أصبح التعدد في الألسنة واللغات أمرًا طبيعيًا، بل آية من آيات الله - سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: 22].

ولقد تبع التنوع في الأمم واللغات تنوع في الثقافات والفلسفات والشرائع والحضارات، ومن ثم تنوع واختلاف في المفاهيم والمضامين لعديد من المصطلحات التي يتم تداولها في هذه اللغات والثقافات والحضارات.. صحيح أنه لا شاحة في استخدام المصطلحات، أي في وحدة ألفاظها وشيوع تداولها من قبل جميع الأمم، لكن عددًا من هذه المصطلحات - ومنها مصطلح «الأمة» - تتمايز مضامينه بتمايز الثقافات والفلسفات والحضارات.

فالذين ينطلقون من الفلسفات المادية - شمولية أو ليبرالية - قد رأوا «الأمة» ثمرة لوحدة «السوق.. والاقتصاد».. فالحياة الاقتصادية المشتركة - عندهم - هي الرحم الذي ولدت منه الأمة، وعلى أرض السوق المشتركة تنمو اللغة المشتركة، التي تثمر - في الميدان الفكري والثقافي - تكوينًا نفسيًّا مشتركًا يربط الأمة بروابط المشاعر - والمثل والقيم والذكريات والمواريث والآلام والآمال..[1]

(1) [الموسوعة الفلسفية] - وضع لجنة من الأكاديين السوفياتيين - بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين. ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت دار الطليعة سنة 1974م.

وفي الأنساق الفكرية والدينية التي انحرفت إلى العنصرية - والمغلقة - يكون العنصر والعرق والدم هو معيار الانتماء إلى الأمة وتكوينها.. ونموذج ذلك في اليهودية التلمودية، التي أرادت تحويل الأقليات اليهودية إلى شعب وأمة، فجعلوا اليهودي هو المولود من أم يهودية، بصرف النظر عن العوامل الأخرى المكونة لثقافته وهويته، بل وحتى بصرف النظر عن مدى إيمانه وتدينه باليهودية!.. ولقد نحت هذا النحو الأيديولوجيات النازية والفاشية، وتلك التي تقسم الإنسانية على أسس عرقية، آرية وسامية وحامية وغيرها..

وهناك قواميس غربية ومتأثرة بالتغريب، خلطت بين «الأمة» وبين «الدولة»[1]، على ما بينهما من تمايز واختلاف.. فقد تضم «الدولة» الواحدة أمما متعددة.. وقد تتجزأ «الأمة» الواحدة وتتوزع على عدة «دول» - كما هو الحال الأمة الإسلامية الآن -..

وفي الإسلام، حيث تنطلق المفاهيم من القرآن، العربي المبين، يتميز مفهوم الأمة ومضمون مصطلحها.. فليست السوق الاقتصادية والعوامل المادية هي المعايير الأولى والحاكمة لتكوينها.. وليس العرق ووحدة الأصل والنسب ونقاء الدم من عوامل نشأتها.. لأنها - في النسق الإسلامي - كيان مرن الضوابط والمعالم والسمات والقسمات.. ومن ثم فأبوابها مفتوحة دائمًا، ودوائرها منداحة أبدًا، وتحققها متطور باستمرار وفق حيوية الجوامع التي تميز أهلها..

إن الأمة - كما يقول الراغب الأصفهاني [502هـ - 1108م]: هي «كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك تسخيرًا أم اختيارًا»[2].

ولقد كان هذا المعيار المرن.. والمتطور، هو الذي حكم تبلور الأمة الإسلامية على مر التاريخ.. فلقد بدأت بأمة الدين - الجماعة المؤمنة بالإسلام - .. ثم استوعبت وضمت - بعامل

(1) انظر: [قاموس علم الاجتماع] تحرير ومراجعة: د. عاطف غيث. طبعة القاهرة سنة 1979م. و[القاموس الفلسفي] وضع مجمع اللغة العربية. طبعة القاهرة سنة 1979م.

(2) الراغب الأصفهاني [المفردات في غريب القرآن] - مصطلح «أمة» ص 23. طبعة دار التحرير القاهرة ستة 1991م.

الوطن - العرب غير المسلمين في دار الإسلام.. ثم جمعت - بعامل الدين - الأقوام غير العرب الذين دخلوا في الإسلام..

وهي - في ذلك - قد وظفت العديد من الجوامع - التي انغلقت فيها وعليها أمم أخرى - وظفتها كلبنات في إطار جامعها الأول: الإسلام.. صنعت ذلك مع جامع «القبيلة» و«الشعب» و«اللغة» و«الجنس» و«اللون»، فكانت - الأمة الإسلامية - «المحيط» الذي احتضن هذه «الجزر»، دون تناقض مع أي منها.. ودون وقوف عند حدود أي منها كذلك.

لقد رفضت الوقوف عند عصبية «القبيلة»، لكنها لم تلغ القبيلة، وإنما جعلتها لبنة في جدار الأمة.. وصنعت ذلك وظلت تصنعه مع العشيرة والأسرة الممتدة.. ورفضت الوقوف عند حدود «الوطن - الإقليم»، ووظفت هذا الوطن لبنة في محيط «دار الإسلام»، الجامعة للأقاليم والأوطان.. ورفضت الوقوف عند حدود «الدولة»، عندما استمرت وحدتها - وحدة الأمة - في ظل تجزئة دار الإسلام إلى دول وطنية - ورفضت الوقوف عند حدود اللغة، عندما جعلت - انطلاقًا من القرآن الكريم - تعدد الألسنة واللغات آية من آيات الله، فضمت الأمة لغات عدة، واحتضنت ثقافات فرعية متنوعة في العادات والتقاليد والأعراف.. ورفضت الوقوف عند العنصر والعرق، عندما اعتبرت ذلك «جاهلية منتنة»، أزالتها إنسانية الإسلام وعالميته.. بل ورفضت الأمة - في المفهوم الإسلامي - الوقوف عند وحدة الدين - حتى ولو كان هذا الدين هو الإسلام - وذلك منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام.. فهو الذي أعلن أن دين الله واحد أزلًا وأبدًا.. وأن شرائعه متعددة أزلًا وأبدًا ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: 48].. وأنه قد جاء متممًا لمكارم الأخلاق.. ومصدقًا لما بين يديه من الكتب.. لا يفرق بين أحد من رسل الله.. وداعيًا كل أصحاب الشرائع الأخرى إلى كلمة سواء - هي: التوحيد الخالص.. والعمل الصالح.. والإيمان بالغيب والجزاء الأخروي - .. وجاعلاً الاختلاف سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.. وتاركًا الحساب على هذه الاختلافات الدينية إلى البارئ - سبحانه وتعالى - يوم الدين.. ومقررًا كامل المساواة في الحقوق والواجبات بين الأمة - المتعددة دينيًّا - في الدولة.. والسياسة.. والاجتماع.. والمعاملات..

فمنذ تأسيس دولة المدينة المنورة سنة 1 هـ - 622م ضمت الأمة يهود المدينة - العرب ومواليهم العبرانيين - ، ونص دستورها - الصحيفة - على «أن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»[1].

وفي أول لقاء مع النصارى - نصارى نجران سنة 10هـ - 631م - أصبحوا جزءًا أصيلًا من الأمة.. ونص العهد النبوي الذي أعطي لهم: «على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..»[2].

وعندما انداحت دائرة الأمة الإسلامية - بالفتوحات التي حررت الشرق من قهر الروم والفرس - تقررت هذه الحقوق كاملة لأهل الديانات الوضعية أيضًا، الذين غدوا جزءًا من رعية دار الإسلام، وذلك وفقًا لما قرره رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن عوف - : «سنوا فيهم سنة أهل الكتاب»[3].

وفي حديث الجاحظ [163 - 255هـ - 780 - 869م] عن العوامل المكونة للجماعة - الأمة - نجد عامل اللغة وليس الجنس.. فإسماعيل و إسحق - عليهما السلام - أخوان، لكن اللغة فارقت بين أمتيهما... كما نجد «التربية والشمائل والهمة والأخلاق والسجية هي التي تسبك الأمة سبكًا واحدًا، فتجعل القالب واحدًا، تتشابه داخله الأجزاء والأخلاط، فتثمر ولادة جديدة أخرى»[4].

هكذا تميز المفهوم الإسلامي للأمة - في النشأة والتاريخ الحضاري - فكانت فيه: «الأمة - الأممية»، التي استوعبت الأديان والشعوب والقبائل والأقاليم، مع مواريثها الحضارية القديمة.. وظلت - على مر تاريخها - دائمة الامتداد والاحتضان والاستيعاب لكل من يدخل في «دار» الإسلام أو في «دائرة الإسلام».

(1) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبي والخلافة الراشدة] ص 19، 20. تحقيق: د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة 1956م..

(2) المصدر السابق، ص 126.

(3) البلاذري [فتوح البلدان] ص 327. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة 1956م.

(4) [رسائل الجاحظ] جـ 1 ص 29 - 31، 11 - 14. تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة 1964م.

واليوم.. تتنوع شعوب الأمة الإسلامية في الأجناس والألسنة والأقوام.. وتتوزعها الأقاليم والأوطان والدول.. لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون تمايزًا في إطار «الأمة الواحدة»، التي وحدها الإسلام في العقيدة. والشريعة والحضارة ومنظومة القيم والأخلاق المعيارية..

أما وحدة هذه الأمة - أي الجماعة - الإسلامية، فإنها - من الناحية الشرعية - حقيقة قرآنية، تعبر عن إرادة إلهية: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92] - .. ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52] - .. ومع كونها فريضة شرعية فهي ضرورة حياتية أيضًا..وهذه الوحدة، التي صنعها الإسلام، وصبغها بصبغته، قد أهلت الأمة الواحدة لأن تعيش في وطن واحد، سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام».. ولقد عاش هذا الوطن الإسلامي حينا من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة.. وحينًا آخر تعددت فيه «الدول».. لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى ما قبل التجزئة التي فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على دار الإسلام، قد احتفظ - حتى بعد تعدد «الدول» بوحدة الدار - الوطن».. فكان المسلم - بل والمواطن من أهل الكتاب - ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم والإمارات والولايات - فيما بين المحيطين - .. ويقيم أنى شاء وحيث أراد، فيعامل - دون إجراءات جديدة - معاملة المواطنين في المكان الذي يستقر فيه، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات.. فجمعت «دار الإسلام» بين «الوحدة» في حقوق المواطنة وواجباتها، وبين «تنوع الدول والحكومات».. ولا تزال أسماء العائلات والأسر المنسوبة إلى أقاليم دار الإسلام، والتي تعيش في بلاد إسلامية أخرى، شاهدة على هذه «الأممية» التي ميزت دار الإسلام.. أممية في الأمة، وليس لطبقة من الطبقات!..

ولذلك، استقر الرأي في الفكر السياسي الإسلامي - السياسة الشرعية - منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لأمة واحدة، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى الغربي، الذي عرفته الدولة القومية الغربية.. ولا «الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة.

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [266 - 1321هـ - 1849 - 1905م] - وهو مفتي الديار المصرية - سؤال «في المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يعد من رعيتها؟

لـه ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلـق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عمومًا وخصوصًـا؟. وما هي الجنسـية عندنا؟ وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكبيولاسـيون» [Capitulations] موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضًا؟؟..».

جاء في فتوى الأستاذ الإمام، على هذا السؤال:

«.. إن وطن المسـلم من البلاد الإسـلامية هـو المحل الذي ينوي الإقامـة فيه، و يتخذ فيه طريقة كسـبه لعيشـه، و يقر فيه مع أهلـه، إن كان له أهل. ولا ينظـر إلى مولده، ولا إلى البلد الذي نشـأ فيه، ولا يلتفت إلى عـادات أهل بلده الأول، ولا إلى مـا يتعارفون عليه من الأحكام والمعامـلات، و إنما بلده ووطنه الذي يجـري عليه عرفه و ينفذ فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شيء، لا خاص ولا عام.

أمـا الجنسـية، فليسـت معروفة عند المسـلمين، ولا لها أحكام عليهـم، لا في خاصتهم ولا عامتهم، و إنما الجنسـية عند الأمم الأوروبية تشـبه ما كان يسـمى عند العـرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسـب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغي تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام.. فالجنسـية لا أثر لها عند المسـلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: **«إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية - [أي عظمتها] وفخرها بالآباء، و إنما هو مؤمن تقي وفاجر شـقي» «الناس بنو آدم، وآدم خلق من تـراب»** - رواه أبو داود - .. وروي كذلك عنه: **«ليس منا من دعا إلى عصبية»** -[1].

وبالجملـة، فالاختـلاف في الأصنـاف البشريـة، كالعربي والهنـدي والرومي والشـامي والمـصري والتونـسي والمراكـشي، مما لا دخل له في اختـلاف الأحكام والمعامـلات بوجه من

(1) وفي البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد: «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية».

الوجوه.. ومن كان مصريًا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجه.

وأما حقوق الامتيازات، المعتبر عنها «بالكابيتولاسيون»، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة.. هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها.

لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره. والله أعلم»[1].

هكذا استقر الفكر السياسي الإسلامي على أن وحدة الأمة الإسلامية في الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات.. بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية، حتى عندما كانت واحدة، قد تمايزت في دار الإسلام - تحت حكمها - الولايات والأقاليم.

□□□

وعندما فرض الاستعمار الغربي - وخصوصًا بعد إسقاط الخلافة العثمانية [سنة 1342هـ - 1924م] - التجزئة الكاملة على عالم الإسلام، وأقام حواجز «الجنسية» - بمعناها الغربي - بين دوله وأقاليمه، ذهب الفكر الإسلامي ليبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار الإسلام، ويحافظ على وحدة الأمة، دون تجاهل لواقع التجزئة»، وتعدد الدول والحكومات، وتزايد النزعات القومية.. ودونما قفز على «الواقع» الذي كرسه الاستعمار.. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية في هذا الميدان، كتاب فقيه الشريعة الإسلامية والقانون المدني الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [1313 - 1391هـ - 1895 - 1971م]: [فقه الخلافة وتطورها][2].. وفي هذا الاجتهاد الحديث لإحياء شكل جديد للخلافة الإسلامية، يحقق وحدة الأمة.. وتكامل دار الإسلام.. وتحكيم الشريعة الإسلامية.. قال السنهوري باشا:

(1) تاريخ هذه الفتوى 9 رمضان سنة 1322هـ - 17 نوفمبر سنة 1904م. انظرها في [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ 2 ص505 - 508. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة الشروق. القاهرة سنة 1993م.

(2) وهو - في الأصل رسالة دكتوراه - بالفرنسية - من باريس سنة 1926م. انظر ترجمته العربية. طبعة القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة 1989م.

«.. بما أنه يستحيل اليوم تصور إقامة نظام الخلافة الراشدة أو الكاملة، فلا مناص من إقامة حكومة إسلامية ناقصة، ذلك على أساس حالة الضرورة، للظروف التي يمر بها العالم الإسلامي حاليًا.

وهذا النظام الإسلامي الناقص يجب اعتباره نظامًا مؤقتًا، وهدفنا المثالي هو السعي إلى العودة مستقبلًا للخلافة الراشدة (الكاملة).

إن نظام الخلافة الراشدة التي يجب إقامتها مرة أخرى في المستقبل يجب أن يتصف بالمرونة. إن الشريعة الإسلامية لا تفرض شكلًا معينًا لنظام الحكم.. وإنه يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار الاتجاهات القومية والنزعات الانفصالية في بعض البلاد الإسلامية، وهي اتجاهات تزداد يومًا بعد يوم، لذلك، فإنه يجب علينا أن نجد حلًا يمكن أن يضمن صورة من الوحدة بين الشعوب الإسلامية مع إعطاء كل بلد نوعًا من الحكم الذاتي الكامل.

إن وحدة الإسلام في صورة متطرفة غير مرنة لدولة مركزية لم تعدم ممكنة الآن، وإن فكرة تكوين منظمة للشعوب الشرقية يمكنها أن توفق بين الاتجاهات القومية الناشئة، مع ضرورة تأمين قدر من الوحدة بين الشعوب الإسلامية..

على أن الخلافة الكاملة يمكن تحققها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلاً، بل يكفي - على ما أرى - أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولا سيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل عنها، يكون قاصرًا على النظر في الشئون الدينية للمسلمين..»[1].

هكذا قدم الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا - سنة 1926م.. عقب إسقاط الخلافة العثمانية - اجتهادًا «فقهيًا.. وسياسيًا»، لتجديد الخلافة الإسلامية.. وتوحيد الأمة الإسلامية،

(1) د. عبد الرزاق السنهوري [فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية] ص 3239، 341، 356. ترجمة: د. نادية السنهوري، مراجعة وتقديم وتعليق: د. توفيق الشادي - طبعة القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة 1989م. و: [الدين والدولة في الإسلام] - مجلة [هيئة قضايا الدولة] - عدد يونيه سنة 1989م ص 107، 108 - القاهرة.

في شـكل «عصبة أمم إسـلامية»، توحد الأمة، وتحقق تكامل «دار الإسلام»، وتكامل النهضة الإسلامية الحديثة، مع مراعات التعدد في الحكومات والتنوع في الأوطان، تلبية للواقع الجديد، والتيارات القومية الصاعدة في محيط عالم الإسلام.

ونحن عندما نتأمل اجتهاد السنهوري هذا - عقب سقوط الخلافة العثمانية - نجد له نظيرًا في أدبيات اليقظة الإسـلامية إبان مرحلة ضعف هذه الخلافة، وذلك بهدف تجديد شـباب تلك الخلافة، لمواجهة المخطط الاسـتعماري الغربي السـاعي إلى التهام أقاليم تلـك الخلافة، تمهيدًا لإسـقاطها ووراثـة تركتها.. ففي النصـف الأول من عقد الثمانينيات - في القرن التاسـع عشر الميـلادي - كتب جمال الدين الأفغـاني [1254 - 1314هـ - 1838 - 1897م] في [العروة الوثقي] يدعـو إلى تكامل وتضامن دار الإسـلام وأمة الإسـلام، فقـال: «إن الدول الإسـلامية متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة.. أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟!.. ولو اتفقوا فليس ذلك ببـدع منهـم، فالاتفاق من أصول دينهم.. أليس لكل واحـد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10]- ، فيقيمون بالوحدة سدًا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب؟!.

لا ألتمـس بقـولي هذا أن يكـون مالك الأمر في الجميع شـخصًا واحدًا، فـإن هذا ربما كان عسـيرًا، ولكني أرجو أن يكون سـلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملـك على ملكة، يسـعى بجهـده لحفظ الآخر ما اسـتطاع، فإن حياتـه بحياته وبقاءه ببقائه.. ألا أن هذا، بعد كونه أساسًا لدينهم، تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات..»[1].

ثـم عـاد جمال الدين الأفغاني ليصوغ هذا الاقتراح، في شـكل نظـام لا مركزي، تصلح به الخلافة العثمانية إدارة أقاليمها وولاياتها، وتجدد به شباب تلك الولايات، وتفتح أبواب النهوض أمـام الشرق الإسـلامي، كي تسـتطيع التصـدي للزحف الاسـتعماري الغربي.. ولقـد قدم هذا

(1) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] جـ 2 ص 28، 29. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت سنة 1981م.

المشروع إلى السلطان عبد الحميد [1258 - 1336هـ - 1842 - 1918م] في العقد الأخير من القرن التاسع عشر..[1].

□□□

واليوم.. تتحرك خريطة عالمنا المعاصر نحو إقامة التكتلات والاتحادات، سواء بروابط إقليمية، أو حضارية أو أيديولوجية.. فالوحدة الأوروبية، وإن استهدفت المصالح المادية - اقتصادية وعسكرية - إلا أن الأيديولوجية الليبرالية، والتراث المسيحي، والبعد الحضاري الغربي هي منطلقات ومكونات في صنع هذه الوحدة.. وإلا فليس مصادقة أن يكون القادة الثلاثة المؤسسون للاتحاد الأوروبي - الألماني «أديناور» [1876 - 1961م] والإيطالي «دي جاسبري» [1881 - 1954م] والفرنسي «شومان» [1886 - 1963م] - هم من الديمقراطيين المسيحيين، ومن الكاثوليك المخلصين!..

بل إن هذه العوامل - الأيديولوجية - والدينية.. والحضارية.. هي التي تجعل الاتحاد الأوروبي يفتح أبوابه لشعوب أوروبا الشرقية والوسطي، التي تشترك مع شعوبه في هذه المنطلقات.. بينما يمانع في دخول تركيا المسلمة إلى «ناديه المسيحي»!..

□□□

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى [في جماد ثاني سنة 1389هـ - 21 أغسطس ستة 1969م] اهتز ضمير العالم الإسلامي، فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية [في رجب - سبتمبر من نفس العام].. وتأسست - في العالم التالي - «منظمة المؤتمر الإسلامي».. وهي التي تمثل - في حالة ما إذا دبت فيها الروح والحيوية.. عصبة الشعوب الإسلامية.. فإذا حدث وعادت حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية في تشريعاتها، والتزمت بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وقيما، وغدت - بذلك - «دولًا» إسلامية كاملة الإسلامية، أمكن - يومئذ - أن تتطور «منظمة المؤتمر الإسلامي» إلى «منظمة الدول الإسلامية».. وبهذا التطور، تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر وتحدياته، في التكتل على أساس

(1) المصدر السابق. جـ 2 ص 17 - 19.

المصالح المادية، وحققت - أيضًا - المبدأ الإسلامي في وحدة الأمة الإسلامية، وتكامل دار الإسلام.

❐❐❐

إن أمتنا الإسلامية تملك وطنًا تبلغ مساحته 35.000.000 كيلومتر مربع.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها مليارا وسبعمائة مليون - أين نحو ربع البشرية.. ونصف المتدينين بالديانات السماوية!.. وهي تملك - مع وحدة العقيدة والشريعة والحضارة والقيم والتراث الفكري - من الثروات المادية ما يؤهلها لأن تكون العالم الأول - بل إنها قد كانت العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.. بينما عمر الغرب كعالم أول لا يتعدى قرنين من الزمان!..

إن الأمة الإسلامية - التي يمتد وطنها من «غانة» إلى «فرغانة» - غربًا وشرقًا - ومن حوض نهر الفلجا إلى جنوبي خط الاستواء - شمالًا وجنوبًا - .. تملك:

❐ أطول أنهار الدنيا.. وأقدم فلاح علم الدنيا فن الزراعة.. وفي بلد واحد من بلادها - هو السودان.. أكثر من مائتي مليون فدان صالحة للزراعة بأرخص التكاليف، ومهيأة لأن تكون سلة غذاء لعالم الإسلام.

❐ كما تملك من طول الشواطئ - البحرية.. والنهرية - ما يؤهلها لأن تكون مصدرًا غنيًا للثروات البحرية بكل أنواعها، السمكية والمعدنية..

❐ ووطن هذه الأمة هو العالم الأول في البترول، والغاز، والمنجنيز، والكروم، والقصدير، والبوكسيت، واليورانيوم..

وهو العالم الثاني في: النحاس، والفوسفات..

وهو العالم الثالث في: الحديد..

وهو العالم الخامس في: الرصاص..

وهو العالم السابع في: الفحم..

وهو ينتج ثلثي الإنتاج العالمي من البترول والغاز.. و24 % من المنجنيز.. و40 % من

الكـروم. و56 % مـن القصدير.. و23 % من البوكسـيت.. و25 % من النحاس.. و25 % من الفوسفات.. و12 % من الحديد.. و10 % من الرصاص..

❐ ولأن أغلـب ثـروات العالم الإسـلامي مركـوزة في باطـن الأرض.. ولأن زكاة الركاز الخمس - وفق حديث رسول الله ﷺ: **«في الركاز الخمس»**.. رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبـو داود والإمـام مالك والإمام أحمد - .. فإن هذا «البند» مـن بنود الزكاة وحدة - 20 % من قيمة هذه الثروات المسـتخرجة من باطن الأرض - لو قامت عليه مؤسسـة تنموية إسـلامية، لاستطعنا تنمية عالم الإسلام اقتصاديًا واجتماعيًا.. وبالحلال ننمي مجتمعات الأمة الإسلامية.. مع عتق رقابنا من الأغلال التي يكبلنا بها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي!..

❐❐❐

وجدير بالذكر، أن وحدة أمة الإسـلام، وتكامل دار الإسـلام، وسلوك السبيل الإسلامية في التنمية والنهوض، و إقامة العدالة الاجتماعية في الثروات والأموال وفق فلسـفة الإسـلام في الاسـتخلاف.. لا يعني أي من ذلك ولا كل ذلك عزلة المسـلمين عن المشاركة في الحياة الدولية، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية، أو من خلال المنظمات الدولية.. بل ومن خـلال الانفتاح والتفاعل مع الحضارات غير الإسـلامية.. ففقهنا المعاصر يرى العالم كلـه «دار عهـد»، تحكمها القوانـين الدولية، التي يجب أن يشـارك العالم كلـه في صياغتها.. وينزل على احترامها.. والله - سـبحانه وتعالى - قد خلقنا شعوبًا وقبائل لنتعارف.. و إذا كانت الموازنة بين المصلحة وبين المفسـدة هي معيار الحلال والحرام والمسـتحب والمكروه في أغلب ميادين السياسـة الشرعيـة، فإن تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة للمسـلمين وللإنسـانية كلها، ودفع المضرة والمفسـدة عن المسـلمين وعن الإنسـانية، هي معايير الموالاة والمعاداة في علاقات المسلمين بغير المسلمين.. وهذه هي المعايير التي أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التي تقول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 7 - 9]..

إن الأمة الإسلامية، تريد العالم «منتدى حضارات»، تتفاعل فيه كل حضارات الأمم والشعوب، مع تمايز كل هذه الأمم في الهويات الثقافية والخصوصيات العقدية والحضارية.. مثلها في ذلك مثل الإنسان الذي يصافح كل الناس، مع احتفاظه «بالبصمة» التي تميزه عن الآخرين.. فالتعاون مع الآخرين فريضة إسلامية ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2] - .. وليس مجرد مباح من المباحات..

والتنوع والتعدد والتمايز بين الأمم والحضارات - بل وكل الكائنات والمخلوقات - سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس مجرد حق من حقوق الإنسان. والله أعلم.

❐❐❐

الوسطية الإسلامية

الوسطية الإسلامية

لأن الوسطية الإسلامية هي الشرط في نقاء إسلامية المنهاج الإسلامي في الإصلاح - لأنها هي الجامعة بين عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتناقضة، التي تمثل غلوّي الإفراط والتفريط.. فلقد أكد الإمام محمد عبده على وسطية دعوته الإصلاحية وتوسطها بالنسبة للدعوات الأخرى التي رفعت شعارات النهضة والتغيير في ذلك التاريخ.

ففي الوسطية الإسلامية تتمثل السمة والقسمة التي تعد - بحق - أخص ما يختص به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات.. بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات.. حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي - وحضارته - هي «العدسته اللامة» لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية أيضًا.

وهي قد بلغت وتبلغ هذا المقام؛ لأنها - بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل - إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها، وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد - سبحانه وتعالى - لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج الإصلاح بالإسلام، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].. إنها الحق بين باطلين.. والعدل بين ظلمين.. والاعتدال بين تطرفين.. والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو - إفراطًا وتفريطًا - لأن الغلو الذي يتنكب الوسطية، هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر توسط الوسطية الإسلامية الجامعة، وإمكانات الشهادة والشهود!..

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة، ليست ما يحسبه العامة: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات؛ لأنها هي الموقف الأصعب، الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط.. فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام..

وهي - كذلك - ليست «الأرسطية»، كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها، لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو [384 - 322ق.م] أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين.. هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون - في توسطها «بالنقطة الرياضية» التي تفصلها عن القطبين - الرذيلتين - مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية، إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام..

إنها - في التصور الإسلامي - موقف ثالث حقًا.. وموقف جديد حقًّا.. ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما.. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء.. وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبًا واحدًا؛.. منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز!.. ولذلك، فإنها - كموقف ثالث، وجديد - إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه - كنسق غير متنافر ولا ملفق - من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما.. وهي، لذلك وسطية «جامعة»، تتميز عن تلك التي قال بها حكيم اليونان..

إن «العدل» - والوسطية هي العدل بين ظلمين - لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين.. وإنما يعتدل بالوسطية الجامعة التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيّنات الفريقين المختصمين - كفتي الميزان - ولهذا كان قول رسول الله ﷺ في **«الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا»** - رواه الإمام أحمد - كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسطية في الإسلام..

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي لمصطلح «الوسطية» - وهو المضمون الذي ميزها

بوصف «الجامعة» - نقرأ كل الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الإسلامي في الإصلاح.. فأمة الإسلام هم ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: 67] - .. والمنهاج الوسطي في الإنفاق تشير إليه آيات من مثل: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء: 26].. ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء: 29] - .. فلا الرهبانية النصرانية والنسك الأعجمي، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف..

وإذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذي تمثله «الوسطية الجامعة» وتحققه للمنهج الإسلامي في الإصلاح.. والشمول الذي تبلغه تأثيراتها - عندما تراعى وتوضع في الممارسة والتطبيق - فإننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية - وتمثل - بالنسبة للإصلاح الإسلامي طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية المتقابلات المتناقضة، على النحو الذي حدث في حضارات أخرى، وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد..

فبهذه الوسطية الجامعة لم يعرف المنهاج الإسلامي التناقض الذي لم يجد له حلًّا بين: الروح والجسد.. الدنيا والآخرة.. الدين والدولة.. الذات والموضوع.. الفرد والمجموع.. الفكر والواقع.. المادية والمثالية.. المقاصد والوسائل.. الثابت والمتغير.. القديم والجديد.. العقل والنقل.. الحق والقوة.. الاجتهاد والتقليد.. الدين والعلم.. إلى آخر الثنائيات، التي عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة «الوسطية الجامعة»، حدث الانقسام الحاد والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى «ماديين» و«مثاليين»، و«مادية» و«مثالية»، و«عقلانيين» و«لاهوتيين»، و«علماء» و«متدينين»، و«فلاسفة»، و«مؤمنين»!.. منذ الجاهلية اليونانية لتلك الحضارة وحتى نهضتها الحديثة، وواقعها المعاصر..

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة - لحضارتنا.. ولمنهاج الإصلاح الإسلامي - طوق النجاة من هذه الثنائيات وتمزقاتها وغلوها.. ولذلك، كانت المعيار لإسلامية مناهج النظر الفكري.. ومناهج الإصلاح بالإسلام.

ولقد تألقت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده حول بدايات القرن الرابع عشر الهجري، في واقع حضاري تميز بسيادة الجمود والتقليد في دوائر طلاب العلم الديني - وهو

غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامي عن الواقع والحياة فيخلق الفراغ الديني في هذا الواقع، ويبعد المنهاج الإصلاحي الإسلامي عن أن يكون هو سبيل الأمة للنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضاري بزحف النموذج الغربي في التقدم والتحديث على الشرق الإسلامي، ذلك النموذج الذي وفد إلى بلادنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام.. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضًا عالم الغيب.. وإلى الدنيا في مواجهة الدين. وإلى الفردية في مقابلة الجماعة.. وإلى الأرض في رفضه لحاكمة السماء وشريعتها.. وإلى المادية والوضعية في مقابلة الروح.. وإلى القوة في مواجهة العدل.. وإلى الصراع بدلًا من التدافع.. وإلى العقل في مقابلة النقل والوجدان.. فملأ هذا النموذج الغربي الفضاء الفلسفي والثقافي والسياسي بحشد غفير من «الثنائيات المتناقضة»، التي عبرت وتعبر عن غلو التفريط، المقابل بغلو الإفراط الذي مثله الجمود والتقليد السائدين بين طلاب علوم الدين في شرقنا الإسلامي، بذلك التاريخ.

ولمجافاة كلا الموقفين - جمود طلاب علوم الدين.. وجحود طلاب العلوم الغربية - لمنهاج الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تمييز منهاجه في الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة.. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوافد الغربي.. فقال:

«ولقد خالفت في الدعوة إليه - [أي إلى منهجه في الإصلاح] - رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومَن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم».

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية - التي انحاز إليها.. وتميز بها منهاجه الإصلاحي - ليست خيارًا ذاتيًّا، وإنما هي منهاج الإسلام، الذي تميز به عن الغلو الذي أصاب أهل الشرائع الأخرى.. **«.. فلقد ظهر الإسلام، لا روحيًّا مجردًا، ولا جسديًّا جامدًا، بل إنسانيًّا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين. بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه: دين الفطرة. وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقي فيها البرابرة على سلم المدينة».**

فالوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية.. فكان - لذلك - سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

ولقد أفاض الأستاذ الإمام في الحديث عن هذه الوسطية الإسلامية، الجامعة - في الإصلاح - بين الدين والدنيا.. وذلك في تفسيره قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143] - مشيرًا إلى دلالات مجيء الحديث عن الوسطية الإسلامية في سياق حديث القرآن عن الهداية الإلهية للإنسان ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .. فقال:

«.. أي على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطًا».

ثم عرض لمعنى هذه الوسطية الإسلامية في تراث السلف.. ثم أضاف رؤيته التي جعلتها منهاجًا في النظر والإصلاح.. فقال:

«لقد قالوا: الوسط هو العدل والخيار، وذلك لأن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهما».

ولقد تقدم الإمام محمد عبده في تفسيره للصلاة الوسطى - في الآية الكريمة ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: 238].. بأنها الصلاة «المثلى».. فالمطلوب أن تكون كل الصلوات مثلى.. أي خيارًا..

وإذا كان «الوسط» هو «الخيار».. فإن الأستاذ الإمام يتساءل: لماذا استخدم القرآن لفظ «الوسط» بدلًا من لفظ «الخيار».. فيقول:

«ولكن، يقال: لِمَ اختير لفظ الوسط على لفظ الخيار، مع أن هذا هو المقصود؟ والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي، فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفًا به، ومن كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضًا.

وثانيهما: أن في لفظ الوسط إشعارًا بالسببية، فكأنه دليل على نفسه، أي أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال..».

ثم مضى الأستاذ الإمام إلى الحديث عن أن هذه الوسطية الإسلامية إنما جاءت ثورة على شيوع الغلو - غلو الإفراط والتفريط - الذي ساد الشرائع والأنساق الفكرية التي سبقت ظهور الإسلام.

«ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين:

قسم تقضي عليه تقاليده المادية المحضة، فلا هم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين. وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيي الهند أصحاب الرياضات.

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين، حق الروح وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، جيوان وتلك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطا، تعرفون الحقين وتبلغون الكماليين ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ بالحق ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين، والروحانيين إذ فرطوا وكانوا من الغالين. تشهدون على المفرطين بالتعطيل، القائلين ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24] بأنهم أخلدوا إلى البهيمية، وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحانية وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين إن هذا الوجود حبس للأرواح وعقوبة لها، فعلينا أن نتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات الجسمانية وتعذيب الجسد وهضم حقوق النفس، وحرمانها من جميع ما أعده الله لها في هذه الحياة. تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن جادة الاعتدال وجنوا على أرواحهم بجنايتهم على أجسادهم وقواهم الحيوانية، وتشهدون على هؤلاء وهؤلاء، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور كلها، ذلك بأن ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال؛ لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه، يؤدي حقوق ربه، وحقوق نفسه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ أي أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط. وإنما تكون هذه الأمة وسطًا باتباعها له في سيرته وشريعته، وهو القاضي على الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين.

فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد، يشهدها الرسول بما وافقت فيه سنته وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه، بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم، فكأنه قال: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول نفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه بهذه الآية، وبقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 110] بل تخرجون بالابتداع من الوسط، وتكونون في أحد الطرفين»[1].

فالوسطية هي منهاج الإسلام في صياغة الإنسان المسلم.. وهي سبيل إسلامية الإصلاح في المجتمعات.. وهي الطور المتقدم الذي انتقلت الإنسانية إليه بشريعة الإسلام.. وهي شرط خيرية الأمة الإسلامية.. وهي - لذلك - «صراط الهداية المستقيم». كما قال الأستاذ الإمام.

❐❐❐

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ4، ص 318 - 320.

الوطن والوطنية

الوطن والوطنية

الإسلام، هو دين الله الواحد، الذي أوحاه إلى رسله وأنبيائه. منذ بدء الرسالة السماوية وحتى ختامها بمحمد ﷺ.. وفيه اتحدت العقيدة مع تمايز الشرائع، عبادات ومعاملات.

أما الوطنية، فهي المشاعر والروابط الفطرية - والتي تنمو بالاكتساب - لتشد الإنسان إلى الوطن الذي استوطنه وتوطن فيه.

والوطن - في اصطلاح العربية - كما جاء في [اللسان] لابن منظور - هو «المنزل الذي يمثل موطن الإنسان ومحله. و: وطن بالمكان وأوطن: أقام، متخذا إياه محلًا وسكنًا يقيم فيه..» ولا يغير من علاقة الوطنية، التي تربط الإنسان بوطنه، إقامته - الاختيارية أو القسرية - في مواطن أخرى غير وطنه الأصل - وقديمًا قال الشاعر ابن بري:

كما ترى أهل العراق أنني أوطنت أرضًا لم تكن من وطني!

وإذا كانت العربية، وتراثها النثري والشعري، قد عرفت مصطلح «الوطن» منذ فجر هذا التراث. فإن القرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى أن العربية تعبر عن الوطن أيضًا بمصطلح «الديار» ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8].. ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: 37].. ولذلك شاع في التراث الإسلامي التعبير عن الوطن الإسلامي بدار الإسلام وديار الإسلام.. وتعددت التآليف التي كتبت في الوطنية تحت عناوين «المنازل والديار» و«الديارات»!..

أما السنة النبوية، فلقد جمعت بعض أحاديثها بين مصطلحي «الوطن» و«الدار»: «هي

وطـني وداري»[1].. وجمع بعضها الآخر بين مصطلحي «الوطـن» و«البلاد»: «ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم...»[2]..

وإذا كانـت معاجـم العربية لم تقف فقـط عند التعريف اللغوي للوطن، وإنما أشـارت أيضًا إلى فطرة الوطنية التي تجمع، بالحب، بين الإنسان ووطنه..وذلك على النحو الذي رأيناه في [أسـاس البلاغة]. للزمخشري - حيث يقول عن فطرة الوطنية وحب الوطن: **«وكل يحب وطنه وأوطانه ومواطنه»**؟!.. فإن التعريف الشرعي للوطن يشـير هو الآخر إلى هذا المعنى «فالوطن الأصـلي، عند أهل الشرع، يسـمى **بالأهلي، ووطن الفطرة والقرار**، وفيه يكون مولد الإنسـان ومأهله ومنشأه»[3].

وإذا كان الانتماء الأول والأكبر والأسـاسي، بالنسـبة للمسـلم، هو إلى الإسـلام وأمته، وإلى دار الإسـلام وحضارتـه ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبـة: 24].. ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحـزاب: 6].. **فـإن تخيير المسـلم بين الانتماء للإسـلام وبين هذه الدوائر الأخرى للانتماء لا يكون إلا في حالات قيام التعارض أو التناقض والتضاد بين الانتماء إلى الإسلام - كانتماء جامع وأول - وبين الانتماءات الأخرى - كدوائر فرعية - أما إذا اتسعت دوائر الانتماء، أمام الإنسان، وتكاملت في ممارساته الحياتية فلن يكون هناك تناقض في الفكر والعمل الإسلاميين بين كل دوائر الانتماء النظري للإنسان.**

بل إن الأمر في علاقة الانتماء الإسلامي بالانتماء الوطني لتتعدي حدود «نفي التناقض» إلى دائرة «الامتزاج والارتباط »..

فلأن الإسـلام منهاج شـامل لمملكة السـماء وعالم الغيـب وللعمران البشري وسياسـة

(1) رواه أبو داود.
(2) رواه الإمام أحمد.
(3) التهانوي [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة الهند سنة 1891م.

وتدبير عالم الشهادة، فإن إقامته كدين لا تتأتى إلا في واقع ووطن ومكان وجغرافيا.. وهذا الواقع والوطن والمكان والجغرافيا لن يكون إسلاميًا إلا إذا أصبح الانتماء الوطني فيه بعدًا من أبعاد الانتماء الإسلامي العام.. فعبقرية المكان، في المحيط الإسلامي هي واحدة من تجليات الإسلام، الذي لا تكتمل إقامته بغير الوطن والمكان والجغرافيا!.. ومن هنا تأتي ضرورة الوطن لإقامة دنيا الإسلام وعمرانه، وضرورة الدين، ليكون الوطن إسلاميًا وتتحقق إسلامية عمرانه، أي ضرورة أن يكون الانتماء الوطني - الوطنية - درجة من درجات سلم انتماء المسلم إلى الإسلام، كجامع أكبر وأول لأبعاد ودوائر الانتماء.. فالإسلام هو الذي يستدعي ويتطلب وجود الوطن والوطنية، لأنه لا تكتمل إقامته دون وطن يتجسد فيه.. فليس هو بالدين الذي تكتمل إقامته «بالخلاص الفردي»، كما أن «خلاص» المسلم و«تقدمه» لا يمكن إلا إن يكون إسلاميا!..

وهذه الحقيقة الإسلامية هي التي ميزت مذهب الإسلام في «حدود» الوطن و«نطاقه».. فعلى حين وقفت مذاهب وفلسفات عند «حدود العرق»، فإن الإسلام قد رفض هذا المعيار الجاهلي، لأن رب الناس واحد، وأباهم واحد، والتقوى والاستباق في الخيرات هي معايير التفاضل بين الناس.. وعلى حين وقفت مذاهب وفلسفات في رسم حدود الوطن عند «اللغة» وحدها، فإن الإسلام قد جعل العربية لسان الدين، وسبيل الدولة والعقل المسلم لفقه الدين والاجتهاد فيه، فلم يعرف التناقض بين آفاق الدين ونطاق اللغة العربية على وجه الخصوص..

وعلى حين اكتفت مذاهب وفلسفات، في تحديد حدود الوطن «بجغرافيا الإقليم»، فإن الإسلام قد سلك الجغرافيا والأقاليم في سلك ديار الإسلام، تلك التي وحدتها العقيدة والشريعة والأمة والحضارة، مع التمايز في القبائل والشعوب والأوطان والأقوام.. فاجتمعت في منظومته كل من العالمية والأممية مع الوطنيات والقوميات، دونما تناقض أو تعارض أو عداء.

❐❐❐

وهذه الحقيقة - في علاقة الإسلام بالوطنية - هي التي جعلت للوطن والوطنية ذلك المقام العالي في ظل الانتماء الإسلامي الذي لا يقف عند حدود وطن بعينه ولا يتقيد بوطنية من الوطنيات دون سواها..

❐ فالقرآن الكريم يتحدث عن حب الإنسان لوطنه كمعادل وقرين لحب هذا الإنسان للحياة؟!.. ولذلك، فالإخراج من الديار معادل ومساو للقتل الذي يخرج الإنسان من عداد الأحياء؟!.. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66].

ومن بنود المواثيق التي أخذها الله على بعض الأمم، نتعلم أن الإخراج من الديار، والحرمان من الوطن، هو معادل لسفك الدماء والإخراج من الحياة - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ **لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ **تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ** تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 84 - 85].

ولذلك، جعل القرآن الكريم «استقلال الوطن وحريته»، الذي هو ثمرة لوطنية أهله وبسالتهم في الدفاع عنه، جعل ذلك «حياة» لأهل هذا الوطن - بينما اعتبر الذين فرطوا في الوطنية، ومن ثم في استقلال وطنهم بأنهم «أموات».. وجعل من عودة الروح الوطنية، إلى الذين سبق لهم التفريط فيها، عودة لروح الحياة إلى الذين سبق وأصابهم الموت والموات؟!.. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 243 - 244].

فالذين خرجوا من ديارهم - وليس الذين أخرجوا - لضعف في وطنيتهم، جعلهم يحذرون الموت، هم أموات، مع أنهم ألوف يأكلون ويشربون!.. وعودة الوطنية إليهم، واستخلاصهم لوطنهم، هو إحياء لهم بعد الممات!..

ولقد رأى الأستاذ الإمام محمد عبده [1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م] أن هذه الآية القرآنية إنما تتحدث عن سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، ليس لها تحويل ولا تبديل، فحياة الأمم إنما تكون بحيوية وطنيتها التي تحافظ على استقلال وحياة أوطانها - وموت هذه

الأمم هو رهن بموات وطنيتها الذي يفرط في استقلال الوطن الذي تعيش فيه!.. فكتب - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية يقول:

«.. تلك سنة الله تعالى في الأمم التي تجبن فلا تدفع العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها، في عرف الناس جميعهم، معروف، **فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل ما بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو : عودة الاستقلال إليهم!.. إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المليئة - [الوطنية] - المحفوظة من عدوان المعتدين.. والقتال في سبيل الله.. أعم من القتال لأجل الدين، لأنه يشمل، أيضا، الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»**[1].

❐ وكما جعل الإسلام الوطنية، التي تحفظ استقلال الوطن، قرين الحياة ومعادلها - كذلك جعل من هذه **الوطنية حرية الدعوة إلى الدين**.. فكان الجهاد القتالي في الإسلام ردا ودفعا لعدوان المعتدين على حرية الدعوة - بالفتنة في الدين - وعلى عدوان المعتدين الذي يخرج الناس من الأوطان ويقتلعهم من الديار.. في هذين السببين انحصرت شرعية ومشروعية فريضة الجهاد القتالي في الإسلام.. وعلى هذه الحقيقة تشهد آيات القرآن الكريم التي شرعت فريضة القتال لرد العدوان عن الدين.. وعن الوطن..

فعندما «أذن» الله، سبحانه، للمؤمنين في القتال، كان إخراجهم من ديارهم سببًا علل به القرآن الكريم هذا التطور الجديد، المتمثل في الإذن بالقتال.. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

(1) [الأعمال الكاملة] جـ 4 ص 695 - 697. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة 1972م.

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 39 - 40].

وعندما تطور الحال من «**الإذن**» في القتال إلى «**الأمر**» به، جاء حديث القرآن الكريم، أيضًا فوضع الإخراج من الديار سببا لقتال أولئك الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم. ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ ... ﴾ [البقرة: 190 - 191].

وعندما انتقل القرآن الكريم، في تشريعه للجهاد القتالي، من «**أمر**» المؤمنين به إلى حيث جعله «**فريضة مكتوبة**» عليهم، استمر حديثه عن إخراجهم من ديارهم، كسبب يوجب عليهم ويفرض قتال الأعداء... ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ** ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 216 - 217].

ثم تطرد هذه الحقيقة القرآنية - الحديث عن الإخراج من الديار - في كل مواطن، الاستنفار للجهاد القتالي.. فالله يحدث رسوله عن صنيع مشركي مكة معه، وخياراهم للمكر به ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ **لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: 30].. فالإخراج من الديار معادل للقتل.. وللسجن. فجميعها تحرم الإنسان من السيادة على مقدرات الوطن الذي ينتمي إليه!.

وفي مقام استنفار المسلمين للقتال، يحدثهم القرآن عن إخراج المشركين للرسول، ﷺ، من وطنه.. ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ **وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ** وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 13 - 14].. ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ **إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 40 - 41].

وإذا كان المقام مقام، الحديث عن المكانة التي أعدها الله للمؤمنين، كانت الإشارة إلى المكانة المتميزة للذين قاتلوا من أخرجوهم من ديارهم واقتلعوهم من أوطانهم - ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ **فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ** وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: 195].

وعندما يكون الحديث عن أولويات الاختصاص بالفيء والمال، يذكر القرآن بالذين أصابهم الفقر بسبب الإخراج من الديار.. ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ** يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: 7 - 8].

هكذا يذكر القرآن الكريم - عندما يتحدث عن الجهاد القتالي - الإخراج من الديار، سببًا يجب من أجله القتال، وقضية يستنفر المؤمنين كي يقاتلوا لها، وذلك حتى يستردوا وطنهم الذي اقتلعوا منه من بين براثن المعتدين.. بل ويجعل الإخراج من الديار والفتنة في الدين جماع أسباب الجهاد القتالي في الإسلام!.

❐ **وفي تشريع الإسلام لمعايير «الموالاة» و«المعاداة»، ولأسباب «الولاء» و«البراء»، ولفلسفة العلاقات - الداخلية.. والدولية - بين المؤمنين و«الآخرين».. يذكر القرآن الكريم، أيضًا، معياري وسببي «الإخراج من الديار» و«الفتنة في الدين» جماعا لأسباب التمييز بين الأصدقاء - الذين لهم البر والقسط - وبين الأعداء. الذين لا موالاة لهم، بل وعلينا أن نقاتلهم، حفاظًا على حرية الوطن، وحرية الدعوة إلى الدين..** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ **يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ** ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ

رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: 1].

وفي آيات أخرى - بذات السورة - يحدثنا القرآن عمن تجوز مصادقته من المخالفين لنا في الدين؟ وعمن لا تجوز لنا مصادقته من هؤلاء المخالفين؟.. فإذا نحن مطالبون بألا نصادق ثلاث فئات:

أ - الذين يقاتلوننا في الدين، بالحيلولة بيننا وبين حرية الدعوة وأمن الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة..

ب- والذين يخرجون المسلمين أو بعضهم من ديارهم، على أي نحو كان هذا الإخراج، تهجيرًا بالاضطهاد، أو عزلا عن امتلاك خيرات الوطن والتحكم في مقدراته.

جـ- والذين يظاهرون، أي يساعدون على هذا الإخراج للمسلمين من الديار والأوطان.. على أي نحو كانت المظاهرة والمساعدة في القهر الوطني من هؤلاء المظاهرين!..

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: 8 - 9].

فالوطنية فطرة إنسانية، معادلة للحياة.. وفقدها موت.. وهي - مع الفتنة في الدين - جماع أسباب مشروعية الجهاد القتالي في الإسلام.. وجماع معايير «الموالاة» و«المعاداة» أي «الولاء» و«البراء» في الشريعة الإسلامية.

□□□

وإذا كان فقهاء الأمة - من كل مذاهبها.. وعلى مر تاريخها - قد اتفقوا - وفق عبارة الإمام محمد عبده - «على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين».. فإننا نستطيع أن نصنف عقيدة الجهاد الإسلامية، وتراثنا في آدابها ضمن ديوان «الوطنية الإسلامية».. وأن لا نقف في هذا التراث فقط عندما ألف - وهو كثير - في «الحنين إلى

الأوطان»، و«المنازل والديار».. فنحن أمام «عقيدة إسلامية» - هي الجهاد - قد جعلت حماية الوطن وحريته وتحريره «ذروة سنام الإسلام»، وأمام تراث في الجهاد - فكرًا وممارسة - يشهد على مكانته وخطره ما تمثله، حتى اليوم، كلمة «الجهاد» من تداعيات وذكريات وحسابات لدى كل القوى الطامعة في اغتصاب أرض الإسلام؟!..

ولا يحسبن أحد أن هذا «تراث» قد انقطعت معه خيوط اتصال عصرنا الحديث.. فكل حركات ودعوات التحرر الوطني الحديثة، في عالم الإسلام، قد نشأت إسلامية، أو وثيقة الصلة بالإسلام وعقيدة الجهاد فيه.. من السنوسية والمهدية.. إلى تيار الجامعة الإسلامية الذي قاده جمال الدين الأفغاني [1254 - 1314هـ - 1838 - 1897].. إلى الثورة العرابية - في مصر - [1298هـ - 1881م].. إلى الحزب الوطني - حزب الجامعة الإسلامية - الذي قاده مصطفى كامل [1291 - 1326هـ - 1874 - 1908م].. إلى الثورة المصرية [1337هـ - 1919م] التي انطلقت من دور العبادة، والتي قادها تلميذ الأفغاني ومحمد عبده: سعد زغلول [1273 - 1346هـ - 1857 - 1927م]. إلى جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وحزب الاستقلال في الغرب. إلى ثورة العشرينيات في العراق. إلى دعوات وجهاد القسام والحسني في فلسطين.. وحتى حسن البنا [1324 - 1368هـ - 1906 - 1949م] الذي تحدث عن الوطنية ومكانتها في فكر اليقظة الإسلامية المعاصرة فقال: **«إن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم ويحرصون على وحدته، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفني في سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار.. وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا.. إننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد.. فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام. أما وجه الخلاف. بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية»**[1].

فالإسلام لا يسقط تمايزات التخوم الأرضية والحدود الجغرافية - أي التمايز الإقليمي - للأوطان داخل ديار الإسلام - بل يدعو الإنسان - كما يقول الأستاذ البنا - إلى «أن يخلص

(1) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] رسالة: المؤتمر الخامس. ورسالة: دعرتنا - ص 176، 178، 19، طبعة دار الشهاب - القاهرة - بدون تاريخ.

لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه.. وأن يتمني لوطنه كل مجد وفخار.. وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا..».. **فقط تتميز الوطنية الإسلامية بأنها لا تجعل تخوم الأقاليم الوطنية نهاية آفاقها، وإنما تسلك الأقاليم والأوطان في سلك جامع هو «دار الإسلام»..**

❐❐❐

لقد استقر تراث الإسلام على اعتبار الوطنية - وهي المشاعر التي ترتبط بروابط الحب بين الإنسان ووطنه - فطرة فطر الله الإنسان عليها.. فحدثنا الجاحظ [163 - 255هـ - 780 - 869م] في رسالة [الحنين إلى الأوطان] كيف «كانت العرب إذا غزت أو سافرت تحمل معها من تربة بلدها رملًا وعفرًا تستنشقه»[1]! - وأشار إليها الزمخشري [467 - 538هـ - 1075 - 1142م] - في [أساس البلاغة] - كفطرة تجعل كل إنسان «يحب وطنه وأوطانه ومواطنه»!. وجعلها رفاعة الطهطاوي [1216 - 1290هـ - 1801 - 1873م] «المذهب» الذي تلتف حوله «أدوار» إحدى منظوماته وأناشيده.. فهي عنده «فطرة» و«هبة» إلهية:

من أصل الفطرة للفطن بعد المولى حب الوطن
هبة من الوهاب بها فالحمد لوهاب المنن[2]

وصاغ حسن البنا علاقة الوطنية بالإسلام في عبارته الموجزة التي تقول: «إن الوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعالم الإسلام».

❐❐❐

(1) [رسائل الجاحظ] جـ 2 ص 392. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة 1964م.
(2) [الأعمال الكاملة] جـ 5 ص 278 دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة. طبعة بيروت 1981م.

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/
محمد عمارة



أولا: السيرة الذاتية

- مفكـر إسـلامي.. ومؤلف.. ومحقـق.. وعضو «هيئـة كبا العلمـاء» و«مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف.
- ولـد بريف مصر - ببلدة «صروة»، مركز «قلين»، محافظة «كفر الشـيخ» - في 27 من رجب 1350هـ، 8 من ديسمبر 1931م، في أسرة ميسورة الحال - ماديا - تحترف الزراعة.. وملتزمة دينيا.
- قبـل مولـده، كان والده قد نذر للـه: إذا جاء المولود ذكرا، أن يسـميه محمداً، وأن يهبه للعلم الديني، أي يطلب العلم في الأزهر الشريف.
- حفظ القرآن وجوَّده بـ«كتاب» القرية.. مع تلقي العلوم المدنية الأولية بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإلزامي.
- في 1364هـ، 1945م التحق «بمعهد دسـوق الديـني الابتدائي» - التابـع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على شهادة الابتدائية، 1368هـ، 1949م.
- وفي المرحلـة الابتدائيـة - النصف الثـاني في أربعينيات القرن العشريـن - بدأت تتفتح

وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية والإسلامية، والأدبية والثقافية.. فشارك في العمل الوطني - قضية استقلال مصر والقضية الفلسطينية - بالخطابة في المساجد.. والكتابة - نثراً وشعراً - وكان أول مقال نشرته له صحيفة «مصر الفتاة» بعنوان «جهاد» - عن فلسطين - في أبريل، 1948. وتطوع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية.. لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين.

- في 1949، التحق «بمعهد طنطا الأحمدي الديني الثانوي» - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على الثانوية الأزهرية، 1373هـ، 1954م.

- وواصل - في مرحلة الدراسة الثانوية - اهتماماته السياسية والأدبية والثقافية.. ونشر شعرا. ونثرا في صحف ومجلات «مصر الفتاة»، و«منبر الشرق»، و«المصري»، و«الكاتب».. وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة 1936 في 1951م.

- في 1374هـ، 1954م التحق «بكلية دار العلوم» جامعة القاهرة.. وفيها تخرج، ونال درجة «الليسانس» في اللغة العربية والعلوم الإسلامية. ولقد تأخر تخرجه - بسبب نشاطه السياسي - إلى 1965م بدلا من 1958م.

- تواصل - في مرحلة الدراسة الجامعية - نشاطه الوطني والأدبي والثقافي.. فشارك في «المقاومة الشعبية»، بمنطقة قناة السويس، إبان مقاومة الغزو الثلاثي لمصر، 1375هـ، 1956م..

- ونشر المقالات في صحيفة «المساء» - المصرية - ومجلة «الآداب» - البيروتية - وألَّف ونشر أول كتبه عن «القومية العربية»، 1958.

- وبعد التخرج من الجامعة، أعطى كل وقته - تقريبا - وجميع جهده لمشروعه الفكري، فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة، رفاعة رافع الطهطاوي.. وجمال الدين الأفغاني.. ومحمد عبده.. وعبد الرحمن الكواكبي.. وعلي مبارك.. وقاسم أمين.. وكتب الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامي.. مثل: الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا.. والشيخ محمد الغزالي.. وعمر مكرم..

ومصطفى كامل.. وخير الدين التونسي.. ورشيد رضا.. وعبد الحميد باديس.. ومحمد الخضر حسين.. وأبي الأعلى المودودي.. وحسن البنا.. وسيد قطب.. والشيخ محمود شلتوت... إلخ.

- ومن أعلام الصحابة الذين كتب عنهم: عمر بن الخطاب.. وعلي بن أبي طالب.. وأبو ذر الغفاري.. وأسماء بنت أبي بكر.. كما كتب عن تيارات الفكر الإسلامي - القديمة والحديثة - وعن أعلام التراث الإسلامي، مثل: غيلان الدمشقي.. والحسن البصري.. وعمرو بن عبيد.. والنفس الزكية (محمد بن الحسن).. وعلي بن محمد.. والماوردي.. وابن رشد (الحفيد).. والعز بن عبد السلام.. إلخ.
- وتناولت كتبه - التي تجاوزت ثلاثمة كتاب - السمات المميزة للحضارة الإسلامية. والمشروع الحضاري الإسلامي.. والمواجهة مع الحضارات الغازية والمعادية.. وتيارات العلمنة والتغريب.. وصفحات العدل الاجتماعي الإسلامي.. والعقلانية الإسلامية.
- وحاور وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة.
- وحقق عددا من نصوص التراث الإسلامي (القديم منه والحديث).
- وكجزء من عمله العلمي ومشروعه الفكري، حصل - من كلية دار العلوم - في العلوم الإسلامية - تخصص الفلسفة الإسلامية - على الماجستير، 1390هـ، 1970م. بأطروحة عن «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية».. وعلى الدكتوراه، 1395هـ، 1975م، بأطروحة عن «الإسلام وفلسفة الحكم».
- أسهم في تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة.. وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية في وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما.. كما أسهم في تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة، مثل: «موسوعة السياسة»، و«موسوعة الحضارة العربية»، و«موسوعة الشروق»، و«موسوعة المفاهيم الإسلامية»، و«الموسوعة الإسلامية العامة»، و«موسوعة الإعلام»... إلخ.
- نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، منها: «ألمجلس الأعلى

للشـئون الإسـلامية» بمصر، و«المعهد العالمي للفكر الإسـلامي» بواشنطن، و«مركز الدراسـات الحضارية» بمصر، و«المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسـلامية» مؤسسة آل البيت بالأردن، و« مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف وهيئة كبار العلماء - بالأزهر الشريف.

- رأس تحرير مجلة «الأزهر» أربع سنوات - 1433 - 1436هـ.
- حصـل على عدد مـن الحوافز والأوسـمة.. والشـهادات التقديرية.. والـدروع، منها «جائـزة جمعيـة أصدقاء الكتـاب» بلبنـان، 1972.. وجائزة الدولة التشـجيعية بمصر، 1976.. ووسـام العلوم والفنون.. من الطبقة الأولى بمصر، 1976.. وجائزة علي وعثمان حافـظ - لمفكـر العـام، 1993.. وجائـزة المجمع الملـكي لبحوث الحضارة الإسـلامية، 1997.. ووسـام التيار القومي الإسلامي - القائد المؤسس، 1998، وجائزة مؤسسة أحمد كانو - للدراسات الإسلامية - بالبحرين، 2005، وجائزة وسام جمال الدين الأفغاني من جمهورية أفغانستان الإسلامية في فبراير، 2017.
- جـاوزت أعماله الفكريـة - تأليفا وتحقيقـا - ثلاثمائة كتاب، وذلك غـير ما نشر له في الصحف والمجلات.
- ترجـم العديـد مـن كتبـه إلى العديد مـن اللغـات الشرقيـة والغربية.. مثـل التركية، والمالاوية، والفارسـية، والأوردية، والإنجليزية، والفرنسـية، والروسية، والإسبانية، والألمانية، والألبانية، والبوسنية.
- الاسم - رباعيا: محمد عمارة مصطفى عمارة..
- العنوان: جمهورية مصر العربية - القاهرة - هاتف 22055661 - فاكس 22055662.

ثانيا: ثبت بأعماله الفكرية

في دار الشروق:

1- الإسلام والمستقبل.

2- الإسلام وفلسفه الحكم.

3- معركة الإسلام وأصول الحكم - دراسة وتحقيق.

4- الإسلام والفنون الجميلة.

5- الإسلام والثورة.

6- الإسلام والعروبة.

7- الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطةالدينية.

8- هل الإسلام هوا الحل؟؟ لماذا... وكيف؟؟

9- سقوط الغلو العلماني.

10- الغزو الفكري وهم أم حقيقة.

11- تيارات الفكر الإسلامي.

12- الصحوة الإسلاميه والتحدي الحضاري.

13- المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.

14- عندما أصبحت مصر عربية إسلامية.

15- العرب والتحدي.

16- مسلمون ثوار.

17- التفسير الماركسي للإسلام.

18- الإسلام بين التنوير والتزوير.

19- التيار القومي الإسلامي.

20- الإسلام والأمن الاجتماعي.

21- الأصولية بين الغرب ولإسلام.

22- الجامعة الإسلامية والفكرة القومية.

23- جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام.

24- محمد عبده: تجديد الدنيا بتجديد الدين.

25- عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام.

26- رفاعة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث.

27- على مبارك: مؤرخ ومهندس العمران.

28- قاسم أمين: تحرير المرأة والتمدن الإسلامي.

29- التحرير الإسلامي للمرأة: الرد على شبهات الغلاة.

30- الإسلام في عيون غربيه بين افتراء الجهلاءوانصاف العلماء.

31- الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية.

32- في فقه الصراع على القدس وفلسطين.

33- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دراسة وتحقيق.

34- الأعمال الكامله لعبد الرحمن الكواكبي - دراسة وتحقيق.

35- الأعمال الكاملة لقاسم امين - دراسة وتحقيق.

36- الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي - دراسة وتحقيق.

37- رسالة التوحيد - دراسة وتحقيق.

38- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - دراسة وتحقيق.

39- رسائل العدل والتوحيد - دراسة وتحقيق.

40- الإسلام وحقوق الإنسان.

41- معالم المنهج الإسلامي.

في نهضة مصر:

42- معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام.

43- الوسيط في المذاهب والمصطلحات.

44- القدس الشريف :رمزالصراع وبوابه الانتصار.

45- الإصلاح بالإسلام.

46- الإسلام والتحديات المعاصرة.

47- الإسلام في مواجهة التحديات.

48- الاستقلال الحضاري.

49- الغارة الجديدة على الإسلام.

50- مقام العقل في الإسلام.

51- الفريضة الغائبة: حوار مع ثقافة العنف.

52- الانتماء الحضاري :للغرب أم للإسلام؟

سلسلة: (في التنوير الإسلامي)

53- الصحوة الإسلامية في عيون غربية.

54- الغرب والإسلام.

55- أبو حيان التوحيدي.

56- ابن رشد بين الغرب والإسلام.

57- الانتماء الثقافي.

58- التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.

59- صراع القيم بين الغرب والإسلام.

60- د/ يوسف القرضاوي: المدرسة الفكرية والمشروع الفكري.

61- عندما دخلت مصر في دين الله.

62- الحركات الإسلامية رؤية نقدية.

63- المنهاج العقلي في الدراسات العربية.

64- النموذج الثقافي.

65- تجديد الدنيا بتجديد الدين.

66- الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة.

67- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.

68- التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد الإسلامي؟

69- إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.

70- الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟

71- الحملة الفرنسية في الميزان.

72- الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحده أم تفتيت واختراق؟

73- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.

74- الغناء والموسيقى حلال أم حرام؟

75- هل المسلمون أمة واحدة؟

76- السنة والبدعة للشيخ الخضر حسين- دراسة وتقديم

77- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان للشيخ الخضر حسين - دراسة وتقديم.

78- تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة.

79- مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية).

80- السنة النبوية ومعرفة الإنسانية.

81- الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.

82- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.

83- السنة التشريعية وغير التشريعية - مجموعة دراسات.

84- شبهات حول الإسلام.

85- المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية.

86- شبهات حول القرآن الكريم.

87- أزمة العقل العربي.

88- في التحرير الإسلامي للمرأة.

89- روح الحضارة الإسلامية للشيخ ابن عاشور - دراسة وتقديم.

90- الغرب والإسلام: افتراءات لها تاريخ.

91- السماحة الإسلامية.

92- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: هل كان علمانيا؟

93- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر.

94- إسلامية المعرفة: ماذا تعني؟

95- الإسلام وضرورة التغيير؟

96- النص الإسلامي بين التاريخية والاجتهاد والجمود.

97- الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية.

98- صلة الإسلام بإصلاح المسيحية للشيخ أمين الخولي - دراسة وتقديم.

99- عن القرآن الكريم؟ للشيخ أمين الخولي - دراسة وتقديم .

100- الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده - دراسة وتحقيق.

101- الإصلاح الديني في القرن العشرين: الشيخ المراغي نموذجا.

102- فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين.

103- اجتهاد الرسول وقضاؤه وفتواه للشيخ جاد الحق على جاد الحق - دراسة وتقديم.

14- شبهات واجابات حول مكانة المرأة في الإسلام.

105- سلامة موسى: اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية؟

106- العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية.

107- عالمنا :حضارة أم حضارات؟؟

108- الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين.

109- السلفية: واحدة...أم سلفيات؟

في مكتبة الامام البخاري سلسلة (ان أريد الا الإصلاح ما استطعت):

110- رفع الملام عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

111- الفارق بين الدعوة والتنصير.

112- علمانية المدفع والإنجيل.

113- صيحة نذير من فتنة التكفير.

114- مقومات الأمن الاجتماعي في الإسلام.

115- في النظام السياسي الإسلامي: الخلافة والدولة المدنية.

116- أضواء على الموقف الشيعي من الصحابة.

117- بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.

118- القدس: أمانة عمر في انتظار صلاح الدين.

119- القرآن يتحدي.

120- تحرير المرأة بين الغرب والإسلام.

121- في فقه المصطلحات.

122- طريق جارودي إلى الإسلام.

123- صورة الإسلام في الخطاب الغربي.

124- الديانات السماوية والحروب الدينية.

125- سلامة موسى: اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية؟

126- الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين.

127- الحضارات العالمية: واحدة أم حضارات؟؟

في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية:

128- شبهات و إجابات حول القرآن الكريم.

129- شبهات واجابات حول مكانة المرأة في الإسلام (ج 1 2 3).

130- دليل الامام الى تجديد الخطاب الديني - وزارة الاوقاف - بالاشتراك مع الآخرين.

131- الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

132- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين.

133- السلف والسلفية.

في مجمع البحوث الإسلامية:

134- ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام - ملحق مجلة الازهر - شهر صفر سنة (1427هـ).

135- رد الأزهر على كتاب ما هي حتمية كفارة المسيح - ملحق مجلة الأزهر - شهر ربيع الأول (1426هـ).

136- الرد على كتاب فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب.

137- تقرير علمي في الرد على المنصرين.

بالاشتراك مع آخرين:

138- قارعة سبتمبر - مكتبة الشروق الدولية سنة 2002م.

139- الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية - الكويت سنة 1989م.

140- القرآن - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1972م.

141- محمد - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1972م.

142- عمر بن الخطاب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1973م.

143- علي بن أبي طالب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1974م.

144- السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ - مكتبة النافذة سنة 2008م.

كتب نفدت.... وأدمج بعضها في كتب أخرى:

145- فجر اليقظة القومية - دار الوحدة بيروت سنة 1984م.

146- العروبة في العصر الحديث - دار الوحدة بيروت سنة 1984م.

147- الأمة العربية وقضية الوحدة - دار الوحدة بيروت سنة 1984م.

148- ثورة الزنج - دار الوحدة بيروت سنة 1980م.

149- دراسات في الوعي بالتاريخ - دار الوحدة بيروت سنة 1980م.

150- الإسلام وقضايا العصر - دار الوحدة بيروت سنة 1984م.

151- التراث في ضوء العقل - دار الوحدة بيروت سنة 1984م.

152- الفريضة الغائبة: عرض وحوار وتقييم - دار الوحدة بيروت سنة 1983م.

153- الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1980م.

154- الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة 1979م.

155- الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية - دار ثابت القاهرة سنة 1982م.

156- في المشروع الحضاري الإسلامي - مركز الراية جدة سنة 2004م.

157- الإمام محمد عبده: مشروع حضاري للإصلاح بالإسلام - مكتبة الإسكندرية سنة 2004م.

158- محمد عبده: سيرته وأعماله - دار القدس بيروت سنة 1978م.

159- نظرة جديدة الى التراث - دار قتيبة دمشق سنة 1988م.

160- القومية العربية ومؤمرات أمريكا ضد وحدة العرب - دار الفكر القاهرة سنة 1958م.

161- ظاهرة القومية في الحضارة العربية - الكويت سنة 1983م.

162- رحلة في عالم الدكتور محمد عمارة - حوار دار الكتاب الحديث - بيروت سنة 1989م.

163- نظرية الخلافة الإسلامية - دار الثقافة الجديدة سنة 1980م.

164- العدل الاجتماعي لعمر بن الخطاب - دار الثقافة الجديدة سنة 1978م.

165- الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب - دار الثقافة الجديدة سنة 1978م.

166- إسرائيل هل هي سامية؟؟ - دار الكاتب العربي سنة 1967م.

167- الإسلام وأصول الحكم دراسات ووثائق - المؤسسة العربية بيروت سنة 1972م.

168- الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب سنة 1997م.

169- المواجهة بين الإسلام والعلمانية مناظرة - دار الآفاق الجديدة القاهرة سنة 1413هـ.

170- تهافت العلمانية مناظرة - دار الآفاق الجديدة القاهرة سنة 1413هـ.

171- الشيخ الشهيد أحمد ياسين وفقه الجهاد على أرض فلسطين - مركز الاعلام العربي 2004م.

172- القدس: أمانة عمر في انتظار صلاح الدين - مركز الاعلام العربي.

173- إسلامية الصراع على القدس وفلسطين - مركز الاعلام العربي.

174- المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد - دار المعارف سنة 1983م.

175- الفكر القائد للثورة الايرانية - دار ثابت سنة 1982م.

في دار السلام:

176- معالم المنهج الإسلامي.

177- المشروع الحضاري الإسلامي.

178- شخصيات لها تاريخ.

179- الإسلام وحقوق الإنسان - ضرورات لا حقوق.

180- قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية.

181- كتاب الاموال لابي عبيد القاسم بن سلام - دراسة وتحقيق.

182- الشيخ محمد الغزالى: الموقع الفكري والمعارك الفكرية.

183- إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات.

184- الدكتور عبد الرازق السنهوري: إسلامية الدولة والمدنية والقانون.

185- أكذوبة الاضطهاد الديني في مصر.

186- فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية.

187- إسلاميات السنهوري باشا.

188- الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ.

189- جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض.

190- المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده.

191- معالم المشروع الحضاري في فكر الإمام الشهيد حسن البنا.

192- محمد المصطفى المعصوم بشر يوحى اليه.

193- رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم.

194- حقائق وشبهات حول القرآن الكريم.

195- حقائق وشبهات حول السنة النبوية.

196- حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان.

197- حقائق وشبهات حول مكانة المرأة في الإسلام.

198- حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم.

199- حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب.

200- حقائق وشبهات حول السنة والشيعة.

201- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية.

202- الإسلام والتعددية: الاختلاف والتنوع في إطار الوحده.

203- الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب.

204- في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام.

205- في فقه الحضارة الإسلامية.

206- الإسلام والسياسة :الرد على شبهات العلمانيين.

207- الطريق الى اليقظة الإسلامية.

208- عمر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الخلفاء الراشدين.

209- الإسلام والآخر: من يعترف بمن ومن ينكر من؟؟

210- العطاء الحضاري للإسلام.

211- قراءة النص الديني بين التاويل الغربي والتاويل الإسلامي.

212- مفهوم الحرية في مذاهب الإسلاميين.

213- مقالات الغلو الديني واللاديني.

214- التراث والمستقبل.

215- معارك العرب ضد الغزاة.

216- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لابن رشد - دراسة وتحقيق.

217- ابن رشد (فقيه الفلاسفة وقيلسوف الفقهاء).

218- مقال في السنن الالهية - الكونية والاجتماعية (رسائل الإصلاح 1).

219- الحل الإسلامي لأزمة الرأسمالية العالمية (رسائل الإصلاح 2).

220- المؤسسية والمؤسسات في الحضارة الإسلامية (رسائل الإصلاح 3).

221- التأويل العبثي للوحي والنبوة والدين (رسائل الإصلاح 4).

222- افتراءات شيعية على البخاري ومسلم (رسائل الإصلاح 5).

223- افتراءات شيعية على عمر بن الخطاب (رسائل الإصلاح 6).

224- القدس الشريف في الدين والتاريخ والأساطير(رسائل الإصلاح 7).

225- ثورة 25 يناير وكسر حاجز الخوف (رسائل الإصلاح 8).

226- أضواء على محاورات الشيخ الغزالي (رسائل الإصلاح 9).

227- مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية (رسائل الإصلاح 10).

228- إحياء الخلافة الإسلامية حقيقية أم خيال؟! (رسائل الإصلاح 11).

229- الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر (رسائل الإصلاح 12).

230- الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية (رسائل الإصلاح 13).

231- الشيخ البشير الابراهيمي إمام في مدرسة الأئمة (رسائل الإصلاح 14).

232- الشيخ شلتوت إمام في الاجتهاد والتجديد (رسائل الإصلاح 15).

233- الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين (رسائل الإصلاح 16).

234- الدين والدولة في الإسلام لفقيه الشريعة والقانون الدكتور عبد الرازق السنهوري (رسائل الإصلاح 17).

235- الإسلام والأقليات :الماضي والحاضر والمستقبل (رسائل الإصلاح 18).

236- الدين والدولة شهادات غربية (رسائل الإصلاح 19).

237- الإسلام والديانات الأخري (رسائل الإصلاح 20).

238- احترام المقدسات بين الإسلام والآخر(رسائل الإصلاح 21).

239- خيرية الأمة الإسلامية :شروط مكتسبة لا عنصرية موروثة (رسائل الإصلاح 22).

240- الإسلام والحضارة (رسائل الإصلاح 23).

241- أسباب انتشار الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح 24).

242- عوامل امتياز الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح 25).

243- عوامل تفوق الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح 26).

244- الإسلام والحضارات الاخري (رسائل الإصلاح 27).

245- حوار الإسلام والعلمانية (رسائل الإصلاح 28).

246- السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية للعلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف - دراسة وتحقيق (رسائل الإصلاح 29).

247- محمد الرسول السياسي (رسائل الإصلاح 30).

248- السلفية (رسائل الإصلاح 31).

249- أمريكا..... هل هى شعب الله المختار (رسائل الإصلاح 32).

250- أثر القرآن في تحرير الفكر البشري (رسائل الإصلاح 33).

251- الأزهر والشيعة.

252- مدخل الى السياسة الشرعية (دراسة وتحقيق).

253- ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين (دراسة وتحقيق).

254- الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (دراسة وتحقيق).

255- السياسة الشرعية والفقه الإسلامي - للشيخ عبد الرحمن تاج - تقديم وتعليق.

256- حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية.

في مكتبة وهبة:

257- من يحمي المسيحين العرب: الغرب أم الإسلام؟

258- الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات.

259- الاستغلال الأمريكي للأقليات.

260- مقام العقل عند الصوفية.

261- مقام العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

262- الفارق بين الدعوة والتنصير.

263- العلمانية بين الغرب والإسلام.

264- خطر النزعة التاريخية.

265- السلف والسلفية.

266- أشهر مناظرات القرن العشرين جـ 1, 2.

267- الأنبياء في القرآن والكتاب المقدس.

268- الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكاني.

269- هل في القرآن تناقضات؟؟

270- التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية.

271- الفتنة الطائفية: متى وكيف ولماذا؟

272- مقال في التحذير من التكفير.

273- الفاتيكان والإسلام: أهى حماقة أم عداء له تاريخ؟

274- في المسألة القبطية حقائق وأوهام.

في دار المعارف:

275- القرآن يتحدي.

276- تحرير المرأة بين الغرب والإسلام.

277- صورة الإسلام في الخطاب الغربي.

278- مقومات الأمن الاجتماعي في الإسلام.

279- في النظام السياسي الإسلامي.

280- أضواء على الموقف الشيعي من الصحابة.

281- سلامة موسى: اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية.

282- علمانية المدفع والإنجيل.

283- في فقه المصطلحات.

284- الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين.

285- طريق جارودي إلى الإسلام.

286- عالمنا حضارة أم حضارات.

287- صورتان متضادتان عند السنة والشيعة.

288- الخطوط العريضة لدين الشيعة.

289- في الرد على الماديين.

290- الجهاد دفاعا عن الإسلام.

291- ضلالة فصل الدين عن السياسة.

292- بني الإسلام في مرآة الفكر الغربي.

293- التشيع الفارسي المعاصر - مركز الاعلام العربي سنة 2015م.

دار الفكر العربي:

294- طه حسين - من الانبهار بالغرب الى الانتصار للإسلام (سلسة هذا هو الإسلام).

295- الأدلة المادية على وجود الله الشيخ الشعراوي - دراسة وتقديم.

296- حوار الإيمان والإلحاد - دراسة وتحقيق.

297- لماذا أنا مسلم، الشيخ عبد المتعال الصعيدي - دراسة وتحقيق.

نيوبوك للنشر والتوزيع:

298- روائع ابن تيمية.

299- دراسات عن القرآن الكريم.

300- دفاع عن القرآن ضد منتقديه.

301- دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره.

302- روائع الشيخ الشعراوي.

دار البشير:

303- الفتوحات الإسلامية: تحرير.. أم تدبير؟

304- ظاهرة الإسلاموفوبيا: الجذور التاريخية والنهايات المنتظرة.

305- وسطية الإسلام.

306- بماذا تقدم الأوروبيون وتأخرنا؟

307- الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

308- حقيقة الإسلام وأصول الحكم.

مفكرون للنشر والتوزيع:

309- معالم المشروع الحضاري في فكر الشيخ الغزالي - مع سيرته الذاتية.

310- الوشيعة في نقص عقائد الشيعة.

311- التشيع الفارسي المعاصر - خفايا المؤامرة.

312- نظرات في الإسلام - دراسة وتقديم.

313- العلمانية في ميزان الإسلام.

314- بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني - دراسة وتقديم.

315- الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان - دراسة وتقديم.

316- حاجة الإنسان إلى الدين - دراسة وتقديم.

317- محمد الرسالة والرسول - دراسة وتقديم.

318- امتياز المرأة على الرجل في الميراث النفقة - دراسة وتقديم.

319- القدس بين اليهودية والإسلام.

320- في التعامل مع القرآن الكريم - منهج وتطبيقه - دراسة وتقديم.

321- التشريع الإسلامي وأثر في الفقه الغربي - دراسة وتقديم.

322- الاجتهاد - للشيخ المراغي - دراسة وتقديم.

323- إسلاميات الدكتور نظمي لوقا - دراسة وتقديم.

روابط:

324- موسوعة روائع الكتب الإسلامية، جـ1، 2، 3، 4.

325- موسوعة الإسلام وقضايا العصر - جـ1، 2، 3.